

مكتبة الدراسات الأدبية (1)

تأريخ القدامى للشعر إلى نهاية القرن الرابع مدونة المرزباني أنموذجاً

د. محمد بن حمود حبيبي

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه
من كلية الآداب في جامعة الملك سعود بالرياض عام 2004م.

الطبعة الأولى: 2020

© حقوق الطبع محفوظة



هاتف 00971506612654، ص.ب: 12140

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

MalamihP-D@hotmail.com

Twitter: @malamihpublish1

تنفيذ وإخراج

الدرا لفريد للنشر والتوزيع، ص.ب: 114114 أبوظبي

aldurralfarid@gmail.com

تصميم الغلاف

twitter: @tooq_designs

إذن طباعة رقم: (MC-02-01-0374861)

الترقيم الدولي للكتاب (ISBN): (978-9948-33-570-9)

التصنيف العمري: (E). تم تحديد وتصنيف الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً للتصنيف

العمرى الصادر عن المجلس الوطنى للإعلام فى دولة الإمارات.

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن رأى المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأى الناشر.

تأريخ القدامى للشعر

مكتبة الدراسات الأدبية

إحدى سلاسل الإصدارات التي تضطلع بها دار ملامح للنشر والتوزيع، ولاسيما الأطروحات الجامعية من الجامعات المعتمدة، وتشمل الأدب العربي القديم والحديث، والنقد الأدبي القديم والحديث، والبلاغة العربية قديمها وحديثها، والعروض العربي بوصفه موسيقى الشعر العربي. وتعنى هذه السلسلة بالدراسات الجادة التي تتضح فيها استفادة باحثيها من المناهج الحديثة، وطرائق القدماء في تناول النص الأدبي والنقدي وتوثيقه، ومنج هذه الاستفادة بما يثري الرؤية العلمية للباحث في كتابه.

وتأمل الدار أن تحقق هذه السلسلة ما تصبو إليه من إثراء الثقافة العربية في هذه الحقول، بما تبرز بها أصالتها وجديد كتابها ومؤلفيها.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

إهداء

إلى والديّ اللذين حقّا هذا العمل برفيف دعواتهما

مقدمة الطبعة الثانية

كلما عدت لهذا العمل الذي طبع للمرة الأولى عام 2012 عن نادي الإمارات للتراث مشكورين؛ وددت لو أنه يعاد طبعه مرة أخرى في طبعة مزيدة بما تم اختصاره من ملاحق مهمة خلت منها الطبعة الأولى. ووددت أيضا لو أنه يحظى بتوزيع على أوسع نطاق؛ في عالمنا العربي. فهذا الكتاب يحاول إزاحة الستار وإعادة ترميم معالم واحد من أهم مشاريع تدوين تاريخ الشعر العربي القديم. فهو يكشف ويجلي مدى الجهد والجلد الذي الذي كان يبذل في توثيق التاريخ الشعري. وبخاصة مدونة المرزباني التي تصدت لذلك إلى نهاية القرن الرابع الهجري؛ وهي القرون التي شهدت أزهى عصور الشعر العربي وأعظم الأسماء الشعرية به، وما رافقها من ظهور المصنفات النقدية والتأريخية المتنوعة التي تسلط الضوء على الشعر والشعراء. ولا سيما مدونة المرزباني التأريخية للشعر التي تقارب العشرين مؤلفا مختصا بالشعر والشعراء، استقصى فيها القديم من الجاهليين والمخضرمين وصولا إلى المحدثين من الشعراء العباسيين، مخصصا لكل فئة كتابا؛ مستقصيا المهمل والمعروف، والمشهور والمغمور، والمقل والمكثر من الشعراء والشاعرات، ومن كتب الشعر من العلماء والخلفاء، وما كُتب ورؤي من أخبار عن الشعر والشعراء، مفردا لكل جانب مصنفا مستقلا بهذا الجانب، مما يهتم هذا البحث بالكشف عنه، ويطول الحديث فيه بهذه المقدمة، وأوجز بعض من أهميته في مقدمة البحث.

لقد اكتفتني مشاعر الغبطة فور علمي بالمبادرة النبيلة التي تهدف إلى إعادة طبع هذا الكتاب مع مجموعة من الكتب في طبعات جديدة تسهل على الباحثين اقتناءها والاطلاع عليها عن كثب. عليه أتقدم بخالص الشكر والامتنان والتقدير للقائمين على هذه المبادرة، ولا سيما (دار ملامح) التي تصدت لهذه

المبادرة المهمة. داعيا الله لهم بالتوفيق في هذا المشروع النبيل الهادف إلى خدمة
تراثنا، وراجيا من الله الفائدة لكل من سيتسنى له الاطلاع على هذا الكتاب
وعلى غيره من باقي سلسلة كتب دار ملامح، والله الموفق.

د. محمد بن حمود حبيبي

السعودية، جازان، ضمد

مقدمة البحث

يُعَدُّ التأريخُ للأدب والشعر من أهم الموضوعات التي ينبغي مراجعتها، والنظر فيها باستمرار؛ إذ هو الموضوع الذي تنضوي تحته مجمل الموضوعات المتعلقة بالأدب، وتتفرع عنه أغلب تصورات الدراسات القديمة والحديثة.

ويجد القارئ لتاريخ الأدب العربي ومن ضمنه الشعر أن التصور المستقى عن التأريخ له ظل مرتبطاً بجهود المستشرقين وما انبثق عنها من أطروحات لدى طلائع الدارسين العرب من المؤرخين المحدثين للأدب العربي.

فكان هذا الارتباط واستمرار تصور تاريخ الشعر العربي من خلال المفهوم الحديث مثيراً للانتباه، ومن ثم للتساؤل: إلى أي مدى وُجِدَتْ هذه الفكرة. فكرة التأريخ للأدب والشعر العربي لدى القدامى أنفسهم؟ وفي حالة وجود جهود في هذا المجال، فإلى أي حد تتفق تلك الجهود أو تختلف عن منطلقات الدرس التاريخي الحديث؟

من هنا كان هذا التساؤل باعثاً على البحث عن أنموذج تنطبق عليه سمة المشروع الذي يتحقق من خلاله مقارنة مفهوم التأريخ للشعر عند القدامى. بغية التعرف على طرائق تعاملهم معه، وكيفية سردهم له، وأسس نظرتهم إلى هذا النوع من المعرفة.

ونظراً لامتداد تاريخ الأدب العربي وسعة المؤلفات فيه؛ كان تركيز أنموذج هذا البحث في أعمال المرزباني (ت384هـ). إذ تُعد جهوده من أظهر الجهود المؤلفة في الشعر والشعراء؛ في وضوح الغاية من التأريخ للشعر لديه في مجمل مؤلفاته. حيث تميزت مدونته التأليفية بعدة سمات ميزتها عن جهود غيره. يأتي في مقدمتها القصديّة؛ وكثرة المؤلفات، وطابع الموسوعية وحسن التنظيم والتبويب. وهو ما يميزه ويغيب في الوقت نفسه عند أقرب منافسيه ومعاصريه أبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني.

فعلى صعيد ما وصل إلينا من كتب المرزباني المتداولة المحققة المطبوعة. نجد المعنيّ منها بالتأريخ الموسوعي للشعراء؛ كتابي: (معجم الشعراء)، و(أشعار النساء)، ونجد منها عدداً من المؤلفات الأخرى التي تؤرخ للشعر بالتأريخ لتلقيه: ككتابي:

(الموشح)، و(المقتبس في أخبار العلماء). إلى جانب ظهور بعض المؤلفات المفردة في سير بعض الشعراء ككتاب (أخبار السيد الحميري)، و(أخبار عبد الصمد بن المعذل).

وعلى صعيد ما اندثر من كتبه ولم يصل إلينا مباشرة؛ وإنما تارة عبر إشارات إليها بنفسه في ثنايا كتاباته نجد إشارات إلى كتاب (المستنير في أخبار الشعراء المحدثين المشهورين)، وإشارات إلى كتاب (المفيد في أخبار الشعراء المقلين والمغمورين وذكر كناههم وألقابهم ودياناتهم ومن ترك الشعر منهم ومن أفرغ شعره في غرض واحد)، وكتاب (الشعر محاسنه وعيوبه وسرقات معانيه وآداب منشديه وقائليه).

وعلى صعيد ما لم يذكره وذكره مؤلفو كتب التراجم عن مصنفاته الأخرى في الشعر والشعراء، نجد إشاراتهم لكتاب (الموثق في أخبار الشعراء الجاهليين والإسلاميين المشهورين)، وكتاب (الرياض في أخبار المتيمين من الشعراء)، وكتاب (أشعار الخلفاء)، و(أشعار الجن المتمثل بشعرهم). وغير ذلك من المؤلفات.

وبالرغم من هذه العناية الكبيرة بالتأريخ للشعر العربي في القرن الرابع من قبل المرزباني من خلال ثبوت ما أنجزه من مؤلفات موسوعية؛ إلا أن مشروعه في التأريخ للشعر العربي، ظل مغموراً؛ ولم ينل حقه من الدرس؛ بسبب ضياع معظم مؤلفاته؛ وعدم وصولها إلينا، ومن ثم اقترن جهده واسمه فحسب؛ بكتابه الشهيرين (معجم الشعراء؛ والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) لهذه الأسباب تأتي أهمية دراسة التأريخ للشعر عند القدامى إلى نهاية القرن الرابع الهجري؛ مدونة المرزباني أنموذجاً. لما تكشف عنه من أنموذج مشروع تأريخي شبه مكتمل للشعر العربي.

د. محمد بن حمود حبيبي

السعودية، جازان ضم

18 / 05 / 2012م

تمهيد

التأريخ للشعر عند القدامى

أولاً: تأريخ القدامى للشعر في دراسات المحدثين

اقترن استخدام المنهج التاريخي في دراسة الأدب ببداية القرن التاسع عشر. فقد شهدت أوروبا في تلك الحقبة تغييرات في المناحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية كافة. «وبدأت المعارف تستقل بموضوعاتها ومجالاتها ولغاتها؛ بحيث كان المبدأ التنظيمي والتصنيفي هو السمة الغالبة على تلك المجالات، ولحق ذلك الفعل المجال الأدبي أيضاً»⁽¹⁾. لذلك كان تطبيق المنهج التاريخي على دراسة التراث الأدبي الأوربي في تلك الفترة منسجماً مع الروح العلمية السائدة، وتطلعات الأمم الأوربية الناهضة التي سعت إلى التأريخ لأدائها القومية.

أما تطبيقه على الأدب العربي فكان عن طريق المستشرقين. وأول من قام بمحاولة تقديم تاريخ الأدب العربي في عرض كامل هو يوسف هامر بوجستال⁽²⁾.

وعلى إثر هذه الأعمال تتابعت مؤلفات الدارسين العرب المحدثين التي عد منها بروكلمان أربعة وعشرين مؤلفاً، مشيراً إلى أنه ليس باستطاعته ذكر كل الأعمال، وإنما بعضها⁽³⁾. ولقد كثرت مؤلفات العرب في هذا الموضوع حتى غدا ظاهرة بارزة⁽⁴⁾. مما

(1) مفهوم تاريخ الأدب بين التصور العربي القديم والتصور الأوروبي الحديث، أحمد بوحسن [منشور ضمن] انتقال النظريات والمفاهيم، كلية الآداب بالرباط [سلسلة] ندوات ومناظرات: (76) 1999، ص 36.

(2) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، تعريب عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط 5، ج 1، ص 32.

(3) (تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان ص 33-35.

(4) علق حسين الواد على الظاهرة قائلاً إنها: «من أشد الظواهر بروزاً في إنتاج العرب الفكري طيلة العصر الحديث» في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1993، ص 2، ص 7.

حدا عبد المجيد حنون إلى تعقب أثر المنهج التاريخي من خلال رائده «الانسون» على رواد النقد العربي الحديث⁽¹⁾.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي عولت على المنهج التاريخي في دراسة الأدب فإن المنهج التاريخي ما لبث أن عورض بانتقادات لازعة⁽²⁾، وتوجهات هدفت إلى إعادة النظر في وسائله وأسس، خصوصاً بعد أن ظهرت طرائق جديدة للبحث في الحقول المعرفية التي أفاد منها دارسو الأدب، كعلم الاجتماع، وعلم اللغة، ونظريات التواصل والتلقي⁽³⁾.

وعلى الصعيد العربي ظهرت دراسات تراجع أعمال الدارسين العرب المؤرخة للأدب والنقد، ولا سيما تلك التي لاقت رواجاً وانتشاراً أثراً على أجيال من الباحثين. فناقشت مفاهيمها وأسسها التي بنيت عليها، والظروف والعوامل المتداخلة التي

(1) اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، عبد المجيد حنون، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996.

(2) ختم تودوروف مقالة له بقوله: «التاريخ الأدبي، الشعبة الأقدم من بين مواد الدراسات الأدبية التي تظهر اليوم بمظهر مهين». انظر: «تاريخ الأدب»، تزفيتان تودوروف، ترجمة جواد الراي، نوافذ، النادي الأدبي بجدة، جدة، شعبان، 1420 ع، ص 17.

- انطلق ياوس في نظريته «التلقي» لتصحيح مسار التاريخ الأدبي بعد السمعة السيئة التي أصبح عليها. انظر: نظرية التلقي، روبرت هولب، ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي بجدة، جدة 1415، ص 143.

(3) للنظر في مزيد من الانتقادات والمقترحات الموجهة إلى المنهج التاريخي، انظر: - النقد والتاريخ، دراسة في نشأة تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد الرحمن المساوي، دار ويلي، مراكش 1996. ملخص مقالة رولان بارت تاريخ أم أدب ص 75 - 82. وملخص مداخلة جيرار جينيت الشعرية والتاريخ ص 88 - 104.

- الثقافة الأجنبية، بغداد، ع 1، شتاء 1983، محور (طرق ونظريات كتابة تاريخ الأدب) مجموعة من الباحثين، ص 38 - 123.

- الآداب الأجنبية، دمشق، ع 74، س 19، ربيع 1993 (وقفة مع نظرية التاريخ الأدبي) مارشال براون، ترجمة رباب ناصيف ص (157173).

تزامنت مع ظهور تلك الأعمال⁽¹⁾. كما تعرضت للجدل الذي دار بين أصحابها تجاه منهج «تاريخ الأدب»، الذي عدوه وقتها علماً جديداً؛ مما جعلهم يحاولون تمييزه من كتب التراجم والطبقات القديمة ويهتمون بتخليص مؤلفاتهم مما قد تُرمى به من نقل عن المستشرقين⁽²⁾. وقد كان منهم من صرح برأيه تجاه المؤلفات القديمة التي يمكن أن تحمل شيئاً من ذلك المنهج، وخصوصاً كتب التراجم والطبقات؛ إذ «أكد [زيدان] أن كتب التراجم لا يصح أن تسمى تاريخاً لأدب اللغة بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم، وعلل [الزيات] هذه الفكرة بقوله إنها: أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب ولا تذكر ما عرا النظم والنثر من تحول وتقلب»⁽³⁾.

في ضوء هذه التوجهات - إعادة النظر في المنهج التاريخي، وزيادة المستشرقين لتأريخ الأدب العربي، والظروف التي ظهرت فيها التواريخ العربية الحديثة - يأتي القيام بهذه المحاولة لمراجعة تأريخ القدامى للشعر. وقبل الشروع في هذه المحاولة ينبغي مراجعة فكرة التأريخ للأدب عند القدامى في ضوء ما وصف به تأريخ الأدب من أنه منهج حديث، أو «علم جديد» بحسب تصور زيدان والزيات. ثم ما آل إليه

(1) من هذه الدراسات:

أ - في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، في هذه الدراسة اختار الباحث أربعة من الأعمال المؤرخة للأدب العربي. بالنظر إلى توزيع العمل فيها إلى ثلاث مدارس (مدرسة التأريخ للأدب العربي حسب العصور الزمنية) وهي المدرسة الغالبة ويمثلها عملاقان هما: تاريخ آداب العربية، لجورجي زيدان، وتاريخ الأدب العربي، لأحمد الزيات، ومدرسة التأريخ للأدب بحسب أغراضه وموضوعاته ويمكن أن يندرج فيها: تاريخ آداب العرب، للرافعي، ومدرسة التأريخ للأدب بحسب مدارسه الفنية: في الأدب الجاهلي، لطف حسين.

ب - النقد والتاريخ، دراسة في نشأة تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد الرحمن المساوي، وهي دراسة لأنموذج طه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري.

(2) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص (128).

(3) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد ص 127.

ذلك التصور لدى الدارسين المتأخرين في ضوء التوجهات المشار إليها آنفاً، ولا سيما إعادة النظر في منهج تاريخ الأدب.

تأريخ القدامى للشعر في الدراسات الحديثة:

لا توجد إلى الآن، في حدود علمنا، دراسات مختصة عنيت بتفصيل موضوع تأريخ القدامى للشعر مستقلاً؛ فالدراسات الموجودة تعرضت للموضوع جزئياً. أو أن تناول المستقل بالموضوع يقتصر على أحد جوانبه. وسنعرض فيما يلي لأهم الدراسات التي تطرقت للموضوع ومنها:

1 مفهوم تاريخ الأدب بين التصور العربي القديم والتصور العربي الحديث⁽¹⁾:

وهو بحث يناقش المفهوم العربي القديم قبل القرن التاسع عشر مقارنة بالمفهوم الحديث الذي طبقه المستشرقون على الأدب العربي القديم، ومن تابعهم من الدارسين العرب المحدثين.

استعرض الباحث أسماء كتب عربية قديمة تمثل تاريخ الأدب العربي القديم متنبهاً إلى أنه لم يرد فيها مصطلح تاريخ الأدب، لكن التأليف في الأدب وتاريخه كان فعلاً ونشاطاً موجوداً بتصوره العربي القديم فيها. واتخذ من الأغاني أنموذجاً لتلك الكتب، بحث من خلاله مفهوم تاريخ الأدب في تصوره العربي القديم. والنتيجة التي توصل إليها أن خطة الأغاني لا تعتمد على التحقيق السياسي أو الزمني وإنما تعتمد على قيمتي: تداول الشعر، والإحساس بجماله. فكلما كان الشعر جيداً يطرب الناس، ويجد استحساناً لديهم، وتقدم فيه ألحان جيدة مشهورة كان يخص بالأولوية في التقديم دون النظر إلى زمان صاحبه، أي أسبقيته الزمنية. وبهذا تتداخل في كتاب الأغاني الأزمنة العربية: الجاهلي، والإسلامي، والأموي، والعباسي دون مراعاة لهذا الترتيب التاريخي المعروف⁽²⁾.

انتهى البحث إلى وجود تصور قديم لمفهوم تاريخ الأدب لدى القدماء وهو أساس

(1) مفهوم تاريخ الأدب بين التصور العربي القديم والتصور الأوربي الحديث، أحمد بوحسن، ص (29-43).

(2) مفهوم تاريخ الأدب بين التصور العربي القديم والتصور الأوربي الحديث، أحمد بوحسن، ص 35.

مهم لبحثنا، لكن دون تفصيل لطبيعة ذلك التصور، وتجلياته التي كان عليها في كتاب الأغاني. كما أنه لم يعرض للمفهوم بتصوره في الكتب الأخرى التي سبقت كتاب الأغاني وإنما ذكر حكماً عاماً عنها هو أن مفهوم تاريخ الأدب فيها لم يكن مرتبطاً غالباً بالتحقيب السياسي أو الزمني.

2- النقد الأدبي الإخباري، من خلال أصوله العربية:

فصل من كتاب النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة. حميد لحداني، وهو كتاب معني في أغلب أجزائه بواقع النقد التاريخي في العصر الحديث وبخاصة تطبيقاته على الفن الروائي.

قدم الباحث نماذج محللة لكيفية حضور التأريخ في الكتب النقدية القديمة التي عرض لها وعن تجاوزه مع المستويات الفنية والأدبية الأخرى. موضحاً هيمنته وحضوره الغالب عليها، فأبرز أولاً أهمية التأريخ عند العرب وأنه العلم الأكبر الذي يحتوي العلوم كافة، وأنه بمثابة الفلسفة اليونانية القديمة التي كانت تحتضن كل التخصصات. ثم عرض للكتب النقدية بدءاً بطبقات فحول الشعراء لابن سلام، وصولاً إلى الوساطة للجرجاني. وقال: إن الحس التاريخي لدى ابن سلام يتجلى من خلال استحضاره النص في مناسبته غالباً، ومن خلال كون الممارسة النقدية التاريخية لديه تتضمن، إلى جانب الصيغة الإخبارية المهيمنة، التفسير التاريخي والبيئي، والعناصر البيوغرافية، والمعطيات الاجتماعية، والذوق، والمقياس اللغوي، والمقارنة، وتحقيق النصوص⁽¹⁾. أما ابن قتيبة فيأخذ المنهج التاريخي الإخباري، على يديه، صورته المكتملة الأولى، وبداية انتقال هذا المنهج من الممارسة العفوية إلى الوعي النسبي بالخطوات المتبعة في هذه الممارسة نفسها من خلال ما ورد في مقدمته. وأما النزعة التاريخية لديه فجعلته يتجه إلى الأشعار، وصحة رواياتها، وسلامة لغتها من عيوب الشعر لأنه عالم موسوعي وناقد⁽²⁾. بخلاف النزعة التاريخية لدى ابن

(1) النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني ص 64.

(2) النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني ص 64-68.

المعتز الذي يهتم في المقام الأول باختيار أخبار الشعراء لإعطاء الصورة المتكاملة عن الشخصية المبدعة⁽¹⁾. وينتهي الباحث إلى نتائج من أهمها: أنه لا يوجد في تاريخ النقد العربي القديم اتجاه تاريخي صرف؛ إذ يشترك في تفسير الظاهرة الأدبية عناصر متعددة⁽²⁾.

تقدم هذه الدراسة ملمحين في التعامل التاريخي في كتب الأدب القديم هما: اختلاف تناول التاريخي بين المؤلفين، وتنامي الوعي به. ولئن كشفت هذه الدراسة عن هذين الملمحين فلقد فتحت الطريق للتركيز عليهما، بالإضافة إليهما، والوقوف على تفاصيل التعامل التاريخي الذي دلت هذه الدراسة على غناه في كتب التراث الأدبي.

3- المنهج التاريخي في كتاب النقد الأدبي: أصوله ومناهجه⁽³⁾:

إذ نجد فيه أكثر الإشارات تطرقاً لما حفلت به مؤلفات القدامى من أمور وصفت بأنها تقع في صميم المنهج. فقد أشار المؤلف إلى ولادة المنهج في النقد العربي ومعاصرته للمنهج الفني، وتلبس كل منهما بالآخر بدءاً بظهوره «السادج» في مرحلة التدوق في العصر الجاهلي، وصدر الإسلام، فأوليياته في مرحلة التدوين، من خلال تدوين النصوص، وتجميع ما قيل في مسألة خاصة كالعصا والبخل والبيان وغيرها من الموضوعات التي جمع الجاحظ ما قيل فيها⁽⁴⁾. بعد ذلك أشار إلى ثلاثة أنماط من المؤلفين يجمعهم الاستطراد والمزج، بعضهم سار على منوال الجاحظ في الجمع، كالمبرد في الكامل، وابن قتيبة في عيون الأخبار، والحصري في زهر الآداب. وبعضهم أراد التخصص في النقد كابن قتيبة والآمدي والجرجاني وأبي هلال وابن رشيق. ويهمننا هنا النمط الثالث ممن تخصصوا في الرواية كأبي علي القالي في الأمالي، وابن عبد ربه

(1) النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني، ص 68-70.

(2) النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني ص 76.

(3) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت، ط 5، 1403، ص 153.

(4) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 153.

في العقد الفريد، وأبي الفرج الأصفهاني في الأغاني، والشعالبي في يتيمة الدهر. فهؤلاء كان المنهج التاريخي أوضح لديهم، ولا سيما في كتاب الأغاني الذي «يثبت النصوص ويرويها مسلسلًا عن الرواة، ويصحح بعض الروايات ويضعف البعض، ويذكر مناسبات النصوص وما يدور حولها من حوادث وروايات، ويعرّف بالشاعر وطبقته ومزاجه وكل هذا من صميم المنهج التاريخي»⁽¹⁾.

يتوقف الطرح السابق أمام أربعة أمور مهمة؛ أولها: تنبيهه لدور الجاحظ في لفت أنظار المؤلفين إلى السياق التاريخي للموضوعات التي اهتم بجمع مادتها. وثانيها: إشارته إلى وضوح العمل التاريخي لدى من أسماهم المؤلفين الرواة أكثر من غيرهم. وثالثها: تحقيق الوثائق التاريخية المتمثل في تتبع سلاسل الرواة، والتأكد من صحة رواية الخبر، وتعضيده بالروايات الأخرى، والمقابلة بين الروايات، وما يتبع ذلك من عمليات ترجيح، أو تجريح، أو تصويب. ووصفه ذلك بأنه يقع في صميم المنهج التاريخي. ورابعها: تمازج المنهجين الفني والتاريخي في أعمال القدماء.

4- النقد الأدبي والتاريخ الأدبي:

وهو الفصل الأول من كتاب محمد مندور النقد المنهجي عند العرب، ويرى فيه أن ابن سلام الجمحي وابن قتيبة اتخذوا من النقد الأدبي أساساً من أسس التاريخ الأدبي، بل الأساس الجوهرية؛ لما وضع في تبويب الأدب عندهما من اتخاذ الأسس النقدية فيصلاً في ذلك⁽²⁾. فعمد إلى استخلاص تلك الأسس ولا سيما عند ابن سلام. وتوصل إلى حكمين عامين عن النقد والتأريخ للأدب عند العرب. فالأول انتهى النقد به إلى النضوج والأخذ بالمذاهب الصحيحة في التأليف والمناقشة في العرض. أما التاريخ للأدب فقد «ظل متخلفاً، شأنه شأن التاريخ العام كما دونه مؤرخو العرب، فهو أقرب إلى المادة الأولية ومصادر التاريخ منه إلى التاريخ بالمعنى الذي نفهمه اليوم»⁽³⁾. ويهمننا

(1) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 154.

(2) النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، (د. ت)، ص 12.

(3) النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، ص 27.

مما تعرض له مندور وُصف كتاب ابن سلام بأنه أول كتاب ألف في تاريخ الأدب العربي، وأنه صدر فيه عن منهج واضح ومبدأ في التأليف. ورأيه حول العصور التي تظهر فيها الحاجة لتاريخ الأدب؛ إذ رأى أن التاريخ للأدب يتم على نحو أكثر تنظيماً في العصور المتأخرة وتحديدًا في العصر العباسي. وقد استنبط ذلك من القياس على ما يتم عادة لدى الأمم التي يكون لديها تراث أدبي فتحس بالحاجة إلى مراجعته عند تراخي الزمن بعهد إنتاجه الحقيقي، ولا سيما في عصور انحلال الأدب عندما تتسع مدارك العقول لاستيعاب التفكير في الكليات وذلك ما حدث في التاريخ للأدب اليوناني الذي أرخ له في عصر الإسكندرية، وكذلك الشأن عند العرب⁽¹⁾.

5- مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي:

وهي دراسة لشكري فيصل عرض فيها للتاريخ الأدبي ومناهجه فيما خلفه الأقدمون. فرأى أن بعض المحاولات لا تفصح عن ألوان مختلفة في البحث ومناهج متباينة في التاريخ، بينما يمكن الظفر «بألوان جديدة من البحث لعلها أكثر تحديداً وأشد ضبطاً، ولعلها أدنى إلى التجديد وأقرب إلى الدراسة الحقة، ولعل أبرع هذه المحاولات وأدعاها إلى الإعجاب هي تلك التي أراد بها أصحابها التأريخ للأدب العربي وفق مذاهبه الفنية التي سيطرت عليه»⁽²⁾. مشيراً إلى محاولتي المرزباني وابن رشيق في تصنيف الشعراء بحسب المدارس الفنية، وأن المرزباني من أول النقاد الذين لمحو المدارس الأدبية لمحا خفيفاً من دون عمد إلى الترتيب الزمني؛ بل قسم الشعراء وفق المدارس الشعرية الكبرى التي اقتسمت الشعر العربي، المدرسة الجاهلية والإسلامية والمحدثة⁽³⁾. وأتى من بعده ابن رشيق الذي لم يستقر على فكرة معينة في تصنيف الشعراء، لكن يمكن الاستنتاج من إلمحاته إلى أن المذاهب الفنية يصح

(1) النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، (بتصرف) ص15.

(2) مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، عرض، ونقد، واقتراح، شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1406، ص134.

(3) مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، شكري فيصل، ص134-135.

أن تعتمد أساساً في قسمة الشعراء ودراسة الأدب.

إن دراسة فيصل من خلال ما يوجي به موضوعها من أقرب الدراسات لموضوعنا، لكن عرضه للمناهج القديمة على نحو مجمل، لأسباب متعلقة بالفترة الزمنية لبحثه، يجعلنا نقف عند ما يهمنا، وهو وجود مناهج وأنواع من التأريخ لدى القدماء بغض النظر عما رآه من تحقق التنوع أو التباين.

6- آفاق التأريخ للظاهرة الأدبية:

وهو محور ختم به حسين الواد دراسته للمفاهيم والمناهج التي عمل بها مؤرخو الأدب العربي في العصر الحديث، فقد أشار في ختامها إلى الآفاق الجديدة التي ينبغي أن يهتم بها المتصدون لتأريخ الظاهرة الأدبية. وهي ما تتجه إليها اليوم أبحاث كثيرة كلما تعلق الأمر بالتأريخ للظاهرة الأدبية⁽¹⁾. والذي لفت نظرنا تنبيهه في إشاراتة تلك إلى أن بعضاً منها قد وجد في اهتمامات المؤرخين القدماء. فذكر أن مما على المؤرخ الاهتمام به النظام التربوي⁽²⁾ الذي فطن القدامى لما كان يضطلع به من دور في نشأة الآداب أو رقيها أو تقهقرها، حينما كانوا يفردون مكاناً في تراجم أعلامهم للشيوخ الذين تلقوا عنهم، وأنواع المعارف التي لقنوها، أو في تعرضهم لذلك أحياناً في مقدمات كتبهم التي يمهّدون بها للعصور التي يتناولونها، وبذلك حاولوا أن يصلوا بين الأدباء وبين إنتاجهم. ومن ذلك أيضاً الاهتمام بتأثير الأدب بالمجتمع وتأثيره فيه فقد «فهم الباحثون القدامى هذا التأثير أو ذلك التأثير على أنه نتيجة من نتائج تلك العلاقات الخارجية التي يتعهدّها النظامان المستقلان الأدبي والاجتماعي. لذلك انصبت عنايتهم، في تناول هذه القضية، على طبيعة الصورة التي يقدمها الأدب للمجتمع»⁽³⁾. ومما أشار إليه الباحث اهتمام القدامى بالنصوص الأدبية⁽⁴⁾ وأهميتها

(1) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 295.

(2) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 305.

(3) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 306.

(4) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 314.

في مفهوم الأدب، وعنايتهم الكبيرة بالمؤلفين إلى الحد الذي جعل عدداً من آثارهم تنصرف إلى التراجم وتواريخ الرجال⁽¹⁾.

7- تاريخ الأدب واتجاهاته:

وهو مبحث يتناول فيه الر بداوي⁽²⁾ نمط التأليف الحديث في كتب تاريخ الأدب، مقارنة بمنهج العرب الأقدمين. الذين لم يكن منهمجهم - في رأيه - مماثلاً لما عرفه المحدثون على الرغم من العناية الشديدة التي أولاها الأقدمون للأدب من تدوين وترجمة لرجاله. ويعلل ذلك بأن عنايتهم تلك لم تقم على التوزيع التاريخي المفصل الذي يجعل عصور الأدب تصل إلى ستة عصور أحياناً. فذلك النمط التاريخي الصارم الدقيق لم يُعرف في عدد من الكتب مثل الأغاني والإرشاد، والأعيان، كما لم يعرف أيضاً عند مصنفي كتب الطبقات والشعر والشعراء. لأن مؤلفي الطبقات في القرن الثالث، وكتب الشعر والشعراء في القرن الرابع لم يكن الحجم الزمني قد تراكم لديهم كثيراً على نحو يسمح بإقامة دراسات تعتمد على التقسيم الزمني، كما أنه لم تكن قد تحصلت لديهم حصيلة وافرة من الشعراء والكتاب تسمح بتوزيعهم توزيعاً زمنياً تاريخياً، مع استثناء بعض المؤلفات التي عرفت شيئاً من التوزيع التاريخي في بعض جوانبه، كتقسيم ابن سلام الشعراء إلى جاهليين وإسلاميين، أو التوزيع الأدبي على أساس من النظرة الجغرافية الإقليمية الذي عرفه الثعالبي في اليتيمة، وابن بسام في الذخيرة⁽³⁾.

ويشير ذلك المبحث - علاوة على إقراره بوجود الممارسة التاريخية لدى القدماء - أمرين مهمين أولهما: ما يراه الباحث من ارتباط بين التوزيع التاريخي والحاجة إليه، وبين وجود تراكم زمني وحصيلة وافرة من الشعراء والكتاب بما في ذلك القرن الرابع. وثانيهما: إشارته إلى وجود نمطين من التوزيع: أحدهما زمني، وآخر يستند إلى

(1) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 317.

(2) مبادئ النقد، محمود الر بداوي، جامعة دمشق، مطبعة الإنشاء، دمشق 1401 - 1402.

(3) مبادئ النقد، محمود الر بداوي، ص 12.

أساس من النظرة الجغرافية الإقليمية؛ إذ سنتبين مقدار الحصيلة والتراكم الزمني، وهل ثمة علاقة بين مقدار الحصيلة والحاجة إلى توزيعها. كما سنرى موقع نمطي التوزيع المشار إليهما ضمن تناول أشكال التحقيب وأسسها في المبحث الأول من الفصل الثاني بهذا البحث.

8- تاريخ الأدب العربي بين مدلوليه: العام والخاص⁽¹⁾:

وهي مقالة تناولت التأريخ للأدب العربي انطلاقاً من مفهومي «الأدب» من خلال معناه الشامل للحياة العلمية أو الفكرية، ومعناه المحدد في الشعر والنثر. وفي بدايتها تتعرض إلى عدم وجود المصطلح (تاريخ الأدب العربي) على الرغم من وجود «تراث غني من النصوص والأخبار والظواهر هي في حقيقتها المواد الأساسية لهذا التاريخ»⁽²⁾. وتحاول المقالة دعم وجهة النظر التي لا ترى وجود تاريخ أدبي قديم. لأنه علم حديث أولاً، ولا يرتباط هذا العلم ثانياً بفكرة العرب الأساسية عن التاريخ، من خلال استنادها إلى رأي «ناليانو» أن العرب القدامى «قد اقتصروا على تفصيل الحوادث سنة تلو سنة، دون البحث عن الأسباب والأحوال الاجتماعية ودون التأمل في ارتباط الوقائع والعلاقات القائمة بينها وكذلك الشأن في تاريخ الآداب...»⁽³⁾. وتمضي المقالة في تتبع معنى «الأدب» وعلاقة مدلول تاريخ الأدب والاشتغال فيه بكلمة الأدب وتطور معناها، سواء في اللغة العربية، أم اللغات الأجنبية التي تأثر بها الأدب العربي. ثم تطور معنى الكلمة عند العرب القدامى فالأوروبيين، واستعمال العرب المحدثين في القرن التاسع عشر كلمة آداب بنفس استعمال الأوروبيين لها. وبما أن الكلمة قد اتخذت مفهوماً عاماً وآخر خاصاً فإنهما قد وضحا لدى مؤرخي الأدب الذين ترددوا بين المعنيين العام والخاص.

(1) تاريخ الأدب العربي بين مدلوليه: العام والخاص، أحمد سيد محمد، الثقافة، الجزائر، س 17، مارس - إبريل 1987، ع 98، ص (189 - 195).

(2) تاريخ الأدب العربي بين مدلوليه: العام والخاص، أحمد سيد محمد، ص 189.

(3) تاريخ الأدب العربي بين مدلوليه: العام والخاص، أحمد سيد محمد، ص 190.

إن عرض المقالة هذه يأتي؛ لأنها تمثل وجهة النظر المضادة لما أقرته الدراسات السابقة من وجود الممارسة التاريخية لدى القدماء. ففكرة «ناليو» التي بنت عليها المقالة حكماً آخر». إجماع الدارسين الأوروبيين والعرب على أن تاريخ الأدب العربي علم جديد لم يعرفه العرب القدامى، وأنه ظهر في القرن التاسع عشر الميلادي، وأنه من آثار اتصال العرب بالنهضة الأوروبية الحديثة⁽¹⁾ - إنما اعتمد الحكم أساساً على الربط بين وجود الممارسة الفعلية وبين معرفة المصطلح. وقد مر في الدراسة الأولى وغيرها تحقيق ممارسة العرب القدامى لمفهوم التاريخ الأدبي بتصورهم. الأمر الذي لا يقتضي إلزامهم بمفهوم المصطلح الأوربي الحديث. ويأتي عرض المقالة أيضاً لما يفيدته محورها الأساسي علاقة مفهوم الأدب وأثره على توجيه اهتمام المشتغلين بالتاريخ له. فالتنبه لهذه العلاقة يساعد عند النظر إلى مؤلفات القدامى، في تبين مدى تأثير معني الأدب على اهتماماتهم.

إن الفكرة الأساسية (ممارسة القدامى لتاريخ الأدب) كما اتضح من مجمل الدراسات السابقة أمر مسلم به. ويبقى الاختلاف حول تصور كل دراسة لطبيعة تلك الممارسة لدى القدماء، والأشكال التي تجلت فيها. ويمكن أن نجمل ما انتهى إليه الباحثون حول تصور تاريخ الشعر عند القدامى في ضوء الدراسات السابقة في النقاط التالية:

- 1- ممارسة القدامى لتاريخ الشعر مع عدم معرفتهم المصطلح؛ فقد كان عملهم يتلاءم مع مفهومهم النابع من طبيعة تكوينهم الثقافي وتقاليد ممارساتهم العلمية.
- 2- أن مفهوم القدامى للتاريخ للشعر لا يعني الالتزام بالتقسيم الزمني أو السياسي، كما أن ذلك لا ينفي أخذهم به في بعض الأحيان.
- 3- أن العمل التاريخي ابتداءً مواكباً مرحلة التدوين من خلال مؤلفات الجاحظ، في حين بدأ التاريخ الفعلي للشعر والوعي بأهميته في كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي.
- 4- أن النظرة التاريخية لم تكن خالصة من امتزاجها بالنظرة الفنية؛ وذلك واضح

(1) تاريخ الأدب العربي بين مدلوليه: العام والخاص، أحمد سيد محمد، ص 190.

من تلازم النقد والتاريخ في أغلب مؤلفات القدامى.

5- أن من معالم تأريخ القدامى للشعر: استحضار النصوص ضمن سياقاتها التاريخية من خلال ربط النص وصاحبه بالمناسبة والحدث. وتفسير النصوص في ضوء المعرفة التاريخية والبيئية. وتحقيق المادة الشعرية بتتبع سلاسل ناقلي الخبر، وتعداد روايته، وعمليات فحصه. والاهتمام بالعلاقات فيما بين العلماء والأدباء والشعراء، وتوثيق معارفهم، وتصنيفهم إلى طبقات أو مذاهب فنية.

التأريخ للشعر في القرن الثالث عند ابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز

1- التأريخ للشعر في كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي:

يُعد تنبه علماء القرن الثالث لأهمية جمع أخبار الشعراء وتبويبها وعياً بضرورة التأريخ للشعر العربي، ولا سيما الدعوة إلى النظر في الشعر باعتباره علماً كسائر العلوم يحتاج إلى شروط معينة تتوافر فيمن يتصدى لهذا العلم. وهو ما نادى به محمد بن سلام الجمحي (231هـ) في مقدمة كتابه (طبقات فحول الشعراء)، في قوله: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان وإن كثرة المدارس لتعدي على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به»⁽¹⁾. فوضع بدعوته تلك حداً فاصلاً في التعامل مع التراث الشعري المروي. ليصبح العمل بعد دعوته، خاضعاً للفحص والنظر والإجماع، مقرباً من الأسس التي ينهض عليها العمل التاريخي.

تصدى ابن سلام للمرحلة التاريخية المهمة التي حول فيها المادة المتداولة شعراً وأخباراً إلى مصنف خلّص فيه المادة الغزيرة التي كان يتناقلها الرواة وغيرهم من الزيادات التي لحقتها للأسباب التي وضحها في مقدمته⁽²⁾، عارضاً وسائله المتخذة لفحص تلك المادة ووضعها في إطارها المقبول عنده⁽³⁾.

(1) طبقات فحول الشعراء لابن سلام، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1952، 7/ 1، 6، 5.
(2) من هذه الأسباب: اشتغال غير المختصين بالشعر فيه كمحمد بن إسحاق الذي قال عنه: «أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر أتينا به، فأحملة، ولم يكن ذلك له عذراً، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط» (الطبقات 1/ 8). ومنها ما فعلته بعض العشائر ومن ثم الرواة، قال ابن سلام: «استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ثم كان الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت» (الطبقات 1/ 46).

(3) كالأدلة والحجج التي دحض من خلالها شعر الأمم القديمة (عاد، وثمود، وحير) حينما استند إلى أدلة

وحين ننظر في مقدمة ابن سلام نجد أنها انصبت أساساً على مناقشة القضايا المتعلقة بالتاريخ للشعر. فتناول بدء الكلام بالعربية⁽¹⁾، واختلاف عربية الجاهلية عن عربية القبائل القديمة⁽²⁾، وبدء الاشتغال بعلوم اللغة العربية⁽³⁾، والقديم من الشعر⁽⁴⁾، وأول من قاله⁽⁵⁾، وأول المهتمين بجمعه وروايته⁽⁶⁾، وصحيح الشعر من منحوه⁽⁷⁾، ناهيك عن دعوته لكيفية التصدي للشعر وانتقاد من قام بذلك دون اختصاصه بعلم الشعر. وتناول هذه المسائل وغيرها يدل على اقتراب ابن سلام من طبيعة العمل التاريخي، وأنه يولي اهتمامه هذا المنحى أكثر من الخوض في القضايا النقدية المتخصصة، على الأقل في مقدمته.

وعمل ابن سلام في كتاب الطبقات له أهميته لكونه عملاً تاريخياً في المقام الأول⁽⁸⁾؛ إذ يدل ذلك الوعي الذي أبداه في مقدمته بطبيعة العمل التاريخي على وضوح

قرآنية، الطبقات 8/1، أو الدليل العلمي اللغوي لاختلاف العربية القديمة لدى تلك الأمم عن العربية المتأخرة المعروفة، ولا سيما لسان حمير، الطبقات 1/9-10. وانظر تفصيل هذه الأدلة لدى طه إبراهيم في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة (د.ت) ص 77.

(1) الطبقات 1/9.

(2) الطبقات 1/10-11.

(3) الطبقات 1/12.

(4) الطبقات 1/31-39.

(5) الطبقات 1/39.

(6) الطبقات 1/48.

(7) الطبقات 1/46-48.

(8) بعض الدارسين، كطه إبراهيم في تاريخ النقد ص 75، ومحمد زغلول سلام تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1982، ص 101، ممن تناولوا كتاب طبقات فحول الشعراء، درجوا على الرغم من إشادتهم بمنهجية ابن سلام، وعمله المنظم فيه على دراسته في مادته النقدية، دون وقوف مماثل على الدور المهم لجانب تأريخ الشعر فيه. ومع وقوف محمد مندور عند محك تداول النظرتين التاريخية والنقدية في الطبقات، من خلال حديثه عن «النقد الأدبي والتاريخ الأدبي»

غاية التأريخ للشعر لديه. أضف إلى ذلك أن المبادئ التي اختطها في عمله ما يزال بعضها ساري المفعول لدى المؤرخين المحدثين، الذين اقتفوا أثره في معلمين بارزين تمثل أولهما في ابتداء معظم التواريخ بما بدأ به ابن سلام كتابه، ولاسيما المسائل التي حفلت بها مقدمته⁽¹⁾.

وتجلى ثانيهما في اعتماد أغلب المؤرخين التقسيم الذي أخذ به ابن سلام حينما سكت عن حقبة الشعراء المحدثين ناظراً إلى الشعراء على أساس أنهم إما جاهليين أو مخضرمين أو إسلاميين.

إن فكرة الطبقات⁽²⁾ تجسد منهج ابن سلام التأريخي في دراسة الشعر؛ فقد صنف

وأن الطبقات أول تاريخ للأدب العربي إلا أنه انتهى إلى تفسير الأسس التاريخية في الطبقات بوصفها مرتكزات ومبادئ نقدية في المقام الأول. النقد المنهجي ص 12.

(1) قارن بين القضايا التي ابتدأ بها ابن سلام كتاب الطبقات، والقضايا التي ابتدأ بها على سبيل المثال كل من: بروكلمان في تاريخ الأدب العربي، شمل الباب الأول لديه فصولاً في: (اللغة العربية، أولية الشعر، قوالب الشعر العربي، طبيعة الشعر الجاهلي، رواية الشعر الجاهلي).

الرافعي في (تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط 4، 1394) خصص جزءاً من ثلاثة للتوسع في باب: (تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها، وما يتصل بذلك عن القبائل العربية القديمة والحديثة) وباب: (الرواية ومشاهير الرواة).

شوقي ضيف في العصر الجاهلي (دار المعارف مصر، ط 8، 1960، التاريخ من المقدمة) جعل الفصل الأول، لصفة الجزيرة العربية، والساميين والعرب الجنوبيين والشماليين، والنقوش، ونشأة الكتابة العربية.

(2) الطبقات نظام عمل به ابن سلام من أجل ترتيب الشعراء وإعادة تصنيفهم وفق مقاييس محددة، وتنبي الطبقات على توزيع الشعراء إلى طبقتين كبيرتين: طبقات شعراء الجاهلية وفيها عشر طبقات، وطبقات شعراء الإسلام وفيها العدد نفسه. وكل طبقة من الطبقات العشرين مكونة من أربعة شعراء. للاستزادة حول الطبقات انظر:

تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، محمد زغلول سلام. ص 105 - 111

تاريخ النقد عند العرب، طه إبراهيم، ص 83.

تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ط 2، دار الشروق، عمان 1993 (الإصدار الثاني 1997) ص 67، 70.

الشعراء اعتماداً على مجموعة من الأسس هي: أساس تعاقب الشعراء زمنياً، من شعراء جاهليين ومخضرمين، وإسلاميين. وأساس توزيعهم الإقليمي بحسب القرى العربية⁽¹⁾، وأساس انتمائهم الديني، كشعراء يهود⁽²⁾، وأساس نتائجهم الغرضي، كأصحاب المراثي⁽³⁾. وتبدو هذه الأسس سليمة من الناحية النظرية لأنها اعتمدت على التنوع؛ إذ أكسبها ذلك استيعاب قدر كبير من الشعراء مما لو كانت مرتكزة على أساس واحد. غير أن هذه النظرة من الناحية العملية لم تحقق تكافؤاً بالمقدار ذاته بين الأسس المعتمد عليها⁽⁴⁾. فالأساس الزمني يطغى بشكل واضح، في الوقت الذي تمثل فيه باقي الأسس شرائح شعرية محدودة. كما أن تعاقب الشعراء زمنياً توقف قبل حقبة الشعراء المحدثين الذين عاصر ابن سلام بعضهم، كمروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد وأبي تمام وغيرهم. وهو المأخذ الذي سينتقده ابن قتيبة⁽⁵⁾. وإذا كان التصنيف حسب الديانة مسوغاً لوقوع شعرائه في المدينة، أو قربها، وهي إحدى القرى العربية التي أفرد لها حيزاً في الطبقات - فإن تناول الشعراء حسب الأسس الغرضي - عند تعرض ابن سلام لشعراء المراثي - لم يتنوع ليشمل كافة الأغراض الشعرية، أو كافة الشعراء الذين قالوا فيه. بل بقي مقياساً محدوداً بفئة مشتهرة به. الأمر الذي أوقع ابن سلام فيما حاول التخلي عنه من عدم الركون إلى الشهرة معياراً، وإنما العرض على محكات الفحص والنظر والإجماع.

إن العناصر السابقة كلها، على تنوعها، يمكن دمجها معا تحت عنصر واحد هو

(1) الطبقات 1/ 215.

(2) الطبقات 1/ 279.

(3) الطبقات 1/ 203.

(4) أشار لهذه الأسس: محمد زغلول سلام في تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ص 109 وحددها مندور في النقد المنهجي، ب (الزمان، والمكان، والفن الأدبي) ص 12-13.

(5) في قوله: «فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله» الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1958، 1/ 62-63.

الزمان. فالقرى العربية المذكورة هي القرى المشهورة بالشعر في عصري الجاهلية وصدر الإسلام. فهي لا تمثل التوزيع الذي أصبح عليه الشعراء بعدما استقرت عاصمتا الخلافة في كل من الشام والعراق. وكذلك شعراء المراثي والشعراء اليهود؛ إذ لا وجود لهم سوى في تلك الحقبة الزمنية. من ثم ترتد كل أسس التصنيف السابقة إلى حقبة زمنية كبرى هي التي عني ابن سلام بالتأريخ لها، ومن ثم جعلها الإطار التاريخي لطبقاته.

ويبقى في الطبقات بعض الجوانب التي تتباين فيها المقاييس المعنية بترتيب الشعراء وتنظيم تعاقبهم طبقات وأفراداً؛ إذ يبدو خلل الالتزام بالعدد المحدد (أربعة) في كل الطبقات مريباً لعمل ابن سلام خصوصاً حينما يتساوى أكثر من ذلك العدد في الطبقة الواحدة. الأمر الذي دفعه للاعتذار عن ذلك⁽¹⁾. في حين يبدو ترتيب الشعراء إلى فئات طبقية منطقياً ومنسجماً مع المحكات التي يخضع لها ترتيب الشعراء الذين لم تعد الشهرة كافية ليكونوا في المقدمة. فما أجمع عليه بين أيدي الرواة مما تحقق بعد الفحص والنظر والإجماع هو ما يؤدي إلى تأخير بعض الشعراء المشهورين، على نحو ما فعله بطرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة الفحل، وعدي بن زيد. الذين «أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة»⁽²⁾.

إن فكرة الطبقات التي جوبهت بالنقد تعود صرامة ابن سلام فيها إلى ما لمسه من التساهل والقبول بكل ما هو شائع متداول. كما أن الطبقات، بوصفها إطاراً ومنظراً تاريخيين، كفلت تماسك الرؤية في مجمل العمل وانتظامه منهجياً، فترابطت مقدمته بمتن تراجمه. وحافظ ابن سلام فيهما على تجسيد قناعاته وغاياته الرامية إلى تنظيم النظر إلى التراث المروي، ووضع مبادئ التصدي للشعر. ويكفيه في تلك الفترة المبكرة، على اعتبار أنه رائد في عمله، تنبيهه لهذه الأمور. وسنرى قيمة أخذه

(1) انظر، على سبيل المثال، ما قاله معتدراً عن تأخير أوس بن حجر نظير الأربعة المتقدمين، بعدما اضطر لتأخيره إلى رأس الطبقة الثانية. الطبقات 1/ 97.

(2) الطبقات 1/ 137.

بالتحقيب في المبحث الخاص بذلك.

2- التأريخ للشعر في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (276هـ):

يعد عمل ابن قتيبة في الشعر والشعراء خطوة ثانية لا تقل أهمية في تأريخها للشعر عن صنيع ابن سلام، فقد حظي كتاب الشعر والشعراء بالعديد من اهتمامات الدارسين، ولا سيما ما طرحه من قضايا نقدية وصفها إحسان عباس بأنها أصبحت أكبر المشكلات النقدية التي سيكثر الحديث حولها من بعده⁽¹⁾.

ولعل الإشارة السابقة توضح تركيز الدارسين على مقدمة الكتاب على الرغم من محتواه الذي زاد على مائتي ترجمة، بما في ذلك تراجم الشعراء المحدثين الذين عُد ابن قتيبة من أوائل من أدرجهم ضمن تاريخ الشعر العربي.

ويرجع السبب الرئيسي في الاهتمام بمقدمة الكتاب أكثر من متنه إلى الطريقة التي ورد بها ترتيب التراجم فيه، إلى جانب تناول الدارسين للكتاب الذي ينطلق غالباً من مقايسته بـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام. خصوصاً أن المقايسة لا تتم بين محتوى الكتابين من التراجم ذاتها في المضمون الإخباري، والمادة الشعرية، ومدى اختلاف المؤلفين في الطريقة التي يؤرخ بها كل منهما للشعر والشعراء، حتى إن هذه المقايسة لو تمت - على ندرتها بهذا النحو - فإنها تطالب ابن قتيبة بتمثل طريقة ابن سلام⁽²⁾.

وقد ذهب مندور⁽³⁾ إلى أن ابن قتيبة بعيد عن المضمار الأدبي لكونه فقيهاً في الدين، وعالمًا باللغة ألف كتاباً عن الشعراء؛ مما جعله لا يصدر في كتابه عن منهج واضح

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ص 103.

(2) أخذ محمد زغلول سلام على ابن قتيبة أنه لا يقارن بين الشعراء حين يستعرضهم واحداً واحداً دون موازنة بين أحد منهم بسابقه أو لاحقه. فلا يقول: هذا أجود شعراً من ذاك، وإن جاء بقصائد أو قصيدة أو اثنتين لقدمته، أو ألحقته بسابقه كما فعل ابن سلام. انظر تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص 134.

(3) النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، ص 26.

في التأليف. ورأى إحسان عباس⁽¹⁾ - بعد حكمه إيجاباً على مقدمة ابن قتيبة بالبيان والدستور المستقل بمواده وأحكامه - أن كتاب الشعر والشعراء جاء دليلاً موجزاً؛ ليستعمله المتأدبون من طبقة الكتاب، لتعرّف أهم الشعراء القدماء والمحدثين؛ وأن غاية التبسيط لدى ابن قتيبة، وترجمته لشعراء جدد لم يترجم لهم ابن سلام دفعه إلى تقييد تراجمه كيفما اتفق. الأمر الذي يوحي بأن ابن قتيبة لم يحفل بدراسة الشعراء حسب العصور الأدبية.

جدير بالذكر أن بعض الأحكام التي كوّنت عن آراء ابن قتيبة في الشعر والشعراء وضعت في اعتبارها ما أثر عن شخصيته العامة، وكونه في الأساس قاضياً، على نحو ما أشير إليه آنفاً لدى مندور، أو زغلول سلام⁽²⁾. كما أن بعض الأحكام بنيت على فهم غير دقيق لجزئيات محدودة من طرحه⁽³⁾.

ونجد من الآراء ما يشير إلى منهجية ابن قتيبة ومنحاه الخاص في بحث الأدب بروح العلم، وتمشيه بالنقد الأدبي حتى يكون كالعلم دقة وتحديداً في تنظيم الآراء على نحو لم يعرف قديماً في النقد⁽⁴⁾. ومنها ما يشير إلى أهمية الشعر والشعراء باعتباره مرجعاً من مراجع تاريخ الأدب؛ وذلك لما ورد فيه من أخبار الشعراء، وعصورهم ومنازلهم، وأنسابهم⁽⁵⁾. أما الوعي التاريخي واختلافه النسبي لدى ابن قتيبة، فأشير

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ص 94.

(2) أرجع محمد زغلول سلام نظرة المساواة لدى ابن قتيبة إلى كونها «نظرة قاض يضع العدل موضع الحكم» تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، ص 134.

(3) صنف إدريس بلمليح ابن قتيبة بوصف أنه يمثل نمط استجابة ثلاثة توازي النمطين اللذين يمثلان محور الدراسة لديه: نمط استجابة المفضل الضبي وشراحه، ونمط أبي تمام. في حين أن كل ما بني عليه حكمه عن نمط ابن قتيبة هو المقطع الذي أورده ابن قتيبة في مقدمته (الشعر والشعراء/ 74-75) وفيه يذكر ما سمعه من أهل الأدب في وصف القصيدة (المادحة). انظر المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام. إدريس بلمليح، كلية الآداب بالرباط، 1995 ص 407.

(4) تاريخ النقد الأدبي، طه إبراهيم، ص 123.

(5) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد العزيز عتيق، ط 4، دار النهضة العربية، بيروت 1406 ص 377.

إلى أنه اتخذ صورته المكتملة الأولى وبداية انتقال هذا المنهج من الممارسة العفوية إلى الوعي النسبي بالخطوات المتبعة في هذه الممارسة نفسها من خلال ما أورده في مقدمته⁽¹⁾.

هذه الإشارات السابقة التي كان معظمها معنياً أساساً بالنقد وقفت أمام المقدمة لما حفلت به من مادة نقدية، ولم تكن راضية عن محتوى الكتاب الذي لم يجسد تطبيق ما طرحته المقدمة، أو يرتبط معها بشكل مسوغ⁽²⁾.

إن الغاية التأريخية والنقدية بما أثر من تلازمهما على نحو ما بينه صاحب كتاب النقد الأدبي⁽³⁾ لدى المؤلفين القدامى، ثم الوقوف على وعي ابن قتيبة بعمل سابقه ابن سلام، وتحلي ذلك الوعي في الشعر والشعراء، ناهيك عن تفهم شرط ابن قتيبة الزمني - هذه العوامل تساعد على تفهم ما يبدو تبايناً ظاهرياً بين جزأي الشعروالشعراء: مقدمته، ومحتواه.

أما الشرط الزمني فابن قتيبة أحد النقاد الذين كانوا يتخذون موقفاً توفيقياً بين القدامى والمحدثين⁽⁴⁾ فكانت نظرته تلك ثمرة الصراع الذي نشأ حول القديم والمحدث، كما أن تأخر ابن قتيبة عن سابقه ابن سلام وحياته معظم فترات القرن الثالث جعله يقف بنفسه على التقبل والذیوع الذي شهده الشعر المحدث مما يجعله

(1) النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني، ص 76.

(2) طبق ابن سلام ما ذكره عن الطبقة الأولى في المقدمة على بقية الطبقات ملتزماً بنفس العدد لكل الطبقات. أما ابن قتيبة فلم يكن ترتيبه للتراجم مجسداً ما عرضه من قضايا؛ فلم يوزع الشعراء بحسب أضرب الشعر الأربعة التي حددها، أو يتناولهم وفق تقسيمهم إلى مطبوعين ومتكلفين، كما لم يلتزم بتعاقبهم الزمني الأمر الذي جعل بعض الدارسين يحكم على عمله بإيراد التراجم كيفما اتفق، كإحسان عباس في تاريخ النقد ص 94، أو أن تأليفه كان دون منهج واضح، كمحمد مندور في النقد المنهجي ص 26.

(3) فقد أشار إلى تلازم المنهجين الفني والتاريخي لدى المؤلفين القدامى لدى بحثه في المنهج التاريخي عند القدامى - النقد الأدبي، أصوله ومنهجه، ص 153.

(4) انظر ما ذكره إحسان عباس في تاريخ النقد، ص (77-111) عن أسماهم: أصحاب (النظرة التوفيقية) ضمن تعرضه لمحاولات النقد في القرن الثالث ومع ابن قتيبة كل من الجاحظ والمبرد وابن المعتز.

يحيد عن موقف سابقه من ذلك، لا انتصاراً للشعر المحدث، أو لما اقتضته نظرة العدل بين خصمين باعتباره قاضياً، وإنما عن وعي واقتناع بضرورة مراجعة النظرة التاريخية ذاتها. فأطلق دعوة تساوي في أهمية مضمونها وتوقيتها دعوة سابقة؛ إذ توجه بهذه الدعوة إلى العلماء خاصة⁽¹⁾ منبهاً المعنيين بالشعر إلى ما يمر به تلقيه من تغير على المؤرخ أن يعيه، باتخاذ موقف يمكنه من استيعاب المتغيرات؛ وأن يضع العلماء في حسابانهم الواقع الأدبي المعاش وقياس المستقبل على متغيره.

أما وعي ابن قتيبة بعمل سابقه فتجلى في تطوير الركيزة الزمانية التي يعول عليها النظر التاريخي للشعر والشعراء، وفي إفادة الإطار المنهجي لكتابه من خلال المقدمة الطويلة التي اقتضتها ملاسات عمله مما يتعلق بموضوعه من قضايا، ثم مبنى الكتاب الرئيسي المعتمد على التراجم. كما تجلّى وعيه في انتقاد ابن سلام في مسائل منهجية أخرى مباشرة أو ضمناً. فانتقد أخذه بالتقليد العلمي الذي يغفل النظر بجدية إلى الواقع الشعري المعاصر، وإقصائه عن دائرة عمله التاريخي⁽²⁾. وانتقده ضمناً من خلال تخليه عن الأخذ بمبدأ الطبقات. حين حوّل الاهتمام بالأفراد والفئات المحددة - وما يستلزمه ذلك من صرف جهد كبير في العناية بالمقارنة والمفاضلة بين الشعراء ومن ثم الحرص على إنزالهم مرتبين تقديمياً وتأخيراً - إلى منحى تاريخي معني بالظواهر، لم يبلغ الزمانية بوصفها إطاراً يحتوي النظرة التاريخية، بل يتخذها مظلة كبرى. فابتدأ تراجم كتابه بشريحة من الجاهليين والمخضرمين وختمها بمثلها من المحدثين. مع تحلل ذلك ببعض تراجم محدودة مخالفة⁽³⁾.

(1) ابتدأ ابن قتيبة كلامه في هذا الموضوع بقوله: «فإني رأيت من علمائنا» وقد تقدم قوله آنفاً.
(2) أشار ابن قتيبة إلى موقف ابن سلام من معاصريه دون تصريح باسمه مقارناً موقفه بموقف أبي عمرو بن العلاء حيث استنتج أن هؤلاء المحدثين في نظر أبي عمرو أصبحوا «قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباهم» الشعر والشعراء 1/63.
(3) انظر مثلاً موضع ترجمته لطفي الغنوي الشعر والشعراء (1/453) وأمية بن أبي الصلت الشعر والشعراء (1/459) وخداش بن زهير الشعر والشعراء (1/645)، وحصين بن الحمام الشعر والشعراء (1/648). فهؤلاء الجاهليون وردت تراجمهم بين تراجم شعراء العصر الأموي، وانظر تقدم موضع ترجمة كعب

وتجده يصرف مبدأ الموازنة والمفاضلة المبدأ المتجلي لدى ابن سلام في الطبقتين الأوليين من شعراء الجاهلية والإسلام وبلغ ذروته في ترجمة «كثير» - إلى تلمس ظاهرة الاشتراك والخصوصية في طرق المعاني والموضوعات. فنجده يجعل في الترجمة غالباً حيزاً يتعرض فيه لأبيات الشاعر التي سبق إليها أو التي أخذت منه، ويكثر ذلك بين شعراء الحقبين المتجاورتين، كآخذ الإسلاميين من الجاهليين، وآخذ المحدثين من الإسلاميين. بل إنه أحياناً يقف عند بضعة شعراء مشتركين في معنى واحد بمن فيهم الشاعر المحدث⁽¹⁾. ويزداد هذا المنحى أهمية كلما تباعد بعض الشعراء في الحقب الزمنية من الجاهلي مروراً بالإسلامي فالمحدث أو على نحو مغاير. وهذا المنحى يمثل رافداً مهماً للدارس الحديث إذا أراد النظر في التأريخ الشعري من منظور التلقي، ومظاهر التأثير والتأثير.

وحين ننظر في النمط الداخلي للترجمة الواحدة نجد محتواها أكثر تنظيمًا واقترباً مما يشبه الأنموذج، إذ ينقسم المحتوى فيها إلى قسمين، ترد أخبار حياة الشاعر في الأول منها متدرجة زمنياً حسب حياة الشاعر، وفي القسم الثاني مختارات شعرية حرص في أغلب التراجم على بيان ما اختص بالشاعر من معاني، وأخذها عنه - إن وجد وما أخذه الشاعر عن غيره⁽²⁾. ومن الجوانب التي اهتم بإبرازها ابن قتيبة في تراجمه

بن زهير الإسلامي الشعر والشعراء (ثالث تراجم الكتاب 1/ 154) التي سبقت كثيراً من تراجم الجاهليين.

(1) انظر مثلاً ما ذكره في ترجمة طرفة بن العبد عن أحد أبياته ومشاركة عنتره وزهير وشاعر محدث (أبونواس) له في معنى البيت الشعر والشعراء 1/ 195، وانظر أيضاً مثل ذلك في ترجمة لبيد 1/ 283.

(2) انظر مثلاً ترجمة «كثير» لدى ابن سلام تجدها أحكام مقارنة ومفاضلة بينه والشعراء. في حين تجدها لدى ابن قتيبة تبدأ بالإشارة إلى المذهب الرافضي للشاعر وصفته الخلقية (الحماقة) ثم خبر مطول يمسد علاقاته مع الشعراء والخلفاء وأخبار عشقه لعزة، ثم انتهاء الترجمة بالمختار من شعره، وبعض المعاني والموضوعات التي قال فيها الشعر، وأخيراً خبر وفاته. وانظر كذلك ترجمة لبيد لدى ابن سلام وابن قتيبة في اختلاف المادة عندهما، وترجمة أبي زبيد الطائي لدهما لتبين كيفية تهذيب الأخبار وتحويل مطولها عند ابن سلام إلى ما يشبه النقاط عن حياة الشاعر، وقيمة إشارة ابن قتيبة لأثر أبي زبيد في إحدى قصائده على قصيدة مشهورة لابن مناذر في رثاء عبد المجيد الثقفي. وانظر كذلك ترجمة النابغة الجعدي لدى كل

الصفات المذهبية والأخلاقية لدى عدد من الشعراء⁽¹⁾.

وهذه التفاصيل التي اهتم ابن قتيبة بإبرازها فيما يتعلق بحياة الشاعر سيكون لها أعمق الأثر على لاحقه ابن المعتز، وعلى مؤرخي القرن الرابع على وجه الخصوص؛ إذ سيصبح الوقوف على هذه النقاط وغيرها في حياة الشاعر وتقصيصها من أبرز معالم التأريخ للشاعر.

إن التنظيم باعتباره ترابطاً ظاهرياً محسوساً بين كافة التراجم على نحو ما تبدو عليه طبقات ابن سلام من خلال «فكرة الطبقات» لم يعن به ابن قتيبة، لكن ذلك لا يعني خلوها من رابط ينظمها، كالرؤية الشمولية في التقريب بين الحقتين الشعريتين القدامى والمحدثين، والتخفف من حدة الفصل بينهما باعتبارهما دعامتي تاريخ الشعر العربي، فذلك تطبيق لما طرحه ابن قتيبة نظرياً في مقدمته بما أحدثه من تداخل زمني في التراجم ولا سيما بتقديم بعض الشعراء أو تأخير بعضهم، وإشاراته المتكررة في تراجمه إلى الآفاق المشتركة في تداول المعاني والموضوعات. على أن هذه الرؤية تصح فيما لو كان ترتيب تراجم الكتاب كما هي في الأصل الذي تركه ابن قتيبة، وأن التداخل في ترتيبها لم يكن من قبيل إخلال النساخ.

ومجمل القول إن ابن قتيبة لم يبلغ النظرة التاريخية التي أرسى دعائمها سابقه ولم يقف عند حدود التمسك بها وفق ما انتهت إليه لدى ابن سلام، وإنما قدمها بمفهوم أكثر مرونة في استيعاب آفاق التلقي الممكنة وترك قاعدة تأريخية لا تكون حبيسة أفق تلق واحد وإنما تضع في حساباتها المستجد المتغير. ومن ثم عد عمله مجملاً في الشعر والشعراء إضافة مهمة للوعي بممارسة التأريخ للشعر والشعراء.

3- التأريخ للشعر في كتاب (طبقات الشعراء) لعبد الله بن المعتز (296هـ):

منهما... وغيرها من التراجم.

(1) مثل ما سبق ذكره عن كثيرٍ وكذلك قوله بالرجعة، وإشارته إلى اتهام بشار بالزندقة في ترجمته، وذكر الاشتهار بالكذب في ترجمة أبي حية النميري، واللوصية لدى الأحيمر السعدي، وضرب الأم لدى ابن ميادة، والرمي بالأبنة والزنا لدى الأحوص وغير ذلك.

أول ما يلاحظه القارئ في هذا الكتاب مقارنة بالعملين السابقين اختلافه عنهما في اختصاصه بالتأريخ للشعراء المحدثين بم عزل عن الترجمة لسابقيهم من القدامى. وأنه عند تناوله الشعراء لم يحفل بتقييم تجارب الشعراء نقدياً، بل كان يعرض بعضاً من أخبارهم وأشعارهم يتبعها بأوصافٍ انطباعية تتكرر على الوتيرة ذاتها⁽¹⁾. كما أن ابن المعتز في تراجمه للشعراء لم يلتزم بنهج الترجمة لدى سابقيه في استيفاء معظم جوانب حياة الشاعر المترجم له.

ومما زاد في إبقاء مقاصد ابن المعتز غير معلومة مباشرة - باقتصاره على الشعراء المحدثين، أو بنهجه المختلف في نمط الترجمة - أن المقدمة الأصلية التي وضعها لم تصل إلينا⁽²⁾. وقد مر سابقاً ما تبوأته من أهمية مقدمات ابن سلام وابن قتيبة في تبيان دوافعهما ومواقفهما من الشعر والشعراء والطرق التي تُصدي بها للموضوع قبل كل منهما، إضافة إلى ما أثاراه فيهما من قضايا جذبت اهتمام الدارسين القدامى والمحدثين.

وكان ابن سلام قد سار في ترجمته للشعراء على استيفاء مقدار ليس بالقليل من المتداول من أخبار الشاعر وأشعاره، ثم سار من بعده ابن قتيبة على الطريقة ذاتها مع ما أضفاه من تنظيم داخلي لمحتوى الترجمة، وكلاهما توخى من ذلك الإلمام بكثير من

(1) من هذه الأحكام قوله في وصف شعر بشار: «ومما يستملح من شعره وإن كان كله حسناً» طبقات الشعراء، لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط 4، دار المعارف، القاهرة 1357 (التاريخ من المقدمة) ص 28، وفي شعر ربيعة الرقي: «ومما يستملح له وإن كان شعره كله مليحاً عذباً مطبوعاً جيداً هنيئاً» طبقات الشعراء ص 163، وقوله في شعر مسلم بن الوليد: «ومما يستحسن له على أن شعره كله حسن لا يدفعه عن ذلك أحد» ص 235. وقد جمع إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي ص 104 أمثلة من هذه الأحكام معلقاً على ذلك بأن ابن المعتز تنطبق عليه المقولة التي تعجب ابن قتيبة كثيراً: «أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه».

(2) أشار محقق طبقات ابن المعتز عبد الستار فراج إلى موافقته على ما ذهب إليه قبله عباس إقبال من كون المقدمة الملحقة بالكتاب زائفة ومنتحلة، أما المقدمة الحقيقية بحسب ما ذكره إقبال في دراسته، فهي التي أشار إلى جزء منها مختصر كتاب الطبقات لدى ترجمته علي بن الجهم. انظر مقدمة فراج ص 8، ودراسة إقبال الملحقة بآخر الكتاب طبقات الشعراء ص 586.

الجوانب التي أمكن معرفتها عن المترجم له. بينما يلاحظ على طريقة ابن المعتز في الترجمة أنها تقوم أساساً على الاختيار، لا الاستقصاء بتقديم الصورة التي تلم بأغلب الجوانب - على الأقل فيما يتعلق بأخبار حياة الشاعر - باستثناء ترجمة أبي نواس⁽¹⁾.

وعلى الرغم من سعيه في تراجمه إلى رسم صورة حية للمبدع في نطاق عصره وحياته الاجتماعية كما لاحظ ذلك حميد لحداني⁽²⁾ على ترجمة أبي دلالة⁽³⁾ فإن هذا الوصف ينطبق على طريقة الإخبار في مضمونها، وصياغتها وهو مما ميز ابن المعتز. لكن هذه الميزة لا تفي بمفهوم الترجمة عن الشاعر الواحد. فثمّ تراجم كثيرة لا نجد فيها سوى خبر واحد⁽⁴⁾، منها ترجمة ربيعة الرقي⁽⁵⁾ التي احتوت في الوقت نفسه ما يقارب مائتي بيت؛ في حين نجد استغناءً عن النماذج الشعرية المختارة بالإشارة إلى الصدور من مطالع القصائد المشهورة في ترجمة أبي تمام⁽⁶⁾.

إن ذلك يعني أن ابن المعتز لم يلتزم بنمط يكرره على نحو ما ألفينا سابقه في تراجمهما. وقد حاول محمد زغلول سلام⁽⁷⁾ تفسير عمل ابن المعتز في الطبقات أنه يهدف به تقسيم الشعراء إلى أربع مدارس هي: البديع، والأعراب، والحكمة، والمجون، لكن هذا التفسير يمثل استنتاجه بناء على مسمى «الطبقات»، وعلى ما أثر من نهج عند بعض الشعراء؛ ففي حين يمثل المدرسة الأولى أغلب شعراء الكتاب نجد ستة شعراء يمثلون مدرستي الأعراب والحكمة. ناهيك عن أن ابن المعتز لم ينص على

(1) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 193 - 217.

(2) النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني، ص 70.

(3) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 54 - 62.

(4) طبقات الشعراء لابن المعتز، تراجم: محمود الوراق ص 366 - 370، ومحمد بن وهيب 310 - 313، والعبي

314 - 315، وعبد الله بن أبي أمية 322 - 323، وخالد التجار 323 - 324، وعيسى بن زنب 326 - 327،

وغيرها.

(5) طبقات الشعراء لابن المعتز 157 - 170.

(6) طبقات الشعراء لابن المعتز 282 - 286.

(7) تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، محمد زغلول سلام، ص 162 - 163.

بناء كتابه على ذلك التقسيم بل هو مأخوذ من عدة أوصاف كان يطلقها عادة في نهاية كلامه عن الشاعر⁽¹⁾.

وحين نقف عند ترجمة أبي نواس ونربط بين ما هو شائع متداول عن أصله الفارسي ونزوعه إليه، وما رمي به من شعوبية وتقليل من شأن العرب⁽²⁾ وبين وقوف ابن المعتز المطول عند «قحطانياته»⁽³⁾، ونربط بين ما اشتهر به من مجون وخمريات وبين تفصيل ابن المعتز معارفه الفقهية إلى حد العلم بالناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وطرق الحديث وغيرها من المعارف الدينية⁽⁴⁾ حين نقف عند ذلك ونقارنه بما اختاره من أخبار علمين شهيرين من أعلام المحدثين أبي تمام والبحري⁽⁵⁾؛ إذ اكتفى بثلاثة أخبار عنهما جميعاً تدور حول توددهما للغلمان وممازحتهم. ندرك بعد هذا كله تفسير مسعاه الانتقائي الذي جسد النهج التأريخي لديه؛ في إقامة عملية توازن بين عدة أطراف، وعلى أكثر من مستوى، ضمن نطاق الشخصية المحدثه نفسها، وفي إعادة بنائها مقابل الشخصية القديمة.

ففي الموازنة بين المادتين الإخبارية والشعرية يتمثل ذلك في أنموذجي أبي نواس مع ربيعة الرقي، وأبي نواس مع أبي تمام والبحري. فالرقي لا يجلي فيه عن حياته، بل يكرس جانبه الشعري باختيار ثماني مقطوعات مطولة وخبر وحيد لا يتعلق بحياته،

(1) من ذلك ما قاله عن صالح بن عبد القدوس، طبقات ابن المعتز ص 89 - 92: «أخذ صالح بن عبد القدوس في الزندقة، فأدخل على المهدي فلما خاطبه أعجب به، لغزارة أدبه وعلمه وبراعته، وبما رأى من فصاحته وحسن بيانه وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله فلما ولى رده وقال: ألسن القائل» وقوله عنه في موضع آخر ص 91: «وكان شعره كله أمثالاً وحكماً».

(2) رأى مندور في النقد المنهجي ص 29 أن الشعوبية والتقليل من شأن العرب من الأسباب التي أدت إلى قلة الاكتراث بما دعا إليه أبو نواس، وبالتالي عدم وجود خصومة حوله، وانظر عن الشعوبية: ضحي الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 10، 1936 (التاريخ من المقدمة) 1/ 56-80.

(3) قصائده في الفخر بالقحطانيين. طبقات الشعراء لابن المعتز ص 195 - 200.

(4) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 201.

(5) طبقات الشعراء لابن المعتز، البحري ص 393 - 394، أبو تمام ص 282 - 286.

وإنما بسوء تقدير شعره⁽¹⁾. بينما يجلي في المستوى الإخباري في أنموذج أبي نواس مع أبي تمام والبحري عن الجوانب غير المتداولة، أو بتعبير ابن المعتز الذي كرره مراراً «ما يعرفه الخاصة دون العامة» من أخبار هؤلاء المشهورين.

إن اختيار ابن المعتز شخصية أبي نواس لتكون أطول التراجم ومن أكثرها أخباراً ومختاراً شعرياً⁽²⁾؛ لأنها الشخصية الحاضرة في ذهن المتلقي عن الشخصية المحدثه. ويأتي اختياره لنوع الأخبار، وموضوع الأشعار دفاعاً مبطناً عنها بمجموعة من المقابلات. بين الشعوبية ونزعة أبي نواس اليمنية. وبين المجون والإطار الفقهي وبما أورده من أخبار عن أبي تمام والبحري. وبين الخروج عن تقاليد الشعر القديم ومحفوظه منه الذي دل عليه بحفظ شعر ستين امرأة⁽³⁾. هذه المقابلات في تصوير شخصية أبي نواس تمثل أنموذجاً مصغراً لما نشده ابن المعتز من نهج تاريخي مختلف في كتابه عن سابقه؛ حين آثر اختيار المضامين التي قل تداولها.

وإذا كان ذلك النهج قد تحقق في ترجمة أبي نواس واتضحت أبعاده لدى مقارنتها بالجوانب التي قابلتها في بعض التراجم - فسرى كيفية تحققه في بقية الكتاب من خلال مجموعة أخرى من تراجمه.

إن البحث عن المضمون الذي تتحقق فيه الطرافة والندرة غاية ابن المعتز الرئيسة. وفي سبيل تحقيقها سعى إليها من خلال شقي الترجمة ذاتها لدى سابقه؛ مما يعني اتفاقه معهما ظاهرياً، واختلافه في نهج الترجمة. فحين ننظر إلى مجمل مضامين الأخبار نجد معظمها يدور حول البداة، والحماقة، والمجون؛ لكن التركيز على هذه الجوانب وحدها لا يحقق مبدأ التوازن في الكتاب؛ لذا فإن جوانب أخرى تبرز إلى جانبها ممثلة

(1) حين مدح العباس بن محمد، عم أبي هارون الرشيد الذي كافأه بدينارين فقط. طبقات الشعراء لابن المعتز ص 157.

(2) جاءت ترجمة أبي نواس في أربع وعشرين صفحة، حوت عشرين خبراً، وما يزيد على مئة وستين بيتاً شعرياً. كما أن بعض الأخبار يتفرع إلى ما يقارب عشر معلومات كخبر ولادته ونشأته. طبقات الشعراء لابن المعتز، ص 193 - 194، وخبر تفقّهه في الدين، طبقات الشعراء ص 201.

(3) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 194.

في الزهد، والحكمة، والجدية.

تجسد شخصية الشاعر «أبو العبر» ذروة ما يمكن تخيله عن صفة الحمق أو الرقاعة، حين أُمر على جماعة الحمقى، وصار لهم معه حلقة يكتبون ويستملون عنه فيها، وتدور بها أجوبة خيالية وغير معقولة⁽¹⁾. وفي هذه الترجمة يكشف لنا ابن المعتز - بعبارة سريعة - جانباً مما كان يطلبه جمهور الناس من الطرافة في ذلك العصر، حين قال: «وكان من أدب الناس، إلا أنه لما نظر إلى أن الحماقة والهزل أنفق على أهل عصره أخذ منها وترك العقل، فصار في الرقاعة رأساً»⁽²⁾.

أما أخبار المجون والتبذل فلا تكشف عن بقاء الممارسة خصوصية بما يصاحبها من ألفاظ يظل نطاق التعامل بها محدوداً؛ وإنما تقفنا على انتقال الممارسة إلى مستوى أكثر شيوعاً؛ حين يكتشف الحمدوني الشاعر⁽³⁾ وقوعه مصادفة في شرك شخصين بمكان عام مزدحم هو السوق. كما تقفنا أيضاً على مستوى التبذل في الألفاظ التي غدت دارجة حتى بين امرأة متزوجة ورجل يقابلها لأول مرة، كما في أول خبر الشاعر محمد بن وهيب⁽⁴⁾، وغير ذلك من الأخبار⁽⁵⁾. لكن ذلك لا يمثل مادة ابن المعتز الإخبارية كلها؛ إذ سرعان ما يمزجها بأخبار الشخصيات الجادة، مثل شخصية عمارة بن عقيل⁽⁶⁾، أو مجوانب، كالزهد الذي تبديه شخصية المعلى الطائي⁽⁷⁾ الذي ترك الشعر

(1) من أمثلة المحاورات في هذه الحلقة سؤال أحد المستملين: «لم صار دجلة أعرض من الفرات، والقطن أبيض من الكمأة؟ فقال: لأن الشاة ليس لها منقار، وذنب الطاووس أربعة أشبار. «وتمضي بقية الأسئلة والأجوبة على هذه الشاكلة المفرطة في غرابتها»؛ طبقات لابن المعتز ص 342 - 344.

(2) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 343.

(3) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 370.

(4) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 310.

(5) يمكن قياس مستوى الشيوع المقصود أيضاً (في طبقات الشعراء لابن المعتز) من خلال ما تقدم من عينة الأخبار المنتقاة في ترجمتي أبي تمام والبحري، وغيرهما.

(6) طبقات الشعراء ص 316.

(7) طبقات الشعراء ص 333.

وتنسك فصار يصلي أكثر من ألف ركعة في اليوم واللييلة.

وحين يضاف إلى هذا الثراء الإخباري ما ماثله من ثراء فني تجسد - مثلاً - من خلال رقة شعر ربعة الرقي وعذوبته. أو المستوى الفني الذي كان عليه شعر عاصم الأصفهاني العنبري⁽¹⁾ الذي أورد ابن المعتز لاميته كاملة، أو شعر أبي الشيص⁽²⁾ الذي أطال الوقوف عنده، أو البعد الفني المتجسد في التمكن من الغرض الشعري الواحد لدى منصور الأصبهاني⁽³⁾ الذي أورد له أكثر من عشرين مقطوعة هجاء - حين نضيف إلى ذلك، المزيج الاجتماعي والفني ومظاهر التقدم في الحضارة المادية التي كشف ابن المعتز عن مستوى بذخها في بعض الأخبار المفصلة⁽⁴⁾، ونتأمل ذلك كله من خلال القالب⁽⁵⁾ الذي سبك فيه تلك الأخبار يتضح بذلك البعد التاريخي الذي حرص ابن المعتز على توثيقه باستقصاء ملامح أنموذج عام منتقى بعناية يمثل الشخصية المحدثة مرتبطة بواقعها الاجتماعي. ويتضح أيضاً الفرق بينه وبين سابقه في طريقة الاستقصاء ذاتها؛ حين فضل أن يقدم فكرة شمولية عن مجمل مناحي الحقبة التي عني بالتأريخ لها بدلاً من الترجمة المفصلة لكل شاعر.

ويصل بذلك إلى غايته الأساسية المتمثلة في رسم إطار مختار للشخصية المحدثة وما وصلت إليه من ثراء الطرف والنواتر في سياقها الإخباري، ومكوناتها الفنية من المقطوعات الشعرية التي تضاف إلى ما شاع بين الناس؛ ومن ثم تحفظ هذه المادة وتتداول عن المحدثين كما كان الشأن مع القديم.

(1) طبقات الشعراء لابن المعتز، ص 354.

(2) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 72-92.

(3) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 344.

(4) انظر مثلاً خبر وصف مجلس الخليفة «المخلوع» الأمين، طبقات الشعراء ص 209، وأيضاً خبر وصف الأصمعي لمجلس الفضل بن يحيى البرمكي، طبقات الشعراء ص 214.

(5) يبدو الأسلوب القصصي طابعاً غالباً لدى ابن المعتز ومن أفضل النماذج التي تجسد ذلك خبر قصة محمد بن وهيب، طبقات الشعراء لابن المعتز، ص 310 وخبر عيسى بن زينب مع غلامه، طبقات الشعراء لابن المعتز، ص 326.

وحين نتأمل إفصاح ابن المعتز عن شرط كتابه نتيقن من تلك الغاية المشار إليها ومن البعد التاريخي الذي سعى إليه في قوله: «ولكننا لا نخرج عن شرط هذا الكتاب لئلا يمل القارئ إذا طال عليه الفن الواحد، وليحفظ هذه النكت والنوادر والملح، وليستريح من أخبار المتقدمين وأشعارهم، فإن هذا شيء قد كثرت رواية الناس له فملوه، وقد قيل: لكل جديد لذة والذي يستعمل في زماننا إنما هو أشعار المحدثين وأخبارهم، فمن هنا أخذنا من كل خبر عينه، ومن كل قلادة حبتها»⁽¹⁾.

وإذا كان من وصف يجمل خلاصة جهد مؤرخي القرن الثالث فإنه يتمثل في التنوع الذي كان عليه نهج كل منهم. إذ أسهم ذلك في إفادة مؤرخي القرن الرابع بتنوع طرائقهم وأسس نظراتهم المؤرخة، من التحقيق، والاهتمام ببعض التفاصيل في حياة الشاعر، وأسلوب عرضها في أسلوب قصصي مشوق، وغير ذلك مما سنتطرق إلى كل منه في حينه.

(1) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 86، مع التنبيه لما ذكر سابقا عن تأخر الإفصاح عن شرط الكتاب من المقدمة إلى هذا الموطن مقارنة بتقدمه لدى سابقيه في مقدمتيهما. ولعل سبب ذلك ما ذكر عن ضياع مقدمة الكتاب الأصلية.

الفصل الأول

المرزباني ومؤلفاته في التاريخ للشعر

المحور الأول

المرزباني وقيمة مؤلفاته في كتابات المترجمين ومؤلفاتهم

التعريف بالمرزباني ومؤلفاته:

هو محمد بن عمران بن موسى بن سعيد، أبو عبيد الله المَرْزُبَانِي. خراساني الأصل. وُلد في بغداد عام (296هـ)، وبها كانت نشأته، وحياته، إلى أن تُوفي، ودُفن بداره بالجانب الشرقي من بغداد عام (384هـ). اشتهر لدى المترجمين بكثرة مصنّفاته في الأخبار، ولا سيما أخبار الشعراء، وغير ذلك مما أُلّف في الأدب والأُمم والرجال والنوادر، كما نوهت كتب التراجم بكونه مقدماً في مكانته العلمية والاجتماعية في عصره⁽¹⁾.

(1) انظر ترجمته مفصلة وثبت مؤلفاته في ملحق ترجمة ومؤلفات المرزباني المرفق بنهاية هذا البحث (الملحق الأول والثاني)؛ نقلاً عن: الفهرست للنديم محمد بن اسحاق، تحقيق رضا تجدد، دار المسيرة، بيروت لبنان ط3 1988، ص 146-149. وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 3/ 135 136- . وانظر ترجمته في كل من: المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم لابن الجوزي، حيدر آباد 1358، 7/ 177. إنباه الرواة على أنباء النحاة، لعلي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1374، 3/ 180. معجم الأدباء لياقوت الحموي مطبعة دار المأمون، مصر (د.ت) 17/ 269. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، (د.ت) 4/ 354. الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي، تحقيق س. ديدرينغ، دار النشر: فرانز شتاينر، بشتوتغارت ط 1412، 2/ 4 235. البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت 1966، 11/ 314. لسان الميزان لابن حجر العسقلاني، تحقيق غنيم عباس غنيم، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة 1416، 6/ 384. تاريخ الإسلام، للذهبي، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2، لبنان 1413 (حوادث ووفيات 381-400هـ) ص 87. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، مكتبة القدسي 1350، 3/ 111. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لعبد الله بن أسعد اليافعي، دار الكتاب القاهرة، ط2، 1413، 2/ 418. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، مصورة عن طبعة دار الكتب، 4/ 168. كشف الظنون، حاجي خليفة، ط3، طهران 1378، 2/ 1106-1179-1734.

وتعد ترجمة الخطيب البغدادي له (463هـ) من أقرب وأوفى التراجم؛ فقد تلقى شيوخه عن المرزباني، لكنه لم يورد ثبت مصنفاته. وكان النديم (385هـ) - وهو من معاصريه، ومن روى عنه⁽¹⁾ - قد أورد ثبت مؤلفاته إلى قبيل وفاة المرزباني بسبع سنين⁽²⁾.

وبما أن كتب التراجم التي تلت الفهرست، وتاريخ بغداد لم تزد على ما ورد فيهما كثيراً؛ وإنما تناقل أغلبها محتويات المصدرين فقد تم جمع ما ورد في المصدرين في ملحق بآخر هذا البحث، على أن تكون الوقفة هنا مخصصة لعرض أهم الجوانب التي استقطبت اهتمام المترجمين من مؤلفات المرزباني ونهجه في التأليف، للنظر في بواعث توقفهم تلك؛ إذ تجلي هذه الجوانب مقدار جهده التألفي الذي لم يصل إلينا منه سوى النزر القليل، كما تكشف الأهمية التي كانت عليها جهود المرزباني في التأليف بعامة، والشعر بخاصة. ومن أهم الجوانب التي توقف عندها المترجمون ما يلي:

أ - كثرة مؤلفات المرزباني:

وأول من تنبه لهذا الملمح لدى المرزباني معاصره النديم في الفهرست الذي وصف ذلك بقوله: «آخر من رأينا من الإخباريين والمصنفين، راوية صادق اللهجة، واسع المعرفة بالروايات، كثير السماع»⁽³⁾. وتابعه في ذلك الخطيب البغدادي فقال: «كان صاحب أخبار ورواية للآداب وصنف كتباً كثيرة في أخبار الشعراء المتقدمين والمحدثين على طبقاتهم وكتباً في الغزل والنوادر»⁽⁴⁾. وتابع هذا الوصف - تصنيفه

هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، ط3، طهران 1387، 2/ 54.

معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقى بدمشق، دمشق 1380، 11/ 97.

(1) انظر مقدمة رضا تجدد للفهرست ص (ب)، فقد ذكر أنه أحد ثلاثة روى عنهم محمد بن إسحاق النديم.

(2) انظر نص «النديم» في ملحق ثبت مؤلفاته (الملحق الأول).

(3) الفهرست ص 146.

(4) تاريخ بغداد 3/ 135.

لكتب كثيرة - كل من ابن الجوزي، والقفطي وابن خلكان، والحموي، وغيرهم⁽¹⁾. وبلغ تعداد مؤلفات المرزباني في الفهرست اثنين وخمسين مؤلفاً إلى عام (377هـ)، وهو العام الذي دوّن فيه النديم ثبته، وذكر فيه أنه ما يزال حياً، وأشار إلى ما لديه من مؤلفات في السواد ابتدأها ولم يتمها⁽²⁾. وذكر كل من ياقوت الحموي، والقفطي في ثبتيهما ما يزيد على أربعين مؤلفاً للمرزباني، وقال الحموي وله غير ذلك. وأورد الصفدي ثبت مؤلفاته بزيادة بعض المؤلفات، ككتابي: الخاتم، وأخبار شعراء الشيعة، وكتاب أخبار الأجواد الذي عده النديم من كتب السواد. وقد أورد محققا كتاب أشعار النساء للمرزباني ثبت مؤلفاته في مقدمتهما مفصلاً، وأشارا إلى المصادر التي ذكرت كل مؤلف منها⁽³⁾.

ولا تعود كثرة مؤلفات المرزباني إلى أعدادها السابقة فحسب. وإنما إلى تعداد ما كانت عليه من أوراق. إذ لديه أكثر من سبعة مؤلفات يزيد الواحد منها على الثلاثة آلاف ورقة، وثلاثة مؤلفات تزيد على الألفي ورقة، وخمسة تزيد على الخمسمئة ورقة، وثمانية تزيد على الثلاثمئة ورقة. وبقية مؤلفاته تتراوح ما بين مائتي ورقة إلى مئة. وإذا قدرنا أحجام هذه المؤلفات على أصل كتاب الموشح (ثلاثمئة ورقة) وعلى المقدار الذي خرج به مطبوعاً (أكثر من أربعمئة ورقة) حيث إنه الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا كاملاً فسيستسنى لنا مقارنة مقدار اتساع مدونة المرزباني التأليفية إجمالاً. أما أكثر كتبه مقداراً فهي التي خصصها لأخبار الشعراء الموسعة، كالمستنير في أخبار الشعراء المحدثين الذي أجمع القفطي والحموي والصفدي على أنه كان في عشرة آلاف

(1) انظر مواضع الصفحات المشار إليها في الكتب المذكورة في الصفحة السابقة.

(2) نص النديم على ذلك ص 146 فقال: «ويحيا إلى وقتنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمئة». كما قال: «له في السواد كتب كثيرة بدأ بعملها منها: أعيان الشعر في المديح والهجاء والفخر، والجود وأخبار الأجواد، والأوصاف والتشبيهات»؛ الفهرست ص 149.

(3) وبين المحققان المطبوع والمحقق من مؤلفاته. ووصل تعدادها لديهما إلى ستة وخمسين مؤلفاً. أشعار النساء، تحقيق سامي العاني وهلال ناجي ص 13-22 (بيانات هذا الكتاب وغيره من مؤلفات المرزباني، ومختصراتها، مما يُعد مصادر البحث ستذكر في محور تال خاص بذلك).

ورقة، والموثق والمفيد للذين كان كل منهما في نحو خمسة آلاف ورقة⁽¹⁾.

وهذه المقادير التي جاءت عليها كتبه المختصة بالشعراء من أهم الأسباب التي جعلت تداولها مقتصرًا على الخاصة من المهتمين لصعوبة استنساخها؛ خصوصاً إذا علمنا أن كتاب المستنير وهو المقتصر على المشهورين من الشعراء المحدثين إلى ابن المعتز فحسب، يساوي في حجمه كتاب الأغاني مرتين، وأن كتاب المقتبس في أخبار النحاة والعلماء (ثلاثة آلاف ورقة) لم يكن موجوداً منه في القرن السابع، سوى النسخة التي هي بخط مؤلفه المرزباني⁽²⁾. وعلى الرغم من ذلك المقدار الذي كانت عليه مؤلفات المرزباني في طولها، إلا أن ذلك لم يحل دون أن تحمل أهم ميزة من ميزات التأليف لديه، كما سنرى تالياً.

ب - تميزه في نهج التأليف ومقارنته بالجاحظ:

وقد تنبه لهذه الميزة الخطيب البغدادي، حينما روى ما كان يقال عنه في زمنه؛ إذ كان: «يقال إن أبا عبيد الله أحسن تصنيفاً من الجاحظ»، وأن أبا علي الفارسي قال عن المرزباني: إنه «من محاسن الدنيا»⁽³⁾. وذكر ابن الجوزي هذه الميزة بقوله: «صنف كتباً كثيرة مستحسنة في فنون»⁽⁴⁾.

أما علماء القرن السابع فقد أطروا على هذا الجانب على نحو آخر. فقال ابن خلكان عن المرزباني إنه: «صاحب التصانيف المشهورة، والمجاميع الغريبة»⁽⁵⁾. وسوغ الحموي هذا الجانب بقوله: «كان حسن الترتيب لما يصنفه يقال: إنه أحسن

(1) أعداد أوراق المؤلفات المشار إليها بحسب ما أجمع عليه كل من النديم في الفهرست، والحموي في معجم الأدباء، والقفطي في الإنباه. باستثناء عدد أوراق المستنير والمقتبس لدى النديم.

(2) ذكر ذلك البيهقوري في بيانه لبواعث إقدامه على اختصاره بمقدمته لـ نور القبس ص2.

(3) تاريخ بغداد 3/ 135.

(4) المنتظم 7/ 177.

(5) وفيات الأعيان 4/ 354.

تصنيفاً من الجاحظ⁽¹⁾. أما القفطي - الذي ذكر عن المرزباني أنه: «مصنف جميل التصانيف، وممتع المحاضرة والمذاكرة»، ونوه بتفضيله في زمنه على الجاحظ - فقد كان تقديره لمكانته العلمية بالترجمة له ضمن أنباء النحاة، ثم بالقول عنه: «وهو وإن لم يتخصص بعلمي النحو واللغة فقد ألف في أخبار جامعيتها ومصنيفها والمتصدرين لإفادتها كتاباً كبيراً، سماه المقتبس، يقارب العشرين مجلداً. وورد في أثنائه من المسائل النحوية، والألغاز اللغوية ما يعد به من أكبر أهله»⁽²⁾.

وظهرت عناية علماء هذا القرن على نحو آخر من خلال ظهور ثلاثة كتب في وقت متقارب ما بين مختار ومختصر من كتاب المقتبس، ومن خلال ثناء أصحاب هذه المؤلفات على ما تميز به هذا الكتاب وبيان بواعثهم على اختصاره. وسيكون لهذه العناية أهمية بالنظر إلى غياب المقتبس، وغياب مؤلفات المرزباني الموسعة المختصة بالشعر والشعراء.

ج - مصادر المرزباني والإفادة من مؤلفاته ومروياته:

توقف محققا كتاب أشعار النساء، عند شيوخ المرزباني، والعلماء الذين روى عنهم في كتبه، وكذا تلاميذه ومن روى عنه⁽³⁾. كما سرد محقق كتاب المعجم في مقدمته العلماء والكتب التي أفاد منها المرزباني في كتاب المعجم⁽⁴⁾. وإلى جانب ما ذكره المحققون ظهرت إفادة المرزباني من مصادر أخرى تتنوع بحسب طبيعة الموضوع الذي يعالجه المرزباني في كتبه. فعلى سبيل المثال كان تركيزه واضحاً في كتاب الموشح على كتب نقد الشعر السابقة، وأبدى اهتماماً مخصوصاً بكتابين أكثر من غيرهما هما كتابا: عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، إلى جانب

(1) معجم الأدباء 269 / 17.

(2) إنباه الرواة 3 / 180.

(3) أشعار النساء ص 9-13. وروى عنه إلى جانب تلاميذه بعض معاصريه كالمحسن التنوخي (ت 384هـ) صاحب نشوار المحاضرة وغيره.

(4) معجم الشعراء، للمرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ص (وزح).

رسالة ابن المعتز في شعر أبي تمام، وضرورات الشعر للعروضي. وقد نقل المرزباني من تلك الكتب نقولاً مطولة تصل إلى عدة صفحات في الموضوع الواحد، كما سنبين ذلك فيما يختص بالكتب الثلاثة الأولى في الفصل الثالث من هذا البحث.

وفي كتاب المقتبس ظهرت إفادته في الأخبار الموسعة عن العلماء والشعراء من كتب تراجم الشعراء، وكذلك كتب التاريخ العام، وكتب الأنساب وغيرها مما أشار إليه محقق كتاب المعجم. ونضيف هنا إفادته من فئة خاصة من المصادر، ولاسيما المؤلفات المعنية ببعض المعارف التاريخية، كمضمون كتاب المعارف لابن قتيبة⁽¹⁾، والمحرر لمحمد بن حبيب (245هـ)⁽²⁾، وغيرها من المؤلفات التي اهتمت بتتبع الشخصيات التي لها أسبقيات تاريخية⁽³⁾، وكذلك الكتب المعنية ببعض الفئات الاجتماعية، كالبصران والعرجان والعميان والحولان للجاحظ⁽⁴⁾ الذي أفاد منه على نحو مخصوص في كتاب المفيد. وكتب المثالب، ككتاب المثالب لأبي عبيدة⁽⁵⁾. وكتب اللغة المهمة بالدقائق اللغوية⁽⁶⁾؛ مما هو على شاكلة كتاب أبي العميشل (240هـ) ما اتفق لفظه واختلف معناه⁽⁷⁾.

أما الإفادة من مادة المرزباني ومروياته فيبيدي مقدارها العدد الكبير من الحالات إليه أو إلى كتبه لدى المؤلف الواحد، كابن حجر العسقلاني الذي أفاد منه في أكثر من

(1) المعارف، لابن قتيبة، ط6، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية للكتاب 1992.

(2) المحبر، لمحمد بن حبيب، تحقيق إيلزه شتير، دار الآفاق الجديدة بيروت.

(3) كأوائل من امتهنوا بعض المهن من الأشراف في الجاهلية والإسلام، وما يقاس على ذلك وغيره مما يجمع في بابه أول شهيد في الإسلام وأول مصلوب في الإسلام، ولعل كتابه الأوائل كان فيه كثير من ذلك.

(4) البصران والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الاعتصام، القاهرة بيروت 1392.

(5) ذكر الكتاب في غير موضع بأول ترجمة الأصمعي في المختار من كتاب النحويين للمرزباني. ص (95أ).

(6) يجسد هذا البعد كتاب معاصره أبي هلال العسكري الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1393.

(7) ما اتفق لفظه واختلف معناه، لأبي العميشل الأعراي، تحقيق محمود شاكر سعيد، نادي جازان الأدبي 1412.

ثلاثمئة إحالة في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة⁽¹⁾؛ إذ كان التزام المرزباني بعنصر التحقيق الزمني مفيداً في ترجيح أمر معاصرة المترجم له للرسول ﷺ من عدمها⁽²⁾. ومثله الخطيب البغدادي الذي روى من طريقه في كتاب تاريخ بغداد ما ينيف عن مائتي خبر⁽³⁾. وياقوت الحموي فيما يزيد عن مئة إحالة في معجم الأدباء. وغيرهم، كابن خلكان في وفيات الأعيان، والصفدي في الوافي، وغير ذلك من كتب التراجم والطبقات.

ومما ينبغي التوقف عنده في هذا الصدد تقليل الخطيب البغدادي في أثناء ترجمته للمرزباني من مروياته؛ إذ قال: إن أغلب ما يرويه لم يكن من سماعه، وإنما مما يرويه إجازة، وأنه يقول في ذلك حدثنا وأخبرنا. وهذا الرأي يقلل من المادة التي سمعها المرزباني، ويوحي بقلة مروياته التي سمعها سماعاً مباشراً. ومأخذ الخطيب هذا مسألة فيها نظر؛ لتعارضها مع شهادات معاصريه عن مقدار سماعه من شيوخه في الأدب، ومع ما ورد في ترجمته عن مكانته في عصره، وهذا هو العامل الأول في النظر إلى هذه المسألة. والثاني: أن المأخذ في أساسه مسألة خلافية في علم الرواية، ناهيك عن ظهور بعض اصطلاحات الرواية لدى المرزباني مما يُعد قرائن تعزز موقفه إزاء

-
- (1) للاطمئنان إلى العدد المذكور انظر ما أورده محقق كتاب معجم الشعراء في آخر الكتاب. وانظر كتاب: (من الضائع من معجم الشعراء) إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ.
- (2) انظر على سبيل المثال ترجمة (أسد بن أسيد بن إلياس بن زنيم)؛ فقد ذكره ابن حجر في الإصابة 1/ 32 في القسم الأول وهو قسم لا يذكر فيه إلا المتيقن من صحبته ولم ينص في موضع ذكر هذا الصحابي على مصدر سوى ما ذكره المرزباني نقلاً عن «دغفل» أنه أسلم وأبوه يوم الفتح. وفي موضع آخر - الإصابة 1/ 24 ترجمة (أحيحة بن الجلاح) - استعان بما ذكره المرزباني عن عمرو بن أحيحة بن الجلاح وأبيه؛ لأنه ورد ذكر اسم صحابي مطابق للاسم السابق فرجح أن يكون المقصود غير ذلك مشيراً إلى ما قاله المرزباني عن عمرو بن أحيحة، المخضرم، وأحيحة بن الجلاح الشاعر الجاهلي. وقس على مثل ذلك مواضع أخرى كثيرة.
- (3) انظر عدد المرات التي تشير إلى ذكر المرزباني في الكتاب بفهرس الأعلام تجدها أكثر من العدد المذكور، على أن المرزباني قد يرد ذكره في عرض الكتاب بأشكال أخرى كـ محمد بن عمران الكاتب، وأبي عبيد الله بن المرزبان. واقتصرنا على التدقيق في هذه الأعداد على الإحالات التي تأكد لنا أنها لأبي عبيد الله المرزباني، دون غيره ممن حمل هذا اللقب.

هذا المأخذ.

ففي العامل الأول نجد أن شهادة معاصره النديم له بأنه «واسع المعرفة بالروايات، كثير السماع» توضح جانباً من ذلك. كما أن ما ذكر في ترجمته عن خصوصية تلقيه يبين أنه كان في وضع من السماع يسمح له بالتلقي أكثر من غيره، إذا علمنا أن من شيوخه وغيرهم من أهل العلم كانوا يبيتون في داره. فقد ذكر غير مترجم⁽¹⁾ أنه كان في داره خمسون ما بين لحاف ودواج⁽²⁾ معدة لأهل العلم الذين يبيتون لديه، وأن أغلب شيوخه في الأدب ممن روى عنهم كانوا يأتون إليه في داره⁽³⁾، وذلك يدل على أن هذا الوضع قد ساعده، على نحو أوسع، للتلقي والأخذ في أيسر وقت.

أما العامل الثاني فيجد القارئ في كتابي الموشح وأشعار النساء، فيما يتعلق بإشاراته إلى أشكال تلقيه المختلفة، أنه كان يفرق ببعض الاصطلاحات لديه عن غير نمط من أنماط مصادر أخباره. كالتلقي من خلال طريق (المكاتبة) عندما تكون مروياته من طريق «أحمد بن عبد العزيز الجوهري». فلا تجده يروي خبراً عنه إلا وهو مبدوء بقوله: «كتب إلي»⁽⁴⁾. وكذا إفصاحه عن نمط (الوجادة) فكل ما يروي عن ابن المرزبان في أشعار النساء لا يذكره إلا من خلال قوله: «وجدت بخط فلان عن فلان»⁽⁵⁾. وثمة نمط آخر عندما يكون مصدر ما ينقله من بعض كتب (ابن المعتز، وابن طباطبا، وقدامة بن جعفر)⁽⁶⁾ فهو ينص مع هؤلاء على قوله: «قال فلان أو روى»، دون أن يذكر «حدثني، أو أخبرني». وفي ذلك كله ما يشير إلى أن المرزباني كان آخذاً بوجهة نظر العلماء الذين أجازوا الرواية بالإجازة دون تخصيصها بلفظ يبينها. وهذا يجعلنا

(1) كالخطيب في تاريخ بغداد 3/ 136، وابن الجوزي في المنتظم 7/ 177 والحموي في معجم الأدباء 17/ 269، والقفطي في الإنباه 3/ 181.

(2) الدواج: شبيه باللحاف.

(3) تاريخ بغداد 3/ 136، المنتظم 7/ 177، الإنباه 3/ 181.

(4) انظر: الموشح (فهرس الأعلام ص 533) وتتبع مواطن ذكر (أحمد بن عبد العزيز الجوهري).

(5) انظر: أشعار النساء الصفحات: 91، 112، 120، 146، 160.

(6) انظر هؤلاء في فهرس الأعلام في الموشح وتتبع مواطن ذكرهم الكثيرة.

نعود إلى الجزئية الأولى في العامل الثاني وهي كون مأخذ الخطيب مسألة خلافية في علم الرواية. فثمة علماء قد أجازوا الرواية بالإجازة مطلقاً، وآخرون اشترطوا أن ينص الراوي على لفظ يبينها كما هو الحال في موقف الخطيب. وهذا ما نص عليه ابن الصلاح في مقدمته مشيراً إلى المرزباني والحافظ أبي نعيم الأصفهاني بوصفهما من العلماء الذين عملوا بجواز ذلك⁽¹⁾. وقد نوه القفطي بأن نهج المرزباني الذي أخذه عليه الخطيب البغدادي قريب من الاحتجاج، وأجازه جماعة من أهل العلم⁽²⁾. ونقل الصفدي في الوافي رد محب الدين بن النجار على الخطيب في مأخذه ذاته على الحافظ أبي نعيم، فقال محب الدين أن ذلك باطل لأنه رأى أبا نعيم يبين في مصنفاته بقوله «كتب إلي»⁽³⁾.

(1) انظر مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (دار الكتب العلمية بيروت 1398) ص 81-82 فقد أشار إلى المرزباني فيما حكاه عنه الخطيب وغيره من العلماء القدماء، كأبي نعيم الأصفهاني صاحب التصانيف الكثيرة في علم الحديث ممن كانوا يميزون الرواية بالإجازة مع عدم النص على بيانها بالألفاظ الخاصة. وفي الموضع ذاته من مقدمة ابن الصلاح إشارة إلى أن بعض العلماء قد أجازوا الرواية بـ (المناولة المجردة عن السماع). وهي طريقة أقل من الرواية بـ (الإجازة الصريحة) التي يروي بها المرزباني.

(2) الإنباه: 3/ 181.

(3) الوافي 7/ 83-84.

المحور الثاني

تحقيق فيما وصل إلينا من كتاباته عن الشعر والشعراء وتوثيق للمؤلفات التي لم تصل إلينا بعد

أولاً: مقدار ما حُقق من مؤلفات المرزباني المعنية بالشعر والشعراء:
نسبة قليلة جداً وصلت إلينا من مؤلفات المرزباني التي تراوح مجموع أوراقها ما بين (42980) ورقة، أو (53151) ورقة بحسب روايتي صاحبي: الفهرست والإنباه⁽¹⁾.
أما ما تم تحقيقه ونشره فهو ثلاثة كتب فقط من المجموع السابق. ولا يعني ظهور الكتب الثلاثة أنها خرجت تامة كما توجي عناوينها. فالموشح، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر⁽²⁾ يظل الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا تاماً، من بين ما ألفه المرزباني كافة. أما كتاب معجم الشعراء⁽³⁾ فحقق منه قسمه الثاني المشتمل على نصف الأحرف، فيما لم يصل إلينا قسمه الأول. ولم يسلم القسم المحقق من غياب مقدار ليس باليسير من مادته، جراء فقد بعض الأحرف كاملة⁽⁴⁾، أو صفحات من بعض الأحرف الموجودة⁽⁵⁾. وبذلك فإن كتاب المعجم الموجود بين

(1) الفهرست للنديم ص 132-134، والإنباه للقفطي 3/ 182-184.

(2) الموشح، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة 1385 (التاريخ من المقدمة). وهذه الطبعة هي التي نحيل عليها في هذا البحث، مع الاختصار على مسمى (الموشح). وانظر للتوسع في هذا الكتاب: المرزباني والموشح، منير سلطان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية 1978.

(3) معجم الشعراء للمرزباني، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي)، القاهرة 1379، وهذه الطبعة هي التي نحيل عليها في هذا البحث، مع الاختصار على مسمى (المعجم) في أغلب المواضع.

(4) أحرف (الغين والنون والواو).

(5) كالصفحات التي تسبق (ذكر من اسمه عمرو) في حرف العين الذي يبدأ به القسم المنشور من الكتاب،

أيدينا لا يمثل سوى أقل من نصف الكتاب، الذي ألفه المرزباني مشتملاً على أكثر من خمسة آلاف شاعر⁽¹⁾. وإزاء هذا النقص جرت بعض المحاولات لاستعادة أعداد من التراجم الغائبة⁽²⁾.

أما كتاب أشعار النساء⁽³⁾ فالجزء الذي ظهر منه لا يعدو عُشر ما ألفه المرزباني من هذا الكتاب. وبذلك نوه محققاه، عندما ذكرا أن ما اعتمدا عليه في التحقيق هو قطعة من الكتاب تمثل بداية الجزء الثالث، عدد أوراقها تسع وخمسون ورقة، من

ففيه عدد كبير من أسماؤهم: عبد الله، وعبد الرحمن. وغير ذلك. ومثل ذلك في حرف الميم فقد، ذهبت منه أسماء في أول (ذكر من اسمه مرداس) المعجم ص 274، وفي (ذكر من اسمه مسلم) ص 277، وفي آخر (ذكر من اسمه منصور) ص 280.

(1) نص على هذا العدد النديم في الفهرست. انظر الملحق الثاني.
(2) حاول عبد الستار فراج - الذي أعاد تحقيق الكتاب بعد أن حققه «ف، كرنكو» سابقاً، ونشره في 1354هـ جامعاً بينه وكتاب المؤتلف والمختلف للآمدي في إصدار واحد (دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2، 1402) - حاول فراج أن يسد جانباً من النقص في الملحق الذي تتبع فيه أسماء الشعراء الذين عثر عليهم في مصادر أخرى ممن يقعون في القسم الذي لم يصل إليها من الكتاب. وقام على إثر ذلك إبراهيم السامرائي بجمع المعلومات الواردة بثبت فراج وإفراغ مضامينها في كتاب أسماه من الضائع من معجم الشعراء. ويدل ظهور تراجم جديدة في المصادر التي لم يعتمد عليها فراج أو السامرائي على غنى الكتاب بالتراجم، منها على سبيل المثال كتاب الإكمال في رفع الارتياح عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب، لعلي بن هبة الله (ابن ماكولا) (دار المعارف العثمانية 1962-1967) ففي هذا الكتاب أكثر من خمسة عشر اسماً أحصيناها من حرف الألف إلى حرف الحاء ممن ذكر أن المرزباني ترجم لهم في المعجم. وفي كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم أربعة أسماء عدا أبي العتاهية (إسماعيل بن القاسم)، ومثلها في كتاب نكت الهميمان في نكت العميان للصفدي، وغير ذلك.

(3) أشعار النساء للمرزباني، تحقيق سامي مكي العاني، وهلال ناجي، دار الرسالة، بغداد 1396هـ. وهذه الطبعة هي التي نحيل عليها في هذا البحث. وقد حقق الكتاب قبل ذلك سالم عياد، في رسالة ماجستير، لم تنشر قبل ظهور تحقيق ناجي والعاني. انظر: أشعار النساء، للمرزباني، تحقيق سالم عياد، رسالة ماجستير، مقدمة إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة عين شمس 1973.

أصل ستمئة ورقة، مشتملة على ثمان وأربعين ترجمة⁽¹⁾.

وجدير بالذكر في هذا الموضع أن كلاً من كتابي: المعجم وأشعار النساء، كانا تأني الأجزاء إلى وقت قريب نسبياً⁽²⁾، وأن محاولة في القرن السابع الهجري قد تمت لتذييل كتاب المعجم؛ قام بها أبو البركات مبارك بن أبي الشعار الموصل (654هـ) فألف كتاباً أسماه تحفة الوزراء المذيل على كتاب معجم الشعراء⁽³⁾.

ثانياً: مؤلفات المرزباني من طريقي الاختصار أو الاختيار:

أ: (المختصرات القديمة): كتاب المقتبس في أخبار النحاة والقراء والعلماء:

تقدمت الإشارة إلى القفطي الذي نوّه بمكانة المرزباني العلمية من خلال هذا الكتاب⁽⁴⁾، وقد أضحت للكتاب أهمية جديدة اكتسبها من خلال غناه بما يشتمل عليه من أخبار الشعراء مع العلماء المترجم لهم في الكتاب، خصوصاً أن مؤلفات المرزباني التي فصل فيها أخبار الشعراء من جملة كتبه التي لم تصل إلينا.

وبدأت مختصرات كتاب المقتبس حينما انتخب نجم الدين بشير بن أبي حامد بن سليمان الجعفري التبريزي (646هـ) كتاباً أسماه: الشهاب القبس من كتاب المقتبس في أخبار النحاة والقراء والعلماء، ولم يصل إلينا هذا الكتاب مباشرة، وإنما من طريق كتاب آخر هو: نور القبس المختصر من كتاب المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء⁽⁵⁾. وقد شرح صاحب نور القبس يوسف بن أحمد الحافظ

(1) أشعار النساء ص 23، وقد ذكر المحققان أن الأوراق متأثرة بالرطوبة ولذلك وُجد فيها سقط في غير موضع.
(2) استنتج عبد الستار فراج محقق المعجم وجود الكتاب كاملاً في مصر إلى عام 1205هـ، انظر مقدمة المحقق المعجم ص: (ك). وأشار محققاً أشعار النساء إلى وجود الكتاب كاملاً إلى القرن الحادي عشر الهجري. انظر مقدمة المحققين ص 4، هامش رقم (2).

(3) انظر: كشف الظنون حاجي خليفة 2/ 1734.

(4) انظر ص 47 من هذا البحث.

(5) نور القبس المختصر من كتاب المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تأليف أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليعموري، تحقيق

اليغموري (673هـ) في مقدمته دوافع سابقه التبريزي إلى تأليف الشهاب القبس من كتاب المقتبس، ويبيّن طريقة تعامل التبريزي مع الكتاب الأصلي المقتبس، ومن ثم تعامله هو مع الشهاب القبس.

ونقل اليغموري عن التبريزي قوله إن باعته على ذلك: «أمران أولهما: استفادتي منه ساعة بساعة، وثانيهما إطلاع أهليه بغرائبه، والنوادر التي فيه، فقد سمعت مشيختنا يقولون: لا يوجد من هذا الكتاب سوى الأصل الذي هو بخط المصنف، وهو ثمانية عشر مجلداً، في وقف الوزير نظام الملك في مدرسته بمدينة السلام، حماها الله، وقد حذفت الأسانيد والطرق، وما لا يتعلق به كبير غرض وفائدة. وقد انتخبت أنا [أي اليغموري] هذا المنتخب في هذا التعليق ولم أخل ترجمة منه غير أنني أذكر أحسن ما ذكر، وبالله التوفيق والعصمة في الاختيار»⁽¹⁾.

وإلى جانب الكتابين الآنفين ظهر في الوقت نفسه من القرن السابع كتاب ثالث من المقتبس هو: مختار من كتاب النحويين للمرزباني⁽²⁾، وصل إلينا الجزء الأول منه وما يزال مخطوطاً⁽³⁾.

ومن مجمل النظر في كتابي نور القبس، والمختار يظهر ما يتحلى به الكتاب الأصلي المقتبس من مكانة في الأدب العربي، وهو ما نوه به رودلف زلهائم في مقدمة تحقيقه لـ

رودلف زلهائم، فرانس شتاينر، بفيسبادن 1384. وهذه هي الطبعة التي ستم الإحالة عليها تالياً في هذا البحث باسم نور القبس اختصاراً.

(1) نور القبس ص 1.

(2) ورد اسم صاحب المختار على ورقته الأولى أنه علي بن حسن بن معاوية). ونظراً لعدم اكتمال الاسم، أو وجود كنية أو لقب يدعم ذلك، فقد تعذر معرفة هذا المؤلف بسبب طمس الأحرف الأصلية من الجزء الثاني من الاسم الثالث كما سيرد توضيح ذلك تالياً.

(3) مختار من كتاب النحويين للمرزباني، لعلي بن حسن بن معاوية]. مخطوط رقم 2515 مكتبة شهيد علي باشا. مصورة ميكروفيلم من النسخة نفسها برقم (146 ص)، مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، قسم المخطوطات. وهي النسخة التي نحل عليها في هذا البحث، وهي صور من النسخة ذاتها التي اعتمد عليها زلهائم. وسف تختصر الإحالات تالياً على هذا المصدر باسم المختار في كل صفحات هذا البحث.

نور القبس⁽¹⁾. لكن كلامه يوحي بأن هذه المكانة يتبوؤها نور القبس دون المختار؛ بل إنه ذهب إلى ما يوهم بأن مادة المختار مزيج من عدة كتب في التراجم.

ولذلك كان لابد من وقفة تجلي اللبس الذي تعرض له المختار من وصف مغاير لحقيقته الإجمالية؛ إذ بدر في سياق وقفة زهايم عند أهمية نور القبس ما يقلل من قيمة كتاب المختار بوصفه في المقام الأول مادة مختارة من كتاب المقتبس للمرزباني، شأنه في ذلك شأن نور القبس.

وأول ما يجلي حقيقة المختار وطبيعة المادة فيه خلافاً لما ذكره زهايم إفادته نفسه بمقدار كبير من المقابلات التي أجراها على نسخة المختار في تحقيق نور القبس؛ إذ بدا استخدامه لنسخة المختار في تحقيقه بمثابة النسخة المرادفة التي يقابل عليها مخطوط نور القبس، ولا سيما في التراجم المشتركة بينهما. ففي كل صفحة - في التراجم المشتركة - غير إحالة على نصوص الأخبار في نسخة المختار.

وهذه أولى النقاط التي تثبت طبيعة مادة المختار بوصفها جميعاً مادة للمرزباني، باستثناء مواضع محدودة للغاية، كالموضع الذي استشهد به زهايم في مقدمته، وموضعين آخرين، أحدهما: (تاريخ وفاة) نقله صاحب المختار عن فهرست النديم. على أن مجموع هذه المواضع التي خرج فيها صاحب المختار عن مقتبس المرزباني يقارب أربع صفحات من مجموع أربعمئة وثمانية وثلاثين صفحة.

وفيما يلي تفصيل ذلك بدءاً بتلخيص القرائن التي اعتمد عليها محقق نور القبس في رأيه، ومن ثم حكمه على المختار. ويمكن تلخيصها في أمرين: الأول: ما ذكره من أن صاحب المختار أدخل بترتيب تراجم الأصل فقدم وأخروا «أضاف أشياء من كتب التراجم الأخرى، كنقله الأخبار الواردة في الأوراق 94-95 ب من طبقات الزبيدي ص 41، 46، 47»⁽²⁾.

أما الأمر الثاني: فهو تقليل زهايم من تنوع أخبار المختار وغناها قياساً على مثيل

(1) نور القبس ص 35 وما بعدها.

(2) نور القبس ص 27.

ذلك في نور القبس. فذكر أنه على الرغم من فارق عدد الأوراق، الذي يميز المختار عن نور القبس، فإن ذلك في المختار؛ إنما يرجع إلى أن صاحبه فعل ما لم يفعله صاحب المختصر من ذكر الأسانيد، والطرق التي شغلت حيزاً كبيراً من الكتاب، إلى جانب تكرار الروايات والأحاديث التي لا تختلف في معناها إلا قليلاً⁽¹⁾. وقد استشهد على ذلك بترجمة الأصمعي في الكتابين.

وفي وقوفه عند هذه الترجمة بمخافة أمر يكشف مبدئياً عن اقتناع زهايم بأن مادة المختار للمرزباني. ولذلك سعى في تفصيلها على ذلك النحو، الذي لم يكتف فيه بتعداد صفحات الترجمة في الكتابين؛ وإنما سعى أيضاً إلى حصر دقيق لمجموع الأسطر في كل منهما، لكي يتسنى له إثبات غنى نور القبس عن المختار. لأن تقارب الصفحات، بحسب رأيه، دليل قاطع على ذلك؛ نظراً لأن الزيادة التي يتمتع بها المختار في غالب تراجمه لا تنبع من غناه، وإنما لحشوه بالأسانيد والروايات المكررة، وهي مسألة فيها نظر.

إن القارئ في مقدمة زهايم يقتنع بالأدلة التي استند إليها، وبخاصة في ظل بعده عن نسخة المختار. ولكنه بمجرد اطلاعه على نسخة المختار تزداد قناعته ويقينه شيئاً فشيئاً بأن المختار مادة للمرزباني لكثرة الأدلة على ذلك. ولكن القارئ ينبغي له أن يغض النظر، مؤقتاً، عن الصفحات التي ثبت فيها خروج صاحب المختار عن مادة المرزباني؛ لسببين: الأول: أن نسبتها إلى عدد صفحات الكتاب لا تكاد تذكر. والثاني: لأن تعرض زهايم لهذا الدليل كان مبالغاً فيه وموحياً بخلاف السائد في كل الكتاب؛ لأنه كان بصدد بيان أهمية كتابه.

والأدلة المشار إليها: منها ما نستقيه من ظاهر الكتاب، ومنها ما نستقيه من سياقه الداخلي. فمن ظاهر الكتاب جملة من القرائن التي تشير إلى أن من تداولوا الكتاب كانوا مقرين به مؤلفاً للمرزباني؛ إذ إن أول ما يطالعه القارئ بكل وضوح على الجزء المتبقي من صفحته الأولى الأصلية التي تبقت من خط مؤلفه: العنوان

(1) نور القبس: ص 28.

الرئيسي للمخطوط وفيه ما رسمه على هذا النحو في السطر الأول: (مختار من كت)، وفي السطر الثاني: بالخط ذاته شكلاً وحجماً (للمرزباني في أخبار النحـ)، وفي السطر الثالث: بخط أصغر (علي بن حسن بن معا)⁽¹⁾. ثم في موضع بياض، طمس قسماً من خط صاحب المختار على جزء من الصفحة، إتمام للأجزاء المطموسة من الخط الأصلي. ومن ثم أكمل اسم الكتاب إلى (النحويين)، والاسم الثالث لصاحب المختار إلى (معاوية)⁽²⁾. وعندما نترك الصفحة هذه إلى الصفحة المقابلة من الورقة ذاتها نجد عليها، بخط يبدو أنه متأخر عن خط صاحب المختار، ما نصه: (ترجمة المرزباني مؤلف هذا الكتاب أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني...) إلى آخر الترجمة التي وقعت في أربعة أسطر. وتتم هذه القرائن من ظاهر المخطوط بقريضة أخرى في آخره. فأخر ما يجده القارئ، بالخط نفسه الذي كتب به المخطوط، ما نصه: (آخر الجزء الأول من أخبار النحويين للمرزباني، يتلوه الجزء الثاني أخبار أبي عبد الرحمن عبيد الله بن محمد بن عايشة التيمي... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي وآله وسلم)⁽³⁾.

من هنا فإن بيانات الكتاب - سواء ما كان منها بخط المؤلف، أو ما ألحق مؤخراً، إلى جانب خاتمة الكتاب، والترجمة لمؤلفه المرزباني في أوله - تدل على أن الكتاب في أصله للمرزباني، بحسب إقرار من تداولوا النسخة.

أما الأدلة التي نستقيها من سياق الكتاب فهي على النحو التالي:

1 بقاء الأسانيد على الأخبار جميعاً. فما من خبر إلا وعليه إسناده في كتاب المختار، شأنه شأن كل مؤلفات المرزباني - باستثناء المعجم لطابع الاختصار فيه - وهي أسانيد يبدأ الكثير منها، ولا سيما التام منها غير المختصر، بالصولي وابن دريد، وغيرهما، ممن

(1) انظر صور المخطوط (مختار من كتاب النحويين للمرزباني) في الملحق الثالث.

(2) انظر صورة الورقة الأولى: (أ1) (مختار من كتاب النحويين للمرزباني) في الملحق الثالث.

(3) انظر صورة الورقة الأخيرة، (مختار من كتاب النحويين للمرزباني) في الملحق الثالث.

يروي عنهم المرزباني في كتابي الموشح، وأشعار النساء⁽¹⁾.

2 طريقة صاحب المختار الواضحة في الدلالة على أنه ينقل عن مؤلف واحد فحسب، هو المرزباني، وأن خروجه عن ذلك - في موضعين إلى كتابين نص على اسميهما ومؤلفيهما - كان استثناء محدد⁽²⁾. وذلك يحمد له من جهتين: الأولى: أن دلنا

(1) وأغلب أسانيد المرزباني هي التي تبدأ من الصولي، وهو أكثر من روى عنه المرزباني، ويليه ابن دريد. وللصولي عدة طرق درج المرزباني على أن يبدأ بها أخباره في الموشح وأشعار النساء. وقد وردت في المختار طبقاً لما في كتابيه الآنفين.

فمن طرق الصولي:

1- طريق عن المبرد، عن أبي عمرو الجرمي، إلى الخليل بن أحمد، ومن بعده. 2- طريق عن محمد بن العباس (ابن الرياشي)، عن أبيه، عن الأصمعي، ومن بعده. 3- طريق عن الفضل بن الحباب، عن دماذ، عن أبي عبيدة، عن يونس. 4- طريق عن أبي ذكوان القاسم بن إسماعيل، عن الجمار عن يونس. 5- طريق عن أبي زيد الأنصاري، عن أبي حاتم السجستاني، عن الأصمعي.

وغير ذلك، كروايته عن أبي العباس ثعلب وغيره إلى أبي الخطاب الأخفش الأكبر. = = ومن بعض طرق المرزباني من غير الصولي: مايلي:

- 1- ابن دريد عن (المبرد أو ثعلب أو أبي حاتم السجستاني) عن الأصمعي عن عيسى بن عمر.
 - 2- ابن دريد عن أبي عثمان سعيد بن هارون الأشناندي عن التوزي عن الأصمعي.
 - 3- أبو عبد الله الحكيمي عن يموت بن المززع عن عيسى بن إسماعيل عن الأصمعي عن عيسى بن عمر.
 - 4- أحمد بن محمد الجوهري، عن الحسن بن عليل العنزي، عن الرياشي، عن الأصمعي.
 - 5- أحمد بن محمد الكاتب، عن أحمد بن عبيد بن ناصح، عن محمد بن سلام، عن يونس.
- وتلك أمثلة من طرق المرزباني المعتادة التي تكررت فقط إلى ص 63 أ من المختار، ويمكن للقارئ أن يقارن بينها وبين طرق المرزباني في كتابي الموشح، وأشعار النساء. في أي موضع من الكتابين، وفي أي موضع من المختار. مع التنبيه إلى أن هذه ليست كل طرق المرزباني فله عدة طرق أخرى خلاف ما ذكر.
- (2) أشار صاحب المختار إلى كتاب طبقات الزبيدي ص 94 في نهاية نقله ترجمة الخليل بن أحمد الفراهيدي عن المرزباني. ونقل عنه خبراً، وأنموذجاً شعرياً. وكان مقدار النقل هذا صفحتين. وسرعان ما عاود النقل عن المرزباني ببداية ترجمة الأصمعي، التي تتلو ترجمة الخليل في المختار، ويدل على ذلك بداية أخبار الأصمعي بإسناد المرزباني من طريق أبي بكر الجرجاني ص 95، ويعززه وجود تعليق للمرزباني في المختار ص 95 ب يبتدئ بقوله «قال الشيخ أبو عبيد الله». وهذا هو موضع الخروج الأول الذي نص عليه

على المواطن التي خرج فيها عن مادة المرزباني، فاحتفظ له بحقه وحقوق غيره. والثانية: أن أبقى لنا من الألفاظ الموحدة ما يدل به على المؤلف في سائر مواضع الكتاب التي يدلي فيها بتعليقاته الخاصة. وذلك من خلال نهجه في الإشارة إلى المرزباني بالألفاظ التي يستخدمها في كتبه، عندما يتدخل للإدلاء برأيه شرحاً أو تعليقاً. فكان يستخدم للدلالة على المؤلف وصفه بلفظة (الشيخ) عادة⁽¹⁾، فيقول: (قال الشيخ). ولم يتبع لفظة الشيخ هذه في كل مواطن ذكرها الكثيرة في الكتاب⁽²⁾ بأي اسم أو كنية سوى كنية المرزباني أبي عبيد الله. وقد ورد ذلك في ثلاثة مواطن. فذكر في مرتين: لفظ (الشيخ) مقروناً بالكنية (أبي عبيد الله)، وذكر في مرة الكنية غير مضافة لمفردة (الشيخ) فقال: (قال أبو عبيد الله)⁽³⁾.

زلهام. انظر الموضعين في صور المخطوط (مختار من كتاب النحويين للمرزباني). وموضع الخروج الثاني، ولم يشر إليه زلهام، كان أيضاً إلى الكتاب السابق، ولم يُنص فيه على اسم الطبقات؛ وإنما ابتدأ أخباراً في نهاية أخبار سيويه عن المرزباني (المختار ص 135 ب) بقوله: (قال: الزبيدي)، ومقدار النقل هنا أقل من الصفحتين بقليل لأنه عاد ليختم أخبار سيويه بأخباره لدى المرزباني، يدل على ذلك تطابق الأخبار في هذا الجزء في كل من نور القبس ص 97 والمختار ص 136 ب 137أ، ويدل عليه أيضاً تعليق مشترك للمرزباني، على وهم عبد الباقي بن قانع في زمن وموضع موت سيويه، ونص التعليق في المختار هو قوله: «قلت أنا: وهذا غلط قبيح لأن سيويه بقي بعد هذا مدة طويلة». أما نصه في نور القبس فهو قوله: «قال المرزباني: وهم فيهما جميعاً أعني الموضع والتاريخ».

أما الخروج الثالث فكان محدوداً للغاية لأنه نقل تاريخ وفاة مؤرج السدوسي عقب نهاية ترجمته لدى المرزباني من الفهرست (ص 54) ونص الخروج هو قوله: «في فهرست النديم توفي مؤرج سنة خمس وتسعين ومئة في اليوم الذي توفي فيه أبو نواس» المختار ص 145 أ، وقد وضع صاحب المختار هذا النقل بين علامتين تحدانه.

(1) ثمة موضع ورد أنفاً بدأ فيه التعليق ب: «قلت أنا». (2) من أمثلة ورود (قال الشيخ) في أول الكتاب: ص 7 بالمختار، وص 25 ب، ص 38 أ وغيرها. ومن أمثلة ذلك في وسط الكتاب ص 68 أ، وص 73 أ، وص 77 أ، وص 91 أ، وص 95 ب وغيرها. ومن أمثلة ذلك في آخر الكتاب ص 151 ب، وغيرها من المواضع في الكتاب.

(3) وردت المواطن الثلاثة في المختار: ص 95 ب، وص 182 ب، وص 194 أ. جدير بالذكر أن عدداً من المواضع التي يشرح فيها المرزباني الكلمات الغريبة في الأبيات، أو يدلي بتعليقات مختصرة، مما لا يذكر فيها إشارة

وزيادة على الإشارات السابقة نجد صاحب المختار في عدد من الأخبار - التي لا يورد أسانيداً تامة، وإنما مختصرة - يشير أيضاً إلى المرزباني بقوله: (المرزباني بإسناده إلى فلان)، أو (بإسناده إلى فلان) وذلك ما كان يلجأ إليه ما بين فينة وأخرى⁽¹⁾. وعلى الرغم من كل الدلائل التي سقناها مما يؤكد أن هذا (الشيخ) الذي تكرر ذكره هو المرزباني لما تقدم من جهة، ولماثلة ذلك ما هو موجود في الموشح من جهة أخرى⁽²⁾ - إلا أننا نسوق دليلاً آخر من خارج الكتاب للاطمئنان أكثر.

فمن ضمن التعليقات التي نجدها للشيخ تعليق له على ثلاثة أبيات للخليل⁽³⁾ قال فيه: «وهذا مما أبدع فيه الخليل، ولم يُسبق إليه، لأنه وصف انقباض اليدين بحالين

إلى نفسه قد ورد في المختار أيضاً. انظر مثال ذلك ص 34 أشرح كلمات من أبيات لرؤبة. وانظر تعليقه لعدم إجادة العجاج ورؤبة نعت الخليل لكونهما صاحبي إبل ص 59 أ - ب. أما إن كان التعليق أو الشرح لغيره من العلماء والرواة فإنه ينص على اسمه، انظر مثال ذلك تعليق الصولي على قول ليونس عن قيمة شعر الفرزدق ص 57 ب، ومثله شرح معنى اسم رؤبة ليونس ص 61 أ. وانظر شرح ابن دريد المطول للغريب الذي تضمنه خبر للخليل مع أحد الأعراب الفصحاء ص 86 ب 87 أ. وغيرها من المواضع المشابهة.

(1) انظر على سبيل المثال: إلى بعض الأمثلة كقوله في نمط: (المرزباني بإسناده إلى فلان) ومنه (المرزباني بإسناده إلى عبد الله بن ياسين البصري) ص 47 ب، وص 48 أ، وغيرها. وقوله في نمط ثان دون أن ينص على المرزباني «بإسناده إلى محمد بن سلام» ص 24 ب، وص 25 ب، وقوله: «بإسناده إلى عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي» ص 32 ب، وص 23 ب، ص 26 أ، وذروة هذه الطريقة تجدها ص 50 أ - ب ففيها ثمانية أخبار على الطريقة نفسها من نحو قوله «بإسناده إلى فلان».

(2) درج المرزباني في الموشح عندما يتدخل للتعليق أن يبدأ تعليقاته بقوله: «قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني» انظر: الموشح على سبيل المثال الصفحات: (197، 207، 220، 267) وغير ذلك.

(3) الأبيات هي التي يقول فيها ص 77 المختار: [المتقارب]

كَمَا لَمْ تُخْلَقْ لِلدَّ	يُولَمُ بِكَ خُلُقُهُمَا بَدْعُهُ
فَكَفَّ عَنْ الْخَيْرِ مَقْبُوضَةٌ	كَمَا نُقِصَتْ مِائَةٌ سَبْعُهُ
وَكَفَّ ثَلَاثَةُ آلَافِهَا	وَتَسَعُ مِئِهَا لَهَا شِرْعُهُ

من الحساب مختلفين في العدد متشاكين في الصورة وهما ثلاثة وتسعون⁽¹⁾. ونجد أن عبد القاهر الجرجاني (471 - 474هـ) في أسرار البلاغة يذكر الأبيات الثلاثة، عقب أن شرح نكتهما البلاغية، يختم شرحه بما ينص على أن الشيخ هو المرزباني. يقول الجرجاني: «قال المرزباني: وهذا مما أبدع فيه الخليل، لأنه وصف انقباض اليدين بحالين من الحساب... [التعليق...] وقوله هذا إجمال ما فصلته»⁽²⁾.

وبعد ما تبين لنا أن كتاب المختار في كل مادته - باستثناء المواضع المشار إليها - للمرزباني تأتي على مسألة تفضيل نور القبس على المختار.

والحديث يبدأ في هذه المسألة بما قاله المحقق نفسه عن نور القبس؛ إذ ينطبق كذلك على المختار. فلا يقلل من قيمة المختار تكرار بعض الروايات وبقاء الأسانيد فيه. فمن البديهي أن البون شاسع في المادة، بين كتاب يقتصر على ثلاث وثلاثين ترجمة يستقصي فيها كل ما أمكن من أخبار المترجم له، وبين آخر يوزع جهده على مئة وخمس وعشرين ترجمة. فمهما طالت الأسانيد - التي رأينا قسماً منها يرد مختصراً - أو تكررت الروايات فإن النهاية واحدة وهي غنى المختار في أخباره التي وقف عليها وفقره، في المقابل، من التعداد الكلي للتراجم التي كانت في الأصل. ولناخذ ترجمة الأصمعي⁽³⁾ التي ضرب بها المحقق مثلاً لما تعنيه كثرة صفحات الترجمة في المختار. مع أن اختيار محقق نور القبس لهذه الترجمة بخاصة لا يخلو من الانحياز فهي أطول تراجمه، كما أن طولها لا يحكي متوسط طول التراجم في نور القبس. وهو يسعى بهذا إلى بيان أن التقارب أمر حاصل في عدد الصفحات الذي تكون عليه الترجمة بين الكتابين، ومن ثم يثبت - بسبب وجود تكرار الروايات والأسانيد في المختار - تفوق نور القبس. وعلى الرغم من ذلك ففي بداية الترجمة بـ المختار - بعد استبعاد الروايات

(1) المختار ص 77أ.

(2) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة ودار المدني بمصر، وجدة، 1991م ص 155. والأبيات مع التعليق عليها وردت في نور القبس ص 59-60 بزيادة في الرقم هي «ثلاثة وتسعون وتسعمئة وثلاثة آلاف».

(3) ترجمة الأصمعي في نور القبس (125-170)، وفي المختار (95-129ب).

المتكررة - واحد وعشرون خيراً عن النطاق الاجتماعي للأصمعي، مما لا وجود له في نسخة نور القبس؛ وهو ما دفع المحقق إلى الاستدراك، فذكر أن اختلاف الترجمتين في مضامين الأخبار يدل على تنوع وثرء في المصدر الأصلي كتاب المقتبس⁽¹⁾. وليس المقصود من كلامنا هنا تفصيل كتاب على آخر؛ وإنما الإشارة إلى أن أوجه الخلاف في المادة بين الكتابين قد جاءت في مصلحة الباحث عن مجمل المادة الأصلية لكتاب المقتبس. فعلى سبيل المثال هناك نقص كبير واختصار محل في بعض التراجم، فترجمة (الأخفش الأكبر أبي الخطاب) في نور القبس جاءت في خمسة أسطر، بينما استغرقت الترجمة له في المختار قرابة أربع وعشرين صفحة⁽²⁾. ويكفي أن نشير هنا إلى أن صاحبي نور القبس، والشهاب القبس باختصارهما هذه الترجمة تحديداً قد أغفلا أخباراً مهمة للغاية فيها عن تطور تفسير الشعر والتعمق في قراءته⁽³⁾. وقس على ذلك ما لم يرد لديهما بترجمة الجاحظ التي تكشف الوجه الشعري لديه⁽⁴⁾، وكذا لدى غيره من العلماء في نسخ أخبارهم المستوفاة على نحو أفضل لدى صاحب المختار، مما سنشير إلى أهميته في مواطنه من هذا البحث⁽⁵⁾.

وينبغي التنويه في ختام هذه الوقفة بأن هذين الكتابين نور القبس والمختار إلى جانب الكتب الثلاثة المنشورة هي مصادر هذا البحث الرئيسية. ولتكرر ورودها فسيشار إلى أسمائها اختصاراً وفق بيانات الطباعات المحددة، ورقم نسخة مخطوط المختار المشار إليه سلفاً⁽⁶⁾.

-
- (1) ذكر زلهام في مقدمته ذلك في قوله: «ولا يتماثل المختصر والمختار إلا في ربع رواياتهما، ويدل هذا البون الشاسع بين الاثنين على غناء أخبار الأصل» نور القبس ص 28*.
 - (2) ترجمة الأخفش الأكبر في نور القبس ص 47. وفي المختار من ص 37-49 ب.
 - (3) من ذلك بداية تفسير الشعر بيتاً بيتاً. ومن ذلك التوصل إلى محاور نقائص جرير - في خبر مطول - يُعد من جهة أخرى أحد الأدلة على كون مادة المختار للمرزباني إذ استغرق هذا الخبر ثمانين صفحات في المختار (142-145)، وكرره المرزباني بنصه الطويل في الموشح في أخبار جرير ص 167-170.
 - (4) انظر: المختار نماذج من شعر الجاحظ، ونقائضه مع الجمار، ص 13 ب-18 ب.
 - (5) من هذه المواضع على وجه التحديد علاقات الوسط الأدبي في مبحث الأبعاد السيرية من الفصل الثاني.
 - (6) سبق تحديد الطباعات مع الورود الأول لكل مصدر، وكذا رقم نسخة مخطوط المختار، وموضع وجوده.

ب: (المختصرات التي وصلت إلينا في العصر الحديث):

(1- أخبار شعراء الشيعة. 2- أخبار السيد الحميري. لأبي عبيد الله المرزباني)⁽¹⁾:

ظهر هذان الكتابان حديثاً منسوبين إلى المرزباني على الرغم من أننا لا نجد ذكراً لهما لدى المترجمين، ولا سيما الذين تناقلوا ثبت مؤلفات المرزباني عن فهرست النديم - الذي كان معاصراً للمرزباني - باستثناء الصفدي الذي انفرد وحده بذكر كتب لم ترد لدى غيره، منها كتاب أخبار شعراء الشيعة⁽²⁾.

ويلاحظ القارئ في الكتابين ما يلفت الانتباه حول البون الواضح بين طبيعة كل منهما. فكتاب أخبار شعراء الشيعة الذي نفرض أنه مؤلف للمرزباني، بحسب الصفدي، لا يبعد أسلوبه، ومضامينه ونهج تأليفه عن المرزباني فحسب، وإنما يبعد أيضاً عن نهج القدماء أنفسهم في التأليف، وبُعد الكتاب عن أسلوب المرزباني قد ذهب إليه من قبل محققاً أشعار النساء⁽³⁾. بينما تبدو الطبيعة الإجمالية للكتاب الثاني أخبار السيد الحميري هي الأقرب إلى ما ذكر، مع أنه لم يرد له ذكر عند المترجمين بوصفه مؤلفاً مستقلاً للمرزباني. ومع هذا فمعظم الأخبار فيه تنتهي إلى طرق المرزباني وأسانيده المعروفة في كتبه الأخرى، وكذا أسلوبه. مما يشير إلى أن مادته في أصلها للمرزباني، وهو ما يلتقي فيه الكتاب مع كتابي نور القبس والمختار. لكن اختلاف الكتاب عنهما جاء من أن أسانيده لا تبدأ بما تبدأ به مثيلاتها في كتب

والأسماء المختصرة هي: المعجم ل معجم الشعراء، والموشح، وأشعار النساء، ونور القبس، والمختار.
(1) أخبار شعراء الشيعة، تلخيص محسن العاملي، تحقيق محمد هادي الأميني، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق 1388هـ. أخبار السيد الحميري، تحقيق محمد هادي الأميني، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق 1385هـ. وقد ظهر الكتابان في طبعة ثانية مشتركة - بالمحتوى ذاته - بمسمى: أخبار شعراء الشيعة، أخبار السيد الحميري، لأبي عبيد الله المرزباني، تقديم وتلخيص وتعليق محمد هادي الأميني، ط2، شركة الكتي، بيروت لبنان 1413هـ. والطبعة الثانية هي التي نحل عليها في هذا البحث.

(2) ومنها أيضاً: الخاتم، والجلود وأخبار الأجواد. انظر الوافي للصفدي 4/ 237.

(3) ذهب سامي مكي العاني وهلال ناجي في معرض سردهما لمؤلفات المرزباني إلى أن أسلوب أخبار الشيعة بعيد عن أسلوب المرزباني، ولم يشر إليه أحد ممن ترجم للمرزباني. أشعار النساء ص 22.

المرزباني الأخرى. الأمر الذي يجعل القارئ يتردد في عده مؤلفاً مباشراً للمرزباني، يُحسب عليه فيه تبويبه، ومقدار مادته. ناهيك عن خلو ثبته من مصنف مستقل بهذا الاسم. ولذلك نرجح أنه من جمع أحد تلاميذ المرزباني الذين أجازهم في الرواية عنه، أو أنه لأحد ممن بعدهم، كما يبدو من ذكر (الإجازة) في أول أخبار الكتاب. وحينما أعيد نسخ الكتاب في زمن متأخر عن هذا المؤلف، تم إرجاع أخباره إلى المرزباني⁽¹⁾. يؤيد ذلك ما أشرنا إليه من خلل لدى بدء الأسانيد، وكذا الخلط في كنية أبي عبيد الله المرزباني⁽²⁾.

من هنا فإن اعتمادنا على أخبار السيد الحميري كان محدوداً للغاية في هذا البحث ويكاد يقتصر على موضع واحد، كما أن الاعتماد في هذا الموضع سيكون من باب الاستئناس بمضمون الكتاب، وفي ضوء مقارنته بمعلومات مستقاة من كتابات أخرى للمرزباني.

أما كتاب أخبار شعراء الشيعة فمن الواضح أنه قد ابتعد كثيراً، شكلاً ومضموناً، في هيئته الراهنة عن نهج المرزباني. فالنسخة الأصلية غير موجودة ولا يعرف مكانها، مع أن زمن تلخيصها والعثور عليها لا يفصلنا الآن عنه سوى خمسين سنة⁽³⁾. وزيادة على عدم

(1) ورد ما نصه في الخبر الأول من أخبار السيد الحميري: (أخبرنا على سبيل الإجازة أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، عن أشياخه، وأخبرنا المرزباني عن الصولي قال: ...) أخبار الشيعة، أخبار السيد الحميري ص151. وانظر كذلك خبراً لهذا المؤلف عن رجوع السيد عن كيسانيته إلى الإمامية فهو خبر متأخر يستشهد فيه صاحبه بما أخبر به المرزباني ص164-165. وخبراً آخر يروي فيه هذا المؤلف عن (الطيب بن محمد) الذي يروي عن المرزباني ص168.

(2) أخبار الشيعة، أخبار السيد الحميري: وردت كنية المرزباني على أنها (أبو عبيدة) في الأخبار الواردة ص174، 172، 170، 169، 167، 165، 162، وذلك خلاف كنيته التي وردت صحيحة في الأخبار الأخرى من الكتاب نفسه، وخلاف التصحيف المقبول الذي يقع أحياناً فيرد أنه (أبو عبد الله).

(3) ظهرت على غلاف كتاب أخبار الشيعة في طبعته الأولى - بين اسم مؤلفه (المرزباني) واسم محققه - عبارة وسيطة هي: (تلخيص السيد محسن الأمين العاملي المتوفى 1371هـ) ولم ترد هذه العبارة على غلاف الطبعة الثانية، وإنما اكتفى المحقق بكلمة: (مختصر) على غلاف الكتاب الداخلي قبل عنوان (أخبار

وجود الأسانيد في الكتاب، فإن طرق عرض التراجم فيه ذات أسلوب متأخر، ومصادر تحقيق الأخبار فيه أغلبها مصادر تراجم أعلام الشيعة دون المصادر العامة إلا ما ندر. لذلك كله يخامرنا تردد كبير في حقيقة المتبقي من مادة الكتاب الأصلية إذا ما قسنا المادة المطروحة فيه مما يعرضه هذا الكتاب من قضايا الشعراء على غرار ترجمة (أبي نواس)⁽¹⁾، وفي ضوء ما نص المحقق على محتوى الكتاب في تقديمه له بقوله: «يحتوي الكتاب على ذكر أخبار الشعراء من الشيعة الإمامية وقضاياهم وهم على الترتيب الذي صنّفه المرزباني 27 شاعراً، كما يلي: ...»⁽²⁾.

ومجمل القول في هذا الكتاب أن المتبقي مع التلخيص والتهذيب لا هو أبقى المادة على ذات أسلوبها القديم، ولا هو أبقى على الأسانيد لنظمين إلى نسبة هذه الأخبار إلى المرزباني كما هو الحال في كتاب أخبار السيد الحميري. وبهذا فقد أخل كثيراً بالمادة الأساسية التي كانت فيما يبدو جزءاً من الفصل الثالث في كتاب المفيد، كما يفهم من وصف النديم - في وقوفه عند هذا الكتاب تحديداً - فذكر عن المرزباني أنه عرض فيه لمذاهب الشعراء ودياناتهم ومذاهبهم؛ كالنصارى واليهود، والشيعة، والخوارج، ومن جرى مجراهم⁽³⁾.

ثالثاً: توثيق لبقية مؤلفات المرزباني المختصة بالشعر والشعراء مما لم يصل إلينا:

الشيعة)، ثم اسم المرزباني، واسم المحقق. جدير بالذكر أن المحقق قد عرض لأمر عثور صاحب التلخيص على الأصل، ثم فقد ضياعه منه في مقدمته لكلتا الطبعتين. كما انفرد المحقق من بين كل من ترجموا للمرزباني قديماً وحديثاً بأنه شاعر وأن شعره فقد من جملة ما ضاع من مؤلفاته، وأنه جاب الأقاليم والبلدان لجمع مواد مؤلفاته دون أن يحيل على أي مصدر لهاتين المعلوماتين.

(1) نص مادة الترجمة لأبي نواس في الكتاب: «أنه في فضله وشعره فمشهور، وأما في مذهبه فكان شيعياً إمامياً حسن العقيدة، وهو القائل في علي بن موسى (الرضا) عليه السلام وقد عوتب في تركه مدحه...»، ثم أورد ما قاله وهي الأبيات الأربعة التي ليست موجودة في الديوان بمختلف طبعاته كما نص المحقق على ذلك في الحاشية، أخبار شعراء الشيعة أخبار السيد الحميري ص 114.

(2) أخبار الشيعة، أخبار السيد الحميري ص 21.

(3) انظر الفهرست ص 146. والملحق الثاني (مؤلفات المرزباني).

1- كتاب الموثق (الموثق): في أخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين:

هذا الكتاب أشار إليه المرزباني إجمالاً في مقدمة كتاب الموشح⁽¹⁾ ضمن كتب له نص على أسماء بعضها، وذكر عن التي لم يسمها أنه فصل فيها أحوال الشعراء وأخبارهم. وأورد النديم هذا الكتاب أول الكتب من ثبت المرزباني في الفهرست، قائلاً عنه: «الكتاب الموثق في أخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين، وبدأ بامرئ القيس وطبقته، واستقصى أخبارهم، والمخضرمين ومن تبعهم من الإسلاميين على طبقاتهم؛ وجعل جريراً والفرزدق وطبقتهما في صدر الإسلاميين، وأورد محاسن أخبارهم إلى أول الدولة العباسية. ثبتها الله وأيدها وأدامها ومدّها. وذكر ابن هرمة، والحسين بن مطير، ومن يستشهد بشعره منهم. وعدد ورقه أكثر من خمسة ألف ورقة»⁽²⁾. وأورد القفطي الكتاب في ثبت مؤلفات المرزباني في الإنباه باسم: «الموثق في أخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين، والمخضرمين، والإسلاميين إلى الدولة العباسية مستوفي الأخبار، خمسة آلاف ورقة»⁽³⁾. كما أورده الحموي في معجم الأدباء باسم الموثق وبنحو من الأوصاف وعدد الأوراق ذاتها⁽⁴⁾. وذكره الصفدي في الوافي بوصفه (كتاب الشعراء الجاهليين)⁽⁵⁾.

أما الذين أحوالوا على الكتاب، أو نقلوا عنه في مؤلفاتهم فمنهم ابن أبي الحديد الذي ذكره في شرح نهج البلاغة، ونص على أنه قرأ في كتاب الموثق للمرزباني⁽⁶⁾. ونقل عنه

(1) الموشح ص 15.

(2) الفهرست ص 146.

(3) الإنباه للقفطي 3 / 182.

(4) معجم الأدباء 17 / 272.

(5) الوافي بالوفيات 4 / 236.

(6) ذكر ابن أبي الحديد أنه قرأ خطبة نسبها المرزباني في الموثق لقطري بن الفجاءة. انظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) القاهرة 1385، 7 / 236.

ابن خلكان في الوفيات (ترجمة يزيد بن الطثرية) ناصاً على المرزباني وكتابه المونق⁽¹⁾. أما أطول النقول عن هذا الكتاب فكان في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب. إذ نقل نحواً من عشرين خبراً عن المرزباني في ترجمة رؤية بن العجاج⁽²⁾.

2- كتاب المستنير: في أخبار الشعراء المحدثين المشهورين:

أحال المرزباني على كتابه هذا في كتاب المقتبس، لدى ترجمته لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، مشيراً إلى أن له أخباراً مع الأصمعي وأبي عبيدة قد استقصاها في كتابه المستنير⁽³⁾. وذكره النديم في الفهرست بقوله: «الكتاب المستنير فيه أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من الشعراء المحدثين ومختار أشعارهم على أسنانهم وأزمانهم.

(1) وفيات الأعيان 6/ 372.

(2) نقل ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد، ت 660هـ) صاحب بغية الطلب في تاريخ حلب (تحقيق سهيل زكار، دار القلم العربي، دمشق 1409) عن المرزباني في ترجمته: لرؤية بن العجاج (8/ 3696-3715) وأبي العتاهية (4/ 1749-1804). وفيما نقله عن رؤية كان يكتفي باسم المرزباني، وسلسلة رواته الموصلة إلى المرزباني، ولم ينص على مسمى كتاب المرزباني الذي ينقل منه أخبار رؤية وهو كتاب: الموثق. وقام بالضد من ذلك في ترجمته لأبي العتاهية، عندما نص على اسم المستنير في أكثر من عشرة مواضع من مجمل ما نقله عن المرزباني. ومن اختلاف إحالاته - من خلال تمسكه بالأسانيد المنتهية إلى المرزباني، على طولها، في أخبار رؤية، واقتصاره فيما نقله من أخبار أبي العتاهية عند الإحالة على المرزباني على قوله: «قرأت في كتاب المستنير للمرزباني» باستثناء خبرين - نستنتج: أنه قد تلقى كتاب الموثق تواتراً عن شيوخه وصولاً إلى المرزباني، ولم يتلق المستنير. أما المعجم، فيبدو أنه تلقى جزءاً منه. وبهذا فالمؤكد أن العشرين خبراً التي نقلها صاحب بغية الطلب عن المرزباني في أخباره عن رؤية هي من كتاب الموثق. لأن مقدار الأخبار المنقولة يفوق مقادير التراجم الموجزة بالمعجم. ولأنه لو نقل بعضها من المعجم لأشار إلى ذلك كما فعل في أخبار أبي العتاهية. ففضل نقل أخباره تامة الأسانيد عن كتاب الموثق؛ ليشير إلى تلقيه تواتراً عن المرزباني. جدير بالذكر أن في كتاب بغية الطلب أخباراً أخرى عن رؤية من مصادر أخرى غير المرزباني، ك الورقة لابن الجراح، وأخبار أبي العتاهية للآمدي وغيرهما. فاقصرنا فيما يتعلق بأخبار رؤية وأبي العتاهية على حصر الأخبار ذات الأسانيد التي هي من طرق المرزباني، أو على ما نص فيه على اسمه مقروناً بأحد كتبه، وما يتبع ذلك من الأخبار المتممة لها، مما يكتفي فيه بقوله «وقال المرزباني».

(3) نور القبس ص 316.

أولهم بشار بن برد وآخرهم أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله رضي الله عنهما وعدد ورقه ألف ورقة وهو بخط المرزباني في ستين مجلداً سليمانياً⁽¹⁾. وذكره كل من القفطي في الإنباه، والحموي في معجم الأدباء، واتفقا على أن عدد أوراقه أكثر من عشرة آلاف ورقة⁽²⁾. وتابعهم الصفدي في الوافي، في العدد نفسه، كما وصفه أنه كبير للغاية⁽³⁾.

وقد نقل الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، عن المستنير أيضاً، ونص على ذلك بقوله: «أنشدني المرزباني أبو عبيد الله في كتابه المستنير...»⁽⁴⁾. ونقل صاحب بغية الطلب في أخبار حلب ما يزيد عن عشرين خبراً من أخبار أبي العتاهية، بعضها يستغرق غير صفحة. ومن بعض أخباره نورد هذا المقتطف للدلالة على جوانب الإخبار عن الحياة الاجتماعية للشاعر: «قرأت في كتاب المستنير لأبي عبيد الله المرزباني: قال حدثني علي بن أبي عبد الله الفارسي قال: أخبرني أبي عن دعامة بن يزيد، قال: كان أبو العتاهية كوفياً مولى لعنزة، وكان جراراً، وكان أبوه يكنى أبا إسماعيل، وكان في الديوان دهرأً، فلما نسك أبو العتاهية وترك الديوان، وقال في الزهد، تعلم الحجابة ليزل نفسه بذلك، ويتواضع به...»⁽⁵⁾.

3 كتاب المفيد: في أخبار الشعراء [غير المشهورين] من الشعراء المقلين، والشعراء المجهولين والأعراب المغمورين، ومن غلبت كنيته على اسمه، ونعوت الشعراء وعبوبهم في أجسامهم خاصة، ومذاهب الشعراء في دياناتهم. ومن ترك الشعر في الجاهلية والإسلام، ومن أنفذ شعره في غرض واحد، وغير ذلك⁽⁶⁾.

(1) الفهرست ص 146.

(2) الإنباه 3/ 183، ومعجم الأدباء 17/ 269. (كل الإحالات الواردة في هذا البحث إلى كتاب الإنباه المقصود بها كتاب إنباه الرواة بآنيابه النحاة للقفطي، وكذلك الوافي المقصود به الوافي بالوفيات للصفدي).

(3) الوافي 4/ 236.

(4) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر 1384 (التاريخ من المقدمة) ص 47.

(5) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم 4/ 1757.

(6) أخذ وصف مضمون الكتاب من المرزباني نفسه، وكذا من وصف صاحب الفهرست ص 146. فقد ذكر

وقد تحدث المرزباني عن محتوى كتابه هذا في مقدمة الموشح، في معرض تفريقه بين عيوب الشعراء (الفنية) التي هي محور الموشح، وبين ما يكون من عيوبهم الجسدية، فبين أن عيوب الشعراء في المفيد... عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم، وأخلاقهم وطبائعهم، وأنسابهم، ودياناتهم، وغير هذه من الخصال من معائبهم؛ فإننا قد استقصيناه في كتابنا الذي لقبناه بالمفيد⁽¹⁾. وأحال المرزباني على كتابه هذا في نهاية كتاب المعجم عندما كان بصدد ذكر الشعراء الذين غلبت كناههم على أسمائهم، ولم تعرف لهم أسماء غيرها⁽²⁾. وقد قال القفطي عن هذا الكتاب: «كتاب المفيد وهو مفيد كاسمه في أخبار المقلين من الشعراء وكناهم ومذاهبهم»⁽³⁾. أما صاحب الفهرست فقد وقف وقفة مطولة نسبياً في وصف محتويات الكتاب فقال: «الكتاب المفيد. فيه عدة فصول: الفصل الأول منها مشتمل على أخبار الملقبين من شعراء الجاهلية والإسلام. وأخبار من غلبت عليه كنيته منهم أو شهر بكنية أبيه أو عُرف بأمه أو نُسب إلى جده أو عُزي إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال ودخل في جملتها. والفصل الثاني يذكر فيه ما رُوِيَ من نعوت الشعراء وعيوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان، والعور، والعميان، والعشو، والبرصان، وسائر ما يؤثر في الجسد، من شعر الرأس إلى القدمين عضواً عضواً. وفي الفصل الثالث مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى؛ ومن جرى مجراهم. والفصل الأخير يذكر فيه من ترك قول الشعراء في الجاهلية تكبراً وفي الإسلام تديناً ومن ترك المديح ترفعاً والهجاء تكراً والغزل تعففاً. ومن أنفذ شعره في معنى واحد، كالسيد بن محمد الحميري، والعباس بن الأحنف، ومن جرى مجراهما. وهو أكثر من

المرزباني كتاب المفيد في آخر كتاب المعجم (ص 507) قائلاً: «ذكر من غلبت كنيته على اسمه، من الشعراء المجوليين، والأعراب المغمورين، ممن لم يقع إلينا اسمه. وقد ثبتت أخبارهم، وأشعارهم في الكتاب المفيد، فاقتصر في هذا الموضع على ذكر كناههم وقبائلهم».

(1) الموشح ص 15.

(2) المعجم ص 507 .

(3) الإنباه 3 / 182.

خمسة آلاف ورقة»⁽¹⁾.

وفيما يخص النقل عن المفيد فلم نعثر على نقل من هذا الكتاب يحيل عليه باسمه هذا، ولكن من الواضح أن الصفدي كان ينقل عنه في ترجمته لطماس الصولي. فقد وردت لديه هذه الإحالة ومنها قوله: «ذكره المرزباني في كتاب الألقاب، وقال هو عم شيخنا أبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي... وكان طماس أعور وفيه صلف وكبر، وكان يهاجي البحترى...»⁽²⁾. وإذا علمنا أن كتاب الألقاب هذا لم يشر إليه أحد غير الصفدي بهذا الاسم، وأن هذا المسمى قريب من وصف النديم الذي ذكر فيه أن الكتاب المفيد عن الشعراء الملقبين - والملقبين تصحيف للمقلين بحسب هامش لمحقق الفهرست⁽³⁾ - فمن المرجح أنه يحيل على المفيد. وثمة قرينة أخرى غير مؤكدة تتمثل في كون المترجم له شاعراً أعور؛ فالعور أحد العيوب التي خصص لها المرزباني جانباً من كتابه المفيد؛ لكن هذه القرينة غير مؤكدة فقد كان يشير لكل من به عيب جسدي في كتاب المعجم.

4- كتاب الشعر: في وصف فضائله، ووصف نعوته وعيوبه⁽⁴⁾، ومحاسنه، ونعت أجناسه، وضروبه وأوزانه وعروضه، وأعيانه، ومختاره، وتأديب قائله ومنشديه، والبيان عن منحوه ومسروقه، ومعانيه. إلى غير ذلك من أنواعه:

هذا الكتاب من الكتب التي تحدث عنها المرزباني في مقدمة الموشح، ضمن الموضوعات التي استثنائها، فقال عن ذلك: «سوى سرقات معاني الشعر؛ فإنها أحد عيوبه، وخاصة إذا قصّر قول السارق عن مدى المسروق؛ فإننا قد أتينا بكثير من ذلك في كتاب الشعر الذي نبهنا فيه على فضائله، ووصف نعوته وعيوبه»⁽⁵⁾.

(1) الفهرست 146.

(2) الوافي 7 / 113. ترجمة: طماس الصولي (أحمد بن عبد الله بن العباس بن صول).

(3) الفهرست 146.

(4) وُصف الكتاب إلى هذا الموضع من مقدمة المرزباني في الموشح ص 15 وبقية الوصف عن الفهرست ص 146.

(5) الموشح ص 15.

أما النقل عن هذا الكتاب فقد نقل عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز عنه في غير موضع. وفي أول المواضع نص على اسم الكتاب الصحيح ومؤلفه، وأن المرزباني يروي فيه بسنده. ونقل عنه حديث أبي بكر الصديق إلى الأنصار، وتمثله بأبيات طفيل الغنوي لبني جعفر بن كلاب⁽¹⁾. والموضعان الثاني والثالث كانا تباعاً، وأثنى في كل منهما على فصل من الكتاب. وذكر في الموضع الأول منهما قوله: «وفي كتاب الشعر والشعراء للمرزباني فصل في هذا المعنى حسن...»⁽²⁾، وذكر في الموضع الثاني عقب النقل السابق مباشرة قوله: «وشبيه بهذا الفصل فصل آخر من هذا الكتاب أيضاً...»⁽³⁾.

5- بقية مؤلفاته في الشعر والشعراء:

للمرزباني مؤلفات أخرى إلى جانب المؤلفات السابقة، هي: كتاب أشعار الخلفاء، وأشعار تنسب إلى الجن، وأخبار من تمثل بالأشعار، وكتب أخرى اهتم فيها بأشعار وأخبار بعض الشعراء فرادى، كـ أخبار أبي تمام، وأخبار عبد الصمد بن المعذل، وكتاب شعر حاتم الطائي. وقد أورد الكتب الثلاثة الأولى كل من صاحب الفهرست، والإنباه، ومعجم الأدباء في ثبوتهم، أما الثلاثة التي اهتم فيها بأخبار وأشعار الشعراء فرادى فقد أوردتها كل من صاحبي الفهرست ومعجم الأدباء فيما لم ترد بثبت الففطي⁽⁴⁾. وقد توقف ابن خلكان في الحيز الأكبر من ترجمته للمرزباني عند جمعه ديوان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وقال: إنه أول من جمعه، وهو صغير يدخل في ثلاث كراريس، وقد جمعه من بعده جماعة وزادوا فيه أشياء كثيرة ليست له، وذكر

(1) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1410، ص 158.

(2) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ص 485. والفصل الذي يتحدث فيه عبد القاهر هو: (إزالة الشبهة في جعل الفصاحة والبلاغة للألفاظ).

(3) دلائل الإعجاز ص 486.

(4) انظر الفهرست 146-149، الإنباه 4/ 182-184، معجم الأدباء 17/ 269-272.

أنه قد حفظ ذلك الديوان لشدة غرامه به⁽¹⁾. ونقل ابن العماد الحنبلي ما ذكره ابن خلكان⁽²⁾.

وتعد المؤلفات السابقة مما صنّفه المرزباني وغرضه الأساسي التأليف في الشعر والشعراء بخاصة. على أنه قد تطرق للشعر والشعراء في مؤلفات أخرى على سبيل الإفادة مما جمعه من مادتي الشعر وأخبار الشعراء، وسيرد ذكر بعضها، مع مؤلفات أخرى في آخر هذا البحث، لدى تقويم جهود المرزباني في التأليف بعامة، في ضوء مقارنته بمعاصريه، وفي ضوء الإطارين التاريخي والثقافي للقرن الرابع الهجري.

(1) وفيات الأعيان 4 / 354.

(2) شذرات الذهب 3 / 111.

المحور الثالث

تصور مبدئي لمؤلفات المرزباني في الشعر والشعراء بوصفها مشروع تأريخ شعري

تباين المنحى العام لجهود مؤرخي الشعر في القرنين الثالث والرابع:

ظهر الاهتمام بالتأريخ للشعر والشعراء لدى سابقي المرزباني في القرن الثالث الهجري وكذا معاصريه في القرن الرابع من خلال ما سبق تتبعه في التمهيد لهذا البحث⁽¹⁾.

وظهر أن جهود أولئك العلماء في منحاهما العام اهتمت بالترجمة: إما للشعراء القدامى، وإما للمحدثين، وإما بهما معاً. ومع اختلاف نهج كل مؤلف من مؤرخي القرن الثالث (ابن سلام، وابن قتيبة، وابن المعتز) فإن نمط الترجمة للشاعر كان لا يتصف بالإسهاب في تقصي كل ما يمكن أن يؤثر من تفاصيل عن حياة الشاعر وشعره غالباً؛ لأن الغاية الأساسية للترجمة لديهم تتمثل في تعريف الشاعر، وتقديم مختار من شعره.

وإذا وضعنا نصب أعيننا الباعث الخاص الذي حفز كل مؤلف من مؤرخي القرن الثالث على النهوض بمؤلفه، وما استغرقه ذلك من جهد في وضع مقدمة مطولة حافلة بالقضايا - يستثنى ابن المعتز - فإن ذلك يشير إلى العبء الكبير الذي تصدى له كل مؤلف قبل تعريف الشعراء، وبخاصة ابن سلام، وابن قتيبة. فكان الأثر واضحاً على الجهد الذي استغرقته محاولة سد الفراغ في تنظير الشعر وقضاياها من جهة، ومحاولة تعريف أكبر عدد ممكن من الشعراء.

(1) ورد ذلك في دراسات المحدثين عن تأريخ القدامى للشعر، وفي الوقفة الخاصة عند أبرز علماء القرن الثالث ممن اهتموا بالتأريخ للشعر؛ انظر التمهيد.

ولذلك سنرى أنه أخذت تتنامى منذ النصف الثاني من القرن الثالث ظاهرة التأليف في أخبار الشعراء فرادى مع مختار من أشعارهم في مؤلفات يستقل كل منها بشاعر واحد. والذي يعنينا من هذه الظاهرة - التي سنقف عندها بالتفصيل في مبحث لاحق⁽¹⁾ - هو أن في تناميها إشارة إلى الانطباع السائد حول النقص الملموس في مؤلفات الطبقات والشعر والشعراء، وعدم وفاء محتوياتها من تراجم الشعراء بما يلبي تطلعات القراء المتزايدة إلى البحث عن تفاصيل أخبار الشاعر في حد ذاته. وتلبية هذا التطلع هو المنحى الجوهري في اختلاف الجهد التاريخي للشعر ما بين مؤرخي القرنين الثالث والرابع، كما سنراه في مواطنه من هذا البحث.

معالم المشروع وبوادره في مؤلفات المرزباني المتعلقة بالشعر والشعراء:

أ: بوادر الخصوصية في الاهتمامات المشتركة بين مؤرخي الشعر بعامة والمرزباني: بدت اهتمامات المرزباني مطابقة لسواه بتركيز فكرة التأريخ للشعر على الترجمة لشعراء الحقبين القديمة والمحدثة. فألف لهذا الغرض كتابيه الموثق والمستنير. كما شارك معاصره الأصفهاني في السير بنمط الكتابة عن الشعر والشعراء من التراجم ذات النهج الموجز إلى النهج الإخباري الموسع المشبع بتفاصيل أخبار الشعراء. وهذه الجوانب المشتركة بين المرزباني وغيره لم تخل من إضافة تميز جهوده. فمع أن فكرة تقسيم الشعراء على كتابين فكرة مسبقة⁽²⁾، إلا أنها أضحت عملاً جديداً في نهج محتواها الموسع لدى مؤرخي القرن الرابع، ذلك من جهة. ومن جهة أخرى، فلدى مقارنة مؤلفي المرزباني: (الموثق والمستنير) بكتاب الأغاني يكون المرزباني قد قدم بهما كتابين مختصين بأخبار الشعراء خاصة، دون مشاطرة غيرهم من الفئات التي عني بها الأصفهاني في أغانيه. ناهيك عما تميز به المرزباني من حسن التبويب الذي

(1) سيرد الحديث عن هذه الظاهرة بوصفها من بواعث التحول إلى نهج الكتابة الإخبارية الموسعة في المبحث الثالث من الفصل الثاني.

(2) سبقه إلى ذلك كل من ابن سلام، وابن المعتز. ومحمد بن داود الجراح في كتاب الورقة، والمبرد في كتاب الروضة في أشعار المحدثين وغيرهم.

يسهل البحث عن أخبار أي شاعر فيهما؛ إذ إن وصف النديم للكتابين يشير إلى أنه قد رتب الشعراء على نحو خاص راعى فيه أزمانهم، وأسنانهم - أي التفريق بين المتعاصرين منهم من خلال فارق العمر - فتناوله كان للأقدم، فالأقدم مولداً. وإذا علمنا التقارب في مقدار المادة بين الأغاني وكتابات المرزباني - وسناقش ذلك مفصلاً في مواضعه من هذا البحث⁽¹⁾ - فإن من يقيم جهد المؤلفين من وجهة نظر الباحث عن التأريخ الخاص بالشعر والشعراء سيسهل تعامله مع مؤلفات المرزباني من هذا المنظور خاصة. وبهذا يظهر تميز المرزباني مبدئياً في الجوانب المشتركة بينه وبين مؤرخي الشعر القدامى بعامة، بمن فيهم معاصره الأصفهاني.

ب - معالم الخصوصية التي تميز بها تأريخ المرزباني للشعر والشعراء:

1- توسيع مفهوم النظر إلى مادة التأريخ الشعري:

إذا استثنينا ورود بعض الشعراء غير المشهورين ممن تناولهم وقدم بعضهم أبو الفرج الأصفهاني - وكان مضطراً إلى ذلك⁽²⁾ - فإن النظرة السائدة لدى المعنيين بالتأليف عن الشعر والشعراء كانت تسلط الضوء على دائرة المشهور، والمعروف، سواء في اقتصار التراجم على الشعراء المعروفين أنفسهم دون غيرهم، أو في التركيز على الجوانب والشئون التي درجت العادة على الإخبار بها عن أولئك الشعراء.

وجاء تعاور المرزباني لتلك النظرة من خلال إضافته إليها بعداً لم يحظ لدى سابقه بالرعاية المخصوصة لديه. فوسع أفق النظرة السابقة، حينما جعل من غير الشعراء المشهورين جانباً أساسياً في التأريخ الشعري، مصنفاً في ذلك كتاباً مستقلاً هو كتابه المفيد⁽³⁾، الذي قام فيه بتفصيل أخبار المقلين من الشعراء، والمغمورين، والمجهولين،

(1) انظر: نهج الكتابة الموسعة في المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذا البحث: الشعر والسياق التاريخي. وانظر فيه أيضاً: النهج السيري في المبحث الثاني من الفصل الرابع.

(2) سيأتي الحديث عن سبب اضطراره ضمن أوجه الالتقاء بين المرزباني والأصفهاني لدى الحديث عن تقويم مشروع المرزباني في إطار التأريخ للشعر في القرن الرابع.

(3) انظر الفهرست ص 146، أو الملحق الثاني.

وتاريخي الشعر وغيرهم. وسعى في جانب آخر من الكتاب نفسه إلى تعريف الشعراء جميعاً من منظار وظف فيه المعلومة المعروفة سلفاً، والإطار التأليفي السابق⁽¹⁾ من أجل تقديم الشعراء في سياقات جديدة في تناولها. فتناول الشعراء من خلال عدة جوامع، سنرى أنها أشبه بالمسارد المتنوعة، منها: جامع الشعراء الذين غلبت الكنى والألقاب على أسمائهم، أو من شهر بكنية أبيه، أو عُرف بأمه، أو نُسب إلى جده، أو عُزي إلى مواليه، وما جانس هذه الأحوال. ومنها جامع نعوت الشعراء بحسب أبدانهم وصورهم، كالسودان، والعور، والعمي، والعُشُو، والبرصان وسائر ما يؤثر في الجسد من الرأس إلى القدمين⁽²⁾. وجامع الديانة والمذهب، كاليهود، والنصارى، والخوارج، والشيعة وغيرهم.

ومن توسيع النظرة إلى التاريخ الشعري جاءت عنايته بشعر المرأة العربية على اعتبار أنه قسم قائم بذاته في التاريخ الشعري، بموازاة شعر الرجال. فجعل كتابته عنها في كتاب أشعار النساء على نحو بدا مكثفياً بذاته عن غيره من مؤلفاته الأخرى التي عني فيها بشعر الشعراء بما في ذلك كتاب معجم الشعراء⁽³⁾.

ومن أوجه توسعه، عنايته بأشعار الخلفاء في كتاب خاص بهم، وعنايته بأشعار العلماء في كتاب المقتبس المعني بأخبار العلماء. وكذا الأشعار المنسوبة إلى الجن⁽⁴⁾. وبهذه الجوانب يكون قد وسع منظور الاهتمام المقتصر على الشعراء المشهورين المعروفين ليشمل بذلك كافة الجوانب التي أمكنه النظر بها إلى الشعراء بمختلف طوائفهم، وأجناسهم، وما يمكن أن يكون من أقسامهم.

(1) يقصد بالمعلومة المعروفة سلفاً هي المعلومات التي كانت ترد عن الشعراء متفرقة، وغير مجمعة في سياق واحد. والإطار التأليفي المقصود هنا هو إطار الجاحظ الذي تناول فيه البرصان والعرجان وغيره ممن أشير إليهم في المصادر التي أفاد منها في المحور السابق.

(2) انظر الملحق الثاني.

(3) سنقف عند أوجه تناوله لأشعار النساء في المبحث الأول (التحقيب) من الفصل الثاني.

(4) سبقت الإشارة إلى أشعار الخلفاء في الحديث عن مؤلفاته في الشعر، وكذا كتاب أشعار تنسب إلى الجن.

2 - عنايته بالتاريخ المرادف للمادة الأساسية للتاريخ الشعري:

يُعد هذا الشق التاريخي على مقدار من الأهمية لا يقل عن سابقه في إعطاء التصور الشمولي لمشروع المرزباني في العناية بالتاريخ الشعري وخصوصيته. فإذا كانت الأشعار والأخبار هي المكوّن الأساسي لمادة التاريخ الشعري فإن ما يمكن إجماله في الحوار المستمر حول الشعر والشعراء هو الشق الآخر في عمل المرزباني الذي التفت إليه من خلال ثلاثة محاور في ثلاثة مؤلفات على النحو التالي:

المحور الأول: الجدل النقدي وردود أفعال قراء الشعر المهتمين. وهو ما أفرد له كتاب الموشح، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر.
المحور الثاني: العناية بأخبار قراء الشعر المهتمين في كتابه المقتبس في أخبار النحاة والقراء والعلماء والأدباء.

المحور الثالث: نظير الشعر في أسسه، وقضياه، وكافة ما يتعلق به من هذا الجانب. وهي المادة التي جمعها في كتاب الشعر.

وتنبع أهمية المحاور السابقة من الالتفات إليها والعناية بجمع مادة كل منها في مؤلفات مستقلة عن المؤلفات الخاصة بالشعر وأخبار الشعراء. والجديد في جمع المادة بتلك المؤلفات التي تكرر ورود مقادير منها في غيرها هو إعادة تصنيفها في سياقات موضوعية تمكّن القارئ من الظفر بنتائج على قدر كبير من الأهمية، سنرى تجلياتها في غير موطن، حينما نقف عليها في مباحث الفصل الثاني، وفي الفصل الثالث الخاص بالتاريخ لتلقي الشعر.

3- بؤادر الوعي بإجراءات تنفيذ المشروع ولوازمه المتمة:

أ - تنظيمه في رؤية شمولية وأجزاء موضوعية متخصصة:

تبدو قرائن - من خلال النظر في عناوين مؤلفات المرزباني المعنية بالشعر والشعراء، وأوصاف المترجمين لمحتوياتها - تشير إلى أنه عند تأليفه كان مهتما ببعدي التناول الشمولي والمختص في آن واحد. فقد أظهر عدة محاور متخصصة، سعى في كل محور تأليف منها إلى التركيز على أحد الأبعاد الموضوعية المعنية بالشعر والشعراء، مما

لا ينهض بغايته التأليفية كتاب غيره. ليجد القارئ أن تلك المحاور تتضافر من أجل إنجاز رؤية مشتركة، تترابط فيها الغايات الخاصة، وتتكامل فيما بين مجموعة مؤلفاته المعنية بالشعر والشعراء. وفيما يلي القرائن التي توجي بذلك:

1- أنه حينما ألف كتابيه الموثق والمستنير نص عنوانا الكتابين، أو وصف المحتوى فيهما، على أنهما في الشعراء المشهورين. ويدل ذلك على أن المرزباني قد وضع في حسابانه مسبقاً، أو أنه تنبه فيما بعد للتأليف عن الشعراء غير المشهورين؛ لخلو كتابيه المذكورين منهما من جهة، ولعنايته من جهة أخرى بغير المشهورين في كتاب ثالث مستقل هو كتابه المفيد.

2- أنه حين ألف كتاب المعجم كان خالياً من التعريف بأي شاعرة، وذلك ما يدل على أنه قد وضع في حسابانه أيضاً التأليف المستقل بأشعار النساء، ذلك من جهة ومن جهة أخرى فإنه يمكن أن يبدو - من خلال مراعاته سمة الإيجاز في نهج تراجمه بكتاب المعجم - تباين الغايات التأليفية بين ذلك الكتاب، وبين كتبه الموسعة في أخبار الشعراء، كالموثق، والمستنير، والمفيد.

3- أن ما ذكره في مقدمة كتاب الموشح يعزز ما سبق عن تباين الغايات التأليفية. فقد كشف في مقدمته عن اختلاف مقاصده الموضوعية لكل مؤلف من مؤلفاته في الشعر والشعراء، وذلك من خلال ما بينه عن مفهوم العيوب الشعرية وبواعث ورودها في كل مؤلف من مؤلفاته. ومن بين ما ذكره - على سبيل المثال - تفريقه بين مآخذ العلماء على الشعراء التي هي محور الموشح، وبين الاحتجاجات - أي التخريجات - التي اعتذر بها بعض العلماء للشعراء عن تلك المآخذ، وذكر أنه بصدد إفراد رسالة مستقلة بهذه الاحتجاجات⁽¹⁾.

وهذه الأمور كلها بوادع تعزز وعي المرزباني بما يتطلبه التصدي للتاريخ الشعري في تراكم إنتاجه من عناية خاصة، لم يعد من الممكن معها أن يفي بها كتاب واحد يأخذ من كل جانب بطرف. خصوصاً في قرن يُعد التأليف المختص من أهم مميزاته؛

(1) انظر مقدمة الموشح ص 15-16.

إذ إن الإحاطة بتعداد أسماء الشعراء ورصد أوصافهم ومذاهبهم، وتشابه كثير منهم في هذه الجوانب وحدها، بحاجة إلى فئة جديدة من المحاور التأليفية المختصة بذلك، كالمعاجم المختصة بأسماء الشعراء. ناهيك عما تتطلبه العناية بالجوانب الفنية، والإخبارية في تجاربهم الشعرية وحياتهم - بما استجد حولها على مر القرون الثلاثة من إضافات متلاحقة - من مؤلفات موسوعية تفي بذلك.

ب - لوازم المشروع من المسارد والفهارس:

مع أن كتاب معجم الشعراء يمثل فهرسةً عامةً لمجمل عمله في التأريخ للشعراء، ومسرّداً ضخماً بكل من وصل إلى المرزباني علم بأنه قد قال شعراً - إلى جانب الترتيب المعجمي الذي عليه كتاب أشعار النساء - إلا أن ذلك، على أهميته، لم يكن الشكل الفهرسي الوحيد في عمله؛ إذ يمكن إعادة النظر في بعض الجوانب التي أتينا عليها سابقاً على أنها بمثابة عدد من الفهارس والمسارد. فالفهرسة المعجمية لأسماء الشعراء والشاعرات في كتابي: المعجم، وأشعار النساء تأتي أولاً. واللافت للنظر هو أخذ المرزباني لدى تعريف الشعراء ذكرهم بأسمائهم الأصلية، دون الألقاب بمن فيهم المشهور بلقبه أكثر من اسمه، كالفرزدق (همام بن غالب)، وأبي العتاهية (إسماعيل بن القاسم). فالأول تجده في حرف الهاء، والثاني تجده في حرف الألف، والتزم بهذا النهج في سائر المعجم، باستثناء من لم تُعرف أسماؤهم الأصلية من المجهولين، والمغمورين، فقد رتبهم بحسب ألقابهم وكناهم المتداولة، ثم وُضعهم مع - التنويه بذلك - في آخر كتابه المعجم، وفي ذلك ضرب من التنظيم الفهرسي، على الرغم من ضخامة عدد الشعراء الذين عرّفهم؛ إذ تجاوز عددهم الخمسة آلاف شاعر.

وإلى جانب المسارد المعجمية بدت مسارد أخرى وصفية رديفة لمن أراد البحث عن الشاعر بحسب صفته الجسدية، أو مذهبه وديانته، أو حقبة السياسية والفنية، وغير ذلك مما سنفصله في مبحث التحقيق؛ إذ سنرى أهمية وصف الشعراء من خلال تلك الأوصاف وما يمكن الخروج به من ذلك مع نماذج من الأسماء التي تمثل تلك الشرائح الشعرية.

الفصل الثاني

المعالم التاريخية في كتابات المرزباني عن الشعر والشعراء

المبحث الأول

التحقيب أشكاله وأسس

التحقيب مفهومه وممارسته:

يكتسب التحقيب⁽¹⁾ أهمية كبرى في الكشف عن رؤية مؤرخ الأدب لموضوعه، وإذا كان تاريخ الأدب هو الرؤية الشمولية فإن التحقيب هو منظومة الرؤى الجزئية بذلك التاريخ.

فالتحقيب يجسد الأطر التي يقسم فيها المؤرخ موضوعه على مراحل زمنية، أو وحدات موضوعية، بحسب عوامل وسمات عدة، يراها المؤرخ مجتمعة في حقبة معينة. وعندما ننظر إلى مصطلح التحقيب فإننا لا نجد مذكوراً في مؤلفات القدماء، إذ هو من المصطلحات الحديثة التي أخذت من الغرب⁽²⁾.

وقد تداولت حلقة بحثية⁽³⁾ التحقيب لمناقشته، ومحاولة مقارنة مفهومه وإجراءاته، فظهر من خلال أبحاثها التباين الواضح في الأخذ بمفهوم معين، أو مجال تطبيق محدد. ففي حين يتجه أحد الأبحاث إلى مراجعة تحقيب «باشلار» لتطور العلوم - بما فيها الفيزياء والرياضيات⁽⁴⁾ - يتجه آخر إلى تقديم تحقيب للعلوم البلاغية القديمة على ثلاث مراحل⁽⁵⁾. ومع أن الدافع القومي، واجتلاب المفهوم بسياقه الغربي نقاط

(1) ورد في «لسان العرب» مادة «حقب» الحقة من الدهر: مدة لا وقت لها. والحقة بالكسر السنة... والجمع حَقَب وحقوب. والحقْب: ثمانون سنة وقيل: أكثر»

(2) المقابل اللاتيني للمصطلح هو: (Periodisation).

(3) انظر: إشكالية التحقيب «مائدة مستديرة»، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بو حسن، كلية الآداب بالرباط 1996م.

(4) إشكالية التحقيب «مائدة مستديرة»، بحث: «في تحقيب تطور العلوم» مراجعة لتحقيب باشلار لتطور الفكر العلمي» بناصر البعزاتي ص 11-27.

(5) إشكالية التحقيب: مائدة مستديرة، بحث: «البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها»؛ محمد العمري ص 55-66.

التقاء بين بعض الأبحاث، غير أن هذه النقاط تصبح فروقا واسعة لدى تحديد مجال البحث، ومقاصد طرح التحقيق بين الأبحاث ذاتها. فالانتقاد الموجه في أحد تلك الأبحاث لمؤرخي النقد العربي القديم من الدارسين العرب المحدثين؛ لكونهم من أصحاب الذهنيات التي حاولت توظيف العلم والنظريات «نظرية التطور، والعلوم الطبيعية والاجتماعية»، من أجل إبراز العناصر العبقريّة والقومية وإظهاراً لعنصر الخصوصية، ولمبدأي التقدم أو التفوق⁽¹⁾، - هذا الانتقاد يصبح في بحث آخر سبباً إلى تقديم مقترح جديد لتحقيق الثقافة المغربية⁽²⁾. لأن في هذا المقترح دعوة لإبراز الهوية القطرية، ناهيك عما ينطوي عليه تنظير المقترح من أخذ بالمفهوم الغربي لمحقي ما بعد الحداثة، بحجة أنه لم يعد بدعة إعادة النظر في التحقيقات السياسية والأدبية والثقافية، خصوصاً وأنه توجه عالمي للبحث في العلاقات بين التاريخ العالمي والتاريخ الوطني⁽³⁾.

في ضوء هذا التباين حول التحقيق في مفهومه الحديث وميادين تطبيقه المختلفة ما بين العلوم الطبيعية والأدبية، القديمة والحديثة، يظهر التوسع في الأخذ بالمفهوم. ويبدو مما تقدم عن التحقيق، أنه اتخذ من أطر التاريخ والزمن والموضوع لدى الباحثين أبرز محدداته⁽⁴⁾.

وسنرى في الجزئية التالية المظاهر التي تجسد فيها أخذ القدامى واستعمالهم لتلك

(1) إشكالية التحقيق «مائدة مستديرة»: «أيمكن تحقيق النقد الأدبي» محمد الدغموي ص 50.

(2) إشكالية التحقيق «مائدة مستديرة»، «مقترح تحقيق جديد للثقافة المغربية»، محمد مفتاح ص 67-76.

(3) إشكالية التحقيق «مائدة مستديرة»، «مقترح تحقيق جديد للثقافة المغربية»، محمد مفتاح ص 69.

(4) يشار هنا إلى توجه محمد العمري في تحقيق علوم البلاغة العربية إلى ثلاث مراحل تاريخية زمنية ضمن الأبحاث المشار إليها؛ إذ طور ذلك البحث إلى دراسة مطولة نشرت مؤخراً بالعنوان نفسه، انظر: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان 1999. وينظر كذلك إلى ما استقر عليه محمد مفتاح من اعتماد على التحقيق القائم على روح العصر، بعد أن استبعد استخدام نمطي التحقيق الأبسمتي المعرفي، والتحقيق المبني على أفق التوقع، لكونهما بحسب قوله: «غير ملائمين لثقافتنا وآدابنا التي لم تخضع لقطائع وطفرة»، «مقترح تحقيق جديد للثقافة المغربية»، محمد مفتاح ص 69.

الأطر، ومقدار ما أظهره من أخذ بها، وبغيرها من المحددات عند تحديدهم للعصور التي عنوا بالتأريخ لشعرائها، ولغيرهم من الأعلام الذين عاشوا فيها. كما سئرى مقدار اهتمام المرزباني بهذا المعلم التأريخي تحديداً؛ والأشكال التي تجسده في كتاباته المؤرخة للشعراء، والأهمية التي اكتسبها لديه، وأي الأسس التي نظر بها إلى الشعراء في تقسيمه وتصنيفه لهم ما بين الزمني أو الفني أو الموضوعي أو الاجتماعي والإقليمي وغير ذلك.

الطبقات بوصفها محاولات التحقيق الأولى لدى القدامى:

قسّم محمد بن سلام الجمحي في كتاب الطبقات الشعراء إلى: جاهليين، وإسلاميين، وكان نظام الطبقات سائداً لديه. وبين قسمي كتابه: (طبقات شعراء الجاهلية)، و(طبقات شعراء الإسلام) وضع مجموعات من الشعراء بدأها بشعراء المراثي، فشعراء القرى العربية الخمس، فشعراء اليهود.

وسبقت الإشارة إلى أن ذلك تقسيم للشعراء بناء على عدة أسس لم تتم لابن سلام عند تطبيقها⁽¹⁾. على إثر ذلك قام ابن قتيبة بإلحاق حقبة الشعراء المحدثين، مع تجاهل «الطبقات» والعمل بها. لكن ذلك لم يحل دون أن يعاود المصطلح الظهور من جديد مع ابن المعتز؛ إذ اتخذ مسمى لكتابه. وعلى الرغم من أن ابن المعتز - الذي كان نهجه التأريخي متميزاً - قد اكتفى من الطبقات بالمسمى إلا أن مسوغات وقوفه أمام الحقبة المحدثه وحدها بدت وكأنها غير مقنعة. فقد أعاد إلى الأذهان موقف مؤرخ الشعر المنحاز إلى الحقبة الواحدة. وهو الموقف الذي جاهد ابن قتيبة كثيراً ليستبدل به نظرة الشمول والمساواة⁽²⁾.

غير أن ما يلاحظ على ابن قتيبة أنه لم يقدر رسوخ فكرة «الطبقات» التي لم يعمل

(1) انظر التهميد في أول هذا البحث.

(2) إذ بدا ذلك في قوله: «فلم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم» الشعر والشعراء لابن قتيبة 1/ 63.

بها⁽¹⁾، زيادة على أنه لم يوجد لها بديلاً ملموساً، بل ترك مكانها شاغراً.

من هنا يبدو أن «الطبقات» هي أوضح محاولات التحقيق لدى مؤرخي الشعر في القرن الثالث. وأن دور كل من ابن قتيبة، وابن المعتز تمثل عند أولهما: في إلحاق حقبة شعرية جديدة ومحاولة تجاهل نظام الطبقات، لأنه يكرس الفصل بين الشعراء. وتمثل عند الثاني: في تثبيت وجود هذه الحقبة بطريقته ونهجه التاريخي، وفي استعادة مسمى الطبقات الذي استخدمه ليشير به إلى قيام الطبقات الشعرية المحدثّة بموازاة الطبقات الشعرية القديمة.

ومؤدى ذلك أن الشروع في تحقيق الشعراء بناء على أسس عدة، قوامها الزمن والفض والمكان والدين لدى مؤرخي القرن الثالث الهجري، إنما تم على يد ابن سلام. وحين نحاول التوقف عند ما يشير إلى تلك الأسس المتنوعة لدى ابن سلام نجد أن القسم الأكبر من كتابه الذي يُعول عليه في تنوع أسس التحقيق وهو القسم الواقع بين طبقات الجاهليين، وطبقات الإسلاميين - يلاحظ عليه أمران:

أولهما: تطابق الجزء الخاص فيه بـ (شعراء المراثي) مع نهج ابن سلام في استمرار التزامه بمبدأ العدد، ومسمى الطبقة⁽²⁾. وثانيهما: اختلاف الجزء الخاص بـ (شعراء القرى العربية الخمس) و(شعراء يهود)، في النهج المشار إليه.

وهذا الاختلاف يقود إلى استنتاج مفاده أن ابن سلام أخذ في التخلي عن الأخذ بفكرة الطبقات ذاتها، وأنه شرع في محاولات تحقيق جديدة خارج نظامه السابق (الطبقات). لكن هذه المحاولات لم تتم وتحكم بالشكل الذي كانت عليه الطبقات، فوصلت إلينا ناقصة.

(1) يبدو رسوخ هذه الفكرة من خلال أحكام الأصمعي. ومن أكثر الأخبار دلالة على ذلك: الخبر المطول الذي أروده المرزباني، في الموشح ص 106-107 حيث يحكم الأصمعي على خمسة وعشرين شاعراً من خلال (الطبقات) وما تحويه من مقاييس الكثرة والفحولة وغيرها.

(2) ذكر ابن سلام ما نصه: «وصيرنا أصحاب المراثي طبقة بعد العشر طبقات»، طبقات فحول الشعراء 1/ 203، كما أن عدد شعراء طبقة المراثي أربعة شعراء.

وفي حديث محمود شاكر المطول عن قضية الشعر الجاهلي⁽¹⁾ في كتاب ابن سلام الذي انصب أساساً على أثر مقدمة الكتاب واستطراداتها على سوء فهم الرسالة التي أراد إيصالها، وما تطرق إليه شاكر من ملاحظات على جزء من متن الكتاب، والتتبع المهم، الذي رصد فيه مراحل حياة ابن سلام - في حديثه ذاك تفسير لأسباب نقص محاولات التحقيق الجديدة التي ابتدأها ابن سلام ولم تمكنه الوفاة من إتمامها، زيادة على ذلك ما أضاءه شاكر في تتبعه المهم لحياة ابن سلام ومراحلها الزمنية من تطور منهجي التأليف والنقد لديه.

إن مما لاحظته شاكر أن ابن سلام في (شعراء القرى العربية)، وبسبب الاستعجال وكبر السن، أخذ ينسى العودة لتفصيل الحديث عن الشعراء الذين يعددهم إجمالاً - على عادته - في بداية كل طبقة أو قسم من كتابه، فأخذ يسقط سهواً التناول المفصل لبعض شعراء كان قد ذكرهم قبلاً⁽²⁾.

ويضاف إلى ما ذكره شاكر أن هذه العادة تركها ابن سلام تماماً لدى حديثه عن (شعراء البحرين) و(شعراء يهود) عندما ابتدأ الحديث مباشرة عن كل شاعر على حدة دون أن يجمع تعداد الشعراء أولاً⁽³⁾. الأمر الذي قد يدل على أن هذه المباحث التي تغيرت فيها طريقة تأليفه كانت لاحقة لمرحلة التأليف وفق سيطرة فكرة الطبقات عليه.

وبهذا يتضح أن أبرز محاولات التحقيق لدى مؤرخي الشعر في القرن الثالث تجلت أساساً في جهود ابن سلام. وأن التحقيق لديه برز أولاً من خلال فكرة الطبقات، التي كرسها، والتزم بها في القسم الأكبر من كتابه. وأنه حاول ثانياً أن يتلمس آفاقاً أخرى للتحقيق قوامها الفن والبيئة وغير ذلك. لكن هذه المحاولة لم تجد الوقت الكافي مثلما وجدته فكرة الطبقات، التي جاء مفهومها وتطبيقها على نحو واضح ومتناسك.

(1) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر 1418هـ.

(2) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود محمد شاكر ص 53.

(3) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام، «شعراء البحرين» 1/ 271، و«شعراء يهود» 1/ 279.

في الوقت الذي لم تظهر آفاق التحقيق الأخرى التي شرع في تلمسها على المقدار ذاته
من التماسك والوضوح.

التحقيب في القرن الرابع الهجري في كتابات المرزباني عن الشعراء

ظل نظام الطبقات يؤدي دوره في النظر إلى حقبة شعرية واحدة فكان يقوم بأغراض المفاضلة والموازنة ضمن نطاق تلك الحقبة وكان ذلك النظام، إضافة إلى الأسس التي استلحقها ابن سلام خطوة مهمة في طور التحقيب. لكن أعداد الشعراء التي تضاعفت، والزمن الذي أضيف إليه قرنان بنهاية العصر الأموي أسهما في زيادة أعباء مؤرخ القرن الرابع، خصوصاً أن محتوى القرنين الأخيرين من الشعر وأخباره متواتر النقل إلى الجيل الأول من العلماء، أمثال «أبي عمرو بن العلاء» (155هـ)، و«عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي» (قبل 130هـ)، ممن عاصروا الفرزدق وجريراً (110هـ) وغيرهما.

وأمام عدد الشعراء ذاك، والتاريخ الشعري الممتد لقرون لم تعد الطبقات بمضامينها النقدية وحدها كافية للنظر في التراكم الشعري. فعلى سبيل المثال أصبح تعداد أسماء الشعراء فقط، وتمييز المتشابه من أسمائهم بحاجة إلى مصنفات قائمة بجد ذاتها؛ فظهرت كتب كـ «المؤتلف والمختلف» للآمدي (370هـ)، و«معجم الشعراء للمرزباني». ولم تعد القرى والمدن التي ينتمي إليها الشعراء محصورة في قرى الجزيرة العربية؛ إذ أصبح الشعراء يتوزعون من الأندلس إلى خراسان مما جعل تمييز الشاعر بنسبته إلى إقليمه ضرورة. فهذا من شعراء مصر، وذلك من شعراء خراسان إلى غيرها من الأقاليم، التي ستصبح فيما بعد أساساً ينهض عليه التأريخ للشعر والشعراء لدى الثعالبي (428هـ) في «يتمية الدهر»⁽¹⁾، وبمنتصف القرن الرابع سيكون أمام مؤرخ الشعر تاريخ زمني طويل حافل بالصراعات المذهبية والسياسية، ليعيد في ضوئه تصنيف الشعراء إلى «خارجي» و«شيعي»، وشاعر لآل أبي سفيان، أو «رشيدي» و«مأموني» إلى غير ذلك⁽²⁾.

(1) يتمية الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ.
(2) التصنيفات السياسية والمذهبية ستفصل لاحقاً. وهي هنا مأخوذة من معجم الشعراء للمرزباني، وكذلك التصنيفات بحسب الأقاليم والبلدان.

لهذه الأسباب ولغيرها⁽¹⁾ تنوعت أشكال تحقيب الشعراء في القرن الرابع، خصوصاً لدى المرزباني⁽²⁾ وهو ما يتناوله الجزء التالي من هذا المبحث.

أشكال التحقيب وأسسها عند المرزباني:

التحقيب الزمني والفني:

من أوضح ما يجده القارئ في كتاب الموشح للمرزباني تقسيمه الشعراء إلى ثلاث حقب هي: «الشعراء الجاهليون»، و«الشعراء الإسلاميون»، و«الشعراء المحدثون»⁽³⁾. ومما يميز هذا التقسيم لدى المرزباني أنه لم يرد فيه ذكر مصطلح «الطبقات»، زيادة على تمكنه في الوقت ذاته من جمع الحقب الثلاث في سياق كتاب واحد، وإثبات كل منها مستقلاً في عنوان خاص. ولذلك عد هذا التقسيم من أبرز محاولات القدماء وأكثرها جدية لتقسيم الشعر العربي إلى مدارسه الفنية المعروفة⁽⁴⁾.

وفي هذا التحقيب أخذ المرزباني بالسياق الزمني لهذه الحقب نظراً إلى الخصوصية الفنية لكل منها، حين عرض مآخذ العلماء على شعراء كل حقبة على حدة. وهذا هو الوجه الأول من أوجه التحقيب الأربعة التي شهدتها هذا الشكل.

أما الوجه الثاني: فهو ما اعتمده في كتابيه الموثق والمستنير⁽⁵⁾ من دمج الحقب الثلاث السابقة في الحقتين المعروفتين: «القدامى» أو الأوائل وفيهم الإسلاميون، و«المحدثين».

ويتضح الوجه الثالث: من تقسيمه الشعراء إلى ست حقب صغرى من خلال ما

(1) مثل رسوخ المجتمع في مظاهر الحياة المدنية المتحضرة، التي تمخضت عن الاهتمام بأشعار النساء في بعدهما: الإماء والحرائر، والنظرة إلى شعر فئات، كالعلماء، والخلفاء. وظهور صنف من الشعراء عرفوا بشعراء العسكر.

(2) أظهر أبو الفرج الأصفهاني اهتماماً محدوداً بالتحقيب وسنقف عند ذلك في الفصل الأخير.

(3) ورد ذكر الأقسام الثلاثة في الموشح على التوالي: ص 34، وص 137، وص 310.

(4) انظر هذا الرأي في التمهيد (الدراسات السابقة).

(5) انظر وصف «النديم» في الفهرست لمحتوى هذين الكتابين، والملحق الثاني.

كان يكرره من إشارات إلى الحقبة الزمنية، التي عاش فيها الشاعر. إذ ورد تقسيمه الشعراء إلى: «جاهلي قديم»، و«جاهلي»، و«مخضرم»، و«إسلامي»، و«محدث»، و«محدث متأخر»⁽¹⁾.

والوجه الرابع: وجه فني حَقَّب فيه الشعر والشعراء على أساس الغرض الشعري. وإذا استثنينا الوجه الأخير - لوضوح أساسه الفني - فإن الوجهين الأول والثاني روعي فيهما الأساس الفني مقارنة بالثالث، الذي رجح فيه عنصر الزمن؛ فكان تقسيم الشعراء فيه إلى الحقب الست. ويكشف النظر إلى طبيعة محتوى الكتب التي وردت فيها هذه الأوجه عن الميل إلى أحد الأساسين اللذين يعتمد عليهما هذا الشكل من التحقيق.

فكتاب الموشح يُعد كتاباً فنياً لأنه اختص بالنقد الموجه إلى الشعراء. وحينما نتعقب المحاور التي دارت حولها مآخذ العلماء على شعراء كل حقبة من الحقب الثلاث، تتجلى مآخذ تبدو ملازمة لشعراء كل حقبة أكثر من غيرهم، وتكاد تكون مختصة بهم⁽²⁾. فيما تتعاقب بعض المآخذ المشتركة في الظهور، ما بين حقبة وأخرى على نحو متفاوت كثرة وقلة⁽³⁾ ولعل ذلك ما جعل المرزباني يفرد كل حقبة بمآخذها في إيجاء منه بالسّمات المشتركة بين شعراء الحقبة الواحدة.

ويبدو الوجه الثاني المتمثل في كتابيه الموثق والمستنير تحقياً متأثراً بالتصور

-
- (1) حقبة الشعراء الإسلاميين لدى المرزباني تشمل الشعراء في عصري: صدر الإسلام، والدولة الأموية.
- (2) كالمآخذ النحوية واللغوية على الشعراء الإسلاميين، وكذا السرقات فهي مما لم تؤخذ على الجاهليين وتركزت على الإسلاميين وخير مثال لهما المآخذ على الفرزدق.
- (3) مثل السرقات فالكلام عنها مشترك بين الإسلاميين والمحدثين ويندر عند الجاهليين، مقابل المفاضلات بصفتها أساساً للحكم النقدي. فأغلب المآخذ على الجاهليين والإسلاميين تتم من خلال قياس شاعر على آخر. بينما تقل هذه المفاضلات بين المحدثين؛ فمثلاً لم نعد نر مثل تلك الخصومات والحكومات والمفاضلات التي تشكل إطار المآخذ على الجاهليين والإسلاميين، كالمآخذ على جرير وكثير وذو الرمة، وقريب منها في الجاهلية «حكومة أم جندب» الموشح ص 35-38 و«تحاكم أربعة شعراء» ص 96 وحكم النابغة بين الشعراء ص 77-78.

التأريخي لدى مؤرخي الشعر السابقين الذين نجم عن تصورهم ذاك كتابان: اختص كل منهما بحقبة واحدة، وكتاب ثالث: اشتمل على الحقتين معا. وتمثل دور المرزباني هنا في التوسع في أخبار شعراء كل حقبة وتفصيلها. ومن ثم تعزيز الحد التاريخي المائز بين الحقتين، عن طريق الفاصل الزمني (صدر الدولة العباسية)، وعن طريق الفاصل اللغوي (الشعراء المحتج بشعرهم).

ويبقى الوجه الثالث من هذا الشكل التحقيقي، الذي بدا فيه رجحان الأساس الزمني، من تقسيم الشعراء إلى ست حقب. وهو أساس يتحقق معه تحديد أكثر لذلك العدد الكبير من الشعراء الذي قارب خمسة آلاف شاعر في كتاب معجم الشعراء، ويتحقق به سهولة النظر في ستة قرون زمنية تعاقب الشعراء في ثلاثة منها في الجاهلية، وفي مثلها بعد الإسلام. فكان لجوؤه إلى التحقيب الزمني المفصل أكثر ما يلائم طبيعة كتاب المعجم.

أما الوجه الرابع: فهو التحقيب الفني على أساس الغرض الشعري ويستدل عليه من كتاب المراثي وكتاب أعيان الشعر في المديح والهجاء والفخر⁽¹⁾ وكتاب المفيد⁽²⁾ الذي خصص جزءاً من فصله الأخير للشعراء الذين قصروا شعرهم على غرض شعري، أو معنى واحد، كالسيد الحميري، والعباس بن الأحنف، وغيرهما ممن أشار إليهم في كتاب المعجم⁽³⁾.

ومما يجدر ذكره في هذا الشكل من التحقيب ورود إشارات قليلة اهتم فيها المرزباني بشكل القصيدة، كملحوظاته على بعض الرجاز⁽⁴⁾ ووصفه بعض الشعراء بإجادة

(1) كتاب أعيان الشعر أشار النديم إلى أنه من ضمن كتبه التي كانت ما تزال في السواد لديه. وانظر الملحق الثاني.

(2) انظر الملحق الثاني.

(3) منهم «كعب بن معدان الأشقري» استفرغ شعره في مدح المهلب وولده «المعجم ص 236، وعلي بن محمد العبرتاني الكاتب، «استفرغ شعره في هجاء أبيه وهجاء الخلفاء والوزراء وجلة الناس» المعجم ص 154 ومصعب بن الحسين الوراق «استفرغ شعره في وصف الغلمان» المعجم ص 328... وغيرهم.

(4) فذكر عن العجاج، مثلاً، أنه «أول من رفع الرجز وجعل له أوائل وشبهه بالقصيد» الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ص 3/ 90، نقلاً عن المرزباني. وذكر عن أبي النجم أنه «لم يكن كغيره

المقطعات الشعرية⁽¹⁾، كما ذكر الخمسات في موضعين بالمعجم على نحو غير مفصل⁽²⁾.

التحقيب السياسي والتصنيف المذهبي:

أولاً: التحقيب السياسي:

يتضح من كتابات المرزباني عن الشعراء أنه يعول على الحياة السياسية بصفقتها أحد المحددات المهمة التي ينبني عليها تصور الحقبة التي عاش فيها الشاعر. ولا يتركز الاهتمام بالحياة السياسية عند عصر دون آخر لأنه كان بصدد تعريف أغلب العصور التي توزع فيها الشعراء. لذلك فإن استخدامه للحياة السياسية وأحداثها ورموز سلطتها، يبدأ منذ العصر الجاهلي. فتراه يستخدم طرقي الحياة السياسية في كيانيها الملكي والقبلي؛ للإشارة إلى الشعراء الذين كان لهم علاقة بأحدهما، كما أن ذلك كان لديه من أجل الاستدلال على وجود الشاعر إبان ذلك الحدث، أو تلك المعركة، خصوصاً في تعريفه الشعراء الجاهليين في معجم الشعراء، وهذا التركيز سيبحث في مبحث مستقل⁽³⁾.

وإذا اجتزنا هذا العصر إلى عصر صدر الإسلام نجد أن الوفاة على الرسول ﷺ، أو أحد خلفائه الراشدين، أو المشاركة في الفتوح الإسلامية من أبرز المحددات

من الرجاز الذين لم يحسنوا أن يقصّدوا لأنه يقصّد فيجيد» المعجم ص 180. وذكر عن العباس بن تيجان الخشري أنه «راجز يتبع في رجزه القوافي الغربية»، المعجم ص 105. وعن آخر: «شاعر مطبوع، راجز مقصد» المعجم ص 493.

(1) مثل ما ذكره عن محمد بن حازم الباهلي: «يقول المقطعات فيحسن»، المعجم ص 371. وعن الجماز: «صاحب مقطعات ولم تكن له إطالة»، المعجم ص 375. وعن ماني الموسوس: «له مقطعات تستملح» المعجم ص 387 وعن محمد بن أحمد بن رشيد: «يقول المقطعات المضمنات في الغزل»، المعجم ص 392.

(2) ذكر القصيدة الخمسة في موضعين بالمعجم ص 405 وص 408. ووصف مرة قصيدة بقوله: «قصيدة مزوجة» ص 416، وهي التي يتحد فيها كل شطرين في الروي.

(3) انظر: المبحث الثالث من الفصل نفسه في هذا البحث (الشعر والسياق والتاريخي).

المستخدمة لتحديد حقبة الشاعر⁽¹⁾.

أما العصر الأموي فقد امتزج فيه السياسي بالمذهبي إلى الحد الذي يصعب معه الفصل بينهما، وإذا استثنينا شعراء الشيعة والخوارج لوضوح التحقيب المذهبي فيهما من جهة، ولكثرة شعرائهما من جهة أخرى فإننا نعثر على فروع أصغر في التحقيب السياسي، مثل شعراء معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، أو المهلب بن أبي صفرة⁽²⁾. وفي استخدام مسمى العصر نفسه بصفته حقبة دالة على الشعراء في كتابات المرزباني لا يظهر العصر (الأموي)، كما هو الشأن في توظيف مسمى العصرين السابقين (الجاهلي) و(الإسلامي)، أو مسمى (الدولة العباسية) لاحقاً. فلا نجده في إشارات عن هذه الحقبة السياسية يستخدم النسبة المشهورة إلى هذا العصر وهي (الأموي)، أو إضفاء لقب الدولة عليها. وكل ما استخدمه مصطلح القبيلة (بني أمية)⁽³⁾، ولعل ذلك من نهج سابقه من مؤرخي القرن الثالث الذين اكتفوا بمسمى العصر الإسلامي للدلالة على هذا العصر.

بينما يختلف الأمر تماماً في العصر العباسي؛ إذ نلمح أهم ما يدل على استخدام المسمى السياسي وتوظيفه في تحقيب الشعراء، وذلك من جهة في استخدام اسم «الدولة العباسية» و«دولة بني العباس» بصفته معلماً يتم تحديد عدد من الشعراء به، ومن جهة أخرى في استعارة أسماء خلفاء هذه الدولة الذين أضحووا يشكلون حقبة صغرى ضمن إطار الدولة العباسية حين كان المرزباني يصنف الشعراء على نحو:

(1) من أمثلة الإشارة إلى هذا العصر في المعجم: «وفد على الرسول ﷺ ص 157، و: «له مع عمر رضي الله عنه خبر» ص 112، و: «شهد القادسية» ص 112.

(2) انظر الإشارة إلى الشعراء على هذا النحو في «المعجم»: ص 223، ص 236، ص 272، ص 273.

(3) انظر: الملاحق المرفقة في آخر هذا البحث: الملحق الرابع (التحقيب السياسي) (الشعراء المحددون بالدولة العباسية) و(الشعراء المحقوبون من خلال أسماء الخلفاء). حيث يلاحظ خلو الجداول في الملحق من نسبة الشعراء إلى (الأمويين) بهذا اللفظ. على أن ذلك لا يعني التجاهل التام للخلفاء الأمويين، فقد كان ينسب إليهم بلفظ (بني أمية).

«رشيدي ومأموني ومعتصمي»⁽¹⁾. أما الشعراء الذين عاصروا غير خليفة فكان يذكر عنهم ذلك، كالحسين بن الضحاك، وإسحاق الموصلي وسلم الخاسر، وأبي العتاهية⁽²⁾. ويتيح هذا التحقيق المفصل للشعراء فرصة لمعرفة تسلسلهم الزمني، من خلال النظر إليهم مرتبين وفق تعاقب فترات الخلفاء. فعلى سبيل المثال تكوّن الحقة المتوكلية شريحة من الشعراء قوامها عشرون شاعراً⁽³⁾، على غرارها يمكن استظهار عدد من الحقب الماثلة مع بقية الخلفاء، وحينها يمكن معرفة التسلسل الزمني للشعراء بمجرد إعادة ترتيب عصور الخلفاء، وما تضمنه عصر كل منهم من أسماء الشعراء. جدير بالذكر هنا اختلاف النظرة إلى العصر الأموي لدى أبي الفرج الأصفهاني، فقد عده عصرًا سياسيًا مستقلاً، مضافاً على السلطة السياسية فيه مسمى الدولة، وناسباً بعض الشعراء إلى الدولة الأموية مباشرة⁽⁴⁾. بخلاف معاصره المرزباني الذي تغاضى عنه ودججه في الحقة الإسلامية الأوسع، وحدد شعراءه بحسب مسميات الأحزاب والقوى السياسية المتصارعة في ذلك العصر، كما تقدم. وعلى الرغم من ميل التشيع المشترك بين المؤرخين الذي يمكن إسقاطه على تعامل المؤرخ المتأخر

(1) انظر الملحق الرابع.

(2) سيرد ما ذكره المرزباني عن طول مصاحبة هؤلاء الشعراء لعدد من الخلفاء وذلك في المحور الأخير من هذا الفصل لدى الحديث عن الكتابة الإخبارية الموسعة عن الشعراء.

(3) تتكون هذه الشريحة من فئتين: الأولى: عدد الشعراء فيها تسعة وهم الذين نسبوا مباشرة إلى الخليفة المتوكل. والثانية: عدد الشعراء فيها أحد عشر شاعراً من غير المذكورين في الفئة الأولى وتجدهم في إشارات المرزباني إليهم في المعجم على هذا النحو: «مدح المتوكل فمن بعده» ص 369، و«أدخل على المتوكل» ص 375، و«اشترى المتوكل ولاءه» ص 375، و«قلده المتوكل» ص 383، و«كان في أيام المتوكل» ص 381، و«خرج على المتوكل» ص 385، و«له مراث في المتوكل» ص 386، و«كان شاعر مكة على أيام المتوكل» ص 388، و«كان شاعراً وابنه محمد يقول في المتوكل» ص 388، و«نادم المتوكل» ص 394، و«له أخبار مع المتوكل» ص 403.

(4) استخدم الأصفهاني مسمى الدولتين: الأموية والعباسية في تحديد بعض الشعراء، ومن ذلك قوله عن الحكم بن عبدل: «من شعراء الدولة الأموية» (الأغاني 2/ 36، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الدار التونسية للنشر والتوزيع، طبعة مصورة من الطبعة السادسة لدار الثقافة ببيروت 1983)، وقوله عن هلال بن الأسعر: «شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية، وأظنه أدرك الدولة العباسية» الأغاني 3/ 51.

مع الحقبة الأموية بسبب الموقف من السلطة الأموية، إلا أن في انتساب الأصفهاني للأمويين ما يسوغ اختلاف نظره عن غيره⁽¹⁾.

ثانياً: تصنيف الشعراء على أساس المذهب:

يعد هذا التصنيف امتداداً للتحقيب السياسي للاعتبارات المعروفة عن نشوء المذاهب بسبب ما نجم عنه الخلاف على الأحقية بالسلطة السياسية. ويجد المتتبع لإشارات المرزباني في الصدد المذهبي عن الشعر والشعراء أن (المذهبية) أحد أظهر عوامل التأويل التاريخي للشعر لديه، خصوصاً منذ مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. ويتضح من حديث «النديم» عن الفصل الثالث من كتاب المفيد للمرزباني ذلك التوجه في تصنيف الشعراء. إذ ذكر عنه اشتماله على: «مذاهب الشعراء في دياناتهم، كالشيعة، وأهل الكلام، والخوارج، والمتهمين، واليهود، والنصارى، ومن جرى مجراهم»⁽²⁾. ويمكن تلمس شيء من ملامح ذلك التوجه لدى المرزباني، في المتبقي من حروف كتابه المعجم، حيث نجد إشارات إلى أغلب تلك الطوائف. ويبدو محور التشيع على نصيب وافر من تلك الإشارات. لأن المرزباني لم يكن مقتصرًا على ذكر المتشيعين، وإنما كان يشير أيضاً إلى خصومهم. فذكر الشعراء والكتاب الطاعنين على آل البيت ممن أسماهم «الناصبين»، كما بين من جهة أخرى في إشاراته «الروافض»، وهم المغالون في التشيع. ولعل في كثرة إشاراته إلى التشيع واتخاذة محوراً من أكثر ما يجلي ميل المرزباني إلى التشيع، ناهيك عما كان يحظى به هذا المذهب إبان حياة المرزباني من دعم السلطة البويهية وسعيها إلى انتشاره.

ولم تكن إشارات المرزباني تلك إلى هذه الطوائف خالية من دعمها بالنماذج الشعرية، فقد أورد العديد من النصوص الشعرية، خصوصاً لطائفتي الشيعة والخوارج. كما كان يربط هذه النماذج بما كان باعثاً عليها من الوقائع التاريخية⁽³⁾.

(1) انظر نسبه في: معجم الأدباء 13/ 94-95. ومقدمة الأغاني (طبعة دار الثقافة).

(2) انظر الملحق الثاني.

(3) من نماذج شعراء الشيعة في «المعجم» ص 126 «عوف بن عبد الله بن الأحمد الأزدي: «شهد مع علي

وتبدو قيمة هذه النظرة التصنيفية في تأريخ المرزباني للشعر والشعراء في أنها هيأت هذه المادة الإخبارية والشعرية، خصوصاً المادة الشعرية منها للنظر فيما يمكن أن يتمثل فيها من سمات فنية ولدتها التوجهات المذهبية على النحو الذي نراه في دراسات المحدثين عن أدب هذه الطوائف وأدبائها⁽¹⁾.

أشكال أخرى من التحقيب والتصنيف:

أخذ المرزباني بأشكال أخرى من التحقيب والتصنيف تضاف إلى الأشكال السابقة فتناول الشعر والشعراء من منظورات اجتماعية وإقليمية، وهذان الأساسان من أوضح أسس التحقيب والتصنيف المتبقية في كتاباته، ومن أكثرها وروداً لديه. فعلى صعيد المنظور الاجتماعي يأتي تناوله المستقل لأشعار النساء⁽²⁾ ثم عنايته بشعر فئات اجتماعية أبرزها الخلفاء في كتابه أشعار الخلفاء⁽³⁾ والعلماء الذين اهتم بشعرهم على نحو خاص في كتابه المقتبس، ثم إشارات له لمن كان لديه شعر من فئات

عليه السلام صفين، وله قصيدة طويلة رثى فيها الحسين عليه السلام وحض الشيعة على الطلب بدمه، وكانت هذه المراثية تحباً أيام بني أمية، إنما خرجت بعد ذلك، قاله ابن الكلبي، منها: [الطويل]

ونحن سمونا لابن هند بجحفل	كرجل دبا يزجى إليه الدواهيا
فلما التقينا بين الضرب أينا	بصفين كان الأضرع المتوانيا
ليبك حسينا كلما ذر شارق	وعند غسوق الليل من كان باكيا »

(1) انظر عن هذه السمات كلًّا من:

الشعر السياسي، أحمد الشايب، دار القلم، بيروت 1976 (التاريخ من المقدمة) ص 204 222 «سمات شعر الخوارج»، و ص 233 249 سمات شعر الشيعة.

ضحى الإسلام، أحمد أمين ج3، مكتبة النهضة المصرية ط10، 1936 (التاريخ من المقدمة) «خواص أدب الشيعة» 3/ 300-315، و«أدب الخوارج» 3/ 340 347.

العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف ط9، 1966 (التاريخ من المقدمة)، «شعراء الشيعة» ص 305-326.

(2) أشعار النساء، للمرزباني. تقدم الحديث عنه ضمن مؤلفاته.

(3) انظر الملحق الثاني.

أخرى، كالقادة والوزراء والكتاب⁽¹⁾.

أما تصنيف الشعراء بحسب أقاليمهم فإشاراته إلى ذلك في المعجم من الغنى والكثرة يصعب حصرها، فهو يشير غالباً عند ذكر كل شاعر إلى إقليمه أو بلده، أو إلى قبيلته إن كان الشاعر قديماً⁽²⁾. ويمكن استخراج قوائم من شعراء الأقاليم التي نُسب الشعراء إليها ولعل وضوح هذا المنحى في كتابات المرزباني عن الشعراء من الأمور التي استوحى منها أبو منصور الثعالبي طريقته في التأريخ للشعر والشعراء في كتابه يتيمة الدهر؛ إذ جعل من الأقاليم والبلدان والأسر السياسية الحاكمة آنذاك أساساً تنطلق منه فكرة التأريخ للشعر والشعراء لديه⁽³⁾.

وبالعودة إلى تناول المرزباني لأشعار الخلفاء والعلماء نلني أمراً يتعلق بالتأريخ للشعر، يمثل المرونة في موقف مؤرخ الشعر من ظهور مادة شعرية وافرة، ليست من نتاج الشعراء المعني بالتأريخ لهم. فالمرزباني حين أفرد كتاباً خاصاً لأشعار الخلفاء، وأبدى اهتماماً ملموساً بشعر العلماء، تجسد في عرض نماذج عديدة لهم، موحياً بتنوع أغراضها، ومنشئها في كتابه المقتبس؛ - إنما أراد بذلك عدم تجاهل هذه المادة فأثبتها تاريخياً لأصحابها؛ إذ لم يعد بالإمكان تجاوزها، ولا سيما وهو يؤرخ من موقع زمني متأخر، قد تراكم فيه نتاج القرون السابقة من شعر هاتين الفئتين. كما أنه لم يشأ لتناوله ذاك أن يدرج ضمن تأريخه الخاص بالشعر فأبقى تناول أشعار فئتي العلماء والخلفاء مستقلاً؛ كي ينظر القارئ إلى هذا الشعر فيجده في سياق خاص به، وفي الوقت ذاته يكون المرزباني قد أضاء بهذا الشعر جانباً من تاريخ الشعر بعامته.

(1) ممن أشار إليهم وترجم لهم في المعجم من هذه الفئات - على سبيل المثال - من القادة: قتبية بن مسلم الباهلي ص 212، ومحمد بن القاسم الثقفي ص 343. ومن الوزراء: الفضل بن الربيع الحاجب ص 182 والفضل بن سهل ص 183. ومن الكتاب: عمرو بن مسعدة الكاتب ص 33. وغيرهم.

(2) انظر مثلاً في المعجم إلى الشعراء من مصر ص 412، 420، 421، 422.. وخراسان ص 190، 267، 329، 403. واليامة ص 192، 459 ومن البادية ص 148، 164. وكذلك البحرين والأردن، وحضرموت واليمن، وديرقن، وميفارقين، وقنسرين.. وغيرها.

(3) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي، تحقيق مفيد قميحة.

من هنا فإن قيمة تناوله في غايتها البعيدة متعلقة بتأريخه الخاص للشعر والشعراء، على اعتبار ما للفتنيتين إجمالاً من دور فاعل في التاريخ الشعري. ففئة الخلفاء هي الفئة الراعية للأدب، أما فئة العلماء فهي المقاربة للشعر شرحاً ونقداً ورواية. على أن في مقاربتهم لشعر الفئتين كشفاً عن علاقتهما بالشعر، ليس من خلال الرعاية والنقد، وإنما يأتي هنا من مستوى ممارسة الشعر ذاته. وذلك ما جسد غايته القريبة من الاهتمام بأشعار العلماء والخلفاء.

وفي هذا المستوى أثمرت مقاربتهم عن تعرف الكثيرين من العلماء قولاً للشعر⁽¹⁾. وعلى الأغراض والمضامين الشعرية التي طرقتها. ناهيك عن استعادة الأوجه الشعرية، التي اندثرت عند بعضهم جراء طغيان الكتابة النثرية، والمؤلفات الموسوعية⁽²⁾. وناهيك أيضاً عما يمكن معرفته من نماذج شعر العلماء عن جوانب من علاقاتهم، وممارساتهم⁽³⁾. زيادة على تعرف مستوى تفاوت الشعر ذاته بين العلماء في مضامينه، وألفاظه⁽⁴⁾ ونظرة بعض آخر منهم إلى ذلك الشعر⁽⁵⁾.

-
- (1) انظر نور القبس تجد فيه مجموع ما ورد من نماذج شعرية لأبي الأسود الدؤلي ص 7-20 والخليل بن أحمد ص 56-71 قريباً من مائتي بيت. إذ أورد للأول مئة وسبعة عشر بيتاً، وللثاني ثمانين بيتاً. أضف إلى ذلك النماذج التي وردت لغيرهم، ووقفاته الخاصة إزاء من اشتهر بالشعر من العلماء من أمثال قطرب والسجستاني والعتبي، فذلك يدل على حجم المادة الشعرية التي كانت في كتاب المقتبس من أشعار العلماء.
- (2) انظر المختار: النماذج التي ذكرت للجاحظ في ترجمته ص (17 أ، وما بعدها)؛ إذ تجده يمدح، ويفخر، ويتطرق لمعنى الشيب بخفة ظله حين قرنه بالصلع، وكيف اكتشف ثلاثة ممدوحين - طاف عليهم بستة أبيات - أمره بعد أن أوهم كلاً منهم أنها خاصته.
- (3) انظر المختار: ترجمة أبي حاتم السجستاني تجد غزله في المبرد وهو حدث يلزم حلقة ص 5 ب 6 أ، والأبيات قد وردت أيضاً في ترجمة المبرد بنور القبس ص 327.
- (4) انظر مثلاً في نور القبس إلى أنموذج لـ«دماذ» ومقدار تبذل اللفظ وبذاته ص 224 وانظر الضد تماماً، شرف مضمون قصيدة «قطرب» التي جمع فيها معجزات النبي ﷺ ص 175-178.
- (5) كالحكم على السجستاني بأنه عد من متوسطي الشعراء نور القبس ص 225 ورأي أحدهم في مرثية للعتبي بأنها من أجمل ما كتب على ألواح القبور المختار ص 215 ب.

ويمكن أن نقيس على نظرتة السابقة اهتمامه بأشعار الخلفاء⁽¹⁾، في تفاوت الأداء الشعري والافتنان فيه⁽²⁾، وفي الأغراض التي طرقتها والنهج الشعري لدى بعضهم في اقترابه من أساليب الشعراء⁽³⁾. وفي كل ذلك ما يدل على أهمية التأريخ لشعر هاتين الفئتين المهمتين في المجتمع.

أما المنظور الاجتماعي لشعر النساء فإنه يختلف عن أشعار الخلفاء والعلماء. إذ يبدو الباعث الرئيسي لتناول أشعار النساء لدى المرزباني ما رآه من اهتمام بشعر الإماء والجواري لدى المتقدمين من معاصريه، كـ «المفجع البصري» (327هـ) في شعر الجواري والإماء، «أبي الفرج الأصفهاني» في أشعار الجواري⁽⁴⁾. ويبدو من تركيز المرزباني على حضور القبائل العربية، وجعله إطاراً يحوي كتابه، وحرصه على تناول الشاعرات من خلال القبائل المرتبة بحسب حروف المعجم - يبدو في هذا التركيز محاولة تتضمن الكشف عن النطاق الاجتماعي للمرأة عن طريق أشعارها والأخبار المتعلقة بتلك الأشعار. ويتأكد هذا الاهتمام الخاص بالمرأة العربية القبلية حين نجد أن أغلب المذكرات فيما وصل من كتاب أشعار النساء ممن يقعن في الحقبة الإسلامية، أو ما قبلها.

وحين ننظر في النماذج الموجودة بالكتاب يبدو شعر المرأة العربية مجسداً لمشاركتها في أوجه الحياة، فهي تفد مادحة للولادة⁽⁵⁾، وتحرض على الحرب والأخذ بالثأر⁽⁶⁾، أما

(1) المقتطفات التي أوردها المرزباني للخلفاء المترجم لهم في المعجم لا تقارب في كثرتها ما ورد عن العلماء في المقتبس الأمر الذي لا يمكن من أخذ تصور صحيح.

(2) وصف المرزباني الخليفة الراضي بالله أنه أكثر الخلفاء شعراً وأكثرهم افتناناً في القول المعجم ص 430.

(3) يتضح ذلك من تنوع أغراض المقتطفات الواردة للخلفاء بين الحكمة ووصف الأحداث السياسية، والفخر، والغزل. وفي الغزل نجد شقيه المذكر والمؤنث كما في شعر الأمين، المعجم ص 362، والواثق بالله هارون بن جعفر بن محمد بن المعتصم ص 462.

(4) أشعار النساء ص 3، كما تجد ذلك في كتاب ما ألف عن النساء، صلاح الدين المنجد، مكتبة المعارف، الطائف (د ت) ص (4-15).

(5) انظر: أشعار النساء مدح امرأة من بني قشير لخالد القسري ص 99، ومدح ليل الأخيلىة للحجاج ص 46.

(6) انظر مثلاً في أشعار النساء: أنموذج الحرنق بنت هفان تحض بني عمرو بن مرثد ص 168-169.

الرثاء فهو من أكثر النماذج وروداً في أشعار النساء⁽¹⁾.

ولم يكن شعر المرأة العربية وقفاً على هذه الأغراض التي يشاطرها فيها الرجل، بل عبرت في شعرها عن ذاتها وخصوصياتها؛ إذ تكشف بعض النماذج أن المرأة القبلية لم تكن تعوزها الجرأة التعبيرية في بعض المواقف الحرجة والحساسة⁽²⁾. ويبدو أن المرزباني أراد من خلال الوقوف عند هذا الملمح الأخير في شعر العربيات أن يضيف بعض الجوانب إلى المنظور الاجتماعي السائد عن مجتمع الحرائر القبليات وما يرتبط به من القيم عادة مقابل التصور المضاد الذي تركه الاهتمام بشعر الإماء والجواري عن مجتمعهن.

ويبدو المحور الذي كانت تعبر فيه المرأة العربية عن ارتباطها المصيري بالرجل، ومقدار التمسك به نظراً للقيم التي غرسها المجتمع من الدفاع عن الشرف، وحماية العرض، والغيرة على المحارم وغيرها، - يبدو هذا المحور مستأثراً بعدد من الأشعار والأخبار التي تجلي عن قيمة التنبيه إلى ما تركه ذلك الوضع من وقع مريع على نفسية المرأة، ولا سيما حين تراقب انقضاء ذلك المصير لمن تتوقف عليه حياتها. فجاءت النماذج الشعرية والسياقات الإخبارية في هذا الصدد غاية في التأثير، الأمر الذي أضفى على أشعار النساء خصوصية في التعبير من واقع تلك المواقف قل أن تصل إليها أشعار الرجال⁽³⁾.

(1) من ذلك أنموذج الشماء بنت الكميت أشعار النساء ص 160، وأم طريف التغلبية ص 161، وأخت طرفة بن العبد ص 170، وجليلة بنت مرة امرأة كليب بن ربيعة ص 185 187.

(2) الشعر الذي يجسد هذه المواقف انظر أمثلته في أشعار النساء على النحو التالي:

أ - خبر فتاة أو فتيات مع أب غيور ص (152) ب - وصف امرأة لشعورها بخيبة أمل ص (86-87) ج - أنموذج أم الورد العجلانية ص (114-115) د - هجاء النابغة الجعدي لليلي الأخيلى وردها عليه ص 25 وما بعدها. ه - أنموذج عمرة بنت الحمارس ص 154-155. و وصف عمرة بنت الحمارس أيضاً جارية لعبد العزيز بن مروان ص (156-158).

(3) انظر المواقف التالية مع نماذجها الشعرية في أشعار النساء: أ - خبر العجوز التي كانت تندب زوجها لحظة احتضاره، وتقطع إنشادها لتطلب من ملك الموت أن يأخذها، أو إحدى النساء اللاتي حولها وتسأله

لهذه المواقف وما سبقها بدت أهمية التصدي لأشعار النساء على اعتبار ما يقدمه هذا المنظور في التأليف بعامة، وتأريخ الشعر بخاصة من مادة شعرية وإخبارية تفتح المجال لإعادة تصور تلك الشخصية. وأنها أي تلك المادة التي قام المرزباني بجمعها فيما لو درست في منحائها الاجتماعي، وسياقها التاريخي فإنه سيظهر منها بنتائج مهمة وهو ما كانت ستتضاعف قيمته لو كان عمل المرزباني في أشعار النساء وصل إلينا تاماً، ووصلت معه الصورة المقابلة له من شعر الإمام والجواري عند غيره.

وبإلقاء نظرة ختامية على أشكال التحقيب السابقة التي وردت في كتابات المرزباني مما استقي أغلبه من كتاب المعجم فإن صورتها التي وردت عليها في هذا الكتاب لا توحى بما قام به المرزباني من عمل مهم في سياق تأريخه للشعر. ذلك لأن عمله في هذا الصدد لم يرد مرتباً وفق الأشكال التي تناولناها في مكان آخر من هذا المبحث؛ إذ وردت إشارات متفرقة ومتداخلة. غير أنه حينما يعاد ترتيب إشارات وفق جدول مقتصر على محاورها التحقيقية: (الفنية)، أو (الزمنية)، أو (السياسية) أو غيرها فإن ذلك يظهر أهميتها وفعاليتها على نحو أكثر.

ففي التحقيب (الزمني والفني) يظهر تقسيمه للشعراء إلى شرائح بدءاً من حقبة «الجاهلية القديمة» وصولاً إلى الحقبة «المحدثة المتأخرة»⁽¹⁾. ويظهر تصنيف الشعراء

كل مرة إن كان ذلك يرضيه أم تزيده فتزيد إنشادها ص 133-134. ب - ارتباط مصير أربع وثلاثين امرأة برجل خارجي طلبه الحجاج فوفدن معه وكن يدخلن عليه واحدة تلو الأخرى وكلما سأل إحداهن أجابت: عمته أو خالته، أو أخته، إلى أن دخلت إحداهن وكانت ابنته فصاغت ذلك شعراً. ص 188 192.

ج - أثر مصير مجموعة من الرجال على امرأة واحدة ما بين عمين وخالين وأخ، وأب، وزوج فقدتهم دفعة واحدة وظلت تراثي كلا منهم ص 194.

د - ترك المرأة لمصيرها بمجرد شك الزوج ص 171-172، أو تخليه عنها لحظة جن ص 207.

(1) في التحقيب الزمني والفني يتضح من أوصاف المرزباني للشعراء أنهم يقسمهم إلى ست حقب هي: (حقبة الجاهلية القديمة، ويصف الشاعر فيها ب«جاهلي قديم») (حقبة الجاهلية ويصف الشاعر فيها ب«جاهلي») (حقبة الحضرة ويصف الشاعر فيها ب«مخضرم») (الحقبة الإسلامية وتشمل الحقبة الأموية، ويصف الشاعر فيها ب«إسلامي») (الحقبة المحدث، ويصف الشاعر فيها ب«محدث») (الحقبة المحدث

سياً⁽¹⁾ ومذهبياً⁽²⁾؛ إذ نجد فيه تحقيب الشعراء بحسب حقبة السياسية، أو تصنيفهم بحسب انتماءاتهم المذهبية. وهنا لنا أن نتأمل مقدار الفائدة في وصف الشاعر وتحديد حقبة من خلال أكثر من منظور فيما لو تم استكمال هذه القوائم، لو كانت وصلت إلينا أجزاء كتاب المعجم كاملة.

ناهيك عما يمكن استظهاره كذلك من قوائم عدة. سواء أكان ذلك بحسب أوصاف الشعراء في أبدانهم، أم كان ذلك بحسب الشعراء من القبائل العربية أو البلدان التي التزم المرزباني بالإشارة إليها في جل تراجمه ب المعجم.

ولعل القيمة المشار إليها تكون على نحو مغاير تماماً فيما لو نظر لبعض أشكال التحقيب في مظانها الرئيسية، ولا سيما التحقيب الزمني والفني في كتابيه الموثق، والمستنير عن الشعراء القدامى والمحدثين. والتحقيب السياسي والتصنيف المذهبي اللذين فصلهما في كتابه المفيد؛ إذ لن تكون المحصلة قوائم تصنيفية فحسب. بل ربما سمات وخصائص أكثر ثراء. غير أن المتبقي مما ورد في كتاب المعجم يدل ولا شك على مقدار جهد المرزباني في جمع تلك المعلومات المتنوعة عن الشعراء.

وسنرى قيمة التحقيب وخصوصية اشتغال القدامى به، عندما ننظر إليه في ضوء مقولات المنهج التاريخي، ومقارنة أشكال التحقيب وممارسته في التصورين القديم والحديث، في المبحث الثاني من الفصل الرابع من هذا البحث.

المتأخرة، ويصف الشاعر فيها ب«المحدث المتأخر».

(1) التحقيب السياسي، تجل في أوصافه المحددة للشعراء في العصر العباسي فالشاعر الأموي يشير إليه بعبارات مثل: أدرك الدولة العباسية، كان في صدر الدولة العباسية. أما الشعراء العباسيون، فكان ينسبهم إلى الخلفاء الذين عاصروهم، إذ أمكن رصد أكثر من ثلاثين شاعراً وصفهم ب: منصوري، رشيدي، مأموني، معتصمي، متوكلي...).

(2) التصنيف المذهبي للشعراء كان واضحاً من خلال أوصافه لما يقارب عشرين شاعراً بأوصاف منها (كان يتشيع)، (انحرف عن آل البيت) (كان ناصبياً) (من شعراء الخوارج) (خارجي).

المبحث الثاني

الأبعاد السيرية

المحور الأول: العرق والبيئة والدين⁽¹⁾:

كان لطبيعة التأليف في المصنفات القديمة دور بارز في التطرق إلى نواح عدة من جوانب حياة الشخصيات التي عني المؤلفون القدماء بالترجمة لها. وقد ساعد انطلاق الكتابة عن الشخصيات من خلال مفهوم الأخبار على تلمس قدر كبير من ملامح الشخصية ومراحلها السيرية؛ إذ تميز ذلك المفهوم بسمي التنوع والتوسع. فتبدأ الكتابة غالباً بالانتماء العرقي - ونعني النسب - والقبيلة، وموطن النشأة، ثم تنفتح على آفاق متعددة من الأخبار المرتبطة بمكونات العلم المترجم له، وعطائه العلمي أو الأدبي وغير ذلك، ثم انتمائه المذهبي، وعلاقاته المتشعبة في وسطه الخاص ومحيطه الاجتماعي... إلى غير ذلك من الجوانب الأخرى⁽²⁾. وليست قيمة هذه الأخبار فيما ترسمه من ملامح للشخصية المفردة فحسب، وإنما فيما تثمر عنه من أبعاد مشتركة ومعلومات يكمل كل منها الآخر؛ إذ تؤول الأخبار الخاصة بكل شخصية إلى معطيات عامة، وهو المحور الذي يعنى به هذا المبحث. فهو لا يهدف إلى استعادة مباشرة لملامح كل شخصية في حد ذاتها، وإنما يسعى إلى الإفادة من الأخبار التي تفرقت في ثنايا التراجم، والخروج منها بمادة مشتركة تشكل الأبعاد الموضوعية

(1) استنباط هذه العناصر الثلاثة كان بناء على تكرارها في التراجم، واطراد ذكرها في كتابات المرزباني عن العلماء في كتاب المقتبس، وفي المتبقي من تراجمه للشعراء في كتاب المعجم وغيره. ولا يعني ذلك التزاماً بعوامل «تين» الثلاثة، التي ذكر صلاح فضل أنها: البيئة، والثقافة، والتربية. وذكر عبد المجيد حنون أنها: الجنس، والبيئة، والزمان. للتوسع في ذلك انظر: مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، القاهرة، مهرجان القراءة للجميع [96] ص 28. واللائسونية، عبد المجيد حنون، ص 64.

(2) في كتاب - النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، ص 73-74 - قدم حميد الحمداني تحليلاً لأنموذج الترجمة لدى أبي الفرج الأصفهاني، ووصفه ب (الطريقة الإخبارية التاريخية).

لحيثيات هذا المبحث المتمثلة في (العرق والبيئة والدين والأبعاد الاجتماعية). وللعرق أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية. فقد انعكست تلك الأهمية جلياً في أغراض الشعر مدحاً وفخراً ورثاء، كما انعكست أهمية العرق في النسب الذي يعد أحد المعارف التي على عالم الشعر الإلمام بها⁽¹⁾. ولذلك عني مؤرخو الشعر ولا سيما المرزباني بأنساب الشعراء بخاصة. فهم غالباً يبتدئون تراجم الشعراء بها، فيسلسلون نسب الشاعر إلى أصله القبلي، أما الموالي من الشعراء فيعززون إلى القبائل أو الأشخاص الذين انتموا إليهم ولأه⁽²⁾.

ولهذا الاهتمام بالأنساب بعده التاريخي المهم؛ إذ يفسر مقداراً كبيراً من المادة الشعرية في ضوء تاريخ القبائل لما حفل به من حروب وأيام ردها الشعراء كثيراً في أشعارهم. والقارئ في كتاب المرزباني **معجم الشعراء**، أو في مادة كتاب **المقتبس** يلمس اهتمامه الواضح بالأنساب وما يترتب على المعرفة بها من تأويلات⁽³⁾.

ويبدو المنحى السابق للعرق بصفته مصدراً مفسراً للشعر متمثلاً بكثرة، لاستناده إلى العلاقة المطردة بين التاريخ والشعر. لكن هذا المنحى على أهميته وموسوعيته⁽⁴⁾، لم يكن التمثل الوحيد لمنظور العرق في مؤلفات مؤرخي الشعر. فقد دلت الأخبار الواردة على مناحي تمثل أخرى، لعل من أكثرها تردداً تلك التي عنيت بالبحث في عوامل اكتساب الشعرية وتباين أنصبة القبائل والأفراد منها كثرة وقلة. ثم ما ترتب على ذلك من محاولات تفسير حركة تاريخ الشعر في ضوء العروق القبلية وما تركته حظوظها ومنافساتها من آثار في هذا الصدد.

(1) انظر نور القبس فقد ختمه بالنسابين وذلك يعني أن المرزباني عدّهم فئة مع العلماء والأدباء والقراء.

(2) انظر على سبيل المثال في **المعجم** ترجمة: عمرو بن عبد الملك الوراق «مولى عنزة» ص 30 وترجمة: أبي البلهاء عمير بن عامر «مولى يزيد الشيباني» ص 75 وغيرهما.

(3) انظر في **المعجم** بداية (ذكر من اسمه عمير) ص 71 تجد في غير ترجمة أن المغزى من ذكر نسب الشاعر وتحديد قبيلته يرجع إلى أن للشاعر شعراً في حربها مع قبيلة أخرى. ومثل ذلك كثير الورود، ولا سيما مع الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

(4) سيفصل الحديث عن هذا الجانب ضمن المبحث التالي (الشعر والسياق التاريخي).

ويلفت النظر فيما يتعلق باكتساب الشعرية، استمرار الأخذ بمفهوم العرق والبيئة إلى وقت متأخر اجتاز القرن الرابع الهجري. في الوقت الذي تعرضت فيه أفكار أخرى للتراجع، كفكرة إسناد الإلهام الشعري إلى «شياطين الشعراء»⁽¹⁾.

أما ما يتعلق بمحاولات تفسير حركة تاريخ الشعر وتأثرها بالنظر إلى القبائل ومقدراتها الشعرية فتقودنا إلى تتبعه عبارة موجزة في أحد الأخبار التي نقلها المرزباني قال فيها الأصمعي بأنه لم ير أقل من شعر «كلب وشيبان»⁽²⁾؛ إذ وجدت هذه العبارة لاحقاً أهمية وصدى لدى محمد بن سلام. فقد طورها من خلال تتبع أسماء الشعراء في كل قبيلة مفسراً حركة التاريخ الشعري من خلال القبائل، فقال: «وكان شعراء الجاهلية فيريعية: أولهم المهلهل والمرقشان، وسعد بن مالك، وطرفة بن العبد، وعمرو بن قميئة، والحارث بن حلزة والمتلمس، والأعشى، والمسيب بن علس ثم تحول الشعر في قيس، فمنهم: النابغة الذبياني - وهم يعدون زهير بن أبي سلمى من عبد الله بن غطفان وابنه كعباً - ولبيد، والنابغة الجعدي والحطيئة، والشماخ، وأخوه مزرد، وخداش بن زهير، ثم آل إلى تميم فلم يزل فيهم إلى اليوم»⁽³⁾ ولم يتم ابن سلام شعراء تميم الذين منهم جرير والفرزدق لتكتمل قراءته للأسماء الشعرية الموجودة من هذا المنظور الذي استند إلى رسم خط الوجود الشعري بحسب القبائل. وفي أخبار أخرى أوردتها المرزباني نقف على تدخل آخر للعرقية القبيلة ومحاولتها: إما تغيير حقيقة ثابتة في التاريخ الشعري، وإما التقليل من أخرى بمسوغ العصبية. فقد ذكر المرزباني زعم قبيلة «بكر بن وائل» أن عمراً بن قميئة أول من قال الشعر، وقصد القصائد، وأن كثيراً من شعر امرئ القيس إنما هو لعمرو⁽⁴⁾ وأورد المرزباني خمس

(1) عن هذه الفكرة انظر مبحث (الإلهام الشعري) الذي أضافه إحسان عباس مقدمة لكتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب الإصدار الثالث من طبعات دار الشروق 1993، ص 15-30.

(2) الموشح: ص 106.

(3) طبقات فحول الشعراء لابن سلام 1/ 40 .

(4) المعجم ص 4.

روايات في موضعين مختلفين من الموشح⁽¹⁾ للخبر المعزو إلى الشاعر بشار بن برد، وفيه يستنكر جعل الأخطل ثالثاً مع جرير والفرزدق، لأنه «تعصبت له ربيعة، فقالت: مضر: ألقوا لنا شاعراً فألقوه وليس هناك».

ولنظور العرق - بصفته مفسراً تباين الشعرية - تجلياً آخر على نحو أضيّق، ويبدو ذلك حين لاحظ المؤرخون أن الشعر يتصل في بيوتات بأعيانها أكثر من غيرها، فكان من ذلك تنبه ابن سلام إلى اتصال الشعر في ولد زهير وولد جرير على نحو لم يتصل لغيرهما من الشعراء⁽²⁾. وهو ما اصطلاح له إحسان عباس: (نظرية وراثية الشعر)⁽³⁾.

وقد أضافت روايات المرزباني إلى تلك البيوتات غيرها، كبيّتي: حسان بن ثابت رضي الله عنه، وعبد الحميد بن لاحق⁽⁴⁾. وذلك ما يبدي أخذه بالفكرة. أما تعزيزه لها؛ فيتضح من وقفاته المتكررة عند صلات القرابة بين الشعراء والأدباء، حين كان يشير إلى الأسر الأدبية التي يتكون معظم أفرادها من الأدباء أو الشعراء، كأبناء عبد الصمد بن المعذل، وأبناء عبد الحميد الطوسي القائد، وآل المنجم وغيرهم⁽⁵⁾.

وفي صدد العرقية لم يكن المرزباني يشير إلى من تربط بينهم صلة قرابة من الشعراء من جهة الآباء الذكور فحسب. بل نوع التماس طرق القرابة لتشمل النساء

(1) الموشح ص 160، وورد الخبر في موضع على أربع روايات في (أخبار الفرزدق) ورواية خامسة موضعها (أخبار الأخطل).

(2) طبقات فحول الشعراء لابن سلام 1/ 110.

(3) تاريخ النقد الأدبي، إحسان عباس، ص 23.

(4) نقل المرزباني عن المبرد: (أعرق الناس كانوا في الشعر آل حسان فإنهم يعدون ستة في نسق كلهم شاعر: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام) المعجم ص 269. ونقل عن أبي هفان: «حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن لاحق وكل هؤلاء شعراء» المعجم ص 477.

(5) ذكر المرزباني في المعجم «بني حميد بن عبد الحميد الطائي الطوسي القائد ثلاثة وهم: أبو نهشل وأبو منصور وأبو عبد الله وهم شعراء أدباء» ص 368 وذكر: المعذل بن غيلان العبدى «له من الولد عشرة كلهم أديب شاعر منهم عبد الصمد» ص 304. أما آل المنجم فقد ترجم لكل منهم منفرداً ومنهم أبو منصور يحيى المنجم في المعجم ص 141. جدير بالذكر أن للمرزباني كتاباً في أخبار عبد الصمد بن المعذل.

وقراباتهن من الأخوال أو أبناء الأخوات⁽¹⁾، ولتتفرع في الرجال إلى الأعمام والإخوة وأبناء الإخوة⁽²⁾، مما يوحى بتوسيع الدائرة الموروثة للشعر، وأنها لا تنحصر في النسق الممتد في عقب الرجال من الأجداد إلى الأسباط. وحين ينظر إلى تنوع العصور الذي احتضن تلك القرابات في الحقب الثلاث نجد في ذلك معزراً آخر، ودليلاً في الوقت نفسه على استمرار أخذ المرزباني بالفكرة. فبعض القرابات تبدأ وتنتهي في الحقة الواحدة⁽³⁾، وبعضها يمتد في غير حقة، كبيت حسان بن ثابت رضي الله عنه.

أما عن علاقة هذا البعد السيري وتداخله مع بُعدي البيئة والدين فهو ما يتضح في توسع مفهوم البيئة. فزيادة على كون البيئة شرطاً مكانياً لقبول شعر القبيلة، فإن قِيم الدين نُظِر إليها بصفته بيئة مؤثرة على نهج الشاعر ومقدار نتاجه من الشعر. كما يلاحظ عنصر اشتراك آخر وبخاصة بين كل من العرق القبلي والمذهب الديني في التعصب من خلالهما: للشاعر إما تحيزاً له، وإما تحاملاً عليه.

ويبدو الشرط المكاني واضحاً في موقف العلماء من شعراء قبيلة تسكن الأطراف، كقبيلة إياد. فقد أورد المرزباني لدى تناوله المآخذ على أبي دؤاد الإيادي ما أوحى بالسبب في الموقف من شعره وشعر عدي بن زيد العبادي⁽⁴⁾ فذلك يرجع إلى ما اتسمت به ألفاظهما من عدم الفصاحة لأنها: «ليست بنجدية»⁽⁵⁾. ولا يعني ذلك اطراد الأخذ

(1) التماس القرابة من طريق النساء مثاله الإشارة لأم عياش بن الزبرقان بن بدر (عمة) الفرزدق. المعجم ص 128 والإشارة إلى أن: قيس بن المكشوح (ابن أخت) معدي كرب. المعجم ص 198.

(2) من الأمثلة على تفرع القرابة في الرجال: علي بن رزين (ابن أخي) دعلج بن علي. المعجم ص 145. والمرقش الأكبر (عم) المرقش الأصغر، والأصغر (عم) طرفة بن العبد. المعجم ص 5. ومثل كعب بن حذيفة بن شداد (جد) ليل الأخيلى وهو مثال على تداخل طرفي الرجال والنساء في القرابة الموروثة ومثال أيضاً على تباعد القرابة زمنياً. المعجم ص 231. وانظر صلات قربي آخر: ص 6 وص 249 وص 310 وغيرها.

(3) مثل صلة القرابة بين المرقشين وطرفة فهي في (العصر الجاهلي) ومثل قرابة «الموج بن الزمان بن قيس بن معدي كرب التغلبي» (ابن أخت) «القطامي» فهما في (العصر الإسلامي) المعجم ص 452.

(4) الموشح ص 93.

(5) الموشح ص 93.

عن شعراء القبائل التي لم تسكن الأطراف، كالشعراء الذين سكنوا الحجاز أو نجداً. فالشعراء الذين نزحوا عن هذه الأماكن، وأكثروا التردد على الحواضر أو قاموا بها ليسوا كأهل البدو. فالكميت بن زيد كان معلماً بالكوفة؛ مما يعني إقامته بها طويلاً ولذلك لم يكن حجة⁽¹⁾. ومثله ابن قيس الرقيات⁽²⁾. أما ذو الرمة فكان أقل تأثراً منهما، فبقي «حجة» على الرغم من تأثر ألفاظه⁽³⁾.

وفي منظور البيئة نجد بعض الأخبار التي أوردتها المرزباني توحى بتباين البيئات تلقياً للشعراء. فهناك من رأى أن الشعر يفقد شيئاً من قيمته خارج بيئته المكانية الأصلية⁽⁴⁾، كما أن البيئات والأقاليم مختلفة فيما بينها تفضيلاً لشاعر أو تقديماً له على سواه. ويبدو اختلاف البيئات في تفضيل الشعراء مما أوردته المرزباني في المقتبس عن علماء البصرة الذين كانوا يقدمون امرأ القيس، وأهل الكوفة الذين كانوا يقدمون الأعشى، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابعة⁽⁵⁾. إلى جانب ما أوردته بالموشح من أن «أهل البادية والشعراء بشعر جرير أعجب»⁽⁶⁾.

وفي الوقفة الأولى التي ذكر فيها أن الشعر يفقد قيمته خارج بيئته الأصلية ما يثير

(1) الموشح ص 227.

(2) في الموشح ص 243 «ابن قيس الرقيات ليس بحجة». وقال يونس عنه: «ليس بفصيح ولا ثقة شغل نفسه بالشرب بتكرير» تاريخ النقد الأدبي، طه إبراهيم، ص 69.

(3) أورد المرزباني رأي الأصمعي عن ذي الرمة وأنه حجة لأنه بدوي الموشح ص 225 ثم في تعليق الأصمعي على استخدام ذي الرمة لفظ زوجة التي لم تستعملها العرب ذكر أنه: «أكل البقل والملوح في حوانيت البقالين حتى بشم» الموشح ص 236، ويقصد الأصمعي: أن ذا الرمة تأثرت فصاحته بكثرة تردده على الحاضرة. وانظر كتاب: الشعر العربي القديم في ضوء نظرية التلقي والنظرية الشفوية، ذو الرمة نموذجاً، حسن البنا عز الدين، دار عين، القاهرة، 2001م.

(4) ورد الحكم مرة على لسان جرير في شعر عمر بن أبي ربيعة: «تهامي إذا أنجد وجد البرد» الموشح ص 261، ومرة على لسان الفرزدق: «أرى شعرا حجازياً إن أنجد اقشعر» الموشح ص 265.

(5) نور القبس ص 52.

(6) الموشح ص 159.

الانتباه. على اعتبار أن ما ذكر في الوقفة الثانية حول اختلاف البيئات في تفضيل الشعراء أمر يسوغه سياق طويل من الأحكام القائمة على المفاضلات، على الرغم مما يمكن أن يوحي به ذلك من اختلاف وتباين في التلقي بين البيئات.

وممكن الإثارة في الخبر الذي أورده المرزباني - في موضعين: مرة على لسان جرير يحكم على شعر عمر بن أبي ربيعة، وأخرى على لسان الفرزدق، مع فارق بسيط في الصياغة وبقاء المضمون ذاته (عرضة الشعر الحجازي أو التهامي للبرد في نجد) - يتجلى في أن صاحب الخبر أراد به: إما إلى التقليل من الشعر الحجازي ممثلاً في شعر عمر بن أبي ربيعة، وإما أنه أراد منه الإثارة. لكنه مع ذلك توصل إلى أمر مهم هو محاولة الإيحاء بالفرق بين الشعر في البيئتين، بيئة الحجاز ممثلة في نهج عمر وبخاصة في الغزل. وبيئة نجد ممثلة في شعر جرير أو الفرزدق. فسمه الشعر الحجازي بنهج عمر في الغزل قد لا يجد التقبل ذاته في نجد - إن صحت نسبة العبارة لأحد الشاعرين - أو أنه يمثل نهجاً مختلفاً عن نهج شعري جرير والفرزدق الممثلين لشعر البيئة النجدية. وفي كلتا الحالتين فالمهم من الخبر هو الإيحاء السابق الذي لن يخرج عن دائرة ما دونه المرزباني في القرن الرابع.

أما ما يتعلق بقيم الدين باعتبارها بيئة مؤثرة على نهج الشاعر أو مقدار نتاجه الشعري، فذلك ما يتضح فيما أورده المرزباني عن الشاعرين حسان بن ثابت وليبد بن ربيعة، فالأول أورد ما لاحظته الأصمعي على شعره عقب إسلامه فوصفه باللين لأن الشعر لديه حاد عن طريق الفحول المرتبط بالشر في الجاهلية⁽¹⁾.

والثاني ذكر عنه في معجمه أنه: «قال الشعر في الجاهلية دهرًا ثم أسلم، ولما كتب عمر إلى عامله بالكوفة سل ليبدأ والأغلب العجلي ما أحدثا من الشعر في الإسلام فقال ليبد: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه، قال: ويقال إنه ما قال في الإسلام إلا بيتاً واحداً...»⁽²⁾. وفي هذا الحديث عن ليبد ما يشير

(1) الموشح ص 83.

(2) نقل ابن حجر هذا الخبر في الإصابة في تمييز الصحابة 3/ 326، وقبل الجزء المأخوذ هناك ما نصه: «قال

إلى أنه اتخذ من الشعر موقفاً بعد إسلامه فأثر أن يكف عن قول الشعر بعد معرفته بالقرآن، لتأثره به. ويؤيد هذا الموقف ندرة أشعاره والأخبار المتعلقة بها في الإسلام، باستثناء البيت المشار إليه، وأبيات أخرى محدودة⁽¹⁾. ولعل الأمر لم يكن مقتصرًا في تأثر لبيد فحسب، وإنما آخرين غيره⁽²⁾.

إن الانعكاس السابق لأثر الدين بصفته بيئة مؤثرة في الشاعر كان محصوراً في الشعراء المخضرمين الذين عاشوا بيئتين مختلفتين في قيمهما. بينما تبدي أخبار أخرى متأخرة عن حقبة الشعراء المخضرمين أن أثر الدين لم يعد بسبب ما تمثله قيمه من بيئة جديدة مخالفة لما عاشه الشعراء سابقاً في الجاهلية، وإنما بسبب أن الدين أصبح منظوراً مذهبياً، وقد مر طرف من هذا التمثل للدين في اعتماد التصنيف المذهبي للشعراء ضمن أسس التحقيب والتصنيف في القرن الرابع، خصوصاً لدى المرزباني⁽³⁾.

وعند مقارنة تعليق المرزباني على الزبير بن بكار فيما جمعه من أخبار كثير بتعليقه على رأي الأصمعي في سرقات الفرزدق يبدو أنه لا فرق بين التحزب للمذهب

المرزباني في معجمه كان فارساً شجاعاً شاعراً سخياً قال الشعر في الجاهلية.» ونستدل من إشارة ابن حجر إلى استمرار نقله عن المرزباني في قوله: «قال ويقال إنه»

(1) ذكر البيت ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة عن المرزباني وهو: [الكامل]

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح
ويقال بل قوله: [البسيط]

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
ويستدل على أنه لا أخبار عن شعره بعد الإسلام من ترجمته لدى ابن سلام في طبقاته 1/ 135-136، وابن قتيبة في الشعر والشعراء 1/ 274-285. وقلة ما ورد بترجمته في الأغاني إذ اقتصر على أربعة أبيات أرخ فيها لعمره حينما بلغ تسعين، ثم مئة وعشر سنين، وحينما تجاوز ذلك، الأغاني 15/ 192، إلى جانب روايتين لمقطوعة قالها عند احتضاره، الأغاني 15/ 305-306.

(2) يبدو ذلك من تناول المرزباني في كتاب المفيد باب من ترك الشعر في الإسلام تعففاً.

(3) انظر مبحث السابق (التصنيف على أساس المذهب).

والعصبية العرقية، وأن كلا البعدين قد تدخلتا في عمل بعض علماء الشعر. ففي بيان أثر المذهب قال المرزباني: «تأمل الزبير بن بكار على كثير - فيما جمعه من أخباره، وبين عليه من سرقاته - ظاهراً وهو خصم لا يقبل قوله على كثير لهجاء كثير لولد عبد الله بن الزبير، وانحراف الزبير عن أهل البيت عليهم السلام»⁽¹⁾. وقريب من ذلك ما ذكره عن موقف الأصمعي من الفرزدق حيث قال المرزباني: «وهذا تحامل شديد من الأصمعي، وتقول على الفرزدق، لهجائه باهلة، ولسنا نشك أن الفرزدق قد أغار على بعض الشعراء في أبيات معروفة، فأما أن نطلق أن تسعة أعشار شعره سرقة فهذا محال»⁽²⁾.

إن مثل هذه الأخبار قد تفضي إلى تداعل الشخصي والموضوعي عند بعض علماء الشعر، وعلى أن تأثرهم ليس بسبب ما عاينوه بأنفسهم وعایشوه؛ وإنما باتخاذ مواقف من شعراء سابقين بناء على مواقف باتت تاريخية، وبخاصة أن كلاً من الأصمعي والزبير بن بكار لم يعاصرا الفرزدق أو كثيراً.

على أن المسألة برمتها تضيء النظر فيما صاحب التأريخ للشعر، وتكوين الآراء والأحكام فيه من مثل هذه الأمور، التي ينبغي التنبيه لها وأخذها في الحسبان. وهو أمر ستتضح قيمته أكثر عند النظر في الجانب الآخر من بقية الأبعاد السيرية المتمثلة في الأوضاع والعلاقات الاجتماعية.

(1) الموشح ص 207.

(2) الموشح ص 147. جدير بالذكر أن المرزباني أورد في ترجمة الأصمعي بالمختار ص (95 أ، ب) خبراً مفاده أن سبب وضع الأصمعي من الفرزدق يعود لرافضية الفرزدق التي استنتجها الأصمعي من رغبته في «النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي»، وتعبه في المطالبة بها حتى تزوجها، وهي أم ابنه «لبطة». فبنى الأصمعي اتهمه على أن أبا «النوار» «أعين»: «أول من طعن في هودج عائشة في يوم الجمل».

المحور الثاني

الأوضاع والعلاقات الاجتماعية

تدل الجوانب السابقة التي كشفت النقاب عنها مدونات المرزباني على أثر طبيعة التأليف لدى القدماء على تلمس الأبعاد السيرية لحياة الشخصيات المترجم لها، وأثر الانطلاق من مفهوم «الأخبار» على انفتاح الترجمة على مناحي سيرية متعددة.

وفي هذا الجانب من الأبعاد السيرية المتعلق بالأوضاع والعلاقات الاجتماعية أورد المرزباني عدداً من الأخبار عن العلماء والأدباء الذين شكلت آراؤهم وأحكامهم ومروياتهم المادة التي يعول عليها مؤرخو الشعر. ومن ضمن ما عني بجمعه وتدوينه في سير أولئك العلماء الأخبار الدالة على حالاتهم الاجتماعية، ومكانتهم في المجتمع، وأحوالهم المادية، ومستوياتهم وتخصصاتهم العملية. زيادة على علاقاتهم ببعضهم، وعلاقاتهم مع الشعراء الذين عاصروهم. وهي جوانب يُظهر الوقوف عليها أهمية توثيق المرزباني لها.

الأحوال المالية والاقتصادية:

يأتي اهتمام المرزباني بالأحوال الاقتصادية والمادية في جانب من أخبار العلماء للدلالة أساساً على أن الغالبية منهم لم تكن متفرغة للنشاط العلمي والأدبي، لأنها تعيش في جو من الأمان المادي يكفل لها الانصراف إلى العلم فحسب. فقد دلت أخباره في هذا الشأن على مصادر ارتزاق العلماء، ومن ثم تعرف علو نفس كثيرين منهم كانوا يسعون لتأمين حياتهم مادياً بمنأى عن موارد السلطات. وأن ما وصل إلينا من نتائجهم وبذلهم العلمي كان مصحوباً بكدح بعضهم، وبذله جهداً للمحافظة على مورد رزقه. أما الدلالة المتفرعة من ذلك؛ فهي الإخبار عن تباين الأحوال المعيشية والأوضاع المالية للعلماء.

فمن ذلك التباين نلمس أمثلة للأثرياء الذين ذكر منهم: أبا حاتم السجستاني⁽¹⁾ وحمزة بن حبيب الزيات (156هـ)⁽²⁾ وعامراً الشعبي (104-107هـ)⁽³⁾. أما الأخصاص، أو من لحقهم العوز والدين فمنهم: الخليل بن أحمد الفراهيدي⁽⁴⁾، ومحمد بن عمر الواقي (207هـ)⁽⁵⁾.

وعُنيّت أخبار المرزباني بتحديد مصادر دخل العلماء، بالتفريق بين الموارد التي تعتمد على الجهد الشخصي، والمكتسب الوراثي. وبين المعتمد منها على الصلات الدورية الممنوحة من جهات عليا. ودل جانب من تلك الأخبار على اختلاف الأنشطة التي مورست للكسب في تنوعها بين المهن المختلفة، أوفي أشكال ممارسة النشاط الواحد⁽⁶⁾. ويمكن أن يستنتج أن الفئة التي كانت تعتمد على موارد السلطة هي الأقل بحسب الأخبار الواردة، وأن اللجوء إلى هذا المورد يكون غالبا في ظروف واعتبارات خاصة⁽⁷⁾. فغالبية الأخبار اهتمت بتفصيل موارد العلماء الشخصية من طريق الوراثة،

(1) ورث ثروة من أبيه وعمه قدرت بمئة ألف دينار عينا غير الضياع والمنازل. المختار ص 3 ب.

(2) كانت له تجارة يسافر فيها. نورالقبس ص 268.

(3) ذكر عنه أنه كان موسراً، نورالقبس ص 240. وتأتي الاستعانة هنا بأحوال بعض العلماء من غير المهتمين باللغة والشعر ممن غلبت عليهم اختصاصات أخرى كالشعبي والواقدي؛ لأن الأخبار المذكورة عنهم مكملّة لجوانب النقص الموجودة في هذا الصدد عند أقرانهم من علماء اللغة والشعر. ولأن المقصود هنا تنويع الأبعاد السيرية، وتنويع الأمثلة الدالة عليها. مما يبرز أغلب الجوانب التي كان المرزباني يعنى بتتبعها، بغض النظر عن اختصاص العالم، ولا يستبعد ذهاب عدد من الأمثلة المشابهة مما يخص علماء اللغة والشعر بسبب ما طال كتاب المقتبس من الاختصار والاختيار.

(4) ورد في المختار ص 65 أ، ب، قوله: «كان يعد من أخصاص البصرة يزهد فيما يُرْعَب فيه».

(5) رفع إلى المأمون رقعة يشكو فيها غلبة الدين عليه، نور القبس ص 311.

(6) هناك الزراعة، مثلاً، بصفتها مصدراً لكسب الخليل بن أحمد من خلال البستان الذي ورثه، والتجارة كما سبق عن الزيات.

(7) من ذلك: كبر السن. فصلة الأصمعي من المأمون كانت في آخر حياته بعد أن اعتذر عن مجالسته والذهاب إليه لعجزه وكبر سنه، المختار 109 أ. ومثله العتيبي الذي كتب في آخر حياته إلى ابن أبي دؤاد فأمر له بصلة مات بعقبها. المختار 213 أ ب. ومن ذلك الوقوع في الدين، كما حدث للواقدي.

أو بيان أنشطتهم المختلفة⁽¹⁾. ويبدو كذلك أن التعويل في مصدر الدخل على الصلات والهبات والجوائز الممنوحة من السلطة أمر غير مستحب عند عدد ليس بالقليل من العلماء. لذلك اهتم المرزباني بتلك الأخبار التي فصلت المقدرات المادية للعلماء. ويعزز هذا التوجه لدى العلماء في تفضيلهم الكسب الشخصي ما تنبئ عنه الحدة في رد الخليل بن أحمد علي رسول وإلى الأهواز حين أخرج له خبراً يابساً قائلاً له: «ما عندي غير هذا، وما دمت أجده فلا حاجة لي بسليمان»⁽²⁾.

وكذلك الخبر الذي سوغ قبول أبي عمرو بن العلاء جوائز الملوك وهباتهم من أجل التصديق بها⁽³⁾.

وتنطوي هذه الفئة الإخبارية عن الأوضاع المادية على ملامح في غاية من الأهمية. لعل من أقربها مساساً بموضوع هذا البحث ما تجلّى في الكشف عن قيمة المؤلفات المادية آنذاك. فمن خلال ما ورد عن علم الخليل بن أحمد، ومؤلفات السجستاني في قيمتها المالية عند موته نضع أيدينا على مؤشر يدل على مبلغ تقدير المجتمع، واحتفائه بالنتاج العلمي. فقد روى المرزباني بسنده عن النضر بن شميل قوله: «لقد كسب الناس بالخليل بن أحمد وعلمه الرغائب، وإنه لمن أخصاص البصرة يزهد فيما يرغب فيه»⁽⁴⁾. وروى عن الصولي أنه: «لما مات أبو حاتم السجستاني بلغت قيمة كتبه أربعة عشر ألف دينار، فوجه يعقوب بمن اشتراها بدون هذا قليلاً، وحابوه فيها، فنقلت له،

(1) من ذكر أنهم ورثوا: السجستاني وسبقت الإشارة إليه، وأبو عمرو بن العلاء فقد كان: «لا يأكل، ولا يشرب، ولا يشم، ولا يلبس، إلا من غليظة له ورثها» المختار ص 179 أ. والخليل الذي: «كان يعيش من بستان خلفه له أبوه بالحريية»، المختار ص 65 أ. أما العلماء الذين مارسوا التجارة: فقد ذكر الاتجار عامة عن حمزة بن حبيب الزيات كما سبق، وأبي الأسود الدؤلي الذي كان له دكان بجدار داره «نور القبس ص 17. ومعاذ بن مسلم الهراء الذي «كان يبيع الهروي بالكوفة وكان تاجراً نحويًا» المختار ص 276 والجاحظ الذي شوهد «يبيع الخبز والسمك بسيحان» نور القبس ص 230.

(2) سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب والي السند. المختار ص 70 أ.

(3) المختار ص 179 أ.

(4) المختار ص 65 أ - ب.

لم تترك منها سحاة»⁽¹⁾.

أما الملامح البعيدة عن موضوع البحث مما يمكن استظهاره من هذه الفئة الإخبارية فهي مما له علاقة بأوجه الحياة العامة، وخصوصاً في بعديها الاجتماعي والاقتصادي⁽²⁾.

إن ما سبق يدل على تنبه المرزباني لأهمية هذه الفئة الإخبارية التي شكلت بعداً سيرياً مهماً. وأن عنايته بنقل ما يصور هذا الجانب من حياة أولئك العلماء والمؤلفين، من أجل أن يتم النظر في ضوء تلك المادة الإخبارية إلى أعمالهم في سياق حياتهم المادية، وأوضاعهم الاقتصادية المتباينة، على اعتبار أن هذا السياق جزء من الشرط الاجتماعي الذي انبعثت في إطاره أوجه أنشطتهم العلمية والأدبية.

المكانة الاجتماعية والعلمية:

أسهمت الأخبار السابقة في تسليط الضوء على جانب حيوي من الحياة الاجتماعية، باعتبار المنحى الاقتصادي أحد أوجهها. ووجد عدد من النقول التي لا تقل أهمية عن تلك في وقوفها على نظرة المجتمع إلى العلماء، والأسباب الكامنة خلف تبوئهم مكاناتهم العالية فيه.

(1) المختار ص 3 ب - 4 أ. والسحاة: القشرة من الكتاب أو القرطاس.

(2) في هذا الصدد تعد مثل هذه الأخبار مساهمة في كشف النقاب عن أحد أوجه النشاط الاقتصادي، فالنتاج العلمي عد مصدر دخل للعامة من الناس، الذين أشار إليهم خير الخليل بن أحمد من خلال تكسبهم بعلمه. كما تدل القيمة المالية العالية (أربعة عشر ألف دينار) على أن الكتاب كان يحظى بتداول مالي عال. لأن هذا المبلغ يعد وقت ذاك ثروة طائلة. وتدل هذه الفئة الإخبارية على ملمح اجتماعي: هو تفقد العلماء للمحتاجين وإنفاقهم عليهم وبدا ذلك في خبر إنفاق أبي عمرو بن العلاء الجوائز على المحتاجين وفي تصدقه يومياً على المساكين في الخبر ذاته المشار إليه سابقاً (179 أ المختار). وفي الخبر نفسه عن السجستاني الذي تصدق وأنفق من تلك الأموال التي ورثها عن أبيه وعمه وذلك يدل على أن العلماء لم يكونوا طبقة اجتماعية منعزلة عن المجتمع، بل كان لهم دورهم الاجتماعي المؤثر من هذه الناحية. ومن ناحية أخرى بما وفرتة مؤلفاتهم من فرص الكسب المالي. فعدّ نتائجهم أحد الموارد الاقتصادية للمجتمع.

ونلمس من هذه الأخبار أن المكانة الاجتماعية المكتسبة لدى العلماء تعود في مقامها الأول إلى ما تميزوا به من قدرات علمية، وأن كسب التقدير والاحترام لم يكن بسبب شرف النسب. فقد تبوأ هذه المكانة علماء من أصول غير عربية، بل بعض «من قعد به نسبه فقام به أدبه»⁽¹⁾، على حد تعبير الأصمعي. وتدل الأخبار في هذا الصدد على صحة مقولة الأصمعي، الذي يعد أقرب من تنطبق عليه المقولة ذاتها. فقد أورد المرزباني عنه ما يزيد عن اثني عشر خبراً عن آباءه، وقبيلته «باهلة» منذ الجاهلية، مما يكرس كونها من أدنى القبائل مكانة إن لم تكن أدناها⁽²⁾. ومقابل ذلك أورد عنه أضعاف ذلك من الأخبار التي تنوه بالمكانة العالية التي حظي بها الأصمعي، مما فاق فيه أقرانه في العلم بالشعر رواية وتفسيراً، ناهيك عن الأخبار التي تناقلت أمر حافظته العجيبة⁽³⁾.

وإذا كانت المكانة العالية التي تبوأها أبو عمرو بن العلاء قد جعلت أصحابه لا

(1) المختار ص 106 أ.

(2) انظر ما ورد في المختار ص 99 عن التهرب من الانتساب إلى «باهلة»، وما قيل عنها و«غني» من أنهما لا يؤخذ منهما أسير إلا بأسير وجمال تكون معه لذهم. وانظر في نفس المصدر الأخبار الخاصة بنسب الأصمعي وقبيلته في الصفحات 95 - 100 أ. على أن هناك من قال: إن باهلة المذكورة في نسب الأصمعي ليست القبيلة وإنما هي امرأة أحد أجداده مالك بن أعصر. وهناك من قال إن باهلة هو مالك المذكور. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان 3/ 170. وانظر كتاب: باهلة القبيلة المفترى عليها، حمد الجاسر. دار اليمامة الرياض. 1990.

(3) من هذه الأخبار أنه استطاع وهو غلام أن يعيد مجلساً كاملاً دار بين يونس بن حبيب وأبي عمرو بن العلاء، فكان ذلك سبب تقديم أبي عمرو له. المختار ص 105 ب. وكذلك في الخبر المطول بالمختار ص (103 ب - 105 ب) وملخصه أن جماعة حضروا لدى الحسن بن سهل وكانت تعرض عليه قصص في دفتر وهو يوقع عليها فلما فرغ تذكروا أمر الحفاظ ومنهم حفاظ الحديث الشريف، وكان من الحاضرين أبو عبيدة معمر بن المثنى الذي عرض بالأصمعي حين قال: «ما ندري أصدق الخبر عنهم أم كذب أن بالحضرة رجلاً يزعم أنه ما نسي شيئاً قط، وأنه ما احتاج أن يعيد نظره في دفتر، إنما هي نظرة، ثم قد حفظ ما فيه» فأثبت الأصمعي ذلك بالبرهان العملي حين أعاد القصص الخمسين بتواقيع الحسن عليها فأكبروا فيه ذلك.

يعرفون اسمه لسنوات، ولا يجروون على سؤاله عنه تهيّبا وإجلالا لقدره⁽¹⁾ فإنه قريب من ذلك ما بدا في أخبار آخرين بمثابة التأصيل التاريخي للمكانة الاجتماعية التي وصل إليها العالم، عن طريق البحث في ارتدادها إلى عروق مجد سابق قد نزع فيه العالم إما إلى أسلافه القرييين، وإما الغابرين⁽²⁾.

وتبرز إلى جانب الأخبار المهمة بأنساب العلماء فئة إخبارية على قدر كبير من الأهمية ليس في بيانها المكانة العلمية فحسب، وإنما لتداخلها وانعكاسها المباشر على التأريخ للشعر. وذلك في الأخبار المنطوية على الشهادات التي أدلى بها العلماء عن بعض سابقهم أو معاصريهم؛ إذ اختطت هذه الشهادات مسارين: اختص أولهما بشؤون العلماء أفراداً. وجاء ثانيهما على هيئة مقاييسات بين كل نفر من العلماء المتعاصرين.

وفي المسار الأول نجد أنه يمكن الاستدلال على مكانة العلماء بعامّة من المكانة التي لا تضاهي لأبي عمرو بن العلاء نظير كونه من التابعين، وكونه أحد القراء السبعة. ويكفي أنه تبوأ هذه المكانة والحسن البصري حي، بل إنه من قلده أهم شهادة قيلت فيه⁽³⁾. ومن بعده يونس بن حبيب الذي استطاع أن يخلف سابقه في الحلقة

(1) نور القبس ص 25.

(2) النزوع إلى الأسلاف القرييين تمثل في ترجمته لأبي عبد الرحمن العتيبي؛ إذ تناول قبل أخباره المختصة بعلمه وحياته، الخطباء والفصحاء من بني أمية، بدءاً بجده الأعلى عتبة بن أبي سفيان مع توقف مطول عند نماذج من خطبه وأقواله والمكاتبات بينه وأخيه معاوية حين كان والياً له على مصر. ثم جد أبي عبد الرحمن «عمرو بن عتبة»، فوالده «عبيد الله بن عمرو» وبعض أخبارهما وأقوالهما، إلى أن وصل إلى أخبار أبي عبد الرحمن العتيبي المعني بالترجمة. انظر ذلك في نور القبس ص 186 - 191.

أما النزوع إلى الأسلاف الغابرين فمثاله عودته في حديثه عن نسب «الشعبي» إلى ملك حمير «حسان ذي الشعبين وهو حسان بن عمرو القيل»؛ إذ استهل ذلك بالقصة التي تظهر عظمة ذلك الملك، وتصدرت ترجمته في نور القبس ص 237 وما يليها. كما تحدث عن قبائل «الشعبان» من حمير القديمة وغير ذلك.

(3) وذلك حين «مر الحسن به وحلقته متوافرة والناس عكوف، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو عمرو بن العلاء. فقال: لا إله إلا الله كاد العلماء أن يكونوا أرباباً» نور القبس ص 25.

بالبصرة؛ إذ كانت له من بعده⁽¹⁾، وتتجلى مكانة يونس في جعل المفقود من حكمه وأقواله من الأهمية يتلو المفقود من شعر سبعة قبيلة قبل تخريب البصرة على أيدي الزنج⁽²⁾.

أما ترجمة الخليل بن أحمد فإنها تجسد مقدار ما وصل إليه تصور القدرات الفردية عن الشخصية العالمة العربية⁽³⁾.

وبدت أهمية المسار الثاني للشهادات التي أدلى بها العلماء عن أقرانهم فيما يمكن إفادته من تعرف تعداد أسماء العلماء المهتمين بالشعر. وتعدد مجالات المقارنة بين ميزاتهم من بيان نقاط تهم متعقب تأريخ الشعر لدى القدماء. فقد رصدت تلك الشهادات عدداً من أسماء العلماء المسهمين في تأريخ الشعر، وبينت تعاقب فئات منهم زمنياً، مدققة أحياناً في فوارق العمر بين من تعاصر منهم، أو جمع بينهم الأخذ عن مصدر علمي مشترك⁽⁴⁾. وفي هذا الرصد جانب توثيقي يتضمن الوثوق بالمادة

(1) المختار ص 55 أ.

(2) روى الصولي عن الفضل بن الحباب قوله: «خربت البصرة أيام الزنج، وفيها شعر سبعة قبيلة، وفيها أربعة آلاف حرف من كلام يونس وحكمه دونها الناس» المختار ص 55 ب. وأيام الزنج هذه كانت عام (257هـ) وقتل فيها «أبو الفضل الرياشي» أحد علماء اللغة والأدب. نور القبس ص 230.

(3) انظر على سبيل المثال الأخبار التي تجسد القدرات العقلية للخليل بن أحمد (إعادة تركيب منبر من ذهب مهدي من ملك أجنبي للخليفة لم يستطع تركيبه سواه، وإعادة مزج وصفة مفيدة كان صاحبها قد مات، وعثوره على مال رجل مات دون أن يعلم أهله موضع ماله) وغير ذلك من الأخبار التي لا علاقة لها بعلم الخليل، وإنما هي تجسيد لما تناقلته محيلة الناس عن عبقرية الخليل. تجد كثيراً من ذلك في ترجمته، نور القبس ص 56 72 والمختار ص 64 أ - 95 ب.

(4) أورد المرزباني عن المبرد هذه الأخبار (المختار ص 37 ب) التي أولها: «نجم من أصحاب عبد الله بن أبي إسحاق: عيسى بن عمر الثقفي، ويونس بن حبيب، وأبو الخطاب الأخفش، وكانوا أعلم الناس وأفصحهم». وثانيها: «كان أبو الخطاب الأخفش، وخلف الأحمر يأخذان عن أبي عمرو بن العلاء، إلا أن عيسى، ويونس بن حبيب فوق أبي الخطاب وخلف وأسْنُ منهما» وثالثها (المختار ص 152 ب): «كان التوزي، والحرمازي، والجرمي يأخذون عن أبي عبيدة، وأبي زيد، والأصمعي. وهؤلاء الثلاثة أكثر أصحابهم. فكان من دون هؤلاء في السن، الزيادي، والمازني، والرياشي، وأبو حاتم. وكان أبو زيد أعلم من الأصمعي وأبي عبيدة في النحو،

العلمية المتوارثة مع ما يستجد حولها من إضافات متلاحقة منذ القرن الأول، حيث عاش أبو عمرو بن العلاء وابن أبي إسحاق، وصولاً إلى شيوخ المرزباني في مستهل القرن الرابع الهجري⁽¹⁾.

وبينت الشهادات الاهتمامات العلمية الغالبة على بعض العلماء، واختلاف حظوظهم من الأخذ بالعلوم التي تنهض عليها المعرفة بالشعر. وهو ما فيه مقارنة إلى حد ما لما يصطلح له بالتخصصات. فقد تباينت مقاربتهم للشعر تبعاً لتباين ما سموه «العلم بالغريب واللغة»، و«العلم بالإعراب»، و«التبحر في الرواية»، و«العلم بالأنساب وأيام العرب»⁽²⁾.

علاقات الوسط الأدبي:

يتميز هذا البعد السيري بأن النقول فيه نتاج لقاءات حية ومواجهات مباشرة مما حدث بين العلماء أنفسهم، أو مما حدث بينهم وبين الشعراء. الأمر الذي يجعلنا إزاء عدد من ردود أفعال المتعاصرين من أولئك الذين يشكلون الوسط الأدبي. فنقف

وكانا يتقاربان، وكان أبو عبيدة أكمل القوم».

(1) يفهم من أخذ الصولي، وابن دريد، وابن أبي الأزر - وهم من شيوخ المرزباني - عن المبرد تواتر سلسلة الأخذ والتلقي إلى المرزباني.

(2) ورد في المختار ص 102 أ - ب «كان أبو زيد الأنصاري صاحب لغة وغريب ونحو، وكان أكثر من الأصمعي في النحو، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي في الأنساب والأيام والأخبار، وكان الأصمعي بجرأ في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية».

ومما أفادته شهادات العلماء أيضاً كشفها عن التنافس، الذي بلغ أشده بين العلماء رغبة في إظهار التمكن من المعرفة بالشعر. وما ترتب على ذلك من تعدد في وجهات النظر في عدد من المواقف.

ولا يخفى ما في النقاط السابقة من أهمية في تلمس سياق التأريخ للشعر، وإضاءة أبعاد مهمة في ثناياه، كتسلسل نقل مادته، واختلاف أخذ العلماء الفاعلين فيه من العلوم التي يقارب الشعر من طرقها. زيادة على اختلاف وجهات النظر في تأويل الشعر وروايته، ومدى تأثير ذلك بخصوصيات العلماء فيما بينهم من جهة، وبينهم والشعراء من جهة أخرى لدى استعراض طرف من ذلك في البعد السيري التالي (علاقات الوسط الأدبي).

من ذلك على مقدار تقبل العلماء لوجهات نظر بعضهم مما يطرح في المسائل المتداولة حول الشعر. إضافة إلى معرفة كيفية تقبلهم وتعاملهم مع التجارب الشعرية التي عاصروا أصحابها. وتقبل الشعراء ومواقفهم من الآراء المتداولة في شعرهم.

علاقات العلماء:

تبدي الأخبار المتعلقة بمرويات العلماء المتأخرين عن أساتذتهم، خصوصاً من تناوبوا الأخذ عن «خلف الأحمر» (175هـ)، و«أبي زيد الأنصاري» (214هـ)، و«أبي عبيدة» (209هـ)، و«الأصمعي» (213-216هـ) وغيرهم، أنهم أفادوا من تنوع اهتمامات أساتذتهم، واختلافاتهم حول عدد من المسائل الشعرية في الظفر بأكثر من وجهة نظر حول المسائل المتداولة. ولذلك كان أحدهم يتردد على غير شيخ في الوقت ذاته.

وفي خبر للمازني (233هـ) مع الأخفش (الأوسط) سعيد بن مسعدة (207هـ) ما يبين السبب في تردد طلاب العلم على غير عالم؛ إذ ظن الأخفش، وهو أستاذ المازني في النحو أن ذهاب المازني إلى الأصمعي من أجل تعلم النحو؛ فسأله عن ذلك فأجابه: «لا، ولكنني أتعلم منه المعاني واللغة والشعر...» ويدل باقي الخبر على عجز الأخفش عن الاضطلاع بالمستوى السهل، لما برع فيه الأصمعي، وأن تأويله النحوي القريب لم يكن بقيمة ما ظفر به المازني من الأصمعي⁽¹⁾.

(1) تمام الخبر: فقال: سألني عن شيء منه: فقلت: عن صعبه، أم سهله؟ فقال: سهله، فقلت: ما يريد الشاعر بقوله: [مجزوء الهزج]

أَمِنْ زَيْنَبَ ذِي النَّارِ قَبِيلَ الصَّبْحِ مَا تَخْبُو
إِذَا مَا خَمِدَتْ يَلْقَى عَلَيْهَا الْمُنْدَلِ الرُّطْبِ

ولم أعرب البيت الأول كله. فقال: الأخفش: أمن زينب صاحبة النار. فقلت: ليس هذا عنده. يريد: هذه النار التي تخبو. فقال: هذا حسن. نور القبس ص 9798. وغني عن الذكر أن محاورات العلماء فيما بينهم تكتفي بالإلماح دون التفصيل. أما تفصيل الفرق بين الإجابتين فهو أن الأخفش اعتمد تأويله على تقدير الخفض في كلمة «النار» وذلك يجعل من النار كناية عن الكرم وهو ما يصلح تأويلاً للبيت الأول دون الثاني وهنا تستوي المرأة مع أي موصوف بالكرم. أما جواب الأصمعي الذي قدر الرفع فهو يجعل من المرأة مبعث

أما ثمرة ملازمة غير عالم في فترات تلقي العلم، فهو ما نكتشفه من «أبي حاتم السجستاني» (255هـ) الذي أفاد بأن الملازمة، والتقرب إلى أحد العلماء تفضي إلى معاملة خاصة بين العالم والمتعلم. يتم في إطارها ظفر الأخير بمعلومات مهمة، إما في قيمة ما تنطوي عليه من توجهات غير معروفة عن العالم، وإما في كثرة ما يحصل عليه المتعلم من إجابات أستاذه عن أسئلته. وذلك كقيمة اكتشاف السجستاني الميول الخارجية لدى أبي عبيدة - مع حرصه على إضمارها - من تحمسه لشعر الخوارج، وكثرة محفوظه منه، وتفضيله في إحدى المرات شعر الخوارج على شعر أحد الشعراء الجاهليين⁽¹⁾.

وإذا كانت هذه الملازمة في أول حياة السجستاني واختلافه لطلب العلم. فإن ملازمته للأصمعي قد أثمرت نقله مقياس الفحولة وتفصيلاته عن الأصمعي، من خلال ملاحظته بعشرات الأسئلة عن الشعراء الذين عدت إجاباته عنهم هي المادة التي شكلت مضمون كتاب **فحولة الشعراء**⁽²⁾.

وتكشف مرويات العلماء المتأخرين عن أساتذتهم ظهور العامل الشخصي إلى

نار البخور، لا الكرم؛ فالنار لديه كناية عن استمرار الطيب في جسدها.

(1) ورد في المختار ص 154 أ 155 ب: «عن أبي حاتم، قال: كان أبو عبيدة يأنس لي أول ما اختلفت إليه، ويسألني عن خوارج سجستان، لأنه كان يظنني على رأيهم. وكنت أوهمه أنني منهم، فنالني لذلك عناية خاصة، وكان كثيراً ما ينشدني أشعارهم»

وفي خبر آخر ملخصه: أن السجستاني جاء أبا عبيدة مرة فسأله عما معه من الشعر فأخبره أنه لعدي بن زيد. فأنشده أبو عبيدة أشعاراً للخوارج وقال له: «هذا هو الشعر، لا ما تعلقون به أنفسكم من أشعار المخانيث» المختار ص 155 أ.

(2) انظر كتاب: **فحولة الشعراء** لأبي حاتم السجستاني، تحقيق ودراسة عبد القادر كمال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1411. وكتاب **فحولة الشعراء** منسوب للأصمعي، منشور بتحقيق (ش. توري) (1911)، وصدر عن دار الكتاب الجديد (1971) وقدم له صلاح الدين المنجد، ونشره خفاجي والزيني (1935). ونسبة الكتاب إلى السجستاني، بحسب النسخة التي حققها عبد القادر كمال، مسألة تحتاج إلى المراجعة والتدقيق. فمحتوى الكتاب للأصمعي، في الوقت الذي اقتصر فيه دور السجستاني على الرواية.

جانب الموضوعي في عدد من الأحكام القيمية عن الشعر والشعراء. أما سبب ظهور ذلك العامل فيعود إلى شدة التنافس بين أولئك العلماء، ومحاولة كل منهم إبداء تفوقه في العلم بالشعر، وتقديم وجهة نظره على وجهات النظر الأخرى. ووجدت عدة أمثلة أوردتها المرزباني، مما كان يدور النقاش فيها حول الشعر في مسلكه الطبيعي العلمي على الرغم من وجود طرفين مختلفين. سواء أكان ذلك في اللجوء إلى المناظرة⁽¹⁾، أم باقتناع أحد الطرفين بوجهة النظر الأخرى⁽²⁾، أم بإبداء استحسانها⁽³⁾.

وفي المقابل أمثلة أخرى لجأ فيها الطرفان المختلفان إلى تبادل الهجاء⁽⁴⁾. أو تبادل المعايير⁽⁵⁾. أو الاستنصار بطرف ثالث عرف عنه انحيازه لأحد الطرفين ضد خصم مشترك⁽⁶⁾.

(1) مثل مناظرة أبي حاتم السجستاني، والمازني عند جعفر بن القاسم في النحو والشعر. انظر في ذلك المختار ص 3 أ.

(2) كافتتاح الكسائي بوجهة نظر الأصمعي في تأويله المقصود بمعنى «الإحرام» في بيت من الشعر. انظر تفصيل المسألة بنور القبس ص 286.

(3) كاستحسان الأخفش (الأوسط) رأي الأصمعي في الخبر المشار إليه سابقاً عن بيئتي (أمن زينب ذي النار). (4) من ذلك ما حدث بين «أبي عمرو بن العلاء»، و«ابن دأب» حين أخذ أبو عمرو على الثاني خطأً في رواية بيت من الشعر، فلم يعجب ذلك ابن دأب، وذكر أبا عمرو بكلام بلغه؛ فقال أبو عمرو: «على نفسها جنت براقش، مستحضراً ثلاثة أبيات في هجاء أسلاف ابن دأب. انظر المختار ص 179 أ-180 ب. ومنه تبادل ثعلب والمبرد الهجاء شعراً فيما رواه عنهما تلميذهما «ابن كيسان» انظر الخبر والأبيات في نور القبس ص 327. وانظر في نور القبس هجاء أبي زيد الأنصاري لليزيدي ص 87.

(5) كطعن أبي عبيدة على الأصمعي بالبخل، وغيره مما جاء في كتاب المثالب، ونقل المرزباني مقتطفات منه بأول ترجمة الأصمعي لدى حديثه عن نسبه وقبيلته. وطعن «الأصمعي» على أبي عبيدة بـ «ابن الحايك»، (المختار ص 110 ب-111 أ)، و«ابن الصباغ» (المختار ص 158 أ). ومثله نعت المازني لأبي حاتم السجستاني بـ «العلج» و«الأعجمي» (المختار ص 3 ب).

(6) كاختلاف أبي عبيدة مع الأصمعي في رواية أحد الأبيات بناء على تأويل كل منهما ل (موضع الطعنة) أتكون من الأمام فحسب؟ أم أنه يجوز فيها أن تكون من الخلف؟ فكان جواب خلف الأحمر تأييداً لوجهة نظر أبي عبيدة. انظر الخبر في المختار ص 157 أ.

وفي كل الأحوال السابقة فإن الخروج عن روح الاختلاف ومشروعيته، وتنامي ذلك إلى خصومات مشتهرة في الوسط الأدبي بين العلماء قد ألقى بظلاله على مراقبي ذلك الوضع ممن يصغرونهم في ذلك الوسط. وفي الخبر الذي أجاب فيه أبو زيد الأنصاري عن سؤال أحد الحاضرين ما يعكس الظلال القريبة بصفته مثلاً للانعكاس القريب لتلك الخصومات. فقد سئل أبو زيد «لم قال أبو نواس في مدحه البرامكة؟» [الطويل]

خليلية في وزنها قطربةً نظائرها عند الملوك عتادي
قال: لأن قطرباً كان يرى رأيه، وكان رأيهما الاعتزال، وهو رأي النظام، وعنه أخذ أبو نواس، وأراد أن يغيظ الأصمعي بذلك؛ لأنهما غلاما خلف، وكان الأصمعي يعادي قطرباً لأشياء يخالفه فيها»⁽¹⁾.

من خلال المواقف السابقة، وما تشير إليه من علاقات شابها ضرب من الانفعال أحياناً بين بعض العلماء المهتمين بالشعر، ومن خلال تنامي حدة الانفعال - فيما سيرد بينهم والشعراء في الجزئية الأخيرة من هذا المبحث - تبدو قيمة ما تتبعه المرزباني من هذه الأخبار ومثيلاتها في استخلاص هذا البعد السيري الذي نجم عنه الكشف عن جزء - ولو كان يسيراً - من الأحكام، تداخل فيها الشخصي مع الموضوعي. الأمر الذي يجعل من هذا الجزء مدخلاً مهماً ينبغي أخذه في الحسبان عند النظر في عامة الأحكام والمواقف الأخرى، التي كونها العلماء عن الشعراء.

علاقات العلماء بالشعراء:

يُلاحظ على مجموعة من الأخبار التي نقلها المرزباني عن علاقة الشعراء بالرعيّل الأول من العلماء المهتمين بالشعر والشعراء أن محور قسم منها ينصرف إلى محاولة تثبيت معاصرتهم للشعراء، خصوصاً أوائل الشعراء الإسلاميين، كالفرزدق وجريّر ومعاصريهما.

ويتجسد هذا المحور في أنموذج الأخبار المعزوة إلى «أبي عمرو بن العلاء»؛ التي

(1) المختار ص 117 أ.

يتضح منها أن مغزى المعاينة واللقاء المباشر إحدى الغايات الرئيسية التي حرصت الأخبار على إثباتها. سواء أكان ذلك في انتقاء أوصاف بعينها، أم في ما تكرسه عدة أخبار تتضافر مضامينها لتعزיד فحوى اللقاءات المباشرة بين العلماء والشعراء.

فمن الأوصاف ما يستشف من وصف «الملامسة بالأيدي، والتوكؤ» في صدر خبر يرويه أبو عمرو بن العلاء عن الفرزدق يبدأ بقوله: «أنشدت الفرزدق، ويده في يدي، وهو يتكئ عليّ، وخرجنا من عند بلال [بن أبي بردة]...»⁽¹⁾. أما اتضاح المغزى ذاته في مضامين عدة أخبار فهو ما يلتبس في الخبر المروي عن «ذي الرمة» أنه إذا نزل البصرة لم يكن ينزل سوى عند أبي عمرو بن العلاء أو «ابن أبي إسحاق»⁽²⁾. وفي الخبر الذي يروى عن ذهاب أبي عمرو إلى اليمامة، ومعاينته جريراً بين أهله وعشيرته ووقوفه على «وضاعة» والد جرير وبخله⁽³⁾. وخبر آخر متعلق بالسابق عن حضور أبي عمرو احتضار الفرزدق، وقدم جرير في الخبر ذاته متأثراً بوفاته، وأنه ما لبث أن نُعي جريراً - في هذا الخبر أيضاً - في السنة التي توفي فيها الفرزدق⁽⁴⁾.

إن مثل هذه الأخبار يلاحظ أن نقل أبي عمرو لها، وحضور شخصيته فيها، لم يكن بصفته ناقداً، مثلما تبديه أغلب أخباره الأخرى، وإنما بصفته شاهداً معاصراً لأصحابها، يصف ما رآه، وعائنه.

(1) تمام الخبر: «[الطويل]

نعاطي الملوك الحق ما قصدوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم
والشعر لعمر بن حني التغلبي - فقال الفرزدق: أأرشدك؟ أم أدعك؟ قلت: بل ترشدني، فقال: إنما هو ما قصدوا بنا أي استقاموا «المختار ص 187 ب.

(2) المختار ص 189 ب.

(3) وفي الخبر أنه رأى شيخاً يشرب من عازر الشاة [أي ضرعها]، فلما سأله عنه، قال جرير: «هذا الوضع أبي». وأخبره أنه يشرب بهذه الطريقة حتى لا يسمعه الجيران فيستحلبوه. ولما سأله أبو عمرو عن أشعر الشعراء أجاب جرير: أنه من استطاع أن يجعل هذا الشيخ في مصاف آباء الفرزدق. والخبر ورد مطولاً. المختار ص 188 ب 189 أ.

(4) المختار ص 188 ب.

وقريب من هذه المشاهدات التي نقلها المرزباني عن أبي عمرو ما أثبتته من أخبار «رؤبة بن العجاج»، في ترجمة «يونس بن حبيب». فهي تسير على المنوال نفسه؛ إذ بدت أخبار رؤبة الواردة في أخبار يونس بمثابة ثبت للعلاقة المباشرة بينهما⁽¹⁾.

ويلاحظ القارئ في كتاب الموشح أن أغلب المآخذ على الشعراء الإسلاميين هي مما يقع في سياق اللقاءات المباشرة؛ إذ إن أغلبها يُلقى عادة بحضور الشعراء، على شكل محاورات بينهم وبين العلماء.

من هنا فإن محور هذه الفئة من الأخبار عن هذه الحقبة بدا في سعيه أساساً إلى تثبيت تاريخيتها، من خلال التدليل على حقيقة المعاصرة بين الجيلين الأولين من العلماء والشعراء الإسلاميين. لأن ثبات ذلك فيه تلافٍ للهوة القائمة بين العلماء والشعراء الجاهليين. ومتى ما تحقق ذلك الثبات لأخبار الشعراء الإسلاميين، كان من الطبيعي أن يثبت معه تسلسل الأخبار التالية لهذه الحقبة، التي تشكل في خاتمة المطاف المادة الأساسية التي اعتمد عليها مؤرخو الشعر القدماء. ولا سيما في ضوء ما أكدته أخبار أخرى عن تواصل الأخذ والتلقي منذ الجيل الأول من العلماء، دون انقطاع.

وفي إطار علاقة العلماء بالشعراء أظهرت أخبار المرزباني أن نمط العلاقة كان ينحو إلى التكافؤ، والتساوي بين الطرفين في الحقبة نفسها. بل إن العلماء كانوا يقفون وقفات صارمة إزاء ما رأوه أخطاء وقع فيها الشعراء، فلم يتوانوا في مكاشفتهم بأخطائهم، بمن فيهم الفرزدق على جرأته وحدة ردوده عليهم⁽²⁾؛ إذ لم يجد بداً في خاتمة المطاف من التغيير في شعره نزولاً عند رأي أحدهم⁽³⁾.

(1) من هذه الأخبار: حضوره حلقة يونس، ودفاع يونس عنه في حلقة أبي عمرو بن العلاء، وتهكمه برجل اتهم رؤبة بجهل معنى اسمه، وخير تفضيل رؤبة شعره على شعر أبيه ورد يونس عليه، وخبر مدح رؤبة لمعن بن زائدة، ودور يونس في حثه على ذلك المديح. وغير ذلك تجده في المختار ص 59 ب - 60 ب.

(2) مثل نعت «عنيسة بن معدان الفيل» بـ «ابن النبطية»، وقوله عن «ابن أبي إسحاق»: «ما بال هذا الذي يجرّ خضيئه في المسجد، لا يجد لها مخرجاً» الموشح ص 139.

(3) أخذ على الفرزدق في بيته: [البسيط]

غير أن الأخبار التالية زمنًا أظهرت نمطاً مختلفاً من العلاقة بين الطرفين، ولا سيما فيما يظهر من علاقة العلماء بالشاعرين «بشار بن برد» و«أبي نواس»؛ إذ رجحت كفة الشعراء.

وأول هذه الأخبار ما رواه «خلف الأحمر» عن تصويره لبشار قبل رؤيته، من خلال ما كان قد سمعه عنه، فصمم أن يذهب إليه ليطأطئ من قدره، لكنه سمع ورأى منه ما جعله يقول: «فارتعدت والله فرائصي، وعظم في عيني جداً، وقلت في نفسي: الحمد لله الذي أنقذني من شرك»⁽¹⁾. وفي خبر مطول كرره المرزباني في موضعين مختلفين من كتبه⁽²⁾. ورد فيه أن بشاراً لم يتوان عن نعت «سيبويه» وهجائه بأقذع لفظ⁽³⁾؛ إذ بلغه عنه أنه خطأه في بعض ما جاء من ألفاظ بشعره. أما صدر الخبر فيبالغ في تصوير خوف العلماء من هجاء الشعراء؛ إذ أفاد أن الأخفش (الأكبر) لم يكن غضباناً لنعت بشار إياه بـ«القصار ابن القصارين» وإنما أخذ يبيكي؛ ولما سئل عن سبب بكائه قال: «وقعت في لسان الأعمى» وفيه أيضاً أن الأخفش أخذ بعد ذلك يتمثل بشعر بشار، ويستشهد به إرضاء له.

ولعل المبالغة في تصوير نمط العلاقة مختلفاً توازنه، حين أضحى العلماء يخافون

على عمائمنا تلقى وأرحلنا على حراجف تزجي مخها رير
قوله: «مخها رير» فغيرها إلى قوله: «على حراجف تزجيها محاسير» وذلك بعد أن دخل في نفسه شيء لما بلغه المأخذ. انظر الخبر تماماً في الموشح ص 139-140.

(1) انظر نور القبس ص 75.

(2) الموشح ص 311، ونور القبس ص 96.

(3) حين وصفه بـ«ابن الفارسية» وهي امرأة مشهورة في البصرة، وكانوا إذا أرادوا أن يُزَنُوا شخصاً نسبوه إليها. أما هجاء بشار لسيبويه فهو قوله: [الطويل]

أسيبويه يا ابن الفارسية ما الذي تحدثت من شتمي وما كنت تنبذ
أظلت تغني سادراً بمساءتي وأمسك بالمصرين تعطي وتؤخذ
ولما قيل لبشار: تنسبه إلى الفارسية؟ قال: نسبته إلى أن أعرف أبويه. قيل: فلم جعلتها فارسية؟ قال: لأن
فارس الشريف والوضيع «انظر المصدرين السابقين.

من الشعراء، بعد أن كان سلفهم يجابهون الشعراء بأخطائهم دون هوادة. هي ما يبدو من خبر أبي عبيدة مع أبي نواس، حين كان الأخير حدثاً يتلقى العلم بحلقة الأول إذ قام بإعادته لحلقته بعد أن طرده منها؛ وذلك خوفاً من هجائه⁽¹⁾.

وحين نستبعد من بعض هذه الأخبار جوانب المبالغة في تصوير ردة فعل العلماء المتأخرين. نجد أن هذه الأخبار التي سبقت عن بشار وأبي نواس تلح على غاية واحدة هي أنهما قد فرضا على العلماء التقدير والاحترام لهما وللشعراء المحدثين بعامه. وأن العلماء الذين كانوا يتخذون مواقف سابقة - من خلال ما ينقل لهم عن الشعراء - قبل تعاملهم معهم وتعرفهم وشعرهم عن كثب، تبدلت قناعاتهم إلى وجهتها الصحيحة؛ فمنحوهم ما يستحقونه من التقدير. ولعل خبر خلف الأحمر مع بشار أكثر الأخبار تجسيدا لتلك النتيجة.

إن الجوانب الآنفة في هذا البعد السيري المتمثل في علاقات الوسط الأدبي، علماء بعلماء، وعلماء بشعراء تبدي فائدة رصد تلك المواقف، وأهميتها في توضيح عدد من الأمور التي صاحبت تكون المادة الرئيسية في تاريخ الشعر. فقد أضحت تلك التفاصيل والاستطرادات الآن من صميم العناية بالتاريخ الشعري. الأمر الذي يبدي أهمية الأبعاد السيرية مجملًا. ويبدي معه ضرورة الوقوف على (نمط الكتابة الموسعة) عن الشعر والشعراء لدى مؤرخي القرن الرابع الهجري الذين احتفظت مدوناتهم بما لم تكن الكتب السابقة توليه عناية مماثلة⁽²⁾.

(1) ورد في المختار ص 159 ب-160 أ: «كان أبو نواس يحضر مجلس أبي عبيدة وهو غلام، وأبو عبيدة يملئ كتاب المثلث. فكان أبو نواس بفضل عبثه يشغل من حضر عن الاستماع. فشكوه إلى أبي عبيدة، فقال: اطرده، فطرده. فتباعد قليلاً، وأخذ رقعة، فكتب فيها: [الكامل]

أمر الأمير بأخذ أولاد الزنا فتغيبوا لا تؤخذوا فتعاقبوا
ثم حذف بالرقعة في حجر أبي عبيدة. فقال: من قائل هذا الشعر؟ قالوا: هذا العيار الذي شكوانه. فقال: والله لأقينّ عرضي منه بأن لا أطرده من مجلسي. وكيف أطرده من هذا مقداره؟ رده. فردوه». (2) النمط المشار إليه سيرد الحديث فيه مفصلاً في المحور الثالث من المبحث التالي: (الشعر والسياق التاريخي).

المبحث الثالث

الشعر والسياق التاريخي

توطئة:

يعد تجاوز نزعتي الشعر والتاريخ من أبرز السمات الموضوعية في مؤلفات المرزباني العامة. ويجد القارئ في كتاب معجم الشعراء - أحد كتبه التي خصصها للشعر والشعراء - مصداق تلك السمة البارزة. فالتاريخ بوقائعه ومجرياته يشكل حضوراً لافتاً للنظر، وسياقاً يقل تحليه عنه في نسبة كبيرة من تراجم الكتاب، وبخاصة تراجم الشعراء القدماء.

ويمكن الذهاب إلى أن الحضور المكثف للمادة التاريخية، والاعتماد عليها في الكتابة عن الشعر والشعراء في هذا الكتاب وحدها تمكن من أخذ تصور مجمل عن أبرز الأحداث التاريخية. ذلك على الرغم من النقص الحاصل في الكتاب، وطابع الإيجاز الذي تتسم به تراجمه⁽¹⁾.

وحين يتخذ العصر الجاهلي وفق الصورة التي جاءت في إشارات المرزباني أنموذجاً يمثل كثافة المادة التاريخية وقيمتها فإنه يتعذر نقل كل ما أورده بهذا الصدد. لأن هذا المبحث لا يتوجه أساساً إلى دراسة المادة التاريخية في حد ذاتها، وإنما يعني بها في إطار علاقتها بالشعر وتاريخه في كتابات المرزباني. لذلك نقتصر في هذه التوطئة على مثالين من تاريخ العصر الجاهلي هما: (المناذرة)، و(أيام العرب وحروبهم) يشار إليهما بإيجاز، لبيان مقدار حضور المادة التاريخية في كتابته عن الشعر والشعراء من جهة، ومن جهة أخرى لبيان ما يمكن الخروج به من تصور تاريخي عن عصر ما، من خلال الاعتماد فقط على إشارات المرزباني⁽²⁾.

(1) انظر ما تقدم ذكره في الفصل الأول.

(2) على سبيل المثال أشار المرزباني في الجزء الموجود من المعجم إلى أكثر من عشرين يوماً وموقع من أيام ومواقع العرب.

وثُفِّهَ إشارات المرزباني إجمالاً وجود نمطين من الحياة السياسية في العصر الجاهلي: هما نمط الحياة الملكية، وتوحي به إشارات الملوك اليمن، وملوك المناذرة. ونمط الحياة السياسية الذي كانت تحياه معظم القبائل العربية، وتشغل إشارات إليه حيزاً كبيراً من المادة التاريخية التي حملها كتاب المعجم.

ومن الدلالات العامة التي تستنتج عن الحياة الملكية ما جاء عن تأثر الكيان السياسي الملكي بالقوى الأجنبية المجاورة، خصوصاً تبعية المناذرة للفرس⁽¹⁾. وخضوع بعض القبائل لنفوذ المناذرة من خلال ما كان مفروضاً عليها من إتاوات⁽²⁾.

وفيما يتعلق بالمثال الأول فإنه من أكثر محاور الحياة الملكية بروزاً لدى المرزباني، إذ إن ذكر مملكة المناذرة أوفر حظاً من غيرها من الممالك اليمنية، أو جيران المناذرة من الغسانيين. فصورة ملك الحيرة شبه واضحة منذ أول ملوكهم «عمرو بن نصر اللخمي» الذي يعد أباً لجميع ملوك المناذرة من بعده⁽³⁾، إلى أن تنتهي أحداث هذه المملكة على يد «كسرى أبرويز» الذي بقتله آخر ملوكهم «النعمان بن المنذر» يكون قد قوض ملك المناذرة⁽⁴⁾.

ولعل وضوح صورة هذه المملكة فيما أورده عن أعلامها من كتابات أو نماذج شعرية قياساً إلى الغياب شبه التام لمملكة الغساسنة، وندرة ما ورد عن ممالك اليمن⁽⁵⁾. لعل ذلك يعود إلى كثرة ما نسب إليهم من الشعر مقارنة بغيرهم. أو إلى كثرة احتكاكهم بالقبائل العربية من حولهم فكان ذلك سبباً لتخليد ذكرهم في قصائد

(1) توضح ترجمة «عدي بن زيد» (المعجم ص 80-82) أن تولي الملوك وعزلهم في الحيرة كان بيد كسرى.

(2) انظر امتناع قبيلة تميم عن دفع الإتاوة في ترجمة «أبي المشمرج»، المعجم ص 20.

(3) انظر ترجمة «عمرو بن نصر اللخمي» في المعجم ص 10.

(4) انظر تفصيل هذه الأحداث في ترجمة «عدي بن زيد» وبيان علاقته بالنعمان، المعجم ص 81.

(5) ورد ذكر ثلاثة من ملوك اليمن. حيث ترجم المرزباني لاثنتين منهم هما: «تبع الثاني أو الثالث وهو القمقام بن العباهل» وترجمته ب المعجم ص 223. و«ذو رعين يريم بن سهل بن الغوث» المعجم ص 505. كما ورد ذكر «حسان بن عبد كلال» في ترجمة «فهر بن مالك»، المعجم ص 191.

الشعراء الذين ارتبطت قبائلهم بأحداث معهم⁽¹⁾. كما أن للعلاقة الواضحة بين اثنين من ملوكهم والشاعرين «عدي بن زيد»، و«عمرو بن كلثوم» دوراً في الاهتمام بهذه المملكة؛ لما ترتب على موقفَي الشاعرين من أثر على الحياتين السياسية والاجتماعية الجاهلية⁽²⁾.

وفيما يتعلق بالمثال الثاني: الكيان السياسي القبلي؛ احتفظت كتابات المرزباني بالعديد من الأحداث والمجريات الكبرى والصغرى. فهو يشير إلى الحروب الشهيرة الكبرى أو التي استمرت فترات زمنية طويلة، كحرب البسوس، وداحس والغبراء، والفجار، وحروب الأوس والخزرج⁽³⁾. زيادة على العديد من الغارات والمواقع الصغرى⁽⁴⁾. وغير ذلك من المظاهر التي تفيد دلالات أخرى عن حالتي الحرب والسلم، وقيمهما في المجتمع القبلي في العصر الجاهلي⁽⁵⁾.

(1) بعض هذه الأحداث ما كان بسبب الإتاوات المفروضة على القبائل. وانظر ما قاله «عمرو بن هند» عن إيقاعه بني تميم، المعجم ص 11. وكذلك ما فعله «امرؤ القيس» عم «النعمان بن المنذر» بـ «النمر بن قاسط»، المعجم ص 256-257.

(2) الموقفان تمثلاً في فتك «عمرو بن كلثوم» بالملك «عمرو بن هند» فكان ذلك مدعاة لفخر جميع العرب. والموقف الثاني: ما ترتب على تنكر «النعمان بن المنذر» لـ «عدي بن زيد» وقتله في سجنه، بعد أن أسهم في توليته الملك. وما أدى إليه تدخل «كسرى»، وقتله «النعمان» من إنهاء ملك المناذرة.

(3) انظر ذكر «البسوس» في المعجم ص 249. وذكر «داحس الغبراء» في الإشادة بدور «قيس بن زهير» فيها، المعجم ص 197. وذكر «الفجار»، المعجم ص 124. والإشارة لحروب الأوس والخزرج في معرض الترجمة لـ «عمرو بن الإطنابة»، المعجم ص 8.

(4) من أمثلة المواقع والغارات الصغرى: «حرب قشير وبني شيبان»، المعجم ص 111. و«حرب بني مشنوء بن عبد حبر مع بني كنانة»، المعجم ص 71، وغير ذلك.

(5) من المظاهر المرتبطة بحالة الحرب، مظهر سلطة العشيرة على القبيلة. انظر في ذلك المعجم ص 39، رئاسة قبيلة يشكر التي كانت لـ «ربيعة» ثم انتزعتها «ثعلبة بن عكابة». ومن المظاهر المرتبطة بحالة السلم تلك القيم التي كانت تكرسها الأخلاف، كما في الأنموذج التالي لـ «لمس بن سعد الباري» الذي وضع كيف أن حلف الفضول رفع ظلماً وقع عليه بمكة، من قبل أبي بن خلف، وأعاد له حقه وهو بعيد عن قومه، فقال في ذلك: (المعجم ص 253-254) [الطويل]

ويبدو واهتمام المرزباني بالتاريخ العام، واستحضاره جنباً إلى جنب مع المادة الشعرية في العديد من موضوعات مؤلفاته وكتابات بوصفه دلالة من جهة على مقدار إفادته من العلاقة المتبادلة بين الطرفين وتوظيف هذه العلاقة لإثراء مادته في مؤلفاته بعامة. وبوصفه دلالة من جهة أخرى على أن التأريخ للشعر لدى المرزباني أكثر تهيوأً، على اعتبار أن الإمام بالتاريخ العام من الضروريات التي لا يستغني عنها مؤرخ الأدب والشعر. وسنرى هذه العلاقة المتبادلة بين الشعر والتاريخ في الجزئية التالية، بما يجلي أهمية حضور الطرفين في كتاباته؛ إذ يمثل التاريخ إطاراً لما سيستقيه من تأويلات تاريخية للمادة الشعرية، أو العكس عندما يعول التاريخ على المادة الشعرية في الحقب التي لم يدون تاريخها واحتفظت المادة الشعرية بشواهدا، كتاريخ العرب قبل الإسلام⁽¹⁾.

أُبَيُّ ولا قومي لـديَّ ولا صـحبي	فيظلمني مـالي بمكة ظالما
دون قومي من فياف ومن سهـب	وناديت قومي بارقا لتجيبنيوكم
بني خلف والحق يؤخذ بالعـضـب	سيأبى لكم حلف الفضول ظلامي

(1) من الجدير بالذكر في هذا الموضع أن عددا من الأيام الجاهلية التي ورد ذكرها عند المرزباني منها يوم (قضة لقيس بن ثعلبة)، ويوم (العضالي بين بني الحارث بن همام مع بني يربوع)، غير مذكورة في كتاب (أيام العرب في الجاهلية)، لمحمد أحمد جاد المولى، وآخرين، دار الجيل، بيروت 1408هـ. وقد ذكر الـيومين صاحب العقد الفريد، العقد 6/ 45 / 66. انظر ملحق بأهم الأيام والأحداث العربية التي أوردها المرزباني في الملحق الخامس من هذا البحث.

المحور الأول: العلاقة بين النماذج الشعرية والسياق التاريخي

يعد أبرز وجه للعلاقة بين الشعر والتاريخ، ذلك التوازن الذي حافظ عليه المرزباني بين الطرفين في مسعى منه للإبقاء على السياق التاريخي حاضراً. على اعتبار أنه رؤية مشتركة يتبادل إنجازها كل من الأنموذج الشعري والمناسبة التاريخية.

ويبدو التوازن أحد المقاصد التي تظهر بارزة من خلال الطريقة التي كان يسير بها كل طرف. فطريقة الاستشهاد والتمثيل بالأبيات الشعرية تتكشف عن تنوع وتدرج في مستواها الوثيقي. وكذلك الشأن في المقدار المستدعى من المناسبة التاريخية للأبيات التي يكون بصدها. وتفصح النماذج الشعرية المختارة، خصوصاً المتعلق منها بالوقائع التاريخية عن صنفين:

أولهما: ما يأتي على الواقعة التاريخية، فيجلى عن أهم الجوانب فيها، كمسماها، وأطراف الصراع فيها - إن كانت حربية - وما له علاقة بذلك من بيان الطرف الغالب، وما أوقعه بالخصم. وهنا يرتفع مثل هذا الأنموذج إلى مرتبة الوثيقة التاريخية.

والصنف الثاني: ما ينبعث عن واقعة تاريخية لا تختلف في شيء عن السابقة؛ غير أن الشعر المنبعث عنها لا يأتي على أغلب الجوانب المشار إليها في الصنف الأول. ولذلك فإن المرزباني لا يزيد في تقديمه لبعض الأبيات - من الصنف الأول - على ما أورده صاحبها، في الوقت الذي يزيد تقديمه لبعضها مما يستحضره من المعلومات التاريخية - في الصنف الثاني - عن مقدار الأبيات ذاتها.

وللوقوف على الطرح السابق ننظر في الأنموذجين التاليين لتتعرف الفروق المشار إليها في النماذج الشعرية، والسياقات التاريخية المستحضرة لتفسيرها.

والأنموذج الأول: قول الشاعر ⁽¹⁾: [الطويل]

لقد علم الحيان كعب وعامر وحيأ كلاب جعفر ووحيدها

(1) كعب بن الحارث الغطيفي، المعجم ص 232.

بأنّا لدى العرقوب لم نسأم الوغى وقد قلقت تحت السروج لبودها
تركنا على العرقوب والخيّل عكفُ أساود قتلى لم توسّد خدودها
كذلك تأسينا وصبر نفوسنا ونحن إذا كنا بأرضٍ أسودها
أما الثاني فهو قول الآخر⁽¹⁾: [البسيط]

هلاً بكيت عليه اليوم معولةً وكان كالليث تحت الخيسة الحرب⁽²⁾
وكان نجدا جواد الكف ذا ثقة يوم الصبيب وبين المأزق الترب
حامى عن الجار والمولى بنجدته وقد يحامي عن المولى أخو الحسب

إن كلا الأنموذجين قد انبعث عن واقعتي «يوم العرقوب» في الأول. و«يوم الصبيب» كما يوحي بذلك النص الثاني. لكن الأول قد وثق يومه وبين ما يهم المؤرخ المهتم بمثل هذه الواقعة. في الوقت الذي لم يذكر الثاني سوى مسمى «يوم الصبيب». وحين ينظر إلى السياق الذي استحضره المرزباني في تقديمه للثاني تتجلى أهمية ما استحضره وتأخيره - عن قصد - مضمون الرثاء الذي تدور الأبيات حول قيم صاحبه الفردية. وذلك لما للواقعة التي لم يفصح عنها النص من أهمية في تاريخ العرب. فجاء تقديمه للأنموذج مباشرة عقب اسم صاحبه بقوله: «لما أقبل حسان بن عبد كلال الحميري في جيش اليمن، لينقل حجر الكعبة من مكة إلى اليمن، ويجعل حج الناس ببلاده. قاتلته كنانة ومن انضم إليها من مضر وغيرهم، وعليهم فهر بن مالك. فهزمت حمير، وأسر شرحبيل بن عبد كلال، وقتل قيس بن غالب بن فهر، فقال يرثيه...»⁽³⁾.

إن الحديث هنا ليس في شأن المقارنة بين أهمية الحدثين تاريخياً - على الرغم من القيمة التاريخية المستفادة في أن محاولة غزو للكعبة قد سبقت محاولة أبرهة الحبشي - وإنما بيان ما تقدم عن مسعى المرزباني في حرصه على إبقاء السياق التاريخي

(1) هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، المعجم ص191.

(2) الخيسة: المجتمع من كل الشجر.

(3) المعجم ص191.

حاضراً. فإن قدم النص سياقه كما حدث في الأنموذج الأول، فإنه بذلك قد كفاه مؤونة استحضار مادة تاريخية من خارج النص المتمثل به. ليكتفي حينها بتقديم مقتضب عن الشاعر وعصره، دون كبير زيادة على ما حمّله النص من مادة تاريخية⁽¹⁾. وتبقى العلاقة قائمة على هذا المنوال في الغالب من النماذج الشعرية ذات الدلالات التاريخية. إذ يمكن إرجاع كل منها إلى أحد الصنفين المشار إليهما، أو إلى موضع وسيط بينهما. كما أن ذلك غير مقتصر على العصر الجاهلي، وإنما نجده في كافة العصور بعده.

فمثل توثيق «يوم العرقوب»، الذي وقع في الصنف الأول توثيق «فتنة ابن الزبير» في أبيات «علي بن الغدير الغنوي»⁽²⁾ في العصر الأموي. وتوثيق «تخريب المدينة المنورة» في أبيات «الفضل بن العباس العلوي» في العصر العباسي⁽³⁾. و«فتنة أبي الهيثم المري بالشام أيام الرشيد» في أبيات «عمرو بن واقد»⁽⁴⁾، وغيرها.

(1) جاء تقديم المرزباني للأنموذج الأول بعد اسم الشاعر وعصره بقوله: «جاهلي أغار على بني عامر بن صعصعة، فقتل وسبي، وقال» (الأبيات).

(2) وهي التي يقول فيها: المعجم ص131 [الطويل]

«فمن مبلغ قيس بن عيلان مألماً	من اختار منهم أرض نجد وشامها
فلا تهلكنكم فتنة كل أهلها	كحيران في طخياء داج ظلامها
وخلوا قريشا والخصومة بينها	إذا اختصمت حتى يقوم إمامها
فلإن قريشاً والإمارة إنها لها	وعليها برها وأثامها»

(3) منها: المعجم ص186 [الحفيف]

«أُخْرِبْتُ دار هجرة المصطفى الب	رُّ فأبكى خرابها المسلمينا
عين فابكي مقام جبريل والقب	ر فبكّي والمنبر الميمونا»

(4) وهي قوله: المعجم ص29 [الطويل]

«فلم أر كالهيزام في الناس فارساً	ولا كخريم حلية في الخلائق
ولا كأخينا من قريش رأيت	بعيني ولا مولى رأيت كسابق

أما الصنف الثاني، الذي يبرز فيه استحضر المناسبات التاريخية، على غرار ما كان في استحضر غزو ملك اليمن لمكة، فمثله استحضر السياق الذي فخر فيه «علي بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي» بأخواله «بني وليعة»⁽¹⁾، وما أورده عن أبيات «كثير بن كثير بن المطلب»⁽²⁾ وغير ذلك.

كَأَنَّهُمْ كَانُوا صَخُورَ دَجَنَةٍ أَتَيْتُ عَلَى الْخِرْبَانِ مِنْ رَأْسِ حَالِقٍ
فَوَلْتُ بَنُو قَحْطَانَ عَنَّا كَأَنَّهُمْ هُنَالِكَ ضَآنُ جَلْنٍ مِنْ صَوْتِ نَاعِقٍ

ويبدو من تقديم المرزباني قبل هذا النموذج كيف أنه يكتفي بإعادة ما قاله الشاعر عن الحدث وتتبعه تماماً - بعد الإشارة لعصره - حين ذكر: «عمرو بن واقد مولى عتبة بن يزيد بن معاوية، شامي دمشقي، يقول في فتنه أبي الهيثم المري بالشام أيام الرشيد يصف هيثماً، وخريماً ابني أبي الهيثم، ومولاه سابقاً، ورجلاً من قريش كانوا حماته في تلك الحال».

(1) انظر هنا إلى السياق التاريخي المستدعي مقارنة بالأبيات إذ يستخرج منه أمران: الأول أنه يزيد عن عدد الأبيات أو أنه يساويها. والثاني: أنه لا يمكن الظفر بمغزى الأبيات بمعزل عن سياقها؛ إذ أورد المرزباني في المعجم ص 133، ذلك على النحو التالي: «علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم رضي الله عنه: لما قدم المدينة مسرف بن عقبة المري، ففعل بالجرة ما فعل، من أخذ الناس بالبيعة ليزيد بن معاوية، فبايعوا إلا علي بن الحسين، وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، فأما علي بن الحسين رضي الله عنهما فأعفوه. وأما علي بن عبد الله فمنعه الحصين بن نمر السكوني، وكانت أم علي كندية، فلما قرب مسرف ليبيع على أنه عبد ليزيد، قال الحصين: لا يبيع ابن أختنا على هذا. فقال مسرف: أخلعت يداً من طاعة؟ فقال له الحصين: أما في علي بن عبد الله فنعم. فقال: علي بن عبد الله: [الوافر]

أَبِي الْعَبَّاسِ قُرْمُ بَنِي قَصِيٍّ	وَأَخْوَالِي الْكَرَامِ بَنِي وَلِيْعَةٍ
هَمُّ مَلِكُوا بَنِي أَسَدٍ وَأَوْدًا	وَقَيْسًا وَالْعَمَائِرُ مِنْ رَبِيعَةٍ
هَمُّ مَنْعُوا ذِمَارِي يَوْمَ جَاءْتُ	كَتَائِبُ مَسْرُفٍ وَبَنُو اللَّكِيْعَةِ
أَرَادُوا بِي التِّي لَا عَزَّ فِيهَا	فَحَالَتْ دُونَهُ أَيْدٍ رَفِيعَةٍ
وَكُنْدَةٌ مَعْدُنٌ لِلْمَلِكِ قَدَمًا	يَزِينُ فَعَالَهُمْ عَظَمُ الدَّسِيعَةِ

(2) ورد في المعجم ص 239-240 «كثير بن كثير بن المطلب [تتمة نسبه] وهو القائل وسمع عبد الله بن الزبير يتناول أهل البيت عليهم السلام. ويقال: إنه لما قالها كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله بالمدينة أن يأخذ الناس بسب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [الخفيف]

ومما ينبغي الإشارة إليه أن مستويات التوثيق في النماذج الشعرية تتفاوت في الإحاطة بمجمل تفاصيل الحدث. لذلك احتاجت بعض النماذج من الصنف الأول إلى توضيحات تاريخية من خارجها لتحديد الفترة الزمنية في «فتنة أبي الهيثام» بعصر الرشيد. وطبيعي أن يترتب على ذلك اختلاف المقدار المستحضر من المناسبة طولاً وقصراً. فبعض السياقات التاريخية يستغرق الخبر الواحد منها كامل الترجمة، ويسيطر على مضمونها، إلى الحد الذي لا تذكر فيه أي معلومات أخرى عن الشاعر⁽¹⁾. ومن هذه الطريقة يستدل على أن المرزباني كان يوظف التاريخ ومادته التي احتفظ بها الشعر لاستخراج المزيد من تراجم الشعراء خصوصاً غير المشهورين. وأن التاريخ قد ساعده كثيراً في الخروج بذلك المقدار من تراجم الشعراء الذي وصل نحواً من خمس آلاف ترجمة⁽²⁾، في كتابه المعجم، وأن العامل ذاته قد كان رافداً مهماً له في مادة كتابه المفيد عن الشعراء المقلين والمغمورين والمجهولين.

على أن نهج الترجمة التي يستغرقها السياق التاريخي ذو الخبر الواحد، أو التي لا تحتوي إلا على أنموذج شعري وحيد لا تظهر عادة في تراجم الشعراء المشهورين في

«لعن الله من بسب علياً	وحسيناً من سوقية وإمام
أنسب المطيبين جدوداً	والكريمي الأخوال والأعمام
طبت بيتاً وطاب بيتك بيتاً	أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليكم	كلما قام قائمٌ بسلام

(1) انظر الإحالتين السابقتين فهما ترجمتان كاملتان. ومثلها ترجمة «فهر بن مالك بن النضر» التي كانت مقتصرة على الخبر الذي يمثل سياق «يوم الصبيب».

(2) ذكر ذلك العدد من ترجموا للمرزباني ومنهم «النديم» انظر الملحق الثاني ثبت مؤلفات المرزباني بآخر هذا البحث، ص 319-322. وكذلك يمكن الاطمئنان إلى أن العدد غير مبالغ فيه من خلال ورود «خمسئة» ترجمة في حرف الميم وحده. وكذا ما يقارب «مائي» ترجمة للجاهليين دون غيرهم في حرف العين، على الرغم من ورود التراجم ناقصة في هذا الحرف الذي يبدأ به القسم المنشور من الكتاب. زيادة على الطوائف المترجم لها في الكتاب ممن لم يشتهروا بالشعر من الخلفاء، والعلماء، والوزراء والكتاب وغيرهم، ممن أسهمت الترجمة لهم في زيادة عدد التراجم.

كتاب المعجم. بل يقع هذا النهج في تراجم غير المشهورين. لكن ذلك لا يعني عدم الاعتماد في عدد كبير من تراجم الشعراء المشهورين من القدماء على وجه الخصوص على المادة التاريخية. وهذا الاختلاف في التناول التاريخي أو غيره للشعراء، مما طبع به المرزباني تعاريف شعرائه الموجزة في المعجم، أو كتاباته الموسعة عنهم في كتبه الأخرى، - هذا الاختلاف في التناول هو ما سيفصل في المحور الثاني من هذا المبحث، وسيفصل معه أهم أسباب تباين حضور المادة التاريخية أو الفنية في التعاريف الموجزة. أما حضور الجوانب التاريخية في كتاباته الموسعة عن الشعراء، فهو ما سنتناوله في المحور الثالث من هذا المبحث.

المحور الثاني

تعريف الشعراء المشهورين الموجز

النمط التاريخي والمقاربة الفنية:

أولاً: النمط التاريخي:

من أبرز ما وصل من تراجم الشعراء الجاهليين، الذين عرفهم المرزباني في كتاب المعجم تراجم: «طرفة بن العبد»، و«عمرو بن كلثوم»، و«عدي بن زيد»، و«الأعشى (الكبير) ميمون بن قيس»، و«النابغة الجعدي».

ومع اختلاف هذه التراجم، عن تلك التي عرّف فيها غير المشهورين - في تنوع الأمور التي يعرف الشاعر من خلالها - إلا أن كل ترجمة تعتمد على حدث تاريخي بارز في حياة المترجم له. كقصّة مقتل طرفة⁽¹⁾، وفتك عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند⁽²⁾، وعلاقة عدي بن زيد بكسرى والنعمان بن المنذر⁽³⁾، والموقفين المختلفين لكل من الأعشى، والنابغة الجعدي من الإسلام⁽⁴⁾.

وحين ينظر إلى الأمور التي عرفت الشاعر إلى جانب الحدث البارز نجد أنها تتعلق بالنسب أولاً، وما يرتبط به من الكنى والألقاب، أو بالمكانة القبلية⁽⁵⁾، وغيرها⁽⁶⁾، أو بوفاة

(1) المعجم ص 5.

(2) المعجم ص 7.

(3) كان كاتباً عند كسرى، وصديقاً للنعمان، المعجم ص 80-81.

(4) وفد الأعشى إلى مكة بعد أن قال قصيدة في مدح الرسول ﷺ يريد مقابله، لكن «أبا سفيان» عرض له، بعد أن جمع له مئة من الإبل، فألقاه بغيره في الطريق ومات. انظر المعجم ص 325. أما النابغة فأسلم وعمر في الإسلام. المعجم ص 195.

(5) مثل مكانة «عمرو بن كلثوم» انظر المعجم ص 6.

(6) المكانة التي كانت لـ «عدي بن زيد» عند كسرى. انظر المعجم ص 80.

الشاعر وأسبابها⁽¹⁾. وكل ذلك يمكن جعله في قسم متعلق بحياة الشاعر من الترجمة. أما ما عدا ذلك فيمكن عده قسماً آخر متعلقاً بشعره. ويتم التطرق إلى هذا القسم - الأقل في محتواه - من خلال أوصاف موجزة، مما قاله العلماء عن وصف أشعار القدماء، والمفاضلة بين مكانة كل منهم الشعرية. فعمر بن كلثوم «شاعر مقدم»⁽²⁾، و«عدي بن زيد في الشعراء مثل سهيل في الكواكب؛ يعارضها، ولا يجري معها»⁽³⁾، والأعشى «أول من سأل بالشعر»⁽⁴⁾، والنابغة «أحد نعات الخيل»⁽⁵⁾. وغير ذلك من الأحكام التي أساسها المقارنة مع الشعراء الآخرين. ثم يكون ختام الترجمة بأبيات مختارة مما اشتهر للشاعر.

ويمكن أن تعد ترجمة الشاعر «عدي بن زيد»⁽⁶⁾ أنموذجاً لهذه الفئة من التراجم، بما أتت عليه من أغلب الجوانب المعرفة بالشاعر، كنسبه، وديانته، ومكانته، وعلاقته بالأحداث التاريخية، وصولاً إلى حادثة مقتله. زيادة على ما تميز به وصف شعره، والنماذج الشعرية المختارة له، من بيان العلة في دنو مكانته الشعرية، وارتباط النماذج الشعرية مع ما ورد من الأحداث التاريخية التي مرت عليه. إلى جانب ما تقدم عن قيمة المعلومات التاريخية في ترجمته مما يعني المؤرخ في المقام الأول⁽⁷⁾. وتجسد التراجم السابقة النمط التاريخي في تعريف الشاعر المشهور. إذ إن النقاط التي تعرف الشاعر فيها تكون سرّداً للجوانب التاريخية المتعلقة بحياة كل شاعر. وما اختلاف المضامين بين ترجمة وأخرى سوى انعكاس للجوانب المختلفة في حياة أولئك الشعراء.

(1) انظر مقتل «طرفة» المعجم ص5، والأعشى ص325، وكثير غيرهما.

(2) المعجم ص6.

(3) المعجم ص80.

(4) المعجم ص325.

(5) المعجم ص195.

(6) ترجمته في المعجم ص80-82.

(7) انظر المعجم ص81-82 للاطلاع على قيمة ما ورد في ترجمة «عدي بن زيد»، عن نهاية ملك المناذرة.

ويُظهر تقسيم الترجمة في مضمونها إلى قسمين المراد بالنمط التاريخي؛ إذ القسم المتعلق بحياة الشاعر وأخباره يتم فيه التركيز على الحدث التاريخي الذي اشتهر به. ثم تلك الأمور التي لا تخرج عن نطاق الاهتمامات التاريخية. مما يبدأ بالنسب وينتهي إلى الوفاة. ويلاحظ أن هذه النقاط - باستثناء الوصف الموجز الذي يلم بشعر الشاعر ومختار منه - تستغرق مضمون الترجمة. فلا يوجد توظيف للنمط التاريخي من أجل إضاءة الجانب الفني لدى الشاعر سوى ما ذكر عن «سكن عدي بن زيد للحيرة» وأثر ذلك على لسانه، ومن ثمَّ على شعره. فذلك أحد الجوانب التي أفادت من تتبع حياة الشاعر تاريخياً لبيان أثرها على شعره. وقريب منه ما ذكر عن الأعشى أنه أول من سأل بشعره؛ إذ لذلك قيمة لدى التتبع التاريخي للأغراض الشعرية. أما ما عدا هاتين الإشارتين فإن مجمل مضامين تراجم الشعراء المذكورين بقيت قيمتها الأولى في التوثيق التاريخي لحياة الشعراء.

ولا تبتعد تراجم المخضرمين عن النهج السابق. فهي تتخذ من العلاقة بالرسول ﷺ، أو أحد خلفائه الراشدين رضي الله عنهم قاسماً تاريخياً مشتركاً لتعريفهم. ويمكن الاستدلال على ذلك من تراجم «عمرو بن معدي كرب، وعدي بن حاتم الطائي، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، وكعب بن الأشرف، ومالك بن نويرة». فالملاحظ على تراجم هؤلاء أنها سجلات تاريخية للأحداث التي شهدتها حياة كل منهم. فمنهم من كان شاعر الرسول ﷺ، وصحابياً جليلاً⁽¹⁾. ومنهم من أهدر دمه الرسول، فأمنه⁽²⁾، أو قتل⁽³⁾. إلى غير ذلك من الأحداث المشابهة⁽⁴⁾. وزيادة على مركزية الأحداث التاريخية في عصر صدر الإسلام في تراجم المخضرمين حفلت هذه التراجم

(1) كعب بن مالك، أحد السبعين الذين بايعوا بالعقبة شهد بدماءً والمشاهد كلها، المعجم ص 229-230.

(2) كعب بن زهير بن أبي سلمى. حين جاء وأنشده «بانت سعاد»، المعجم ص 230-231.

(3) كعب بن الأشرف اليهودي الذي أهدر دمه لتشيبه بنساء الرسول والمسلمين، المعجم ص 231.

(4) كاختلاف مواقفهم من الردة فهناك من ثبت، كعدي بن حاتم «المعجم ص 84، وهناك من ارتد وقاتل عمال الرسول، ثم حسن إسلامه وشهد الفتوح كعمرو بن معدي كرب، المعجم ص 16. وهناك من ارتد وقتل، كمالك بن نويرة، المعجم ص 260.

على نحو مخصوص بتتبع حياة الشعراء وفق التسلسل التاريخي للأحداث العامة⁽¹⁾. أما ما يخص القسم المتعلق بالحديث عن الجانب الشعري في تلك التراجم فتبدو عليه الطريقة المتبعة ذاتها مع الشعراء الجاهليين؛ حيث الأوصاف القليلة الموجزة. فكعب بن زهير⁽²⁾ كان شاعراً فحلاً مجيداً، ول مالك بن نويرة⁽³⁾ شعر جيد كثير، وعمرو بن معدي كرب من فحول الفرسان والشعراء... ولا يفضل عليه فارس في العرب⁽⁴⁾.

إن في بقاء هذه الأوصاف على حالها في تراجم الجاهليين ما يعني خلو التراجم من الإرهاسات التي قد توجي بمغايرة في النهج الذي يقارب به شعر المخضرمين عن سابقهم. ولا يبدو الانفتاح في الترجمة التاريخية، وتلمس مناح آخر، ضمن النمط التاريخي ذاته، إلا مع تراجم الشعراء الإسلاميين. ويمكن ملاحظة ذلك في مجموع ما ورد بتراجم «الفرزدق، وكثير، وعمير بن شبيب القطامي، وعدي بن الرقاع العاملي». فعلى الرغم من قصر ترجمتي «القطامي، وعدي بن الرقاع العاملي» إلا أنهما توحيان بدلالة أولية مهمة؛ هي أنه يمكن الاستغناء عن النمط التاريخي، وذلك عندما تتم الترجمة للشاعر القديم بمعزل عن الإشارة إلى أي واقعة تاريخية. على خلاف ما يبدو سائداً في معظم تراجم القدماء على وجه الخصوص.

أما الانفتاح المشار إليه في أفق الترجمة ضمن نطاقها التاريخي فيمكن الوقوف على بوارده في طريقة تعريف الشاعر. إذ لم تعد تعتمد كثيراً على الأحداث التاريخية وتلمس وقعها في حياة الشاعر، بل بالاعتماد على النقاط المتنوعة التي لا تتركز حول

(1) انظر على سبيل المثال إلى ترجمة عمرو بن معدي كرب (المعجم ص 15-17) وتسلسلها؛ إذ أسلم في حياة الرسول، ثم ارتد وحارب عمال الرسول باليمن، ثم حسن إسلامه وشهد الفتوح، وأصيبت عينه بالبرموك. وأوضح من ذلك في ترجمة عدي بن حاتم، المعجم ص 84؛ إذ كان نصرانياً، ثم وفد على الرسول وأسلم، ثم ثبت في الردة، ثم وفد على عمر وأشاد بموقفه في الردة، ثم شارك علياً في حروبه، ثم ما كان بينه وبين معاوية، وأخيراً ما كان بالكوفة في آخر حياته بينه وبين المختار بن عبيد.

(2) المعجم ص 230.

(3) المعجم ص 260.

(4) المعجم ص 16.

حدث بارز يجتذب اهتمام الترجمة، ثم في ردف النقاط المعرفة سابقا بأخرى قريبة منها، أو بنقاط اهتمام مستجدة. فالاهتمام بالنسب والمكانة والصفات الجسدية، رُفد بالألقاب المتعددة، والصفات النفسية التي نجدها عند كثيرٍ مثلاً⁽¹⁾، والمستجد المذهبي والسياسي لديه ولدى الفرزدق.

كما تبدو بوادر الانفتاح في توظيف التتبع التاريخي لحياة الشاعر من أجل إضاءة نتاجه الشعري، والربط ما بين توجهاته وأغراضه الشعرية. وهو ما يبدو من توقف المرزباني عند الميل المذهبي والتوجه السياسي لدى كل من الفرزدق وكثير. فهما يشتركان في انعكاس الميل المذهبي على شعرهما. على اعتبار أنهما هاشمي الرأي، ويظهران الميل إلى آل الرسول ﷺ⁽²⁾. فقد هجا كثيرُ ابن الزبير لما كان بينه وآل هاشم. أما الفرزدق فقد كان يمدح الأحياء من هاشم، ويؤبن موتاهم، ويهجو بني أمية، بدءاً بمعاوية، فزياد ابن أبيه، إلى عبد الملك بن مروان، والحجاج وغيرهم⁽³⁾. أما التوجه السياسي لكليهما فقد كان مختلفاً. ففي الوقت الذي كان فيه الفرزدق مناوئاً لبني أمية بهجائه عدَّ كثيرٌ شاعر بني مروان؛ فكانوا لذلك يكرمونه، وكان خاصاً بعبد الملك⁽⁴⁾.

ويبدو التتبع التاريخي لحياة الشاعر أيضاً في توقف المرزباني عند أسلاف الفرزدق وما أثرهم؛ لما لهذه المآثر من تجلٍ في غرض الفخر لديه، حينما ترجم لجدّه وأبيه، وعرض لأمه، مشيراً إلى أنه من شرفه «لا يوجد في نسبه أب مجهول بينه وبين عدنان»⁽⁵⁾.

وحين يتجاوز هذا القسم من الترجمة التاريخية إلى القسم الآخر الذي يعنى مباشرة بالجانب الشعري لدى الشاعر، نجد الأوصاف المعتمدة في بيان هذا الجانب على حالها السابق في الإيجاز والقصر، وبعض المعايير. فإلى جانب ما كان يرد ذكره عن الشعراء

(1) أشار المرزباني زيادة على أوصافه الجسدية إلى أنه: «كان مزهواً متكبراً» المعجم ص 242.

(2) انظر ذلك عن كثير. المعجم ص 242، وعن الفرزدق ص 466.

(3) المعجم ص 467.

(4) المعجم ص 242.

(5) ترجمته في المعجم ص 465.

«الفحول»، و«المقدم من الفرسان»⁽¹⁾. نجد أن القطامي أيضاً «كان شاعراً فحلاً»⁽²⁾. غير أن إمعان النظر في العبارات التي تتحدث عن الجانب الشعري عند الشعراء الإسلاميين يثمر الخروج ببعض التغيرات التي بدأت تظهر. سواء أكان ذلك في أسلوب الوصف بالعبارات المعتادة مع الشعراء المحدثين، كوصف القطامي أنه: «رقيق حواشي الكلام»⁽³⁾، أم كان ذلك في التوقف ملياً عند الشاعر مفرداً واستنباط ما تميز به من خصائص شعرية. وسيظهر ذلك في الإشادة بالخاصية الغرضية عند القطامي، أو البلاغية عند عدي بن الرقاع.

لقد كان من المؤلف في تراجم المرزباني للجاهليين والمخضرمين أن النظر إلى الشاعر غالباً ما يتم من خلال الأوصاف التي تعتمد على المقارنة. فالنابغة الجعدي «أحد نعات الخيل»، والأعشى «أول من سأل بشعره»، إضافة إلى موقع عدي بن زيد بين الشعراء.

غير أن وصف القطامي بأنه: «كثير الأمثال في شعره»⁽⁴⁾، والوقوف عند قيمة التصوير في شعر عدي بن الرقاع، ثم تسخير كل النماذج المختارة لهما من أجل التدليل على القيمتين المشار إليهما. كل ذلك فيه ما يوحي بالنظر فيما يميز شعر الشاعر نفسه. وليس من خلال الأسلوب المتكئ على النظر إلى الشاعر ضمن جملة من الشعراء الجاهليين والمخضرمين من خلال الرأي الجاهز ذي العبارة الواحدة المعتمدة على المقايضة.

ويتضح ذلك التريث أولاً في ترجمة عدي بن الرقاع بانتقاء الخبر الذي يعزز من قيمة التصوير لديه على غيره من أخباره⁽⁵⁾، ثم التنبه ثانياً إلى ما يكرسه المرزباني

(1) انظر ما سبق من مثل هذه الصفات في فني تراجم الجاهليين المعجم ص 111، والمخضرمين ص 113.

(2) المعجم ص 73.

(3) المعجم ص 73.

(4) المعجم ص 73.

(5) «للعامي» مع جرير خبر آخر في الموشح تهكم فيه بنسبه ص 178، وثان مع غيره ص 248، لكنهما لم يردا بترجمته في المعجم.

بعنصر الاختيار لديه من تعزيز للقيمة التي يكون بصدددها. ففي ترجمة عدي بن الرقاع العاملي لا يوجد سوى خبر واحد عن موقف حدث بينه وبين جرير. لكن إعجاب شاعر - في مكانة جرير - بهذه القيمة لدى الشاعر، بل وإشفاقه عليه أولاً، ثم تحول الشفقة عليه إلى حسد، كل ذلك فيه مضاعفة للإشادة بالشاعر؛ لأن ورود جرير في الخبر أدعى لإبراز تلك الخاصية مما لو اكتفى المرزباني بالإشارة إليها مباشرة، وغض النظر عن استحضار جرير في الخبر. ويعزز ذلك عنصر اختيار النماذج التي تكرر للقيمة المشار إليها عند الشاعر. فهو ما يظهر عقب انتهاء المرزباني من سرد الخبر السابق، من خلال اختياره لثلاثة أبيات أخرى من القصيدة ذاتها، غير البيت الذي أثار شفقة جرير وحسده، وهي الأبيات التي تصور معالجة القصيدة بعمل المثقف للقناة⁽¹⁾. ويتجلى تركيزه على القيمة التصويرية في نهاية الترجمة حين أكد إعجابه قولاً واختياراً فقال: «ومما يستحسن قوله يصف فعل سنابك الحمارين إذا عَدَّوا:

يتعاوران من الغبار ملاء غبراء محكمة هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكانا ناشزا وإذا السنابك أسهلت نشرها»⁽²⁾.

كما يظهر عنصر الاختيار جلياً في الترجمة الثانية الخاصة بالقطاعي عندما اقتصر على أنموذجين من شعره يجسدان القيمة الغرضية، التي تميز بها، وهي كثرة الأمثال في شعره⁽³⁾.

(1) هي التي يقول فيها: [الكامل]

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها

نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منادها

وعلمت حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي أزدادها

والبيت الذي أثار شطره الأول شفقة جرير، ثم حسده في الشطر الثاني: قوله (المعجم ص 87):

ترجي أغنّ كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

(2) المعجم ص 87.

(3) الأنموذج الأول قوله (المعجم ص 73-74): [الوافر]

ومما وجد في القسم المعني بالشعر في تراجم الإسلاميين، التدليل على تفوق الشاعر من خلال أثره في محيط تلقّيه لدى أنصاره، أو خصومه. فالأنصار يتمثلون في بيئة الحجاز، حينما ذكر عن كثير أنه شاعر الحجاز في الإسلام، وأنهم لم يقدموا عليه أحدا⁽¹⁾. أما الخصوم فيمثلهم جرير أو قبيلة كليب؛ إذ استحضر المرزباني مقولة تروى - على اختلاف نسبتها إليهما - في الإشادة بشعر الفرزدق من منظور وقع الهجاء على الخصم⁽²⁾.

إن هذه الإرهاصات التي وقعت في الترجمة التاريخية لبعض الشعراء الإسلاميين تدل على أن التاريخية أخذت تتحول بالتدريج من الرصد التوثيقي للأحداث والوقائع التاريخية إلى البحث فيها عن الإشارات التي تخدم الجوانب الفنية لدى الشعراء. وذلك يعني فرقا جوهريا بين البحث في التاريخ العام عن موقع يمكن الحديث منه عن الشاعر، وبين البحث في تاريخ حياة الشاعر عما من شأنه أن يضيء شعره.

أَمْوَرٌ لَوْ تَدَبَّرَهَا حَكِيمٌ	إذا لَنَهَى وَهَيْبٌ مَا اسْتَطَاعَا
وَلَكِنِ الْأَدِيمُ إِذَا تَفَرَّى	بَلَى وَتَعَيَّنَا غَلَبُ الصَّنَاعَا
وَمَعْصِيَةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ مِمَّا	يَزِيدُ مَرَّةً مِنْهُ اسْتِمَاعَا
وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ	وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبَعَهُ اتِّبَاعَا
تَرَاهُمْ يَغْمَزُونَ مِنْ اسْتَرْكَوَا	وَيَجْتَنِبُونَ مِنْ صَدَقِ الْمَصَاعَا
والأنموذج الثاني قوله (المعجم ص 74): [البسيط]	
وَالْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرَّرَ بِهِ	عَيْنٌ وَلَا حَالَ إِلَّا سَوْفَ تَنْتَقِلُ
وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ	مَا يَشْتَهِي وَلَأَمَ الْمَخْطِئُ الْهَبْلُ
قَدْ يَدْرِكُ الْمَتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ	وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلْزَلُ
(1) المعجم ص 242.	

(2) «قال جرير: ما قال لي الفرزدق بيتاً إلا وقد أكبته، أي قلبته، إلا هذا البيت، فإني ما أدري كيف أقول فيه. ويروى أن بني كليب قالوا: لم نُهَجْ بشعر قط أشد علينا من قول الفرزدق (المعجم ص 467): [الطويل]

أَلَسْتُ كَلِيبَا إِذَا سِيَمَ سَوَاءٌ أَقَرَّ كَأَقْرَارِ الْحَلِيلَةِ لِلْبَلِّ»

ونستنتج من تلك الإرهاصات أن لوفرة المادتين الإخبارية والشعرية عن الجيل الأول من الشعراء الإسلاميين - نظراً لقربهم، ومعاصرتهم للجيل الأول من العلماء - دوراً واضحاً في إثراء الترجمة للشعراء المشهورين. على أن لذلك أثراً آخر تمثل في إبقاء الترجمة ضمن النمط التاريخي دون أن تنحو أكثر صوب المقاربة الفنية. أما تحول الترجمة إلى التركيز على الجوانب الفنية لدى الحديث عن الشاعر فهو ما يبدو في الجزئية التالية من تعريف الشعراء المشهورين الموجز.

ثانياً: نمط المقاربة الفنية:

يمكن التثبت من التحول الذي أخذ يطرأ على نمط الترجمة، وسيرها نحو المقاربة الفنية بالنظر إلى شريحة من تراجم الحقبة المحدثّة، ومقارنتها بعدد مماثل من تراجم القدماء. فمن بين ما يزيد عن (ثمانين ترجمة) في الحقبة المحدثّة نجد أقل من (عشر تراجم) تذكر فيها أحداث تاريخية⁽¹⁾، ويمكن تعزيز ذلك من خلال التحول في النماذج الشعرية المستشهد بها مع الكثير من الشعراء المحدثين من النمط التاريخي إلى النماذج المرتبطة بمظاهر حياتهم⁽²⁾.

لكن ذلك لا يعني أن الترجمة للمحدثين ترجمة فنية محضة. وإنما الغالب في الترجمة للمحدث أنها تتجه عادة، في نقاطها المعروفة، ونماذجها المختارة، إلى ما له علاقة بالأمور الفنية، والأدبية، أكثر من اتجاهها إلى الأحداث التاريخية. من هنا فإن النظر إلى فئتين من تراجم المحدثين من شأنه أن يقفنا على حدوث ذلك التحول من جهة، ومن جهة أخرى على المسوغ الذي بقيت معه مادة التاريخ

-
- (1) انظر المعجم على سبيل المثال في «ذكر من اسمه محمد» إلى التراجم بدءاً بترجمة «محمد بن أمية بن أبي أمية» ص 354 وصولاً إلى ترجمة «محمد بن عبد الله اليعقوبي» ص 399؛ فعدد التراجم اثنتان وثمانون ترجمة. تجد منها ثلاثاً وسبعين ترجمة لا تعتمد على الأحداث التاريخية في مادتها. بينما لا يوجد في تراجم القدماء عامة، والجاهليين والمخضرمين، تحديداً، ربع ذلك العدد من التراجم التي تتسم بما ذكر.
- (2) انظر على سبيل المثال النماذج المصاحبة للتراجم الواقعة ما بين ص 362 إلى ص 380 (المعجم) تجد أغلبها في وصف أدوات الكتابة، أو الجوّاري والغلمان، أو المكاتب بالأشعار، وغير ذلك من المظاهر.

معولاً عليها في العدد الأقل من تراجم الشعراء المحدثين، في ضوء ما تقدم عن نمطها الغالب.

ويعد العامل المذهبي من أكثر ما يدفع إلى الخروج في نمط المقاربة الفنية لدى الترجمة للمحدث، بل إنه أعاق أحياناً أخذ بعض الشعراء مستحقهم من التناول الفني شأن غيرهم. ويلى هذا العامل الحوادث الشخصية، وكون المترجم له شخصية سياسية، أو على علاقة بها⁽¹⁾.

والفئة الأولى التي ستكون محط التناول هي تراجم: «أبي عيينة محمد بن أبي عيينة، وعلي بن الجهم، وعلي بن يحيى المنجم، وكثوم العتابي، ومروان بن أبي الجنوب، ومروان بن أبي حفصة».

ويمكن ملاحظة العودة إلى النمط التاريخي في التراجم السابقة في ترجمة مروان بن أبي حفصة؛ إذ سيطر فيها المضمون التاريخي على غرار ما كان واضحاً في تراجم القدماء. ويمكن أن يلاحظ شئ من ذلك في الاستطراد التاريخي، الذي شهدته ترجمة علي بن الجهم. ثم في تلازم الحكم على الشاعر مع النزاع المذهبي في ترجمة مروان بن أبي الجنوب⁽²⁾.

(1) انظر العامل المذهبي في ذكر الطالبين في ثلاث تراجم المعجم ص 380-381-382. وانظر الحوادث الشخصية، كسجن «محمد بن معروف البغدادي» المعجم ص 366، ونكبة عبد الملك الزيات ص 365، وكون المترجم له شخصية سياسية في الترجمة للخليفة «المعتصم» المعجم ص 364، وكون المترجم له على علاقة بالشخصيات السياسية في ترجمة أبي نعامه الدقيقي المعجم ص 395، الذي خصص شعره لهجاء العسكر ورؤساء الدولة. علماً أن الإشارات الست السابقة تمثل ستاً من التراجم العشر التي نوه باستثنائها من الشريحة المشار إليها.

(2) انظر إلى التداعي التاريخي في ربط انحراف علي بن الجهم عن نهج آل البيت بخبر تاريخي قديم عن أسلاف ابن الجهم الذين كان لهم موقف مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فهذا الاستطراد جاء به ليسوغ به انحراف الشاعر وإكثار الشعراء في هجائه للمسوغ ذاته، المعجم ص 140. وقريب من ذلك ما قاله عن ابن أبي الجنوب: «سلك سبيل جده في الطعن على آل علي بن أبي طالب مع قلة حظه من جيد الشعر» المعجم ص 321. أما مروان ابن أبي حفصة فيتضح ذلك من طعنه في نسبه وخلقته بما قيل عن

وبالنظر إلى ما ذكره المرزباني عن الشعراء الثلاثة من الانحراف المذهبي، وهو ما يجمع بينهم، ندرك أن ذلك كان العامل الذي أثر عليه ليعود إلى النهج التاريخي في تراجمهم؛ إذ أدى ذلك بالمرزباني إلى التوقف عند الجوانب التاريخية للشعراء الثلاثة أكثر من التوقف عند جوانبهم الفنية.

والملاحظ على المرزباني مع هؤلاء الشعراء، أنه لم يترث إزاء الجوانب الشعرية لدى كل منهم، على الرغم مما يشير إلى وضوحها لديه في إشارات القليلة عن جوانبهم الفنية. مفضلاً الانصراف إلى الجوانب التاريخية عندهم. وذلك ما يؤكد وقوفه - كما سيبدو - عند شاعر أقل شهرة منهم كأبي عيينة، أو أقل أهمية في الشعر، كابن المنجم. أما الجوانب الفنية التي ذكرت في تراجم الشعراء الثلاثة، فهي تقتصر على وصف ابن أبي حفصة بـ «الشاعر المفلق»، وأن الخلفاء كانوا يقدمونه⁽¹⁾. وقلة حظ ابن أبي الجنوب من الشعر الجيد، وأنه: «كان من المرزوقين بالشعر مع تخلفه فيه»⁽²⁾، ولعل أكثر ما ذكر في هذا الصدد وصفه لعلي بن الجهم بأنه: «شاعر مطبوع عذب الألفاظ، سهل الكلام، مقتدر على الشعر»⁽³⁾.

على أن ضم الأوصاف السابقة إلى ما ورد بالتراجم الثلاث الأخرى فيه بيان للشوط الذي خطته الترجمة في مسيرتها، لتصل إلى مستوى أفضل في التركيز على السمات الأدبية إجمالاً، والشعرية خصوصاً.

إذ يمكن استظهار التركيز على الجانب الفني فيما يخص تعريف الشاعر المحدث، من الأوصاف التي توجي بمعايير الشعرية لديه. فالطبع والبعد عن التكلف من السمات المرغوبة في الشاعر المحدث، ومن ثم هي مما يوليه المرزباني أفضلية عند النظر إلى هذا

انتسابه لليهود، وأنه «شيخ متدان يُسْتَبَشَعُ منظره»، كما أن مذهبه في العدول عن أهل البيت مشهور متعارف. المعجم ص 317 - 318.

(1) المعجم ص 317.

(2) المعجم ص 322.

(3) المعجم ص 140.

الشعر. يضاف إلى ذلك المقدرة التي يظهرها الشاعر في تنوع الأغراض التي يطرقها. فقد وصف بهذه السمات شعر علي بن الجهم، وابن أبي عيينة. كما سيبدو من ضمن مميزات مسلم بن الوليد عند تناول الفئة الثانية من تراجم المحدثين.

كما يتضح من التوقف الخاص عند بعض الشعراء المحدثين، كابن أبي عيينة⁽¹⁾ على وجه الخصوص - حين أشاد بميزات شعره، واختار له من النماذج ما يكرسها، ويّين إلى ذلك اقتداره على طرق الأغراض المتنوعة - أنه كان يريد إلى جانب تعريف بعض الشعراء المحدثين، لفت الأنظار إلى غير المشهورين منهم. وهو في ذلك يسلك سبيل ابن المعتز، حين كان يقف عند بعض الشعراء الذين لم ينالوا مستحقهم من الذيوع والانتشار على الرغم من جودة أشعارهم.

ويظهر التركيز على الجانب الفني في مقاربتيه لكل من ابن المنجم وكلثوم العتابي؛ إذ لا يبدو توقف الترجمة عند القيمة الشعرية فحسب. بل توسيع ذلك إلى قيمة أشمل هي الأدبية. وذلك باهتمامه بجانبين عند كليهما. تحدث في الأول منهما لدى ابن المنجم عن مكانته الذاتية، في كونه أديباً، وشاعراً، وملماً بعلوم العرب والعجم؛ مما بوأه مكانة عند الخلفاء، وجعل عدداً من الشعراء يرثونه في مقدمتهم ابن المعتز⁽²⁾. وفي ثاني الجانبين عن ابن المنجم تناول أدبية بيته⁽³⁾. وفي مقاربته للعتابي كان حديثه عن موهبتيه المجتمعيتين في الشعر والكتابة مشرّكاً إياه في الأثر العرقي للأدبية مع سابقه؛ لكونه ينزع إلى جده عمرو بن كلثوم لأنه من ولده⁽⁴⁾.

وبهذا فالتراجم السابقة بما حوته في مجمل مضامينها تدل على مقدار التخفف من المادة التاريخية بصفقتها مصدراً أساسياً يعول عليه مضمون الترجمة، كما كان متبعاً في تراجم القدماء. وأن الترجمة للمحدث أخذت تسلك طرقاً أخرى غير الأخبار

(1) المعجم ترجمته ص 109-111.

(2) المعجم ص 142.

(3) حين قال: «وهو وأهله وولده في البيت الخطير من الدين والأدب والشعر والفضل، لا أعلم بيتاً اتصل فيه من هذه الأنواع الشريفة ما اتصل لهم وفيهم» المعجم ص 142.

(4) المعجم ص 244.

التاريخية؛ حتى وإن كان الجانب الشعري لدى المعنى بالترجمة غير بارز، أو أن الجانب الشعري عنده تنازعه ميزات أخرى. ويظهر أن أكثر أسباب الانصراف عن المادة التاريخية في تراجم المحدثين يرجع إلى وفرة المادة النقدية الفنية حول تجاربهم؛ إذ بدا من التتبع السابق لنمطي الترجمة أن التركيز على الجانب الفني كان يأخذ في التناهي مع تأخر الشاعر المترجم له في الزمن. فالجوانب الفنية الموصوفة لدى الشعراء الإسلاميين أغنى من سابقتها لدى الجاهليين. أما مع المحدثين، فلا يظهر الجانب التاريخي في تراجمهم، إلا لأسباب محددة كما في الفئة السابقة.

وفي الفئة الثانية من تراجم المحدثين تظهر سيطرة نمط المقاربة الفنية على أغلب محاور الترجمة، وأنها أخذت تميل إلى التفصيل والتعليل في وصف الجانب الشعري لدى الشاعر. على نحو ما بدا في تراجم «أبي الشمقمق»، و«مسلم بن الوليد»، و«أبي العتاهية» ويبلغ مداه في ترجمة «ابن الرومي».

فترجمة أبي الشمقمق التي تمثل رأي المرزباني في التجارب التي لا تنطوي على شعر جيد، لا يكتفي فيها بإجمال رأيه من خلال العبارة الواحدة على نحو: «كان غير جيد الشعر على إكثاره فيه». وإنما قام بتعليل هذا الحكم وتفصيله. فوضح أنه: «هجا كثيراً من متقدمي زمانه منهم: بشار، وأبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة، وأبو نواس، وبكر بن النطاح، وأبو حنشل خضير بن قيس. وهجا يحيى بن خالد البرمكي، وفرجاً الرجخي، وجماعة من كبار أسباب السلطان وقواده»⁽¹⁾. ليتوصل بعد هذا التفصيل إلى بيان السبب في عدم جودة شعره، على الرغم من كثرة من هجاهم من الشعراء والشخصيات. لأن ذلك إنما يرجع إلى سببين هما أن: ألفاظه أكثرها ضعيف، وأنه ربما ندر له البيت⁽²⁾.

وفي ترجمة مسلم بن الوليد نجده يضيف إلى وصفه بالصفة المتكررة «شاعر مفلق»⁽³⁾

(1) المعجم ص 319.

(2) المعجم ص 319.

(3) المعجم ص 319.

ما يجعل منها وصفا خاصا به حين أتبعها بما يفهم تميز «مسلم»؛ فهو: «مستخرج لللطيف المعاني بجلو الألفاظ». منوهاً بالدور الذي أثر به على الشعراء المحدثين من بعده في استخدام البديع قائلاً عنه في ذلك⁽¹⁾: «أول من استخدم البديع، وأكثر منه وتبعه الشعراء فيه». وفي وصفه للملخص التجربة الفنية لأبي العتاهية تركيز على أبرز مظاهر تجربته الفنية⁽²⁾.

وحين نصل إلى ترجمته لابن الرومي يكون المرزباني قد وضع أيدينا على حقيقة هذا النمط، وتجليه في أنموذج تكثفت فيه الوقفات الفنية، التي توزعتها التراجم السابقة؛ إذ ركز من خلاله على الوصف الفني الذي يلخص بإيجاز أهم المعالم التي تميز بها هذا الشاعر.

ومن أول الدلالات التي يثمرها ذلك الملخص أنه طبق فيه على نحو عملي قيمة الإفادة من المعرفة بحياة الشاعر وانعكاسها في شعره. من خلال ما أورده عن الحالة النفسية لابن الرومي، وعلته السوداوية التي قد يكون بسببها تقلبه وتغيره، ورجوعه إلى هجاء كل من مدحهم من رؤساء عصره⁽³⁾.

وتبدأ ترجمة المرزباني لابن الرومي بذكر مميزاته ومكانته على وجه الإجمال، فهو «أشعر أهل زمانه بعد البحتري، وأكثرهم شعراً، وأحسنهم أوصافاً، وأبلغهم هجاء، وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه»⁽⁴⁾.

غير أن هذه الأوصاف وإن بدت أقل إجمالاً من أوصاف مكانته، إلا أنها لا تمثل خصوصيات ابن الرومي. فشرع في التفصيل على نحو أخص. متلمساً جوانب تميزه في

(1) المعجم ص 319.

(2) سنقف مفصلاً عند أخبار أبي العتاهية، في المبحث الثاني من الفصل الرابع بهذا البحث.

(3) قال المرزباني في ذلك: «ولا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس ومرؤوس، إلا وعاد عليه فهجاه ممن أحسن إليه أم قصر في ثوابه، فلذلك قلت فائدته من قول الشعر، وتحاماه الرؤساء وكان سبباً لوفاته. وكانت به علة سوداوية ربما تحركت عليه فغيرت منه». المعجم ص 145.

(4) المعجم ص 145.

الشكل، والألفاظ والمعاني، والأغراض. فذكر أنه إلى تلك المميزات: «يركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره، ويلزم نفسه ما لا يلزمه». أما الألفاظ والمعاني فإنه «يخلط كلامه بألفاظ منطقية يجعل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف، وأعذب لفظ». وفي الأغراض الشعرية لديه توقف عند غرض الهجاء الذي عده فيه «مقدم لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره غزارة قول، وخبث منطق»⁽¹⁾.

وتأتي وقفة المرزباني الأخيرة عند الخاصية الغرضية التي اعتمد فيها على الصولي⁽²⁾ في إبراز معنى الوطن الذي تميز فيه ابن الرومي على سابقه ممن تطرقوا له؛ فقد «أكثر الشعراء في ذكر الأوطان ومحبتها والشوق إليها، فجاء ابن الرومي مع قرب عهده فذكر الوطن وبين العلة التي لها يحب، وزاد عليهم أجمعين وجمع ما فرقوه في أبيات من قصيدة يخاطب بها سليمان بن عبد الله بن طاهر، وقد أريد على بيع منزله فقال: [الطويل]

ولي وطن آليت ألا أبيعـه	وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
وقد ألفتـه النفس حتى كأنه	لها جسد إن غاب غودرت هالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم	مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكـرتهم	عهدود الصبا فيها فحنوا لذلك
وله في معناه: [الكامل]	

بلد صحبت به الشبية والصبا	ولبت ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيتـه	وعليه أغصان الشباب تميد» ⁽³⁾

(1) الأوصاف السابقة في المعجم ص 146.

(2) انظر أخبار أبي تمام للصولي، تحقيق، محمود عساكر وآخرين، دار الآفاق الجديدة، بيروت. ص 23.

(3) المعجم ص 146.

إن الوصف السابق لشعر ابن الرومي يدل على مستوى ما وصلت إليه الترجمة من تركيز على الجانب الفني لدى الشاعر حين توجه عناصرها إليه، وعلى مقدار ما يجنيه التخلص من الأخبار المرتبطة بالوقائع التاريخية. وأن اللجوء إلى تلك الأخبار يحدث عندما تقل المادة الفنية عن الشاعر. وهو ما أثبتته المرزباني في الملخص الفني لشعر ابن الرومي، وفي الجوانب التي سبق التنويه بها في مواضعها، بدءاً بظهور بوادر الانفتاح في النمط التاريخي ذاته في تراجم الإسلاميين، مروراً بازدياد الاهتمام بها في تراجم المحدثين، وصولاً إلى ما تجلت عليه من مقارنة فنية في الترجمة السابقة. وأتت الوقفة الأخيرة بهذه الترجمة لتدل على أن الاهتمام بالكليات الفنية في شعر ابن الرومي انبنى على الاهتمام أيضاً بالجزئيات، كجزئية معنى الوطن لدى ابن الرومي.

وحين نخرج عن سياق الترجمة الموجزة في المعجم ونهجها نجد - زيادة على اهتمام المرزباني بهذه الجزئيات المتمثلة في تميز الشعراء في المعاني - ملحوظات تكشف من جهة عن جانب من شخصية المرزباني النقدية المستقلة، ومن جهة أخرى عما ينطوي عليه عمل المؤرخ القديم من إلمام أولاً بتجارب الشعراء في مناحيها الخاصة بكل شاعر؛ الأمر الذي يساعده تالياً في التأريخ المجمل للشعر والشعراء في ضوء ذلك الإلمام. ومن أمثلة هذه الملحوظات ما كان يظهره على هيئة تعليقات بين الفينة والأخرى في كتاب الموشح⁽¹⁾.

(1) من هذه التعليقات المتعلقة بفروق تناول المعنى الواحد بين مجموعة من الشعراء: ما ذكره عن الليل في أخبار امرئ القيس بـ الموشح ص (38-42). أما تلمس الفروق بين الشعراء في الغرض الواحد فمثاله تفريقه بين غرض الهجاء عند كل من البحري وابن الرومي، والتدقيق في خاصية مشتركة بينهما، تتمثل في العودة بعد مدح الرؤساء إلى هجائهم، وكيف أن ذاك سجية تعود لطبع ابن الرومي الموشح ص 414، وأنه لدى البحري ناجم عن خبث طوية، وسوء عشرة، ملاحظاً على البحري أنه: «نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم إلى مدح غيرهم، وأمات أسماء من مدحه أولاً. مع سعة ذرعه بقول الشعر، واقتداره على التوسع فيه» الموشح ص 415.

المحور الثالث

الكتابة الإخبارية الموسعة عن الشعراء، ملامحها ونهجها التاريخي

تُمْكِّنُ طبيعة كتاب المعجم ذي التراجم المختصرة من أخذ تصور مجمل عن حضور الشعر والشعراء في مختلف عصور التاريخ. كما تمكن من أخذ تصور مماثل لنهج الكتابة الموجزة في تعريف الشعراء. لكنها لا تمكن في الوقت ذاته من الخروج بتصور عن الملامح التاريخية في كتابات المرزباني الموسعة عن الشعراء. وفي غياب كتبه المختصة بإضاءة هذا الجانب المهم من تأريخه للشعر، وقيام الحاجة إلى استقراءه وجب فحص بعض الكتابات القليلة المتبقية من نهج كتابته الموسعة عن الشعراء، وبعض القرائن التي من شأن القياس عليها، أن يوقف الباحث على أهم الملامح لما كان ينهجه لدى كتابته الموسعة عن الشعراء.

وأول الملامح التي يمكن ملاحظتها في هذا الصدد اهتمامه بتحديد الفترة التاريخية التي عاشها الشاعر. وتأتي أهمية هذا الملمح من أنه يترتب عليه النظر إلى كل ما ينسب للشاعر من مادة إخبارية، أو شعرية. إذ لم يكتف المرزباني بالإطار الذي يقع ما بين سنتي الولادة والوفاة⁽¹⁾؛ وإنما بالثبوت فيما يتخلل ذلك التاريخ من قرائن وجوده الفعلي. إذ لا يكفي وجوده في فترة ما للقبول بكل ما يعزى إليه فيها من الأخبار.

وفيما مضى من تعاريف الشعراء الموجزة بدا اهتمام المرزباني بالربط بين الشاعر والحدث التاريخي، خصوصاً في تراجم النمط التاريخي. وبما أن الوقائع التاريخية مؤقتة في الغالب بفترات محدودة زمنياً، فقد عضد ذلك المحدد بآخر يتسم بكونه

(1) ذكر المرزباني عدداً من تواريخ الولادة والوفاة لمن ترجم لهم منهم - على سبيل المثال «الفرزدق» المعجم ص 466. و«ابن الرومي»، المعجم ص 145. علماً أنه لم يقتصر على ذكر التاريخ فحسب، وإنما أردف ذلك بقرائن كبعض المتوفين مع الشاعر. وتفاصيل أخرى كسبب الوفاة ومكانها وموضع الدفن.

أطول زمناً. فكان اعتماده في التحقيب السياسي على ربط الشعراء بمن عاصروا من رموز السلطة السياسية، إما بنسبة الشاعر مباشرة إلى الخليفة، وإما بذكر الخلفاء الذين عاصروهم الشاعر⁽¹⁾.

كما سعى إلى ذلك من طريق آخر هو ما أثبتته من أخبار معاصرة الشعراء للعلماء، وقد مرت شواهد عدة بينت أهمية المعاصرة بين طرفي الوسط الأدبي في التثبيت من أخبار حقبة شعرية كاملة⁽²⁾، ناهيك عما تنطوي عليه من أهمية توثيقها لأخبار الشاعر منفرداً. ولا يخفى ما بهذه الوسائل مجتمعة من قيمة تتضافر فيها القرائن لتؤكد الوجود الفعلي للشاعر في فترات مختلفة من حياته.

وحين ينظر - على سبيل المثال - إلى المحدد السياسي بصفته وسيلة يعول عليها لدى التأريخ لأخبار الشاعر يظهر أن إفادته من هذا العامل تكمن في استخدامه بعدا للتثبيت من بعض ما ينسب إلى الشاعر، ثم الخروج منه بإحدى المراحل التي تكوّن حياته. فمثال التثبيت من بعض ما نسب إلى الشاعر ما نفاه من مادة نسبت إلى الفرزدق بناء على اليقين التاريخي. إذ شكك المرزباني في الأخبار المنسوبة إلى الفرزدق مع الخلفاء الأمويين قبل سليمان بن عبد الملك⁽³⁾.

أما الإفادة من المحدد السياسي، بجعله إحدى المراحل في حياة الشاعر، فذلك ما

(1) انظر نشوار المحاضرة للمحسن التنوخي 47/6 (تحقيق، عبود الشالجي، دار صادر بيروت 1971-1973) ما نقله عن المرزباني في ترجمة «الحسين بن الضحاك الشاعر» أنه «اتصل له من مجالسة الخلفاء ما لم يتصل لأحد، إلا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فإنه قاربه في ذلك أو ساواه، صحب الحسين الأمين سنة ثمان وثمانين ومئة، ولم يزل مع الخلفاء بعده إلى أيام المستعين». وانظر في الصدد ذاته ما نقله «الصفدي» في الوافي بالوفيات 15/302-303، عن المرزباني في ترجمة «سلم بن عمرو الخاسر» أنه مدح معن بن زائدة أيام المنصور، ومدح المهدي، والهادي، وخص بالرشيد، وانظر ما نقله صاحب بغية الطلب 4/1757، عن المرزباني في أخبار أبي العتاهية أن له أخباراً مع كل من المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون.

(2) انظر: مبحث الأبعاد السيرية: (علاقات العلماء بالشعراء).

(3) انظر تعليق المرزباني على خبر ورد فيه ذكر الفرزدق، حيث بين أن ذكره في ذلك الموضع غلط؛ لأن الفرزدق لم يثبت أنه دخل على خليفة قبل سليمان بن عبد الملك)، الموشع ص 220.

يبدو في (أخبار ليلي الأخيلية) حين أورد أخبارها مع الحجاج بن يوسف وجعل منها قسماً في ترجمتها⁽¹⁾، وما ذكر عن أخبار أبي العتاهية مع الخلفاء التي تبقى منها أخباره مع المهدي والرشد⁽²⁾. ويعزز ذلك عشرات الأخبار التي وردت في ترجمة الأصمعي عن أخباره مع الرشيد، مما يدل على ما تأخذه هذه المادة من حيز في تراجم المرزباني⁽³⁾. ومن الملامح التاريخية التي أخذ بها المرزباني في كتاباته الموسعة عن الشعراء ما كان يقوم به من تتبع لحياة الشاعر في مراحلها الزمنية المختلفة. بل إن اهتمامه بالشاعر لا يبدأ بأخباره منذ ولادته، وإنما يسبق ذلك إلى الأخبار المتعلقة بجذوره. ولا يخفى ما في هذا الملمح من سريان طبيعة التاريخ في عمله. ويدل على مفعول هذه الطبيعة خروجه عن الشرط المعجمي الملزم به في كتاب معجم الشعراء؛ إذ يجد القارئ في هذا الكتاب أن التبويب التاريخي يفرض نفسه على الترتيب الداخلي للأسماء ضمن الحرف الواحد. فالشعراء يتتابعون بحسب حقبة الزمنية من الجاهلية إلى المحدث⁽⁴⁾.

(1) وردت ثلاثة أقسام من ترجمة ليلي في كتاب أشعار النساء بدأت بـ «أخبارها مع النابغة الجعدي»، ص 25، و«أخبار ليلي مجموعة» ص 44، و«أخبار ليلي مع الحجاج بن يوسف وذلك في آخر عمرها»، ص 48. (2) انظر بغية الطلب 4/ 1758-1759 أخباره مع المهدي، وقريباً من عشر صفحات في أخباره مع الرشيد 4/ 1769-1777.

(3) أكثر من نصف ما ورد في نور القبس من أخبار الأصمعي بعامة تمثل أخباره مع الرشيد. انظر من ترجمته تحديداً ص 129 - 167.

(4) المقصود بالترتيب الداخلي هنا هو ترتيب أصحاب التراجم الذين تشترك أسماؤهم في الاسم ذاته، كعمرو، وعلي. فهذان الاسمان يقعان في حرف العين. لكن ترتيب التراجم فيمن اسمه عمرو ورد بحسب الحقب الزمنية فيبدأ بمن اسمه عمرو من الجاهليين، ثم من اسمه عمرو من المخضرمين، فالإسلاميين وصولاً إلى المحدثين. وهكذا الترتيب في معظم الأسماء، ولاسيما الأسماء التي يكثر التسمي بها، كعمرو، وعلي، وكذلك محمد. فالمفترض أن ترتب أسماء الشعراء بحسب الترتيب المعجمي لأسماء الآباء فالأجداد، خصوصاً أن المرزباني قد التزم بالترتيب المعجمي الخارجي حين بنى كتابه على ثمانية وعشرين قسماً هي الأحرف الهجائية. لكنه خرج عن ذلك الشرط على النحو المشار إليه. أضف إلى ذلك خروجه أيضاً لدى ترتيب الأسماء معجماً ضمن الحرف الواحد؛ إذ نجد بعد «عمرو» «عصم وعصام». ولعل هذا الخروج فيه عمل بالذائع من الأسماء.

وتأكيداً على الملمح التاريخي - الذي سار فيه المرزباني بتراجمه الموسعة متنبها لاختلاف المراحل الزمنية في الترجمة - تبرز عاداته في البدء بالمرحلة التي تسبق ولادة الشاعر؛ إذ كان يخصص جزءاً في الترجمة لأسلاف الشاعر، وسبقت الإشارة إلى ترجمتين بدا فيهما اهتمامه بأسلاف المترجم له القريبين أو الغابرين. ومما يعزز اهتمامه بهذه المرحلة لدى التوسع في تراجم الشعراء ما يمكن أن نستدل عليه في الحيز الكبير الذي شغلته المرحلة ذاتها من تعريف الفرزدق الموجز في المعجم قياساً على سمة اختصار التراجم فيه⁽¹⁾.

ويمكن أن يرى في التنويه بالأخبار التي تقع في أول حياة الشاعر زمن صباه أو شبابه وكذلك آخر عمره ما يجلي اهتمامه ببيان مراحل حياة الشاعر المختلفة زمنًا. فقد توقف عند أخبار أبي العتاهية في صباه قبل انتقاله من الكوفة إلى بغداد⁽²⁾، ومثل ذلك في أخبار عن السيد الحميري⁽³⁾، ورؤبة بن العجاج⁽⁴⁾، كما نوه بأول شعر قاله «العتبي»⁽⁵⁾، وروى للسجستاني أبيات غزل مما قاله في شبابه⁽⁶⁾.

ويقابل مرحلة الصبا والشباب في أخبار الشاعر المرحلة التي تقع في آخر عمره. فهو ما نص عليه في أخبار «الليلى الأخيلية» حين حمل عنواناً قسم أخبارها مع الحجاج

(1) جاءت ترجمة الفرزدق في المعجم قريباً من ثلاث صفحات (465-468) خص منها صفحة أو تزيد للترجمة لأبيه وجده ومآثرهما وبعض أخبارهما. وحين نعلم أن المرزباني قد يترجم غالباً لما بين ثلاثة أسماء إلى خمسة في الصفحة الواحدة ندرك أهمية تخصيص صفحة كاملة في كتاب المعجم للمرحلة التي تسبق أخبار حياة الفرزدق، ومثل ذلك ما يقارب عشرين خبراً في أول ترجمة الأصمعي بالمختار.

(2) وضعه بين إخوته الستة، ونصيحة أمه له بالسفر طلباً للمعاش. انظر بغية الطلب ص 4 / 1759.

(3) مضايقة أبويه الناصبيين له في صباه، أخبار شعراء الشيعة، أخبار السيد الحميري، ص 153-154.

(4) كان يرعى الغنم لأبيه في صغره، ثم تزوج أبوه بامرأة أخرى وأنجب منها أولاداً، وحاول أن يقسم بينهم الإبل دون رؤبة، فزجره أبوه وكانت هذه القصة سبباً إلى قوله في الرجز. بغية الطلب 8 / 3707.

(5) انظر نور القبس ص 191.

(6) ورد في المختار أن شخصاً أنشد السجستاني بيتاً من شعره الغزلي، وسأله عن ذلك الشعر فقال: «ذلك يكون مع أدنى العقود أما أعاليها فلا». المختار ص 7 أ. والمقصود بأدنى العقود: الشباب، وأعاليها: الشيب.

توضيحه في العنوان ذاته: «وذلك في آخر عمرها»⁽¹⁾. وكذا أخباره عن أوصاف الشعراء بآخر حياتهم كرؤية، وأبي العتاهية⁽²⁾؛ فهي أخبار مجتزأة من بقية الأخبار التي تقع في هذه المرحلة.

ومما يأتي في هذه المرحلة ما كان يختتم به تراجمه للعلماء في المقتبس من الوقوف على أخبار العالم في آخر حياته. فهذا الاهتمام يمكن أن نقيس عليه مثيله لدى الكتابة الموسعة عن الشعراء؛ خصوصاً مع وجود عدة إشارات إلى ذلك تضمنتها تراجم العلماء، أو التراجم الموجزة في المعجم⁽³⁾.

إن في الإشارات إلى هذه المرحلة من حياة الشاعر وسابقتها - زيادة على ما يمكن النظر إليه من المضامين التي أُلّف فيها المرزباني، مما يتعلق بالمراحل العمرية المختلفة، ولا سيما كتابيه: الشيب والشباب، والمحتضرين - ما يدل على قيمة تنبه المرزباني لهذا الملح التاريخي فيما يمكن أن ينبني عليه من تناول واختلاف النظر للأخبار عندما تعلم المرحلة الزمنية التي تمثلها⁽⁴⁾.

(1) انظر الصورة الثانية لمخطوط كتاب أشعار النساء المرفقة في نهايته ص 214 التي تؤكد أن المرزباني نص على تحديد المرحلة العمرية في الأصل.

(2) مثال ما ورد من ذلك في تراجم العلماء خير احتضار الفرزدق في ترجمة «أبي عمرو» المختار ص 188 ب 189 أ. ومثال ذلك في المعجم ص 195 تعمير النابغة الجعدي في الجاهلية والإسلام، وكف بصره في آخر حياته، وعجز عدي بن حاتم الطائي في آخر حياته لدى مواجهته المختار بن عبيد، المختار ص 84، ناهيك عما كثرت إشارته إليه من وفاة الشعراء وأسبابها ومواقعها؛ كتاريخ وفاة «ابن الرومي» وتفصيل موضع دفنه وسبب وفاته في السابق ص 145، ومثل ذلك وفاة وموضع دفن أبي العتاهية. بغية الطلب 4 / 1757. والأعشى، وطرفة، وعدي بن زيد، ومالك بن نويرة وغيرهم في تراجمهم بكتاب المعجم.

(3) ذكر عن رؤية في خبر: أنه رؤي أسلع ليس في رأسه شعر إلا حفاف، وليس في فمه إلا ناب قد تقلقل. انظر بغية الطلب 8 / 3702. وذكر في خبر آخر قول أبي عمرو بن العلاء عنه بأنه «حي كميث قد ذهب مطعمه، ومشربه، ونكاحه». بغية الطلب 8 / 3705. وذكر عن أبي العتاهية خضاب شعره بالحناء آخر عمره بغية الطلب 4 / 1757، إلى جانب أن كل أخبار أبي العتاهية المتعلقة بالزهد هي مما كان في آخر حياته، كما نص المرزباني على ذلك بغية الطلب 4 / 1757.

(4) يمكن أن يختلف النظر إلى الخبر المعزى إلى الشاعر وتقديره بناء على اختلاف المرحلة العمرية التي

أما أهم الجوانب التاريخية في كتابات المرزباني الموسعة عن الشعراء فهو نهج الكتابة ذاتها، التي تميز بها مؤرخو القرن الرابع الهجري عن سابقهم من مؤرخي الشعر. حيث أسهم المرزباني إلى جانب أبي الفرج الأصفهاني في إرساء دعائم الكتابة التاريخية عن الشعراء، في تراجم مطولة تتسم بغنى في تفاصيلها، واستقصاء كافة ما يمكن أن تحتمله أخبار المترجم له، مع الإضفاء على أسلوب الأخبار طابع السرد القصصي، والجنوح إلى المرويات الإخبارية المطولة، التي تعتمد على النوادر من الأخبار، كأخبار العشق والمتممين، أو الأحداث التي يبدو بعضها غريباً أحياناً، أو مبالغاً فيه، وما إلى ذلك.

وفي المبحث الثاني من هذا الفصل إشارة إلى أثر هذا النهج على تنوع الأخبار وثرها مدلولاتها من خلال ما استوعبه مفهوم «الأخبار» الخاص بمؤرخي هذا القرن؛ إذ ساعد على تتبع المناحي المختلفة للحياة الثقافية والاجتماعية ضمن سياق الاهتمام بحياة العلم المترجم له ومحيطيه الاجتماعي والأدبي.

وقد لمح هذا الأسلوب في معرض البحث عن الجذور التاريخية للنقد «حميد حمداني»⁽¹⁾ من خلال حديثه عن الميزة الأولى التي يتصف بها كتاب الأغاني. كما تنبه أركون⁽²⁾ إلى إحدى سمات ذلك النهج، في إشارته لاستخدام أسلوب القص لدى

وقع فيها الخبر. وسنرى هذه القيمة وأهمية تحديد الزمن لدى الإخبار عن الشاعر في الفصل الأخير من هذا البحث؛ إذ تنعكس الأخبار المتعلقة بالزهد في آخر حياة أبي العتاهية على مجمل أخباره. وفي هذا الموضع بحسبنا الإشارة إلى المادة الإخبارية والشعرية التي وردت في أخبار السيد الحميري وما ينبئ عنه الاهتمام بها من محاولة التدليل على مدى الالتزام المذهبي لديه، وأن ذلك الالتزام قد كان لديه منذ زمن الصبا، علماً أن شهرة الميل المذهبي ليست بحاجة - ولا سيما لدى السيد الحميري - إلى هذا الذهاب البعيد في التدليل عليها. وتأمل في الشأن ذاته ما نخرج به من تقدير مضاعف لوفاء ليل الأخيالية لتوبة، خصوصاً أنه قد مات؛ إذ يزداد التقدير لأن دفاعها عنه كان في آخر حياتها، وفي مجلس الحجاج الذي ألحت روايات الأخبار على أن الحجاج أو أحد الرجال الحاضرين لديه تعمد سؤالها عن توبة، ليحرجها. أشعار النساء ص 48-50.

(1) انظر النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد حمداني، ص 73-74.

(2) انظر: نزعة الأنسنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح،

كتاب القرن الرابع، خصوصاً الأصفهاني، حين رأى في جنوحه إليه نوعاً من أساليب استمالة القراء إلى توجهاته المذهبية.

ويمثل هذا النهج خلاصة المزج بين نمطين من التأليف في تاريخ الشعر، سارا جنباً إلى جنب منذ بداية القرن الثالث. الأول منهما هو الذي وصل إلينا في كتب «ابن سلام»، و«ابن قتيبة»، و«ابن المعتز» مما كان معنياً بالتأريخ لكل الشعراء قدامى ومحدثين، أو بالتأريخ لحقبة شعرية كاملة. قديمة كانت، أم محدثة. في الوقت ذاته سار إلى جوار هذا النمط نمط آخر عني بالتأريخ للشعراء فرادى. لكن حظ هذا النمط من التداول والذيع لم يكن على المقدار الذي تحقق للأول. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ما يحققه الأول في الكتاب الواحد من وفرة في المادة التاريخية وأعداد الشعراء. مقابل ما يحتاج إليه المرء من جمع عشرات الكتب، التي لا يحتوي أحدها سوى على أخبار شاعر واحد ومختار من شعره.

وعند تتبع النمط الثاني الذي يهتم بأخبار الشعراء فرادى يظهر أن تناميته كان منذ بداية القرن الثالث الهجري مع «إسحاق بن إبراهيم الموصلي» (230هـ). فقد أورد «النديم» في الفهرست أسماء الكتب التي ألفها إسحاق في أخبار الشعراء، ومنها أخبار حسان بن ثابت، وأخبار ذي الرمة، وغير ذلك⁽¹⁾. وبعده «أحمد بن أبي طاهر» (280هـ)؛ إذ ألف مجموعة من الكتب في أخبار الشعراء وصل عددها إلى ما يقارب اثني عشر كتاباً⁽²⁾. ويدل هذا العدد على ما بلغه هذا النمط من الاهتمام بأخبار الشعراء وجمع مادتها، وأنه أصبح أحد المحاور الموضوعية الواضحة في تلك الفترة. وهو ما أبدى مقدار الحاجة إليه فيما بعد «أبو بكر محمد بن يحيى الصولي» (336هـ) من خلال ما ألفه في أخبار الشعراء. وما أبداه من ملاحظات على كثير من المتحليين

دار الساقى، بيروت 1997 ص 340.

(1) كأخبار: «الأحوص»، و«جميل»، و«كثير»، و«نصيب»، و«ابن هرمة»، الفهرست للنديم، ص 159-160.
(2) منها أخبار ومختار شعر كل من: «بكر النطاح»، و«دعبل»، و«مسلم»، و«العتابي»، و«منصور النمري»، و«أبي العتاهية»، و«بشار» وغيرهم. انظر الفهرست للنديم ص 164.

بالأدب في زمنه، في الرسالة التي وجهها إلى «مزاحم بن فاتك»⁽¹⁾؛ ليبين له فيها ما كان يقصده من التأليف في «أخبار أبي تمام».

ويبدو أن الصولي كان يزمع النهوض بهذا النمط من التأليف في التاريخ للشعراء. فقد ذكر له صاحب الفهرست عدداً من الكتب في هذا الصدد، عدا ما صنعه من أشعار المحدثين مرتبة على حروف المعجم⁽²⁾. وكان الصولي قد تناول نهج معاصريه ممن يتحلون بالأدب في رسالته تلك مقارناً بين ممارساتهم التي لا تتسم بأمانة النقل عن الآخرين، وأنهم يخوضون في كل العلوم دون تورع، أو تخصص. مع تشجيعهم على المحدثين عموماً، وأبي تمام بخاصة. أما سبب ذلك برأيه فيمكن في عدم وجود أساس يقيسون عليه أشعار المحدثين⁽³⁾.

ومن الواضح أن الصولي حاول في أخبار أبي تمام، أن يقدم لمعاصريه مثلاً لما كان ينشده في التصدي للتأليف عن الشعر والشعراء. إذ كشفت رسالته عن جوانب أخرى من مشروعه الذي لم يتمه، خصوصاً المتعلق منه بالشعراء القدامى، والأسباب التي أدت إلى توقفه عن إتمام ما كان قد شرع فيه⁽⁴⁾.

(1) وردت هذه الرسالة في صدر كتاب أخبار أبي تمام للصولي. ص 3-56.

(2) من كتبه في أخبار الشعراء ومختار أشعارهم ما ألفه عن: «ابن هرمة»، و«السيد الحميري»، و«سديف»، و«العباس بن الأحنف» وغير ذلك. أخبار أبي تمام للصولي ص 168.

(3) يقول الصولي عما حُكي عن بعض العلماء في اجتناب شعر أبي تمام وعيبه: «لأن أشعار الأوائل قد ذلت لهم، وكثرت لها روايتهم، ووجدوا أئمة قد ماشوها لهم، وراضوا معانيها. فهم يقرؤونها سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها، واستجادة جيدها، وعيب رديئها [...] ولم يجدوا في شعر المحدثين مذ عهد بشار أئمة كأئمتهم، ولا رواة كرواتهم الذين تجتمع فيهم شرائطهم، ولم يعرفوا ما كان يضبطه، ويقوم به، وقصروا فيه فجهلوه فعادوه» أخبار أبي تمام ص 14.

(4) تحدث الصولي عن ذلك في قوله: «وقد كنت عملت أخبار الفرزدق، فدخلت في ثلاثمائة ورقة، وشرطت فيها ألا آتي بحرف ذكر في النقائض، إلا ما لا بد منه، من ذكر نسبه وأزواجه وغير ذلك، مما لا يبلغ جميعه ثلاثين ورقة. وبدأت بالفرزدق وفي نيتي عمل أخبار جرير والأخطل بعده على الرسم الذي ذكرته [...]» وابتدأت في عمل أخبار جرير فبلغني أن قوما تضمنوا عملها على شريطي خلافاً عليّ وكيداً لي. فأمسكت

وبغض النظر عما يتضح في رسالته تلك من اعتداد بالنفس⁽¹⁾ فإن قرب أبي الفرج الأصفهاني وأبي عبيد الله المرزباني من شيخهما الصولي، وإدراكهما لما كان يعانيه آخر حياته، مما لم يمكنه من إتمام ما كان ينويه⁽²⁾، زيادة على معاشتهما عن كذب ما كان يدعو إليه من ضرورة وجود نوع من التأليف المختص في أخبار الشعراء. ذلك كله قد دفع كلاً من الأصفهاني والمرزباني في مطلع القرن الرابع إلى تلمس نهج من التأليف في تاريخ الشعر يفي بما كان يقوم به كل من نمطي التأليف السابقين. فيكون قادراً على العناية المفصلة بأخبار الشاعر في حد ذاته، وعلى تناوله في الوقت ذاته مجتمعة مع غيره من الشعراء. فظهر ذلك النهج من الكتابة الموسعة عن الشعراء التي جاءت في كتاب الأغاني للأصفهاني، وكتب المرزباني عن الشعراء المشهورين⁽³⁾، فكان نهجها محصلة الإفادة من مجمل الجهود التي سبقتها في التاريخ للشعر.

ولدى تلمس نهج الكتابة الموسعة عند المرزباني على اعتبار أنه موضوع هذا البحث من جهة، ومن جهة أخرى لتيسر الوصول إلي ذلك في كتاب الأغاني لاكتمال مادته، إلى جانب أننا سنتطرق إلى شيء من ذلك في الفصل الأخير من هذا البحث - فإن ما يمكن تلمسه من ملامح ذلك النهج في هذا الموضوع يتمثل أساساً في طول

عن إتمامها امتحاناً لصدقهم، فمات بعض، وبقي آخرون، ولم تعمل حتى الساعة» أخبار أبي تمام ص 14.
(1) انظر في هذا ما عرضه الناشران في مقدمتهما لـ أخبار أبي تمام ص (أ ه ي، أ ه ي). وانظر النص التالي، إذ يقول فيه: «وليس يجب - أعزك الله - أن تنظر إلى اختلاف الناس في أبي تمام، واضطراب روايتهم لشعره. فإنهم بعد إتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها، كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره، ثم قد اجتمعوا عليه بعد فراغي منه حتى إن النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم، قد كانت قبل ذاك تباع بعدها دنانير، ولعلها بعد قليل تفقد فلا ترى، وتسقط فلا تراء». أخبار أبي تمام ص (55-56).

(2) اضطرب الصولي للتخفي والخروج من بغداد في آخر حياته لروايته خبراً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر الفهرست ص 167. كما يبدو أن رسالته إلى «مزاحم بن فاتك» كانت في تلك الفترة لأنه ذكر فيها ما يعانيه من جور الزمان وجفاء السلطان وتغير الإخوان. انظر أخبار أبي تمام، ص 5.
(3) الموثق في أخبار الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمخضرمين، والمستنير في أخبار الشعراء المحدثين، وأشعار النساء. كما يمكن تلمسه في تراجمه للعلماء في كتاب المقتبس.

التراجم عما كانت عليه في كتب تأريخ الشعر السابقة. وفي الاعتماد على عدة أمور أبرزها: الإسهاب في ذكر التفاصيل، التي تبدو في ظاهرها من الأمور الشخصية ومما لا حاجة لذكره عن المترجم له؛ إذ لا يبدو فيها علاقة مباشرة بنتاج الشاعر أو العالم. ثم في الروايات المتعددة للخبر الواحد، وفي الجنوح إلى طابع القص والإتيان على الروايات المطولة من نواذر الأخبار وغريبها.

وعن الشواهد، التي من شأنها أن توحى بالسلمات السابقة فيما وصل من كتب المرزباني، نجد أن أبرز السلمات، وهي طول التراجم، تبدو جلية في كتاب المقتبس. وقد أشار محقق نور القبس إلى ما يتمتع به الأصل كتاب المقتبس من غنى، من خلال المقارنة التي عقدها بين ترجمة الأصمعي بكتابي نورالقبس والمختار⁽¹⁾.

وبالنظر إلى تراجم كل من: «أبي عمرو بن العلاء» و«الخليل بن أحمد» و«الأصمعي» في الكتابين يبدو المقدار الذي وصل إليه التوسع في الترجمة لدى المرزباني؛ إذ يمكن أن تعد هذه التراجم كتباً في حد ذاتها ضمن كتاب المقتبس⁽²⁾.

وحين تقاس صفحات كتاب المقتبس التي بلغت ثلاثة آلاف ورقة إلى مجموع صفحات كتابي: الموثق والمستنير للمرزباني في أخبار الشعراء المشهورين من القدامى والمحدثين نجدهما يشكّلان أكثر من خمسة أضعاف المقتبس⁽³⁾، مما يوحي بأن طول التراجم كان أبلغ في الترجمة للشعراء، خصوصاً أنه التزم بالترجمة للشعراء المشهورين دون المعمرين والمقلين في الكتابين المذكورين، وذلك يعني أن التوسع يعود أساساً إلى طول التراجم، لا إلى كثرة أعداد الشعراء.

(1) أورد محقق نور القبس «رودلف زلهام» ذلك في مقدمته ص 28.

(2) بلغت ترجمة الأصمعي أكثر من (خمسين) صفحة في نور القبس و(ثلاثاً وثلاثين) ورقة في المختار، وترجمة الخليل (ست عشرة) صفحة في نور القبس، و(اثنين وثلاثين) ورقة في المختار. وترجمة أبي عمرو بن العلاء (اثنين عشرة) صفحة في نور القبس و(ثلاثاً وعشرين) ورقة في المختار.

(3) ذكر ذلك العدد في غير مصدر لدى المترجمين الذين أوردوا ثبت مؤلفات المرزباني، وانظر أعداد صفحات الكتب الثلاثة مجتمعة في إنباه الرواة 3/ 182.

ونستطيع أن نستدل على ذلك بما وجدناه من مادتين متبقيتين من الأخبار المفصلة عن كل من رؤية بن العجاج، وأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم. فأخبار الأول تمثل شريحة من كتابات المرزباني في الموثق عن الشعراء القدامى، وأخبار الثاني تمثل شريحة من كتاب المستنير عن الشعراء المحدثين. وفي ضوء مقدار المادة الإخبارية عن الشاعرين التي نقلها صاحب كتاب بغية الطلب عن المرزباني، مما بلغ مجموعه عن كل شاعر عشرين خيراً أو أكثر نستنتج طول التراجع في الكتابين، ناهيك عن أن المادة الأصلية كانت أكثر بكثير مما اكتفى بنقله صاحب بغية الطلب؛ إذ يدل على ذلك ما نجده من أخبار أخرى لم ينقلها من أخبار المرزباني عن الشاعرين مما ورد في مواضع أخرى من كتابي: الموشح، والمقتبس.

فمن النقص الحاصل في ترجمة رؤية أخباره مع يونس بن حبيب التي ذكر عدد منها في ترجمته ليونس في المقتبس، وأثبتها صاحب المختار⁽¹⁾. وكذلك أخباره في سياق ترجمة الأخفش في كتاب المختار⁽²⁾، ناهيك عما أورده عنه من مآخذ في كتاب الموشح⁽³⁾.

أما ما يدل على اختصاره ترجمة أبي العتاهية فهو أنه لم ينقل شيئاً من أخباره التي ذكرها المرزباني في الموشح⁽⁴⁾. فقد ابتداءً نقله عن المرزباني من المستنير أولاً، ثم عدل عنه إلى المعجم لينقل ملخص أخباره ووصف المرزباني لتجربة أبي العتاهية، ثم رجع إلى المستنير مرة ثالثة لينقل عنه عدداً من الأخبار الأخرى. ويأتي اعتماده على

-
- (1) لرؤية عدد من الأخبار مع يونس لأنه كان يحضر حلقة أثبتها صاحب المختار (ص 59 أب-60 أب) وقد تقدم ذكر أمثلة منها في هذا البحث، وهي أخبار لم ينقلها صاحب بغية الطلب عن المرزباني.
 - (2) كأخباره مع أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة للعباسيين؛ إذ لم يستقبله في الكوفة أو يمدحه أحد من الشعراء غير رؤية. انظر المختار ص 49 أب. وكذا خبره مع محمد بن القاسم الذي ذكره في مدحه إياه بصلة القرى بينهما. انظر المختار ص 45 أ.
 - (3) انظر الموشح ص 275-280، مع التنبيه لتلازم ذكره مرتبطاً بأبيه العجاج، والتنبيه لورود رؤية وشعره في عشرة مواضع سوى موضع مأخذه ومآخذ أبيه في سياقات مأخذ الشعراء في الموشح.
 - (4) بلغت أخبار أبي العتاهية في الموشح ثمان صفحات. ص 320-328.

المعجم لطابع الاختصار فيه، ولأن ترجمته في المستنير كانت أطول من أن يأتي عليها، لأنها كانت مكتملة فيه، بما فيها أخباره مع عتبة محبوبته. ويدل على ذلك الطول، وأن المرزباني أورد ترجمة أبي العتاهية كاملة أن صاحب بغية الطلب أورد من أخباره مع عتبة ثلاثة أخبار مطولة⁽¹⁾. في حين أننا لا نجد أخبار عتبة لدى الأصفهاني؛ إذ لم يأت عليها عند ترجمته لأبي العتاهية، فيما يقارب مئة صفحة أو أكثر، بل اعتذر عن ذلك بطول أخباره معها وأنها من أعظم أخباره، ففضل أن يرجئها إلى موضع آخر نسي العودة إليه⁽²⁾.

ويدل كتاب المقتبس على سمة أخرى من سمات الكتابة الموسعة لدى المرزباني تجلت في الإسهاب والميل إلى ذكر التفاصيل التي تبدو في أحيان كثيرة من الأمور الشخصية غير المهمة؛ إذ يمكن أن نقيس على ما كان يتطرق إليه من تفاصيل في تراجم العلماء الجوانب المماثلة لذلك عند الشعراء، خصوصاً أن بعضاً منها وردت شواهد متبقية منها⁽³⁾. فتطرقه لوصف لباس العالم⁽⁴⁾، أو نقش خاتمه⁽⁵⁾ أو مقدار ما

(1) انظر مثلاً إلى خبر واحد منها استغرق ثلاث صفحات في بغية الطلب 4/ 1763-1765.

(2) انظر الأغاني 4/ 114. وأخبار أبي العتاهية من بداية المجلد إلى الموضع المحدد. وآخر ما ذكره عنه هو وعده باستيفاء أخباره مع عتبة في موضع سيرد، لكنه لم يعد إليه. وقد استدرك عليه الحموي ذلك، فأشار إلى أنه فعل الضد من ذلك في أخبار أبي نواس؛ إذ ذكر أخباره مع جنان وقال إن سائر أخباره قد تقدمت ولم يتقدم شيء من ذلك. انظر معجم الأدباء 13/ 98-99.

(3) انظر ما نقله الصفدي في الوافي 15/ 302 - 303، عن المرزباني في ترجمة «سلم الخاسر»: «كان يأتي على باب المهدي على برذون قيمته عشرة آلاف درهم، ولباسه الخز والوشي، وما أشبه ذلك ورائحة المسك والعالية والطيب تفوح منه». وكذا تفصيل الحالة المالية لأبي العتاهية وتدرجه من بيع الجرار بالكوفة، إلى أن وصلت مقدّراته السنوية من الخلفاء، عدا الهبات والجوائز، إلى خمسين ألف درهم. بغية الطلب 4/ 1772.

(4) انظر وصف ما كان يلبسه العتيبي في المختار ص 213 أ. والشعبي في نور القبس ص 239.

(5) انظر وصفه لنقش خاتم أبي عمرو بن العلاء في المختار ص 193 أ، ونقش خاتم الشعبي نور القبس ص 239.

كان يشتره العالم من الطعام والشراب⁽¹⁾، أو غير ذلك مما كان يأتي به من التفاصيل كالأوصاف الجسدية⁽²⁾. زد على ذلك ما لا يمكن ذكره الآن، من أمور وعلاقات شخصية، خصوصاً في حق العلماء، مما يكون فيه سعة أكثر ورفع للخرج لدى الحديث المفصل عن شؤون الشعراء، والإتيان على كل ما له علاقة بحياتهم.

ونجد سمة أخرى تضاف إلى سابقاتها، تكاد تشكل منحى خاصاً تجلت بوادرها في الأسلوب الذي طبع به ابن المعتز بعضاً من الأخبار لديه. وهو الأسلوب الذي يعتمد على الجنوح إلى طابع السرد، وصياغة الأخبار في هيئة قصص تتسم بالتشويق والإثارة في بنائها الأسلوبية. أما مضامينها فتقوم على الإتيان بالمرويات المطولة، أو الغريب النادر من الأخبار.

وتتمثل هذه السمة لدى المرزباني في فئتين من الأخبار: أولاهما: تجسدها الأخبار المبنية على النادر من الأحداث مما لا علاقة له بقصص العشق وأخباره. وقد تكون هذه الأخبار مطولة جداً، أو قصيرة. وهي إجمالاً من الأخبار التي تعتمد على الإفراط في المبالغة إلى حد يخرجها عن المعقول. فعلى سبيل المثال يدل خبر ورد في ترجمة «الأعمش» بـ نور القبس على مقدار المبالغة والذهاب إلى مدى بعيد جداً في إقحام غير المعقول ضمن المتن الإخباري⁽³⁾ لأغراض قد لا تكون بمنأى عن الميول المذهبية الشيعية، التي كان أسلوب القص من وسائلها المستخدمة لاستمالة الناس إلى مذهب المؤلف على نحو ما أشير إليه من قبل في تفسير استخدام الأصفهاني ذلك⁽⁴⁾. لكن هذا لا يعني أن مثل تلك المطولات الإخبارية تكون لهذا الغرض. فثم مثال آخر لهذه الفئة من الأخبار أبعد زمناً - عن التأويل المذهبي - وأقرب واقعية من الخرافة التي بني عليها

(1) انظر ما ذكره عن شراء أبي عمرو بن العلاء كل يوم كوزاً بفلس «نور القبس» ص 26. وكذلك ما ذكره عن الشعبي من أنه كان موسراً ويشترى اللحم في كل جمعة بدرهم. نور القبس ص 240.

(2) مثل ما مر في ذكر وصفني رؤية وأبي العتاهية اللذين تقدم ذكرهما عن هيتئهما بآخر حياة كل منهما.

(3) ملخص الخبر أن أخوين يختلفان في ميلهما المذهبي ينتهي أحدهما، لأنه كان يشتم علياً رضي الله عنه، بأن يتحول رأسه إلى رأس خنزير. انظر الخبر في نور القبس ص 251-255.

(4) الإشارة هنا إلى وجهة نظر أركون وقد تقدم ذكرها.

الخبر الأول. فهو من جهة يجسد سيرة شخصية أحداثها تدور في زمن الجاهلية، ومن جهة أخرى يستمد الثقة من ورود ذكر النبي ﷺ في جزئية منه⁽¹⁾. وبعض الأخبار من هذه الفئة لا يكون قصصاً مطولة، وإنما أخباراً قصيرة أو متوسطة تقوم على المبالغة في وصف الشيء وتقديره، كالمبالغة في تصوير الشخصيات الفذة مثل الخليل بن أحمد، أو الأصمعي، أو هارون الرشيد⁽²⁾.

أما الفئة الثانية من نواذر الأخبار فهي تلك التي تتخذ من محور قصص العشاق والمتيمين أفقاً سردياً لها. ويمكن أن تكون ترجمة الأصمعي خصوصاً نسخة أخبارها لدى صاحب المختار مؤثلاً خصباً لهذه القصص⁽³⁾. فهي لا تقدم أنموذجاً على عدد

(1) أحداث هذه القصة التاريخية عن سيرة امرأة تزوجت ثلاث مرات، وما بين زواجها الثاني والثالث اشترط زواجها الثاني بعد علمه بنية الزواج من آخر شروطاً تعجيزية منها: أن تملأ ما بين جبلي الأخشين غزلاً - مع أن الغزل محرم عليها، وأن تطوف بالبيت متحللة من كل ثيابها، وأن تنحر مئة من الإبل. فمكنها طالب الزواج بها من ذلك، بعد أن جمع أعداداً كبيرة من النساء للغزل. ثم أدخل لها البيت ساعة من الفجر لتطوف وفق الحالة المشترطة عليها. أما ورود ذكر النبي في هذا الخبر فمرة لأنه روى عنه أنه خطب المرأة ثم انصرف عنها. والمرة الثانية ذكرت في استكمال المحققين للخبر في هامش عن الإصابة - حيث يوجد خرم في مخطوط المرزباني لا يعلم مقداره حال دون إتمام الخبر - أن النبي وأحد لداته وهما صبيان شاهدا طواف المرأة بالبيت. انظر الخبر الذي استغرق صفحات من كتاب أشعار النساء ص 100-106. والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني (مطبعة السعادة، مصر 1328) 4 / 343.

(2) تطرقنا سابقاً لنماذج من هذه الأخبار عن الخليل. ونضيف إليها خبراً مفاده: إرسال ملك اليونان كتاباً باليونانية إلى الخليل الذي عكف عليه شهراً، ومن ثم كان هذا الكتاب سبباً إلى تأليفه كتاب المعنى. انظر المختار ص 70 أب. وعن وصف شخصية الرشيد. انظر ذلك في عدد من أخبار الأصمعي معه في نور القبس ص 129 - 167.

(3) انظر ترجمة الأصمعي بالمختار ص 124 أ-ب وما قبلها» تجد ما يقارب عشرة أخبار عن العشاق والمتيمين تبدأ بنجر عن أحد العذريين، ثم آخر عن تفرق الحمى عن الأصمعي في سفر لحذاء أحد الفتيان العشاق بقصيدة غزلية أعجبته، ثم قصة فتى من فصحاء الأعراب كان عاشقاً، ومجموعة أخبار عشق مماثلة لأعراب آخرين، وغير ذلك. وانظر عدداً من الأخبار المماثلة في غير ترجمة الأصمعي كما في أشعار النساء عن عشيقيين في موضع ماوية المختار ص 128-129، وفتى لقي ليل صاحبة قيس المختار ص 134-135.

الأخبار من هذه الفئة في ترجمة واحدة فحسب، بل إن مضامين بعضها تبين عما أصبح مكرساً في مخيلة المتلقي عن هذا البعد. وما تخصيص المرزباني كتابه الرياض في أخبار المتيمين والعشاق، وما ضمّنه من حديث عن الحب⁽¹⁾ عند الشعراء إلا دليل واضح على وفرة هذه المادة بغض النظر عن مواطنها المعهودة عن العذريين والأعراب⁽²⁾.

ويعود السبب في جنوح مؤرخي الشعر في القرن الرابع إلى النهج القصصي، والأخبار النادرة المثيرة - على الرغم من بذلهم جهداً في توثيق الأخبار وتحقيقها كما سنرى في تناول لاحق مختص بذلك - إلى بعض المظاهر الثقافية الركيكة التي أخذت تتنامى في ذلك القرن بين أوساط العامة، وسنرى هذه المظاهر حينما نتطرق للعلاقة بين هذه المظاهر وهذا النهج من الكتابة التاريخية في موضعه من الفصل الأخير بهذا البحث. والشواهد السابقة التي تدل على سمات الكتابة الإخبارية الموسعة عن الشعراء في مؤلفات المرزباني في حال النظر إليها من خلال ما وُصف به من سعة في التصنيف، وما ذكره المترجمون عن عدد الأوراق والمجلدات التي كانت عليها مؤلفاته من ضخامة - تؤكد أنه كان ينهج الطريقة التي سار عليها معاصره أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني. أما ما يعكس قيمة الكتابة الموسعة بوصفها الذي وصلت إليه لدى مؤرخي القرن الرابع، فذلك ما سيكون له وقفة خاصة تبين قيمته في الفصل الرابع؛ من أجل بيان ما يضيفه ذلك إلى تصور مفهوم القدامى لتأريخ الشعر بعامّة.

(1) انظر وصف الكتاب في الملحق الثاني: مؤلفات المرزباني بآخر هذا البحث.

(2) كما في الموضع السابق المشار إليه من ترجمة الأصمعي. وفي أحد الأخبار التي رواها أبو عمرو يظهر مدى تكسر هذا الفهم عن «بني عذرة» شباباً وشيوخاً. فبمجرد أن استنسب أبو عمرو شيخاً اكتشف أنه منهم، ليجد أنه كان عاشقاً في شبابه وأن له شعراً في عشقه أسمعته إياه. انظر المختار ص 185 ب.

الفصل الثالث

التأريخ لتلقي الشعر

المبحث الأول

التلقي وجمالياته

أولاً: نظرية التلقي، المفهوم ومجال التطبيق:

تعد نظرية التلقي، أو الاستقبال، بحسب الترجمة العربية لمصطلح reception من النظريات الحديثة التي لاقت رواجاً في النصف الثاني من القرن الميلادي المنصرم. وتأتي أهمية هذه النظرية من تزايد تأثيرها في مختلف مجالات الاهتمام الأدبي. فعلى حد تعبير روبرت هولب «ليست هناك منطقة من مناطق الاهتمام الأدبي لم تؤثر فيها نظرية التلقي»⁽¹⁾، حتى إن تكاثر الأبحاث ذاك أدى إلى نزاع حول مفهوم التلقي لم يزل قائماً إلى اليوم⁽²⁾. ولذلك حاول هولب أن يضبط المفهوم مفرقاً بين نظرية التلقي وجماليات التلقي. فالأول يشير على الإجمال «إلى تحول عام من الاهتمام بالمؤلف والعمل إلى النص والقارئ؛ ومن ثم فإنها [أي النظرية] تستخدم بوصفها مصطلحاً شاملاً، يستوعب مشروعات ياكوس وإيزر Iser كليهما، كما يستوعب البحث التجريبي والاشتغال التقليدي بموضوع المؤثرات. وفي مقابل هذا لا تستخدم جماليات التلقي إلا في علاقتها بعمل ياكوس النظري المبكر»⁽³⁾.

(1) نظرية التلقي، روبرت هولب، ترجمة عز الدين إسماعيل، كتاب النادي الأدبي الثقافي بمكة [97]، جدة 1415، ص 31.

(2) نظرية التلقي، روبرت هولب ص 32.

(3) نظرية التلقي، روبرت هولب ص 33. وعمل ياكوس المبكر المقصود به محاضراته التي ألقاها عام 1967. وكان عنوانها «ما التاريخ الأدبي وما الغرض من دراسته»، ثم نقحت لتصبح: «التاريخ الأدبي بوصفه حافزاً على دراسة الأدب»، نظرية التلقي، روبرت هولب، ص 144-145. وانظر النص المنقح للمحاضرة: «تاريخ الأدب باعتباره تحدياً»، هانز روبرت جاوس [ياوس]، ترجمة، محمد هناء متولي، الثقافة الأجنبية، بغداد، ع1، شتاء 1983 ص (121-123).

وعلى الرغم من أن التوجه الأساسي لدى ياكوس كان يهدف إلى تصحيح منهج التاريخ الأدبي بعدما لحقه الإهمال، والسمعة السيئة⁽¹⁾ - الأمر الذي يعني كون النظرية لدى مؤسسها ذات طابع ومغزى تأريخي في المقام الأول، أكثر من التوجه إلى النقد بمعناه الفني⁽²⁾ - على الرغم من ذلك فإن النظرية قد اتخذت مساراً يختلف كلية عن باعثها الأصلي لدى الباحثين فيما بعد. وذلك ما جعل هولب يتجه إلى البدء بتناول جماليات التلقي قبل تفصيل الحديث في تحولات النظرية اللاحقة. كما أنه لم ينس في خاتمة بحثه المطول في تطورات النظرية - بعد أن قام بتوجيه عدة مآخذ على تفاصيل آراء داعيتها الأول ياكوس - أن يعود إلى الإشادة بجماليات التلقي، لأنها بمثابة تأسيس جديد للتاريخ الأدبي، وأن فرضها «تنقلب بمقتضاه العلاقة بين تاريخ الظواهر الثقافية (الفن، الأدب، الموسيقى، إلخ) والتاريخ العملي (Historie)»⁽³⁾.

وفي ضوء تطورات النظرية اللاحقة، عقب طرح ياكوس الأولي، أصبحت النظرية ذات علاقة بالتواصل الخارجي بين النصوص الأدبية والمتلقين، خصوصاً عندما التحمت النظرية بنظريات التواصل؛ إذ انتقلت بذلك إلى العناية بالتواصل الداخلي بين الطرفين ذاتهما، فأخذت تعنى بفحص طبيعة التراسل الداخلي في النصوص الأدبية، والسردية منها بخاصة⁽⁴⁾.

وحين نحاول التوقف عند جماليات التلقي في طرح ياكوس الأولي لها، وما كان ينشده منها - لأنها تمثل وجه العلاقة الأوثق ببحثنا - نجده يبين القيمة التي نتحصل من خلالها على تاريخ ضمني للأدب مستمد من التلقي الأولي للأعمال الأدبية في مجموع

(1) نظرية التلقي، روبرت هولب ص 143.

(2) أشار ياكوس في مفتتح محاضراته إلى أنه يهدف إلى إيجاد جسر بين التاريخ والأدب، وحل النزاع في تاريخ الأدب ما بين التاريخ وعلم الجمال. انظر: «تاريخ الأدب باعتباره تحدياً»، هانز روبرت جاوس [ياكوس]، ترجمة، محمد هناء متولي، ص 121.

(3) نظرية التلقي، روبرت هولب، ص 346.

(4) انظر: التلقي والسياقات الثقافية، بحث في تأويل الظاهرة الأدبية، عبد الله إبراهيم، كتاب الرياض، عدد [93]، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض 1422، ص 7.

ردود أفعال الجمهور الأدبي حيالها. «فالأدب والفن لا يصبح لهما تاريخ له خاصية السياق إلا عندما يتحقق تعاقب الأعمال، لا من خلال الذات المنتجة فحسب، بل من خلال الذات المستهلكة كذلك؛ أي من خلال التفاعل بين المؤلف والجمهور»⁽¹⁾. ويبين ياكوس أنه زيادة على ذلك فإنه يمكن الحصول، في الوقت ذاته، على تاريخ التطور الجمالي لذائقة المتلقين عبر العصور الزمنية المختلفة؛ إذ «إن أول استقبال من القارئ لعمل ما يشتمل على اختيار لقيمتها الجمالية مقارناً بالأعمال التي قرئت من قبل. والدلالة التاريخية الواضحة لهذا هي أن فهم القارئ الأول سيؤخذ به وسيتم في سلسلة من عمليات التلقي من جيل إلى جيل. وبهذه الطريقة سوف تتقرر الأهمية التاريخية للعمل، ويتم إيضاح قيمته الجمالية»⁽²⁾.

ومن الركائز التي تعتمد عليها جماليات التلقي أفق التوقع (Erwartungshorizont). وهو مفهوم كان مألوفاً قبل أن يظهر لدى ياكوس. فقد أشار روبرت هولب⁽³⁾ إلى أن مصطلح الأفق عرفته الدوائر الفلسفية الألمانية عن طريق جادامر، وسلفيه هوسرل، وهايدجر. كما عرفت إضافة الأفق إلى التوقعات في تاريخ الفن عن طريق كارل مانهايم قبل ياكوس بوقت طويل. غير أن المشكلة لدى ياكوس في هذا المفهوم، بحسب هولب، تكمن في أن تعريفه له لم يكن دقيقاً. فرأى أن ياكوس قد اعتمد على الإدراك العام لدى القارئ في فهم مصطلحه الأساسي على الأقل. وحاول هولب أن يقارب المصطلح؛ فذكر أنه ربما ظهر مصطلح أفق التوقعات لكي يشير إلى «نظام ذاتي مشترك، أو بنية من التوقعات؛ إلى - نظام من العلاقات - أو جهاز عقلي يستطيع فرد افتراضي أن يواجه به أي نص»⁽⁴⁾.

ومما يجدر ذكره أن مصطلح أفق التوقعات، وبعض الأسس التي بنى عليها ياكوس جماليات التلقي في طرحه الأول قد أعاد تناولها في مقالات متأخرة؛ بما في ذلك الحلول

(1) نظرية التلقي، روبرت هولب، ص 152. و«تاريخ الأدب باعتباره تحدياً»، [ياكوس] ص 122.

(2) نظرية التلقي، روبرت هولب، ص 153. و«تاريخ الأدب باعتباره تحدياً»، [ياكوس] ص 122.

(3) نظرية التلقي ص 154.

(4) نظرية التلقي ص 156.

التي طرحها، ليتغلب بها على الصعوبات التي من شأنها أن تقوض العمل بالمصطلح. وأهم هذه الصعوبات «شراك علم النفس التي يراها ياوس مهددة للمصطلح»، و«الالتجاء المتكرر إلى فكرة (روح العصر) العامة؛ فهما من أقوى الأفكار استجابة لمفهوم أفق التوقعات»⁽¹⁾.

وعلى الرغم من كل التحفظات التي ساقها هولب عن توضيحات ياوس لأفق التوقعات في مجمل طرحه، إلا أن العودة للطرح الأولي لياوس تشير إلى جانب من الوضوح، على الأقل فيما يتعلق بغاية المصطلح، والبعد التاريخي الذي يشكله.

فعن الغاية من إعادة بناء أفق التوقعات يرى ياوس أنها للإجابة «عن هذا السؤال: كيف رأى وفهم القراء الأقدمون العمل الفني؟ والمقصود هنا قراء العصور الماضية»⁽²⁾. أما البعد التاريخي فيتشكل «على أساس ردود أفعال الجماهير، والأحكام النقدية الناشئة عن عدم قبول العمل ورفضه، أو الإحساس بالصدمة، أو بالنجاح التلقائي الفوري، أو في النهاية من الفهم التدريجي، أو البطيء للعمل الأدبي»⁽³⁾.

والذي يبدو من استعراض روبرت هولب لعمل ياوس في نظرية التلقي كثرة اعتراضاته على ياوس في محاولاته المتأخرة، وإبدائه ملاحظات أقل على الطرح الأول لياوس. الأمر الذي يستشف منه أن الدور الأساسي الذي أداه ياوس - برأي هولب - في هذه النظرية يكمن في بواعثه التاريخية الأولى، وفي استثارته بما طرحه في البداية من ردود أفعال واسعة، وأن نجاحه الذي حققه، إنما يكمن في دوره الريادي، وليس في إضافاته لاحقاً. وهذه النقطة هي التي أنهى بها هولب كلامه عن ياوس في ختام استعراضه للنظرية، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

أما عن حضور نظرية التلقي في الدراسات العربية الحديثة، ومقارنته بحضورها في الدراسات الغربية فنلفي بعض العقبات التي ساهمت في تباين مقدار الحضور،

(1) نظرية التلقي ص 158.

(2) «تاريخ الأدب باعتباره تحدياً»، [ياوس] ص 123

(3) «تاريخ الأدب باعتباره تحدياً»، [ياوس] ص 123

وقلة الإفادة من النظرية؛ إذ يشير محمد خير البقاعي - في معرض تقديمه لترجمة أحد الأبحاث في نظريات التلقي⁽¹⁾ - إلى أن هذا الاتجاه النقدي ما يزال يعاني، على الرغم من جهود بعض النقاد، نقصاً في المصادر والمراجع التي تقدمه جلياً للقارئ العربي، ذلك من جهة، ومن جهة أخرى ما شهد المصطلح من تحبط جراء الترجمة من لغات أخرى غير اللغة الأصلية التي ظهرت فيها النظرية. مما أدى إلى سوء فهم انعكس على هذا الاتجاه الذي يراد له أن يأخذ دوره في تطوير النقد العربي الحديث. وكان البقاعي قد نوه في هذا الصدد بالجهد الذي بذله عبده عبود في تصحيح فهم المصطلح بسبب أخذه مباشرة عن اللغة التي ظهرت فيها أكثر أبحاث رواد النظرية وهي اللغة الألمانية.

جدير بالذكر أن عدداً من الأبحاث والدراسات بدأت في الظهور مؤخراً، حاول فيها الدارسون الإفادة من نظرية التلقي، ولا سيما محاولات تطبيقها على التراث العربي. ومن هذه الدراسات استقبال النص عند العرب⁽²⁾، التي تطرق فيها محمد المبارك إلى مجمل قضايا النقد العربي القديم من منظور التلقي. فعرض لصلة النقد العربي القديم بالتلقي بصفته أحد الإرهاصات التي سبقت ظهور النظرية في العصر الحديث. كما توقف عند جوانب استقبال النص عند العرب بدءاً بالتلقي الشفاهي الذي اختلف فيه تلقي الشعر عن الخطابة. إلى جانب أثر العصور في اختلاف التذوق الأدبي، وأنماط القراءة⁽³⁾ وصولاً إلى أثر المتلقي في صوغ العمل الأدبي وتوجيهه، وأنماط التأويل، وبلاغة المتلقي.

وفي دراسة لحسن البنّا عز الدين عن ذي الرمة وشعره⁽⁴⁾ ركز الباحث على إشكال تلقي شعر ذي الرمة، الذي لم يكن في نظر متلقيه المعاصرين مشابهاً للفحول

(1) انظر: «نظرية التلقي»، فرانك شوير فيجن، ترجمة محمد خير البقاعي، الآداب الأجنبية، دمشق، ع88، ص 22، ص 245 - 246.

(2) استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.

(3) منها: قراءة قائمة على الحس، وقراءة على الاعتدال، وقراءة على المبالغة استقبال النص عند العرب، محمد المبارك ص 189-191.

(4) الشعر العربي القديم في ضوء نظرية التلقي والنظرية الشفوية، ذو الرمة نموذجاً، حسن البنّا عز الدين.

المعاصرين له أمثال جرير والفرزدق، وذلك لأن شعره أقرب إلى بيئة الشعراء السابقين من الجاهليين. وهنا نقطة الالتقاء بين نظريتي التلقي، والشفاهية. إذ إن إشكال تلقي ذي الرمة كان ناجماً عن نزوعه إلى بيئة الجاهلية التي يعدها «البنا» حقبة انتقالية بين مرحلتَي الشفاهية والكتابية.

والدراسة الثالثة هي التلقي والسياقات الثقافية، بحث في تأويل الظاهرة الأدبية عرض فيها عبد الله إبراهيم لعدد من الأخطاء التي رآها ناجمة عن سوء فهم في التلقي. ويهمننا من هذه الدراسة - التي تناول فيها محاور متنوعة من سياقات ثقافية مختلفة في أزمانها وأجناسها⁽¹⁾ - المبحث الأول الذي تناول فيه «التلقي الداخلي وخطأ التفسير: الخبر أنموذجاً»، ويعني بالخبر، الأخبار التي تمتلئ بها كتب الأدب العربي القديمة من أمثال كتب الجاحظ والأصفهاني وغيرهما. وعلى الرغم من أن أنموذج خبر الحجاج مع الغلمان الثلاثة (أبناء الحجام، والفوال، والحائك)⁽²⁾ الذي بسط الدارس تحليله له خصوصيته الحكائية ومضمونه القائم على الإلغاز إلا أنه لا يصح تعميمه على المضامين المختلفة للأخبار في كتب التراث. خصوصاً أن عدداً كبيراً من الأخبار لا تتجسد فيه تلك السمة على النحو الخاص الذي كانت عليه في ذلك الخبر. لكن يجدر بالذكر هنا تنبه الباحث إلى حرص المؤلفين القدامى على نسبة الأخبار والحكايات لأصحابها؛ إذ رأى في ذلك تحاشياً لمغبة التأويلات اللاحقة التي قد تسقط على المؤلف مواقف فكرية أو غيرها بسبب تلك الأخبار⁽³⁾.

إن الملاحظ على الدراسات السابقة أنها أخذت عند تطبيقها للتلقي بمفهوم نظرية التلقي الإجمالي، وليس بمفهوم جماليات التلقي. والمفهوم الإجمالي يعتمد أساساً على

(1) انظر: التلقي والسياقات الثقافية، بحث في تأويل الظاهرة الأدبية، عبد الله إبراهيم. والمباحث المشار إليها منها: (التلقي والتمثيل السردي: السيرة الإشرافية أنموذجاً) ص 35-58 و(التلقي النقدي وتعويم الخصائص الأجنبية: البند أنموذجاً) ص 61-102، و(التلقي وهيمنة السياقات الثقافية: المرويات الجاهلية أنموذجاً) ص 109-165.

(2) التلقي والسياقات الثقافية، عبد الله إبراهيم، نص الخبر ص 20-21.

(3) التلقي والسياقات الثقافية، عبد الله إبراهيم ص 29.

تحليل العلاقات الداخلية للنصوص من خلال انفتاح النظرية على وسائل بحثية أخرى، ولا سيما نظرية الاتصال، وأنماط القراءة. أما تجاوز هذه الدراسات للأخذ بجماليات التلقي فذلك ناتج عن أنها لم تكن تهدف أساساً إلى النظر للتاريخ الأدبي إجمالاً؛ وإنما التركيز على أحد الموضوعات فيه، أو بعض ظواهره من منظور التلقي.

ثانياً: أوجه عناية المرزباني بتلقي الشعر:

1- كتاب الموشح والعناية الخاصة بالتلقي:

كان المرزباني بصدد رصد تفاعل القراء مع التجارب الشعرية في كتابه الموشح؛ وذلك بتتبعه الجدل النقدي الدائر حول تلك التجارب في مختلف الحقب الزمنية. فذلك ما يبيده عنوان الكتاب، مع مقدمته، إلى جانب محتواه.

والعناصر الثلاثة توضح جلياً ما كان يرمي إليه بهذا الكتاب، الذي يكاد يتميز في خصوصية مضمونه عن غيره من كتب الأدب الأخرى، إذ حرص فيه المرزباني من خلال مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر على عدم الخروج من دائرة عيوب الشعراء الفنية إلى غيرها من الأخبار الأدبية العامة، التي من شأنها أن تحيل الكتاب إلى كتاب أدب إخباري، شأنه في ذلك شأن غيره من المصنفات التي عرفت في هذا الصدد. لكن ذلك الحرص لم يمنع المرزباني من التوسع في الدائرة ذاتها لكل ما يمت إلى نقد الشعراء بصلة؛ كما يوحى بذلك مفهوم مآخذ العلماء لديه. كأن يذكر الاستخدام الأمثل الذي يقابل المآخذ، أو الاستخدام الجائز الذي يجوز للشاعر على سبيل الضرورة. كما أن إضافة المآخذ إلى العلماء لا يعني حصرها على المختصين منهم بالشعر، فقد ورد عدد من المآخذ من غير العلماء؛ كالخلفاء، والشعراء، وغيرهم، إلى جانب المتلقين من عامة الناس.

وتكشف مقدمة الموشح أن هذا الكتاب ما هو إلا أحد الطرفين في الجدل النقديوتفاعل القراء مع الشعر على مر العصور السابقة، وأن المرزباني كان بصدد جمعها في كتاب واحد بعد أن تبين له أهمية ذلك؛ لولا أنه تخوف من أن يثبت قولاً في كتاب، ثم يعقبه بما ينقضه. فبعد أن تحدث عن مآخذ العلماء (الطرف الأول)،

ذكر الاحتجاج للشعراء (الطرف الثاني) بقوله: «على أن كثيراً مما أنكر في الأشعار قد احتج له جماعة من النحويين، وأهل العلم بلغات العرب، وأوجبوا العذر للشاعر فيما أورده منه، وردوا قول عائبه والطاعن عليه، وضربوا لذلك أمثلة قاسوا عليها ونظائر اقتدوا بها؛ ونسبه بعضهم إلى ما يحتمله الشعر، أو يضطر إليه الشاعر. ولولا أنه لا يجوز أن نبنى قولاً على شيء بعينه ثم نعقب بنقضه في تضاعيفه لذكرنا الاحتجاج للشعراء في هذا الكتاب، ولكننا نفرد له رسالة إن شاء الله»⁽¹⁾. ويبدو أن هذه الرسالة هي التي انفرد بذكرها ياقوت الحموي في معجمه⁽²⁾ ذاكراً إياها بمسمى الموسع فيما أنكره العلماء على بعض الشعراء من كسر ولحن وعيوب الشعر. ومما يرجح ذلك أن المرزباني كان قد فرغ من الموشح قبل سنة (366هـ)⁽³⁾. فبين هذا التاريخ ووفاة المرزباني (384هـ) مدة كافية لإنجاز العمل، خصوصاً أنه كان سيخرجه في هيئة رسالة وليست مؤلفاً ضخماً. لكن ما يضعف هذا الاحتمال أن الحموي لم يشر في ثبته إلى كتاب الموشح، مما قد يحتمل معه أنه يعني بالموسع الموشح وأن ذلك تصحيف من النساخ.

وعلى الرغم من عدم وصول هذه الرسالة إلا أنه يمكن تلمس شيء من غايتها في ضوء بعض الأخبار الواردة في الموشح. فمن ذلك - على سبيل المثال - بعض أخبار الفرزدق مع كل من أبي عمرو، وعنبسة بن معدان، وابن أبي إسحاق مما يعطي مثلاً على كيفية الاحتجاج للشاعر. فقد أخذ عنبسة الفرزدق في أحد أبياته، مما دفع الأخير إلى التغيير، وبعد مضي زمن لقيه ابن أبي إسحاق فقال له عيب عليك بيتك، والأعشى قد قال: كذا، فقال الفرزدق: «قد والله علمت ذاك ولكن ابن النبطية [يقصد عنبسة] شككني؛ فعاد إلى قوله الأول»⁽⁴⁾. وفي الخبر الآخر الذي رفع فيه الفرزدق كلمة حقها النصب، ولما سأله ابن أبي إسحاق عن ذلك أجاب بأنه على ما

(1) الموشح ص 16.

(2) معجم الأدباء للحموي 271/17.

(3) انظر آخر كتاب الموشح ص 468، حيث ألحق المحقق تواريخ نسخ المخطوط، ومنها يظهر أن أول نسخة هي التي نسخها عبد السلام بن الحسين البصري بمدينة السلام من أصل الشيخ أبي عبيد الله المرزباني.

(4) الموشح ص 140.

يسوؤك، قال: أبو عمرو بن العلاء للفرزدق أصبت هو جائر على المعنى على أنه لم يبق وجه سواه⁽¹⁾.

إن الأهمية التي تمثلها هذه الرسالة تكمن في الدور الذي كانت ستسهم به في إلقاء الضوء، وبيان المزيد من وجهات النظر وردود الأفعال التي قد تكون على النقيض تماماً - في ضوء ما تقدم - وكان من شأن ذلك أن يثري سياقات التلقي بالعديد من المستويات والآراء المتباينة، التي تضاف إلى أهمية ما وثقه المرزباني في الموشح.

2- جمع الآراء وتصنيفها في سياقات للتلقي:

أ - الملحوظات النقدية المتعلقة بشاعر واحد (سياق تلقي الشاعر):

قسم المرزباني مادة كتاب الموشح (المآخذ) على الشعراء في الحقب الشعرية الثلاث. وفي كل حقبة كان يصنف الشعراء في فئتين. ففي الحقبة الجاهلية - على سبيل المثال - أفرد أكثر من عشرين شاعراً في فئة، عرض للمآخذ على كل منهم، وما يتبعها من محاور مستقلة به. وفي الثانية أشرك ضعف ذلك العدد ممن لم تتضمنهم الفئة الأولى في عنوان مشترك (جماعة من القدماء). وسرى هذا التصنيف على شعراء الحقبين الإسلامية، والمحدثة. إذ تبدأ الحقبة بمآخذ عديدة لكل شاعر على حدة، إلى أن ينحصر تعداد المآخذ، والمحاور التي يشتمل عليها سياق الشاعر المنفرد في مآخذ واحد، ثم يعرض لطائفة أخرى من الشعراء في جماعة.

ومن الواضح أن مرد هذا التوزيع يعود في مقامه الأول إلى ما تمليه وفرة المادة المتعلقة بالشاعر من ردود الأفعال حيال تجربته، لكن ذلك يدل أيضاً على أن هذه الطريقة تسهل النظر في القضايا المثارة حول تجربة كل شاعر. ويبدو أنه قد لاحظ تفاوت المادة ما بين شاعر وآخر، فجاء عرضه لها على تلك الشاكلة؛ ليتسنى لنا إدراك التفاوت الواضح بين مقادير تفاعل القراء مع الشعراء، أو تباين أنصبتهم من مآخذ العلماء على كل منهم.

(1) الموشح ص 141. أما تأويلات الوجه الإعرابي فانظر تفصيلها في: الخصومة بين النحاة والشعراء، أسبابها وصورها، محمد غالب وراق، إصدارات نادي جازان الأدبي، جازان 1419، ص 42.

وعندما نتأمل في المحاور التي يشتمل عليها سياق الشاعر منفرداً على نحو أكثر مقاربة نلاحظ أمراً مهماً. فسياقات بعض الشعراء المتقاربين في المكانة الشعرية تختلف من شاعر لآخر. فمن بين سياقات الشعراء الجاهلين بدا سياق امرئ القيس أغنى عدداً، وأكثر تنوعاً. فهو يتنوع في أصناف المتلقين الذين تناولوا شعره من العلماء قدامى ومتأخرين، ناهيك عن غيرهم من الشعراء والخلفاء. كما نلفي في السياق نفسه تنوعاً في القضايا المثارة ما بين (دقة الوصف، وسلامة المعنى وجودته، والملاحظة الأخلاقية، والسرقة، والأخذ). ونجد أيضاً عدداً كبيراً - نسبياً - وصل إلى ستة من الشعراء المستحضرين في سياقه، قياساً بسياقات غيره. بينما نجد في أقرب سياق لشاعر من معاصريه (سياق النابغة الذبياني) تلك المحاور تنقلص إلى نصفها تقريباً. إذ يكفي أن مجمل محاور سياق النابغة قد تقلصت عدداً إلى أربع عشرة مسألة، نصفها يعود قسم منه إلى محور واحد (عيوب القافية: إيطاء وإقواء، وتضميناً)، ونصف هذا القسم (ثلاثة مآخذ) مصدره ناقد واحد، هو ابن طباطبا العلوي⁽¹⁾. على أن سياق النابغة الذبياني على الرغم من ذلك يعد أغنى من سياقات غيره من الشعراء الجاهليين.

وليس هذا التفاوت في التركيز على بعض الشعراء مقتصرًا على حقبة دون أخرى؛ إذ إن المبدأ والطريقة ذاتها موجودان في الحقتين الإسلامية والمحدثّة، مع تفاوت في النسب وتعداد المآخذ، وزيادة في ظهور محاور أخرى، وسرى تفسير هذا التباين في موضوعات المبحث الثاني بهذا الفصل.

ب - جمع الملحوظات النقدية التي مصدرها ناقد واحد (سياق تلقي الناقد):
يجد متتبع آراء النقاد في كتاب الموشح صعوبة في جمعها وإعادة فرزها على شاكلة

(1) أخذت هذه المقارنة بين سياق المآخذ على الشاعرين امرئ القيس والنابغة بعد استبعاد الأخبار المكررة، لدى كل منهما، ولم يعتد بالخبر أو الرواية المكررة، إلا إذا كانت تضيف نظرة جديدة في سياق الشاعر لم تأت عليها أخبار مآخذة الأخرى. انظر المآخذ على امرئ القيس في الموشح ص 34-48، والنابغة الذبياني ص 49-56.

سياقات خاصة، كذلك التي كانت للشعراء. وذلك لأن الآراء كانت تتركز حول الشعراء⁽¹⁾. لكن ذلك ما لم يفت المرزباني في كتاب المقتبس من خلال ما أبداه مختصره، أو المختار منه. إذ يكاد المرزباني يخصص جزءاً من ترجمة العالم لمروياته وآرائه الخاصة في الشعر والشعراء.

ولا تبدو القيمة المهمة في جمع الآراء التي نقلها المرزباني عن النقاد أمثال ابن طبابا (322هـ) أو قدامة بن جعفر (327هـ) على اعتبار أنه ينقل من كتبهم الموجودة بين أيدينا، بل تبدو القيمة الحقيقية فيما قام بجمعه من سياقات لآراء العلماء الذين لم تصل إلينا كتب لهم معروفة متداولة تخص نقد الشعر، على الرغم من كثرة المتداول من آرائهم المتفرقة في كتب النقد والأدب. وخصوصاً العلماء من الرعيل الأول، كأبي عمرو بن العلاء، ويونس، والأخفش (الأكبر)، والأصمعي وغيرهم.

وهذه السياقات تنطوي على قيم داخلية كثيرة، سواء أكان ذلك على صعيد سياق الناقد الواحد، أم مجموعة النقاد. فإلى جانب القيمة التوثيقية التي تتمثل في جمع آراء أولئك العلماء بعد أن كانت مفرقة، يمكن أن نتبين الآراء الخاصة بالناقد من تلك التي تنسب إلى أكثر من ناقد في وقت واحد. كما يمكن تعرف الدور الذي أسهم به كل عالم، ومقدار استقلاله، أو متابعته لغيره. وتعرف مداخل الاهتمام بالشعر لديه رواية، أو شرحاً وتفسيراً، أو نقداً واستشهاداً، أو من خلال تأثير اختياراته على توجيه ذوات المتلقين من بعده. ففي كل ذلك بيان لمقدار الإسهام الفعلي للناقد في تكريس قيم التذوق والتلقي. وسنرى أهمية ذلك عندما نتبع تنامي الوعي بقيم التلقي الجمالية، سواء أكان ذلك على صعيد المتلقي المنفرد، أم لدى شرائح من القراء

(1) تناول منير سلطان في دراسته: المرزباني والموشح، المادة النقدية في كتاب الموشح، وقسمها إلى: آراء العلماء، والنحاة، والرواة، والنقاد. وكان معنياً بالاتجاهات والقضايا النقدية التي يمكن استخلاصها من مجمل آراء تلك الفئات. ولم يقدّم المادة التي تمثل تلك الآراء في قوائم تمكن الباحث من الرجوع إليها. كما لم يقف عند أسباب تفاوت المادة التي جمعها المرزباني، واختلافها ما بين الأخبار المروية عن العلماء، وغيرها من نقولاته المطولة من المؤلفات التي اعتمد عليها في الموشح. انظر: المرزباني والموشح ص 159-371.

المهتمين الذين تعاصروا في حقب زمنية مختلفة.

ج - تفعيل السياقات:

لم يكن جمع المادة في سياق الناقد والشاعر الأنفين مظهر الاهتمام الذي اكتفى به المرزباني في تتبع مظاهر التلقي. إذ إن طريقة عرضه لمادة التلقي، خصوصاً في الموشح كانت بمثابة الإطار الذي تتفاعل فيه عدة سياقات. فزيادة على سياق الناقد القديم (أبي عمرو، والأصمعي ومعاصريهما) يظهر سياق ضمني ثالث تمثل في سرد نقولات مطولة لموضوعات نقدية أكثرها من كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، وعتار الشعر لابن طباطبا العلوي. وحين نلاحظ المواضع التي ظهرت فيها تلك المواد في كتاب الموشح نجد أنها تأتي عقب الفراغ من سرد مآخذ الشعراء في كل حقة من الحقب الثلاث. الأمر الذي يدل على أن المرزباني كان يهدف إلى سد النقص في الجوانب التي لم تشملها المادة المعروضة في سياق الشعراء، فكان اللجوء إلى هذه الطريقة. إذ إن ما يستدعيه في السياق المكون من النقولات المطولة⁽¹⁾ لم يأت بحسب ما يقتضيه الحديث عن مآخذ تجربة شاعر بعينه، وإنما بحسب ما يستطرد إليه الحديث عن المحاور الفنية. فكان لهذا التمازج بين مادتي مآخذ النقاد القدامى على الشعراء، وملاحظات النقاد المتأخرين في ضوء قراءتهم للنصوص الشعرية دوره البالغ في إثراء دائرة التلقي وعرض المزيد من ردود الأفعال ووجهات النظر. كما أن ذلك أغنى البحث من جهتين؛ فالباحث عن المآخذ الخاصة بشاعر بعينه يجد بغيته، كما أن الباحث عن المسألة الفنية يجدها أيضاً؛ إلى جانب ما يقوم به كل من السياقين من دور في بيان النظرات التي تطورت من شريحة زمنية إلى أخرى من شرائح المتلقين المهتمين وصولاً إلى الشريحة الأخيرة في السياق الزمني الذي عني المرزباني بتتبع آرائه⁽²⁾، على نحو ما سيتضح في المبحث الثاني.

(1) ثمة تحفظ على مقتبسات المرزباني المطولة من كتابي عتار الشعر ونقد الشعر سيذكر تالياً في موضعه، مع التوقف عند الباعث الذي جعل المرزباني يركز على الكتابين أكثر من غيرهما.

(2) ينتهي السياق الزمني المشار إليه بنهاية العقد الثالث من القرن الرابع الهجري.

ومن ضمن السياقات المتفاعلة في الإطار الكلي للتلقي اندماج مجمل سياقات الشعراء فرادى وجماعات في سياق شمولي يرسم المعالم الفنية المشتركة للحقبة الواحدة التي يقعون فيها. في الوقت الذي تمثل فيه المقتبسات المطولة عن قدامة وابن طباطبا في نهاية الحقب سياقاً يشير إلى المناطق المشتركة بين الحقب الثلاث.

المبحث الثاني

التأريخ للشعر في كتابات المرزباني من منظور جماليات التلقي

مفهوم القيم الجمالية:

يُقصد بالقيم الجمالية للتلقي منظومة الأسس والمفاهيم التي كان المهتمون بالشعر يتلقونه ويتذوقونه في ضوءها.

ومع أن البحث في هذه القيم يتداخل اضطراراً مع مباحث النقد المعروفة في قضايا (اللفظ والمعنى، والسرقات، والقديم والمحدث، وعمود الشعر... وغير ذلك) فإن المحاولة هنا لا تنصب أساساً على إعادة السرد المفصل لمضامين هذه القضايا؛ وإنما إعادة النظر في مقدار ما أسهم به تداول النقاش فيها، والتعامل مع الشعر من منظورها، في تكريس مفاهيم بعينها، إبان تلقي الشعر في حقب زمنية متباعدة، تبدأ من القرن الأول الهجري، وتنتهي مع الثلث الأول من القرن الرابع الهجري. وهذه الفترة الزمنية هي التي شملها اهتمام المرزباني بمتلقي الشعر في كتاب الموشح الذي أفرد له هذه الآراء من مختلف الحقب على نحو مخصوص. أضف إلى ذلك ما جمعه من آراء المهتمين بالشعر، في ثانياً تراجمه للعلماء والأدباء والنقاد، في كتاب المقتبس.

المحور الأول: قيم التلقي الجمالية المستقاة في ضوء تجارب الشعراء القدامى:

1- التلقي في ضوء مبدأ المقايسة:

تعد هذه القيمة من أهم المبادئ والأسس التي صاحبت تلقي الشعر على مر عصوره المختلفة. إذ إنها بمثابة المظلة التي تنضوي تحتها أغلب قيم التلقي الأخرى. ومن القليل إن لم يكن من النادر أن نلفي عدداً كبيراً من الأحكام التي أطلقها العلماء والنقاد وغيرهم من المهتمين بالشعر بمعزل عن مقايسة الأبيات التي تكون محط النظر على أبيات أخرى مماثلة أو مختلفة لشعراء سابقين أو معاصرين. وإذا كانت

بعض المفاهيم النقدية - كالاتسراك والخصوصية في طرق المعاني، أو التزام الشعراء بالماخذ البديهية من شروط اللغة والنحو مما يسلتزم قياس المتأخر من الشعراء على المتقدم - فإن أموراً أخرى، كالمجاز والتخييل وكل ما له علاقة باستخدام الصورة الفنية قد أخضع لهذا المبدأ أيضاً. على الرغم من أن الحاجة إلى المقايسة في الصورة - على سبيل المثال - إنما ينبغي أن تكون لبيان مقدار الابتداع في هذا الشأن، لا إلى تقييد الاستعمال المجازي بمحدود الاستخدام السابق، كما سنرى ذلك لاحقاً.

ويبدي تتبع المآخذ في الموشح أمرين يتعلقان بتمثل هذا المبدأ: أولهما: اطراد العمل به لدى القراء المهتمين بالشعر قدامى ومتأخرين، وسريانه على أغلب الشعراء قديمهم ومحدثهم. وثانيهما: أن المبدأ قد اتخذ غير مظهر، وغير مستوى لدى تطبيقه والعمل به. وبما أن الأمر الأول ستظهر شواهد في ثنايا تناول القيم بهذا المحور؛ فسيقصر تناول هنا على الأمر الثاني.

وتعد الحكومة أو التحاكم بين الشعراء من أقدم وأبرز المظاهر التي كرس مبدأ المقايسة. ففي العصر الجاهلي تنقل الأخبار عدداً من المحاكمات الشعرية التي تم الفصل فيها بين الشعراء بناء على مبدأ المقايسة: إما بين شاعرين، كقصة تحاكم امرئ القيس وعلقمة الفحل إلى أم جندب. وإما بين مجموعة منهم، كتحاكم أربعة من الشعراء إلى ربيعة بن حذار الأسدي، ناهيك عن الشعراء الذين كانوا يفدون على النابغة الذبياني في خيمته، التي تضرب له بسوق عكاظ للغرض ذاته⁽¹⁾. ولم يخل العصر الأموي من أخبار محاكمات مماثلة: إما بين الشعراء أنفسهم، وإما على ألسنة رواتهم⁽²⁾. وفي العصر العباسي؛ لم يعد الشعراء يذهبون إلى حكام ليفصلوا بينهم؛ وإنما أخذوا

(1) انظر خبر تحاكم امرئ القيس وعلقمة لدى أم جندب. الموشح ص 35 36-، وخبر تحاكم أربعة شعراء هم: الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبد بن الطيب، والمخبل السعدي. الموشح ص 96، وخبر تحاكم الشعراء بين يدي النابغة في خيمته بسوق عكاظ. الموشح ص 77.

(2) انظر خبراً مطولاً استغرقت رواياته المتعددة إحدى عشرة صفحة عن اجتماع جماعة من رواة الشعراء في العصر الأموي، أو الشعراء أنفسهم - على اختلاف في الروايات - لدى سكينه بنت الحسين. الموشح ص 212 ص 223.

يتناظرون مباشرة، أو يعقد المهتمون بالشعر الموازنات بين تجاربهم؛ فأخذ بذلك مبدأ المقايسة مظهراً آخر⁽¹⁾. ولا تعد الأمثلة السابقة وحدها شواهد الأخذ بهذا المبدأ؛ إذ نجد الكثير من المأخذ تتخذ مبدأ المقايسة منطلقاً لها. ولعل في المأخذ على الشاعرين كثيرٌ وذي الرمة في الموشح ما يظهر اتخاذ المبدأ منظوراً لأغلب الأحكام على الشاعر. وبالنظر فيما تقدم وغيره من نماذج المقايسة نجد أنها تبدأ بالمفاضلة الجزئية في عدد محدود من الأبيات بين شاعرين، كما يتجسد ذلك في خبر تحاكم امرئ القيس مع علقمة الفحل في وصف الفرس لدى كل منهما. أو بالمقارنة الجزئية بين أبيات مجموعة من الشعراء، ومن ثم تتخذ الأبيات طريقاً لتفضيل تجربة شاعر أو تقديمه على غيره، وهذا يتم غالباً بين الشعراء المتعاصرين⁽²⁾. أو أن تكون المقايسة المحدودة في الأبيات بين شعراء طرّقوا معنى بعينه ممن تنوعت أزمانهم، كما في تتبع المرزباني للشعراء الذين طرّقوا لوصف الليل عقب امرئ القيس⁽³⁾، وكذا معنى الفخر بالكرم في حاليّ الصحو والسكر لدى مجموعة أخرى من الشعراء⁽⁴⁾.

(1) مثال الموازنات التي عقدها القراء المهتمون موازنة الأصمعي بين بشار بن برد ومروان بن أبي حفصة، الموشح ص 317، وموازنة إسحاق الموصلي بين أبي العتاهية والعباس بن الأحنف بين يدي الرشيد، الموشح ص 328. أما مناظرات الشعراء فمن أمثلتها، تناظر مسلم بن الوليد وأبي نواس: الموشح ص 350، وتناظر أبي العتاهية مع كل من منصور النمرى، الموشح ص 321، ومحمد بن منذر، الموشح ص 322.

(2) كما في خبر الزبرقان بن بدر ورفاقه المتحاكمين إلى ربيعة بن حذام.

(3) انظر تتبع المرزباني لوصف الليل عند (سبعة شعراء) تقريباً، فقد بدأ بالمقارنة بين الشاعرين امرئ القيس والنابعة، الموشح ص 38-39، ثم من تابع كلا منهما في معناه من الشعراء اللاحقين، كالمجنون وابن الدمينه الموشح ص 39-40، والطرماح الذي رأى المرزباني أنه سُلط على معنى امرئ القيس ليريه استحالة معنى الليل في المعقول، وأن الصورة والقياس لا توجبه، الموشح ص 40، إلى أن وصل لقول البحري وابن أبي عيينة في المعنى ذاته ص 42.

(4) انظر تتبعاً للمرزباني لهذا المعنى يقرب من التتبع السابق في المأخذ على طرفة بن العبد في الموشح ص 72-74 فقد ورد زيادة على ذكر معنى بيت طرفة، ذكر المعنى لدى كل من: عنتره، وامرئ القيس، وزهير، وحسان بن ثابت، والبحري.

وتتخذ المقايسة بعداً أشمل غير مرتبط بأبيات بعينها؛ وإنما من خلال المقايسة في الغرض الشعري، كوصف الخيل بين أربعة من الشعراء الجاهليين⁽¹⁾. أو أنها تتخذ وسائل أعمق، كالمقايسة التي عقدها الأخفش (الأكبر) بين جرير والفرزدق من خلال استقراء المحاور التي تنهض عليها مجموعة القصائد التي تشكل نقائص كل منهما⁽²⁾. أو في دعم المقارنة بالشواهد اليقينية التي تركز على البعد الإحصائي، كنهج المرزباني في سياق المقارنة بين البحتري وأبي تمام من جهة، وبينه وابن الرومي من جهة أخرى؛ فقد ذكر أنه أحصى (خمسمئة بيت شعري) تمثل سرقات البحتري من أبي تمام⁽³⁾، وأنه وقف على (عشرين قصيدة) أعاد البحتري استخدامها من جديد بعد أن حذف أسماء أصحابها الأولين، وذلك في سياق المقارنة بين البحتري وابن الرومي في كثرة الهجاء، واشتراكهما بخاصة في نقض المدح بالهجاء للشخص ذاته⁽⁴⁾.

ويأتي البعد الأشمل في الأخذ بالمقايسة حين تفضي إلى قراءة لمجمل تجربتي الشاعرين محط المقارنة. الأمر الذي يجعلها تنحو إلى الموازنة التي لا تعتمد على المقايسة بين أبيات محدودة، بل نظرة شاملة تراعي غير جانب فني، في تجربة الشاعرين، وذلك كما في الموازنة التي عقدها الأصمعي بين الشاعرين بشار بن برد، ومروان بن أبي

(1) قال الأصمعي: «لم يكن النابغة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل، ولكن طفيل الغنوي في صفة الخيل غاية النعت» الموشح ص 53.

(2) روى ذلك أبو عبيدة في قوله: «سمعت أبا الخطاب الأخفش يقول - وكان أعلم الناس بالشعر، وأنقدهم له، وأحسن الرواة ديناً وثقة لم يهجم جرير الفرزدق إلا بثلاثة أشياء يكررها في شعره، كلها كذب، منها: جعثن، والزبير والقين»، ثم فصل تلك الأمور وأورد شواهدا والخبر مطول. انظر الموشح ص 167-170.

(3) ذكر المرزباني في الموشح ص 422 «وسرقات البحتري من أبي تمام نحو خمسمئة بيت، وإنما ذكرنا منها في هذا البيت الموضع ما قصر فيه البحتري عن مدى أبي تمام، أو شاركه في عيبه».

(4) قال المرزباني في الموشح ص 415 عن البحتري «ومما قبح فيه أيضاً وعدل عن طريق الشعراء المحمودة - أني وجدته قد نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم إلى مدح غيرهم، وأما أسماء من مدحه أولاً، مع سعة ذرعه بقول الشعر، واقتداره على التوسع فيه. ولم أذكر حاله في ذلك على طريق التحامل مع اعتقادي فضله وتقديمه؛ ولكني أحببت أن أبين أمره لمن لعله انستر عنه».

حفصة⁽¹⁾.

على أن أكثر ما نتج عن التعويل على هذا المبدأ هو قلة الأحكام التي تنظر إلى الشعر والشاعر في حد ذاتهما خارج منظور المقايضة. ولذلك فإن مجمل القيم الجمالية لتلقي الشعر المستقاة من تجارب الشعراء القدامى، على وجه الخصوص، ظلت تدور في هذا المبدأ بصفته إطاراً يحوي أنماط تلقي الشعر وتذوقه كافة، وهو ما سيسهم إلى حد كبير في إضعاف مرونة أسس التلقي لدى التعامل مع الظواهر والقيم الشعرية المستجدة، مما يترتب عليه تصادم القراء مع الشعراء المحدثين الذين أثاروا هذه القيم وعلى رأسهم أبو تمام، مقابل استيعاب القيم بصفقتها إضافات جديدة، يمكن إدراجها ضمن المنظومة العامة لقيم التلقي.

2 - الشرط العلمي (المستويات اللغوية والنحوية):

تتبع مؤرخو النقد العربي ودارسوه هذه القيمة ضمن الطور الأول للنقد العربي، وذلك في وقت كانت الجهود النقدية مقتصرة على محاولات علماء اللغة⁽²⁾.

وعلى الرغم مما يشير إليه ذلك من أن تلقي الشعر في ضوء هذه القيمة كان ضرورة ناجمة عن التزامن مع مرحلة جمع اللغة والتفعيد للنحو، وتعويل العلماء آنذاك على دور الشعراء المحتج بهم في تلك المرحلة. إلا أن جانباً من تلقي الشعر وفق هذه القيمة

(1) نص الموازنة في الموشح ص 317 «حدثني أبو حاتم السجستاني، قال: قلت للأصمعي: أ بشار أشعر، أو مروان؟ قال: بشار أشعرهما، قلت: وكيف ذاك؟ قال: لأن مروان سلك طريقاً أكثر سلاكه فلم يلحق بمن تقدمه، وإن بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه أحد، فانفرد به وأحسن فيه، وهو أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر وأكثر بديعاً، ومروان أخذ بمسالك الأوائل».

(2) ينظر على سبيل المثال:

نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي، عبد العزيز جسوس، مراكش، المغرب 1995.
النقد في القرن الأول الهجري، حمود بن محمد الصميلي، إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) الرياض 1418.

كتب: تاريخ النقد العربي، لإحسان عباس، وطه إبراهيم، وعبد العزيز عتيق (المباحث المتعلقة في تلك المراجع بالنقد في القرنين الأولين).

قد استمر التعامل به مع التجارب الشعرية خارج نطاق المرحلة التاريخية السابقة؛ مما يوحي بأن هذا المستوى البديهي في تجارب الشعراء بقي ساري المفعول ضمن قيم التلقي. ولا يعني ذلك عدم أخذ هذا البعد الأساسي في التكوين الشعري بالحسبان لدى تلقي الشعراء الذين ظهروا بعد انقضاء زمن الاحتجاج؛ لكن بقاء الجدل حول قيمة باتت بديهية يدل على وجود قراء من المهتمين بالشعر ما زالوا يعملون بهذه القيمة من منظورها القديم. ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره المرزباني في الموشح عن مأخذهم على إسحاق بن خلف البصري من قوله: [المتقارب]

وَلُبْسُ الْعِجَاجَةِ وَالْخَافِقَاتِ تَرِيكَ الْمَنَابِرُؤُوسِ الْأَسْلَ

«يريد المنايا فلم يستوله في هذا البيت، وقد احتج له قوم وأجازوه»⁽¹⁾؛ فمؤاخذة قوم، واحتجاج آخرين تشير إلى ما سبق ذكره. ولم يقتصر النظر إلى أمثال هؤلاء الشعراء من الأعراب، بل إن جزءاً من تلقي تجارب شعراء باتت معروفة، كتجربتي أبي نواس، والبحري، مازال تلقيها يأخذ في حسابه هذه القيمة، وما يتبعه الأخذ بها من إسهام في الحكم على الشاعرية مجملًا. فـ«أبو نواس لحانة»⁽²⁾. والبحري بعدما أورد المرزباني ثلاثة مأخذ عليه في القيمة ذاتها، عقّب بما قاله بعضهم عنه إذ قالوا: «لو تتبع اللحن في شعره لوجد أكثر من هذا»⁽³⁾.

غير أن ما أورده المرزباني نقلاً عن قدامة بن جعفر فيه إشارة إلى تطور العمل بالقيمة في جانبها اللغوي، واختلاف النظرة بها لدى القراء المهتمين بالشعر في القرنين الثالث والرابع؛ إذ بدت قيمة متجددة، ودالة على وعي القراء المهتمين بالشعر وتبينهم لمسوغات ظهورها المتباين من عصر لآخر، ومن بيئة لأخرى. فمن ضمن ما نقله المرزباني من عيوب الشعر لدى قدامة قوله عن استخدام الوحشي من الكلام في

(1) الموشح ص 430.

(2) الموشح ص 333.

(3) الموشح ص 411.

الشعر⁽¹⁾: «من عيوب الشعر أن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا في القُرط، ولا يتكلم به إلا شاذاً، وذلك هو الوحشي [...]»⁽²⁾ وهذا الباب مجوز للقدماء، ليس من أجل أنه حسن؛ لكن لأن من شعرائهم من كان أعرابياً قد غلبت عليه العجرفية، وللحاجة أيضاً إلى الاستشهاد بأشعارهم في الغريب؛ لأن من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب له، والتكلف لما يستعمله منه؛ لكن لعادته وعلى سجية لفظه. فأما أصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع، وينبو عن السمع، مثل شعر أبي حزام غالب بن الحارث العكلي، وكان في زمن المهدي... «ثم ذكر بعضاً من شعر أبي حزام وغيره إلى أن وصل إلى مستوى وصفه بـ«فطيع التوحش».

وكلام قدامة يدل على الوعي باختلاف وجود الوحشي في لغة الشعر بين القدماء والمحدثين وذلك أول المستويات، التي تتلمس الفرق في استعمالها مجملاً. كما يدل ثانياً على الفرق في تقبل الحوشي في استعمال القدماء أنفسهم. إذ إنه لا يكفي القدم مسوغاً؛ فوجودها ليس يستحسن إلا من جهتين: الأولى أن يكون المستخدم أعرابياً - بل إنه بحسب وصف قدامة أعرابي (متعجرف) - فيسوغ ذلك قبول استعماله لأن تلك سجيته غير المتكلفة. والثانية: أن القبول إنما ساغ لما سبق قوله من التزامن وفترة الاحتجاج. وإذا كانت هذه الأمور تضيق من مدى تقبل الظاهرة في شعر القدماء، كان بدهياً نعت من يطلبها من المحدثين بالمتكلف الذي ينبو الطبع عن استخدامه الشعري. وبالتالي فإن ما ذكره قدامة عن خاصية تقبل الوحشي يقدم مثالا لتطويع قيمة التلقي المستقاة أساساً من شعر القدماء، وتطويعها لتصبح قيمة أكثر مرونة لدى التعامل مع المستجد الشعري. كما أن ذلك ينطوي على أن العمل بالقيمة لم يتخذ وتيرة واحدة تنظر إلى تجارب المحدثين والقدامى على حد سواء.

3- الخصوصية والاشتراك في الاستخدام الشعري:

لا يتجلى الاهتمام بهذه القيمة لدى المتلقين المهتمين بالشعر من القدامى في جدلهم

(1) الموشح ص 436.

(2) تنمة الكلام: «الذي مدح عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته، وتنكبه إياه، قال: كان لا يتبع حوشي الكلام»

الذي استمر طويلاً حول قضيتي (اللفظ والمعنى) و(السرقا) فحسب؛ بل يظهر انعكاس هذه القيمة من خلال اهتمام الدارسين المحدثين بنظرية (التناس) على وجه الخصوص. وسواء أكان هذا الانعكاس يتجلى مباشرة، كما بدا في محاولة عبد الملك مرتاض التي ربط فيها بين الظاهرتين بإطارها المختلفين العربي القديم، والغربي الحديث⁽¹⁾؛ أم كان هذا الانعكاس غير مباشر من خلال تزامن عدة أبحاث ودراسات عن ظاهرة التناس الغربية⁽²⁾؛ فذلك الانعكاس بشكله يجسد المقدار الذي غدت عليه قيمة التلقي هذه مكرسة في ذهن المتلقي العربي.

وبما أن مآل البحث في قضية (اللفظ والمعنى) - بما نجم عنه من انقسام بين المتلقين ما بين مناصر لأحد الطرفين، أو محايد - يصب في النهاية في مفهوم (السرقا)، ذلك المحور الذي جلته كثيراً جملة المآخذ التي جمعها المرزباني. فإن تتبع هذه القيمة سينطلق من المآخذ المعنية بالسرقا وما تمخض عنها من مفاهيم.

ويبدي تتبع المرزباني لمآخذ السرقا أن اشتغال القراء القدماء من المهتمين بالشعر كان ذا نظرات متباينة. فثمة نظرات مفردة في التعميم، أطلقت على هيئة أحكام عامة تعوزها جملة من البراهين اليقينية المحسوسة، خصوصاً أنها تؤول إلى

(1) فكرة السرقا الأدبية ونظرية التناس، عبد الملك مرتاض، علامات، نادي جدة الأدبي، ج1، مج1، ذو القعدة 1411، ص 70 - 91.

(2) انظر: علامات، نادي جدة الأدبي كلاً من الدراسات التالية:

- نظرية التناس: المختار حسني، مج10، ج34، ص (241-255)
- التناسية: ليون سومفيل، ترجمة وائل بركات، مج6، ج21، ص (233-256)
- نظرية التناسية: بيير مارك دوبيازي، ترجمة الرحوي عبد الرحيم، مج6، ج21، ص (307-319).
- التناسية: مارك انجينو، ترجمة وتعليق محمد خير البقاعي، مج5، ج19، ص (123-155)
- أضواء على النص المترجم: [يحتوي على ترجمة لمقال جيرار جينيت عن العلاقات النصية] محمد خير البقاعي، مج6، ج24، ص (133-158).
- التناس عند عبد القاهر الجرجاني: محمد عبد المطلب، مج1، ج3، ص (49-98).
- ملاحظات وتعقيبات على السرقا والتناس: صالح معيض الغامدي، مج1، ج2، ص (183-189).

مصادرة تجارب شعراء معروفين، كنسبة كثير من شعر امرئ القيس إلى فتیان كانوا معه⁽¹⁾، أو الحكم على تسعة أعشار شعر الفرزدق بأنه مسروق⁽²⁾. وفي مقابل تلك الفئة التعميمية مقدار لا يتأتى حصره من أمثلة السرقة والأخذ التي تعتمد على نظرات مفرطة في التخصيص والتناول الجزئي للبيت والبيتين بهدف بيان السارق من المسروق منه بناء على تطابق شكلي في المفردات المتشابهة، أو اشتراك في مضمون ما. علماً أن كثيراً من هذه النظرات تغض النظر عن التباين الأسلوبي فيما يبدو متطابقاً في ظاهره من أمثلة السرقة والأخذ⁽³⁾.

(1) انظر: الموشح ص 42.

(2) انظر: الموشح ص 146.

(3) انظر: الموشح ص 429 إلى هذا المأخذ الذي نوره بنصه: «اشترك محمود [الوراق] وعلي بن الجهم في معنى قول عليٍّ وأحسن فيه: [الكامل]

كم من عليلٍ قد تخطأهُ الردى فَنَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ
وقول محمود: [المتقارب]

وكم من مريضٍ نعاهُ الطيبُ إلى نفسِهِ، وتَوَلَّى كَيْبَا
فماتَ الطيبُ وعاشَ المريضُ فأضْحَى إلى الناسِ يَنْعَى الطيبَا

فأساء فيه؛ لأنه إن كان أخذه من علي وجاء به في بيتين، ومضَّعُهُ، وصيره قصصاً بقوله: أضحي ينعاه إلى الناس - فقد أخطأ، وإن كان علي أخذه منه فقد جاء به في بيت واحد وأحسن، فصار أحق بالمعنى منه»

ويلاحظ هنا أن النظر بُني في المأخذ السابق على وحدة الفكرة (المعنى) موت الطبيب، وحياة مريضه، وبناء عليه؛ فالأحقية بالمعنى والأفضلية إنما تكون للأول أو المختصر، بغض النظر عن كون صاحب البيتين لفرط ثقة الطبيب بنفسه في البيت الأول، مما يجعل صاحب البيتين قد تناول الفكرة وأعادها برؤية أخرى. جدير بالذكر أن كلاً من: أدونيس علي أحمد سعيد، وسعيد السريحي قد تناولا عدداً من الأبيات المشابهة للمثال السابق. فتوصل الأول إلى أن أبياتاً حُكِمَ عليها بالسرقة انضوت على إضافة عدد من الأبعاد عن تلك التي اهتمت بالسرقة منها، فيما توصل الثاني إلى أن عدداً من الأبيات ذاتها تدل على تكثيف اللغة الشعرية في أمثلة السرقات. انظر: الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، 2 تأصيل الأصول، ط3، دار العودة بيروت 1982 ص 189-196. وانظر: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، المجلد الآخر،

والخلاصة التي نخرج بها من هذا الجهد القرائي لدى عدد من النقاد القدامي أن سيرهم بهذه القيمة كان يتركز في التعقب والملاحقة، من خلال تصور ملكية فردية للفكرة. وليس أدل على هذا التصور من تقسيم المعاني إلى خاص ومشترك، أو مبتدع ومولد⁽¹⁾؛ وما آل إليه الأمر لدى بعضهم من إيصال أنواع السرقة إلى ما يقارب العشرين نوعاً⁽²⁾. ويبدو أن هاجس البحث الجزئي هذا كان مدفوعاً بتيار من الخصومات حول الشعراء. ومع أن وجهة النظر القائلة: إن القدماء عرفوا كل شيء غير صحيحة عموماً، فإن ذلك لا يعني أن ننفي على الإطلاق وجود تقارب، أو نقاط التقاء ما بين الطرحين القديم لدى الأسلاف، والحديث الذي نجم عنه المنهج والنظرية. وعندما ننظر إلى تداخل قراءات الشعراء وانعكاسها على أشعارهم، فإننا نجد جانب التقاء بين مفهوم السرقة الأدبية بأنواعها قديماً، والطرح المستجد حديثاً عن مفهوم التناص.

وإذا اتخذنا من ذلك منطلقاً فسيبدو التصور الأنسب لقيمة الخصوصية والاشتراك في التوقف ملياً عند مأخذ السرقات التي حكيت عن الفرزدق بخاصة. إذ يفصح ذلك عن ثلاثة أمور: الأول: نهج الجرأة التي لم يتورع الفرزدق فيها عن اغتصاب الآيات بمرأى ومسمع أصحابها، بل أمام الملأ في الأماكن العامة. والثاني: هو التأويل الذي توصل إليه أحد قراء هذه الممارسة القدامى في تعقيبه على فعل الفرزدق المتكرر مع عدد من الشعراء. والثالث: ما يمكن أن نستنتجه من الأمرين السابقين من خلال ربط ظاهرة الفرزدق هذه بما أثاره ابن المعتز في رسالته عن أبي تمام، عندما ذهب إلى

النادي الأدبي الثقافي بمجدة، 1410 محور: «تكثيف اللغة الشعرية قراءة في مبحث السرقات»، ص 749-768.

(1) انظر: مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية مقارنة، محمد مصطفى هدار، المكتب الإسلامي بيروت، 1401 فقد أشار إلى هذا التقسيم لدى أبي هلال العسكري (395هـ) ص 111-113.

(2) رصد هدار عن محمد بن حسن الحاتمي (388هـ) تسعة عشر نوعاً من مسميات السرقة، مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية مقارنة، محمد مصطفى هدار، ص 108-110. وقد بلغت عشرين نوعاً، لدى ابن وكيع التنيسي، عشرة محمودة، ومثلها مذمومة. انظر: المنصف في نقد الشعر، وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، للحسن بن علي بن وكيع التنيسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، 1402. ص 7-88.

أنه «طوى أكثر إحسان الشعراء؛ وإنما سرق بعض ذلك، فطوى ذكّره. وجعل بعضه عُدةً يرجع إليها في وقت حاجته، ورجاء أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها، ويقنعوا باختياره لهم؛ فتغبي عليهم سرقاته»⁽¹⁾.

فالجُرأة التي تصور اغتصاب الفرزدق للأبيات فور سماعها من أصحابها، تشير إلى أنه لم يكن يقيم أدنى اعتبار لعواقب التهمة، وما تكرر ذلك الفعل مع الشعراء - جميل، وكثير، وذو الرمة، والراعي، وابن ميادة، وقبلهم المخبل، والأعلم العبدى⁽²⁾ - سوى دليل على عدم اكترائه بالسرقة، وإلا لما أقدم على ذلك علناً. ولا سيما أن الفرزدق هو ذاته الذي رأيناه يقيم اعتباراً كبيراً للعلماء، ويتوخى تربصهم بأخطائه. ومؤدى ذلك أن الفرزدق كان معنياً في المقام الأول بسرعة اقتناء الأبيات التي يسمعها قبل رسوخها لأصحابها بأذهان القراء؛ فكان أن وُصف باغتصابها.

وعندما ننظر في تفسير القارئ القديم⁽³⁾ لفعل الفرزدق نجد أنه قال: «إنما فعل الفرزدق بجميل، وذو الرمة، وغيرهما هذا؛ لأنه لما مر به شعر جيد رأى نفسه أحق به من قائله؛ لفضله في الشعر؛ ولأنه من جنس جيده، لا رديء قائله»⁽⁴⁾.

من هنا نستنتج أن المسألة مسألة قراءة ووعي بالشعر الجيد، ومن ثم فإن ذلك لا يعني أن الفرزدق كان مغتصباً في المقام الأول، بمقدار ما أنه كان مثالا للمتلقي الجيد؛ سواء أكان ذلك في شعره خاصة، أم كان في مختاره الذي رآه يستحق تلك الجرأة. وسواء أبقى الرواة على الأبيات المغتصبة ضمن الشعر المنسوب إلى الفرزدق، أم ردوها لأصحابها⁽⁵⁾ ففي كلتا الحالتين فإنه - بشهادة قارئه القديم - قد قام بالدور المتوخى منه،

(1) الموشح ص 383.

(2) انظر: الموشح: المآخذ على الفرزدق، تجد أخبار سرقاته ص 148 - 153.

(3) هو يحيى بن علي المنجم.

(4) الموشح ص 153.

(5) أشار محقق كتاب الموشح إلى وجود الأبيات التي ذكر عن الفرزدق أنه اغتصبها من جميل في ديوان الأخير، في حين أشار إلى وجود الأبيات التسعة المسروقة من الأعمى في ديوان الفرزدق. انظر: الموشح ص 151-152.

على اعتبار فضله في الشعر. ولو لم يكن هذا أو ذاك؛ ففي هذه الإثارة التي قام بها الفرزدق خدمة جليلة لهذه الأبيات التي كان من الممكن أن تمر مرور غيرها. فكان تنبه الفرزدق لها كافياً للفت الأنظار إليها وإلى أصحابها الأصليين.

أما عنصر الربط بين قراءة الفرزدق التي اكتفى فيها باختيار عدد محدود من الأبيات، وبين ما يمكن فهمه في محاولة ابن المعتز التي قلل فيها من قيمة عمل أبي تمام عندما فسر قراءته، ومن ثم دوافع الاختيار لديه بأنه إخفاء للقصائد التي تفضح سرقاته - عنصر الربط هذا يبدي أن أبا تمام قد قام بعمل الفرزدق على نطاق أوسع، فكان عمله من ثلاث مراحل. الأولى: قراءته إجمالاً لنتاج الشعراء القدامى، والثانية: قراءته الخاصة التي تمثل ذوقاً محدداً حاول تكريسها فيما اختاره من ذلك الننتاج. والثالثة: قراءته الإنتاجية التي ظهر فيها شعره على نحو مغاير لمختاره.

ولذلك فإن ابن المعتز إما أنه قد فهم ذلك العمل حق الفهم، فحاول التقليل من أهميته في رسالته التي أكثر فيها من مساوئ أبي تمام، وإما أنه قد ذهب لذلك التفسير؛ لما لم يجده من تماثل بين شعره ومختاره.

وتبدي المقارنة بين عملي الفرزدق وأبي تمام التشابه والاختلاف في الوقت ذاته. فالاختلاف كان في نهج الممارسة والتوسع في المادة المختارة، وفي محاولة أبي تمام البعد قدر الإمكان عن التأثير المباشر بمختاراته. ويؤيد وجهة النظر هذه ما توصل إليه إدريس بلمليح في المقارنة بين مختارات أبي تمام، وتعارضها إجمالاً مع نهجه الشعري، في التحليل الذي قام به في دراسته عن المختارات الشعرية⁽¹⁾. أما التشابه بين العاملين فكان في قراءتهما واختيارهما الشعر الذي رآه كل منهما جديراً بالتقديم.

ومن هنا فإن المحصلة النهائية لهذه القيمة أن السرق إنما هو في المقام الأول نمط من أنماط التلقي لجيد الشعر، ومن ثم إعادة تمثيل له. وأن الوقوع في السرق الظاهري؛ فإنه إما أن يكون متعمداً؛ فيبدي الشاعر اللفظ والفكرة ذاتهما ظاهرياً مع أنه قد مارس خلاف ذلك كما ظهر سابقاً؛ وإما أنه قد يقع عن غير عمد لما قد بات محتمراً

(1) المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، إدريس بلمليح.

في ذهن الشاعر من قراءات. وبذلك فإن تداخل القراءات يعد العامل الرئيسي الذي أدى إلى ظهور هذه القيمة، أما تكثيف العمل بها لدى القراء فمن شأنه التدليل على سعة اطلاع القراء، ومقدرتهم على تعقب معاني الشعراء بما في ذلك (السرق الخفي).

4 - الموافقة والمخالفة للعناصر الطبيعية والإنسانية:

يشير الحوار الذي دار بين الشاعرين أبي نواس، ومسلم بن الوليد إلى المقصود بهذه القيمة. فقد روى ميمون بن هارون الكاتب وغيره أنه «اجتمع أبو نواس ومسلم يوماً، فقال له مسلم: ما أعلم لك بيتاً إلا مدخولاً معيباً ساقطاً. فأنشُد أي بيت أحببت. فأنشُد أبو نواس إنشاد المُدِلَّ: [الكامل]

ذكر الصبوح بسُحرة فارتاحا وأملَّه ديك الصباح صياحا
فقال له مسلم: قف عند حُجَّتِكَ، لِمَ أَمَلَّه صياحاً وهو يبشره بالصبوح الذي ارتاح
له؟ فانقطع أبو نواس انقطاعاً بيّناً، فجعل الجواب له معارضة، فقال له: أنشد ما أحببت
من شعرك، فأنشُد مسلم: [الكامل]

عاصى الشباب فراح غير مفندٍ وأقام بين عزيمة وتجلدٍ
فقال له أبو نواس: حسبك حيث بلغت. ذكرت أنه راح، والرواح لا يكون إلا
بانتقال من مكان إلى مكان، ثم قلت:

..... وأقام بين عزيمة وتجلد
فجعلته متنقلاً مقيماً. فانقطع مسلم. وتشاغبا وافترقا. وقال ميمون: والبيتان
جيدان، ولكن قلَّ من طلب عيباً إلا وجده»⁽¹⁾.

إن هذا الحوار بين الشاعرين يمثل انعكاساً لتعامل القراء المهتمين بالشعر من خلال النظر إلى موافقة وصف الشاعر أو مخالفته للعناصر الطبيعية والإنسانية بما فيها من مكونات حركية، أو طبائع، بصفة ذلك معياراً للحكم على جودة الشعر وإحكامه. فالتوافق الذي يبديه الشاعر في أبياته لدى نقله الدقيق لتلك العناصر

(1) الموشح ص 350.

وأوصافها يؤدي غالباً إلى الحكم بالجودة على الشعر، في حين تعد مخالفة ذلك رداءة أو وقوعاً في العيب. ويظهر أن حكم الجودة الذي عقب به قارئ هذا الحوار كان محاولة للتغاضي عن مقدار التمثل الذي يذهب إليه القراء بهذه القيمة؛ فيبدون محاسبة قد لا تفضي إلى طائل. كما كان التعقيب محاولة لتغيب الرسالة غير المباشرة التي أراد الشاعران إيصالها إلى فئة القراء بهذه القيمة. ولعل الرسالة بدت أكثر وضوحاً وتهكماً في رواية سابقة مختصرة، عندما افتتح مسلم نقده بعبارة قريبة من عبارة (أم جندب): (لَمْ جَعَلَتْ فَرَسَكَ جَمُوحاً؟)؛ فهي تحمل نقداً ضمنياً للذين يقرأون الشعر بمنظار (أم جندب) في الجاهلية⁽¹⁾.

ويبدو تكريس العمل بهذه القيمة في كثرة المآخذ المعتمدة عليها في كتاب الموشح من خلال عشرات المآخذ التي تبدو على شاكلة مأخذ الأصمعي على امرئ القيس في عدم موافقة وصفه لهيئة الصائد الذي يكون أشد ختلاً من أن يظهر زنديه⁽²⁾. ومثله مأخذه على النابغة الذبياني حين خلط في وصفه بين صفات الإناث والذكور من الإبل⁽³⁾. والنابغة ذاته هو من أخذ حسان بن ثابت على إقلال جفانه، وأسيافه، وفخره بمن ولد⁽⁴⁾. وغير ذلك من المآخذ التي تنطلق من قيمة التوافق والمخالفة للعناصر

(1) نص الرواية في الموشح ص 349: «لَقِيَ أَبَا نَوَاسٍ مُسْلِمَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَالَ لَهُ: يَا حَسَنُ، حَدَّثَنِي عَنْ قَوْلِكَ: [الوافر]

جَرَبْتَ مَعَ الصَّبَا طَلُقَ الْجُمُوحُ وَهَانَ عَلَيَّ مَأْثُورُ الْقَبِيحِ
لَمْ جَعَلْتَ فَرَسَكَ جَمُوحاً؟ وَلَمْ سَمِيتَ لَهُوكَ قَبِيحاً؟ فَقَالَ: يَا مُسْلِمُ، الْجُمُوحُ أَبْعَدُ الْأَفْرَاسِ شَأْوًا، وَأَبْطُؤُهَا فَتَوْرًا. وَسَمِيتَ لَهُوي قَبِيحاً إِثَارًا لِلْعَقْلِ، لَا اتِّبَاعًا لِلْجَهْلِ».

(2) الموشح ص 35، وبيت امرئ القيس هو: [المديد]

رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ مَخْرَجَ زَنْدِيهِ مِنْ سِتْرِهِ
والشطر الثاني في الديوان (مُتْلِجٌ كَفَيْهِ فِي قُتْرَةٍ)، أي يدخل كفيه في القتر وهي بيوت الصائد التي يكمن فيها لئلا يفتن له الصيد فيفر. ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط 4، 1377 (التاريخ من المقدمة) ص 123.

(3) الموشح ص 53.

(4) الموشح ص 77-78.

الطبيعية والإنسانية⁽¹⁾.

ولم تكن هذه المآخذ مقتصرة على الشعراء الجاهليين والإسلاميين فحسب؛ بل إنها بقيت حتى في نظر النقاد المتأخرين إلى الشعراء المحدثين. وسنرى ذلك في المحاور التالية لاحقاً. لكن نقصر في هذا الموضع على أحد الأمثلة التي ينظر بها ناقد متأخر، كقدامة بن جعفر إلى بيتين للشاعر المحدث أبي نواس، ففيه يضرب قدامة مثلاً للتمسك بمنظور هذه القيمة على الرغم مما استدركه على نفسه عندما افترض محتجاً يحتاج بغير ما رآه. وذلك يبين الجهد الذي استغرقته هذه القيمة والمقدار الذي أثرت به على وقفات النقاد إلى وقت متأخر. يقول قدامة: «ومن التناقض قول أبي نواس أيضاً يصف الخمر: [الطويل]

كأن بقايا ما عفا من حبابها تفاريق شيب في سواد عذار
فشبه حباب الكأس بالشيب، وذلك قول جائز؛ لأن الحباب يشبه الشيب في البياض وحده لا في شئ آخر غيره، ثم قال:

تردت به ثم انفري عن أديمها تفري ليل عن بياض نهار
فالحباب الذي جعله في هذا البيت الثاني كالليل هو الذي في البيت الأول أبيض كالشيب، والخمر التي كانت في البيت الأول كسواد العذار هي التي صارت في البيت الثاني كبياض النهار؛ وليس في هذا التناقض منصرف إلى جهة من العذر؛ لأن الأبيض والأسود طرفان متضادان. وكل واحد منهما في غاية البعد عن الآخر، فليس يجوز أن يكون شيء واحد يوصف بأنه أسود وأبيض، إلا كما يوصف الأدكن في

(1) انظر على سبيل المثال المآخذ على امرئ القيس (الموشح ص 34-48) تجد ستة مآخذ تنطلق من هذه القيمة من مجموع المآخذ العشرين عليه.

وانظر مآخذ ذي الرمة، الموشح ص 231 - 237، تجد أربعة من المآخذ عليه لإخلاله بوصف الناقة في مواضع مختلفة من شعره. وانظر ما نقله المرزباني في الموشح ص 117-122 عن ابن طباطبا في الأبيات التي قصر فيها أصحابها عن الغايات التي أجروا لها، ولم يسدوا الخلل الواقع فيها معنى ولا لفظاً. علماً أن الخلل كان ناتجاً عن مخالفة الشعراء في أبياتهم لأوصاف الفرس، والناقة، وبعض السمات التي ينبغي وصف الممدوح بها.

الألوان بالقياس إلى كل واحد من الطرفين اللذين هو وسط بينهما، فيقال إنه عند الأبيض أسود وعند الأسود أبيض. وليس فيما قاله أبو نواس حال توجب انصراف ما قاله إلى هذه الجهة»⁽¹⁾.

إن العرض السابق يمكن إعادته على النحو التالي لتوضيح رأي قدامة. فأبو نواس شبه الخمر في البيت الأول بالسواد من (سواد شعر اللحية)، وشبه بقايا حبابها بالبياض من بياض (تفاريق الشيب في تلك اللحية). ثم نقض هذه الألوان في البيت الثاني عندما عكس اللون الأبيض الذي كان للحباب إلى الأسود من (سواد الليل) وجعل الخمر التي كانت سوداء من (سواد شعر اللحية) بيضاء من (بياض النهار). وهذا العمل تناقض فيه أبو نواس مرتين لأنه في مجموع البيتين يكون قد أعطى كل عنصر لونين في وقت واحد؛ فللخمر لوان (أسود، فأبيض) وللحباب لوان أيضاً (أبيض، فأسود)؛ وهذا ما لا يجوز في رأي قدامة. وعلى الرغم من أن قدامة قد أبدى قيمة التوافق والمخالفة للعناصر الطبيعية مختلفة بمصطلح (التناقض) إلا أن رؤيته توضح تكرر القيمة لديه، وإصراره عليها غير مرة في عرضه السابق لها. واللافت للنظر تنبه قدامة للاحتتمالات التي من شأنها أن تبدي وجوهاً أخرى⁽²⁾

(1) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط3، 1398، (التاريخ من المقدمة) ص207، والموشح ص331-332. وقد اقتصر المرزباني على النقل المثبت هناك، دون أن يكمل ما افترضه قدامة من احتمالات الاحتجاج لأبي نواس. ولعل ما لم يكمل المرزباني نقله من هذا الموضع عن قدامة مما ادخره لرسالته في الاحتجاج.

(2) بالرجوع إلى نص قدامة في سياقه الأصلي نجد ذكره تلك الاحتمالات في قوله: «ولعل قوماً أن يحتجوا لأبي نواس بأن يقولوا: إن قوله:

تفري ليل عن بياض نهار

لم يرد به أسود ولا أبيض، لكن الذي أرادته إنما هو ذات التفري وانحسار الشيء عن الشيء أسود كان أو أبيض أو غير ذلك من الألوان» نقد الشعر ص207، ثم ذهب يفند هذا الوجه، بأن «من يحتج بهذه الحجة تبطل من جهات: إحداها أن الرجل قد صرح بأنه لم يرد غير اللون فقط بقوله عن بياض نهار. والثانية تشبيهه الحباب بالشيب لأن الحباب لا يشبه الشيب من جهة من الجهات غير البياض. والثالثة أن النهار

لكنه بنفيها يؤكد مقدار التمسك بضرورة مبدأ المخالفة والموافقة مع العناصر المشار إليها لدى الحكم على أبيات الشاعر.

ويبدو أن دفعه للأوجه المحتملة مبني على اهتمامه بالتوافق اللوني فقط، ودحض بقية العناصر، كالتردد في الحركة، وغيرها من العناصر الأخرى التي تُبنى عليها الصورة في مجملها. ففي المشهد الأول من الصورة يحتمل أن يكون المقصود حجم الحجاب وحركتها المتدرجة من الكثرة إلى القلة، والتدرج في القلة تعززه مفردة (بقايا) التي تتوافق ومفردة (تفاريق)؛ وبذلك لا يكون المراد مقتصرًا على الوحدة اللونية فحسب؛ إنما القلة، إذ تجسد ذلك في (تفاريق شيب في سواد عذار). ويبدو إصرار قدامة على التوافق اللوني في استبعاده أي وجه شبه آخر يقوم بين الشيب والحجاب سوى ما ذكره من وحدة اللون بينهما، مع أن ذلك قائم أيضا في ندرة الشيب وقلته في اللحية، أو العكس. أما المشهد الآخر من الصورة فيمثل حركة عكسية للخمر - إبان انجلاء الحجاب عنها - من عدم الوضوح تحت الحجاب إلى التجلي أكثر فأكثر، كما يتجلى (الليل عن بياض النهار). وهنا ذهب قدامة إلى أن الليل إنما هو الظلمة، والنهار إنما هو الضياء. مستبعداً التقاء الظلمة والضياء في حالة، كالغيش مثلاً. وبهذا يبدو أن المشهد وتحوله الحركي هو المغزى المحتمل لدى أبي نواس، وليس المطابقة الشكلية بين الألوان، كما أصر قدامة على ذلك⁽¹⁾. وفي نهج قدامة ما يبدي مقدار الأثر الذي ينتج عن الحرص على التلقي وفق هذه القيمة فحسب.

والليل ليس هما غير الضياء والظلمة» نقد الشعر ص 208. كما استبعد البعد الحركي بقوله: «إن قال القائل مثلاً في شيء: إنه قد تبرأ من شيء كما تتبرأ الشعرة من العجين» نقد الشعر ص 207.

(1) جدير بالذكر أن ابن سنان الخفاجي قد استدرك على قدامة في هذين البيتين. انظر: سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، محمود الحلبي، القاهرة 1969، ص 234.

المحور الثاني

مظاهر التلقي وقيمه المستقاة من الجدل حول تجارب الشعراء المحدثين

يخرج القارئ في الآراء المتداولة حول تجربة الشعراء المحدثين - في الحقبة الزمنية التي عني بها المرزباني منذ ظهورهم إلى العقد الثالث من القرن الرابع الهجري - بانطباع مفاده أن قيم الشعر المحدث ما زالت في طور الجدل والنزاع حولها ضمن عملية مخاض مطولة بين أطراف التلقي. كما أن كثيراً من السمات الخاصة بالشعراء المحدثين لم يبيدها القراء المهتمون بصفتها محاسن في المقام الأول؛ بل إنها مما يندرج في آرائهم على هيئة مأخذ، أو معائب، بحسب أوصافهم، ناهيك عن إضافتها - أحياناً - إلى دائرة الإفراط.

ومما يدل على أن تأخر استظهار القراء لقيم الشعر المحدث في الحقبة المشار إليها كان ناتجاً عن عدم حسم الخلاف أو حسم بعض جوانبه، وأنه لم يأخذ طابع الاستقرار النسبي لفترات غير قصيرة، على أقل تقدير، أن الظهور المتأخر نسبياً لتجربة أبي تمام، عقب قرن من سابقه المحدثين، قد أحدث من ردود الفعل ما يكاد يوازي ردود الفعل على تجارب سابقه. ولعل في رد الفعل الذي يظهره ابن المعتز - وهو المؤلف المنتمي إلى تجربة الشعر المحدث في رسالة عن شعر أبي تمام قبيل نهاية القرن الثالث - ما يدل على عمق الاختلاف، وطول الأمد الذي استغرقه الجدل حول القيم الشعرية التي جسدتها تجارب الشعراء المحدثين.

ولذلك كله فإن التناول هنا سيعنى أساساً ببعض المظاهر المستقاة من نقاط الالتقاء المشتركة، التي استمر التفاعل حولها، بصفة هذا التفاعل عملية من الجدل المستمر بين أطراف عملية التلقي؛ وبصفة أن تجربة أبي تمام وردود الفعل حولها شكلت من جهة مركزاً مهماً في تلقي الشعر المحدث إجمالاً ونقطة تحول في نمط التفاعل معه. ومن جهة أخرى لما تركته ردود الفعل الأولى حول شعر أبي تمام من تكريس لنمط استجابة وتفاعل واحد سيطر على غالبية القراء بمن فيهم قراؤه في القرن الرابع ممن

يقعون خارج نطاق الحقة التي عني المرزباني بها.

وهنا كان من الضروري العودة أولاً إلى السياق التاريخي لتعامل القراء المهتمين مع طلائع الشعراء في الحقب الشعرية؛ لنرى طبيعة التعامل قبل ظهور تجربة أبي تمام وبعدها، ومحاولة النظر إلى ذلك من منظور جماليات التلقي، خصوصاً مفهوم أفق التوقعات. مع الاستضاءة بآراء بعض الدارسين الذين عنوا بمواقف النقاد القدامى من شعر أبي تمام خارج إطار نظرية التلقي وداخله. ثم يأتي النظر ثانياً إلى أبرز مظاهر التلقي وقيمه المستقاة من عملية الجدل حول الشعر المحدث، سواء تلك التي اجتذب اهتمامها تجربة أبي تمام وتركزت في نهج قرائه الأوائل؛ أو غير ذلك من القيم والمظاهر المتعلقة بتلقي الشعر المحدث إجمالاً لدى القراء المهتمين، وسواهم من عامة المتلقين. وذلك كله من خلال ردود الفعل التي وثقها المرزباني.

أفق توقعات القراء وانعكاسه على تقبل الشعراء الجدد في الحقب الشعرية:

عندما نعود إلى مصطلح الشاعر المحدث في مفهوم التلقي الأول نجد أنه لم يكن مقصوداً به الشاعر الذي ينتمي إلى مذهب شعري جديد يقابل المذهب القديم. وإنما كان مفهوم الحداثة يقتصر على معنى المعاصرة. فالشعراء المحدثون في رأي أبي عمرو بن العلاء هم الشعراء الذين عاصروهم؛ كالفرزدق وجريز وذي الرمة وغيرهم؛ ولذلك أثر عنه قوله: «لقد كثر هذا المحدث وحسن، حتى لقد هممت بروايته»⁽¹⁾. ومع مرور الوقت نجح الشعراء الإسلاميون في تكريس قيم تلقيهم التي دارت عليها تجاربهم، فكثرت خوضهم في غرضي المدح والهجاء؛ فأصبح التقييم الشعري يقوم على المعيارية الغرضية، بعد أن كان التقييم ينبع أساساً من جودة الوصف. وتؤكد ردود الفعل تجاه شعر ذي الرمة ذلك الفارق بين معياري التقييم، إذ لم يعدوا ذا الرمة من الشعراء الفحول لأنه لم يكن يجيد المدح والهجاء، وإنما يجيد - كالقدماء - وصف الطعائن وبكاء الديار⁽²⁾. ولم يكن غرض المدح لدى الجاهليين يحظى بالأهمية التي بات

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة 1/ 63.

(2) الموشح ص 228.

عليها لدى الإسلاميين، وهو ما يلمس من مجمل المآخذ المتعلقة به في الحقتين. بل إنه يمكن أن نستنتج - لو صحت مقولة كعب بن زهير بن أبي سلمى للنابعة - أن المدح من أجل التكسب كان غرضاً مرغوباً عنه عند أغلب الشعراء الجاهليين⁽¹⁾.

وحين نجتاز الإسلاميين إلى طلائع الشعراء المحدثين، ولا سيما بشار، ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس؛ نجد أن الأصمعي قد ذكر في سياق مقارنته بين الأولين ما ينم عن تمثيل تجربتي الشاعرين، بل إن مقارنته بينهما تمثل نظرة متأنية في سياق آراء الأصمعي. إذ فصل تباين الشاعرين، واختلاف نهجهما⁽²⁾، وذلك على النقيض من آرائه المقارنة بين عدد كبير من الشعراء القدماء⁽³⁾. إلى جانب عدد من الأخبار التي كان يروي فيها الأصمعي آراء بشار عن الشعراء القدامى، على ما في بعضها من اعتداد بشار بتجربته⁽⁴⁾.

(1) الموشح ص 59 والمقولة هي: «ما كنت لأخذ على شعري صفداً»، أي عطاءً. وقالها كعب، بعد أن استطاع إجازة شطر بيت من الشعر عجز عن إجازته النابعة فلجأ إلى زهير والد كعب الذي نصحه بالخروج إلى البرية؛ فعجزاً أيضاً، وكان كعب قد صحبهما، وعقب إجازة كعب للبيت، رفض الجائزة التي كان النعمان قد وعد بها النابعة، ومقدارها مئة من النجائب (الإبل) إن هو استطاع إجازة الشطر المشار إليه.

(2) تطرقنا سابقاً لنص موازنة الأصمعي بين الشاعرين بشار ومروان بن أبي حفصة، وهي في الموشح ص 317: «حدثني أبو حاتم السجستاني، قال: قلت للأصمعي: أ بشار أشعر، أم مروان؟ قال: بشار أشعرهما، قلت: وكيف ذاك؟ قال: لأن مروان سلك طريقاً أكثر سلاكة فلم يلحق بمن تقدمه، وإن بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه أحد، فانفرد به وأحسن فيه، وهو أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر وأكثر بديعاً، ومروان أخذ بمسالك الأوائل».

(3) انظر عدداً من المقارنات التي حدثت بين ما يقارب خمسة وعشرين شاعراً في سياق خبر واحد، كان الأصمعي يكتفي فيها، في بيان الأشعر بمجمل واحدة مقتضبة غالباً. الموشح ص 106-107.

(4) منها هذا الخبر: قال الأصمعي: «أنشد رجل بشاراً وأنا حاضر قول الشاعر [كثير]: [الطويل]

وقد جعل الأعداء يتقصوننا وتطمع فينا ألسن وعيون

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

قال: فقال بشار: والله لو جعلها عصا مخ أو عصا زبد لما كان إلا مخطئاً مع ذكر العصا: ألا قال ما قلت:

[الوافر]

وإلى جانب مواقف العلماء المعاصرين مع بشار التي سيق بعضها في موضع سابق من هذا البحث⁽¹⁾، وفي الموضع ذاته تنويه بمكانة أبي نواس لدى أبي عبيدة.

من هنا يمكن الذهاب إلى أن تلقّي التجارب كان يسير طبيعياً، وأن الفروق التي استنتجت لاحقاً عقب التلقي الأول لم تكن موجودة على النحو الملموس في الردود المتأخرة، خصوصاً تلك التي عمقت مواقفها السلبية مما يمكن عده قيماً جديدة كرسها الشعر المحدث.

ومع مرور الوقت في التعامل مع أولئك الشعراء وتجاربهم، كان يتم تمثيل القيم التي حملتها تجاربهم بالتدرّج. لكن ما أظهره أبو تمام في شعره من استعمالات قد أحدث ما يشبه الصدمة المفاجئة لما كان قد شرع القراء في تلقيه واستيعابه بتدرّج وتنام بطيئين لدى غالبية القراء المهتمين بالشعر بمن فيهم الشعراء والنقاد الذين يعدون من ضمن المحدثين.

ومن غير المستبعد - في سياق التقبل الطبيعي الذي لقيته طلائع الشعراء في الحقبين الإسلامية والمحدثة - أن يكون ما حدث عقب ظهور شعر أبي تمام شبيهاً بالمراجعة وإعادة النظر لما تم تقبله سابقاً على نحو طبيعي من نماذج الشعراء المحدثين السابقين لأبي تمام، ولا سيما أن الأخير قد تعدد لفت الأنظار إلى القيم التي كثف استعمالاتها في شعره؛ فأعاد تسليط الضوء عليها مرة أخرى. وليس أدل على هذا التوجه من كتاب البديع⁽²⁾ لابن المعتز، الذي أراد منه أن يثبت قدم البديع ومعرفته في الشعر والقرآن الكريم، قبل أن يظهره أبو تمام أو غيره من المحدثين في أشعارهم.

وبيضاء المحاجر من معد	كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لصحبته تثنّت	كأن عظامها من خيزران
ينسيك المني نظر إليها	ويصرف وجهها وجه الزمان

الموشح ص 209 210 وتوضح نهاية الخبر أن الأصمعي أقرّ بشاراً، فلم يعلق على تفضيل شعره على شعر كثير.

(1) انظر حديثنا عن علاقات الوسط الأدبي: علاقات العلماء بالشعراء.

(2) كتاب البديع لابن المعتز، تحقيق اغناطيوس كراتشتوفسكي، لندن 1935.

وسوف نرى لاحقاً عند تتبع تنامي قيم التلقي لدى القراء المهتمين أن الحقبة التي تلت حقبة الأصمعي والتي تنتهي بحقبة ابن طباطبا وقدامة بن جعفر لم تطور جهداً جديداً يماثل جهد سابقتها على صعيد استظهار قيم التلقي، وأن دورها كان مقتصرًا على نقاط محدودة في هذا الصدد. ويظهر ذلك أن صدى استعمالات أبي تمام مازال ساري المفعول. وأن المادة التي قدمتها رسالة ابن المعتز كان لها دورها في تركيز انتباه القراء إليها. كما يتضح أن جهود القراء في هذه الفترة الزمنية كانت تشتغل في نطاق مفهوم مخالفة استعمالات أبي تمام **لأفق توقعات** القراء، والمقارنة بينها واستعمالات البحري. بل إن نطاق الاشتغال هذا يكاد يستغرق جهد نقاد القرن الرابع، زيادة على ظهور المتنبي، وإدخاله ضمن قيمة المقايضة لاحقاً.

وللوقوف على نطاق الاشتغال بمفهوم مخالفة أبي تمام **لأفق التوقعات** ومداه نستأنس بآراء ثلاثة من الدارسين المحدثين - على اختلاف مداخلهم لإظهار الموقف من شعر أبي تمام - من خلال استعراض تحليلاتهم لتعامل بعض القدامى مع واحدة من الصور لديه. وسنرى أن نتائجهم تشير، بشكل أو بآخر، إلى أن الموقف من شعر أبي تمام؛ إنما يتجلى في مخالفة استعمالاته الشعرية لما كان سائداً ومكرساً في أذهان القراء المهتمين بالشعر.

فذهب عز الدين إسماعيل - بعد أن مهّد لما يعنيه مفهومه للصورتين الأولى والثانية في اشتغال النقاد القدامى بالشعر⁽¹⁾ - إلى أن أغلب تصورات الذين انتقدوا صور أبي تمام؛ إنما جاءت لأن نظرة عدد منهم كانت مستغرقة في الصورة الأولى، ويعني بهؤلاء، الذين لم يفصلوا بين اللفظ والمعنى. في الوقت الذي وصل فيه بعض النقاد - ويعني عبد القاهر الجرجاني - الذين تمكنوا من فصل اللفظ عن المعنى إلى المعاني غير المباشرة لصور أبي تمام، وهي المعاني التي تتحقق مع الاشتغال بالصورة

(1) يضرب إسماعيل مثلاً لتقريب ما يقصده بمفهوم الصورتين: الأولى، والثانية من خلال عبارة: (باب النجار مكسور). فالصورة الأولى: هي التي ينتهي إدراك المعنى فيها عند معرفة أن باباً في بيت ما مكسور. أما الصورة الثانية: فهي التي يتحقق فيها الوصول إلى إدراك معنى السخرية. انظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، بيروت لبنان 1992، ص 145-148.

الثانية. فالذين ثاروا على معاني أبي تمام لم يثوروا على الصورة الثانية؛ بل على المعنى (المرئي أو المفهوم) من الصورة الأولى، فانتقدوه في جعل علاقة بين الدهر والأخذ؛ لأنها ليست علاقة طبيعية في الحياة والواقع. فكان استغراب النقاد بسبب إحداث أبي تمام لهذه العلاقة⁽¹⁾.

ويرى مصطفى ناصف⁽²⁾ أن أبا تمام عندما قال: [المنسرح]

«ياده رقوم من أخدعك فقد أضجبت هذا الأنام من خرقك
صاحوا في وجهه، وقالوا لقد خرج أبو تمام عن عمود الشعر، وعمود الشعر في
نظرهم هو الاستعارة القريبة، وهذا أيضاً غلو وإسراف؛ لأنهم تصورا عمود الشعر
بمعزل عن استعمالات الشعراء الكبار، مثل زهير، ولكن عمود الشعر عندهم
عبارة عن صفات إحصائية، والعبرة بالكثرة والقلة العددية».

ويشترك محمد المبارك⁽³⁾ مع سابقه - في إحدى الدراسات التي ظهرت مؤخراً وتتخذ
من نظرية التلقي إطاراً منهجياً لها - عندما رأى في قراءة الآمدي لأبي تمام في الموازنة
نمطاً للتعامل المحدود بالقراءات السابقة. فذكر أن محاسبة الآمدي لأبي تمام على أن
جعل للدهر طولاً وعرضاً؛ إنما تمت في ضوء قراءته قياساً على استعمالات الشعراء،
وكلام الناس لما جعلوا له عرضاً وطولاً، ك (المجد) لدى (الراعي)، و (الأخلاق) لدى
(كثير)، وأمثلة أخرى من كلام الناس مما يشبه المثالين السابقين. واستنتج من ذلك
أن الآمدي لم يستطع قراءة أبي تمام خارج النماذج المألوفة السابقة، وذلك ما جعله
يرى فيما قاله أبو تمام خروجاً عن المؤلف.

وبهذا تلتقي آراء الثلاثة وغيرهم⁽⁴⁾ في أن موقف قراء أبي تمام كان ناتجاً عن أن

(1) الأسس الجمالية في النقد العربي، عز الدين إسماعيل ص 147-148 (بتصرف).

(2) نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط2، 1401، ص 109.

(3) استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، ص 165-167.

(4) انظر مزيداً من التفصيل عن الاستعارة لدى أبي تمام، وأثر ذلك في النقد القديم في: الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط2، 1401، ص 104، وما يليها.

تأويل شعره ينتهي عادة إلى الحكم عليه بالخروج عن الاستعمالات التي تمثل أفق توقعاتهم السابقة. فجاء تفسير الدارسين مؤكداً النتيجة وهي مخالفة أفق التوقع. إذ غالباً ما توقع قرائه إمكان التعامل مع استعمالاته في نطاق الصورة الأولى بحسب مفهوم عز الدين إسماعيل، أو أنهم أرادوا لاستعمالاته أن تتفق وأفق التوقع المحدد في عمود الشعر، بحسب ما ذهب إليه ناصف. وإما بقراءته من خلال الاستعمالات المعروفة السابقة، بحسب «المبارك».

وبعد أن تبين جانب من سياق تعامل القراء المهتمين مع الشعراء المحدثين وعلاقته بـ أفق التوقعات، يمكن المضي في استنتاج أبرز مظاهر التلقي وقيمه المستقاة من الجدل حول تجارب الشعراء المحدثين على النحو التالي:

أولاً: مواطن الاهتمام وأنماط التفاعل والاستجابة لدى القراء المهتمين: ظهر في جزئية سابقة من هذا المبحث أن العمل ظل مستمراً لدى النقاد المتأخرين بقيم التلقي الجمالية المستقاة في ضوء تجارب القدماء السابقة. وهنا يمكن القول إن تلقي الشعر وفق القيم السابقة لم يقف عند التعامل مع تجارب القدماء فحسب. بل إن بعض القيم شهد تنامياً ملحوظاً ومكثفاً، عما كان عليه، لدى تعامل القراء بالقيم ذاتها مع التجارب المحدثّة. فشهدت قيمة الخصوصية والاشتراك في الاستعمالات الشعرية - على سبيل المثال - نشاطاً جعل مبحث السرقات الشعرية، من أهم المباحث النقدية، وفي المآخذ على كل من أبي تمام والبحثري ما يجسد الكيفية التي استمر عليها الاشتغال في هذه القيمة.

لكن إذا تجاوزنا القيم السابقة المستقاة من تجارب القدامى، إلى ما يمكن النظر إليه بصفته محاور اهتمام ناجمة عن التركيز على الشعر المحدث - على اعتبار أن استمرار تلقي تجارب المحدثين في ضوء القيم المستقاة من تجارب القدامى مسألة قد أشير إليها في أثناء الحديث عنها - إذا تجاوزنا ذلك فإن مواطن اهتمام أخرى قد ظهرت، وكثرت تداولها في أوساط المتلقين. وعليه فيمكن توزيع الآراء المثارة فيها إلى ثلاثة محاور أساسية هي: أ - الإحالة، أو المبالغة. ب - التكلف في طلب البديع. ج - الاستعارات البعيدة، والتشبيهات الغريبة، أو الإيماء المشكل.

وتظهر سِمَتَا التركيز والاستكثار من عرض الشواهد واضحتين في مواطن الاهتمام تلك، من خلال تركيز القراء على تجارب بعض الشعراء التي تجلي مقدار التطرف في بعض الاستعمالات. فإذا أُريدَ الاستشهاد على مظهرَي التكلف في طلب البديع، أو الاستعارات البعيدة والتشبيهات الغريبة، فإن الأنظار تتجه إلى شعر أبي تمام. وإذا أُريدَ البحث عن أمثلة الإحالات الدينية والأخلاقية، فمن السهولة تأليب الخصومة على المحدثين في هذا الصدد من خلال نماذجها في شعر أبي نواس⁽¹⁾. الأمر الذي يظهر المبالغة في توظيف المحدثين للقيم الشعرية، وشططهم فيها، على نحو واضح. ويظهر في الوقت نفسه أن ردود فعل القراء المهتمين بالشعر كانت طبيعية إزاء تلك الاستعمالات.

وتعتبر المآخذ على أبي تمام سياقاً وافراً بأمثله وتعداد قرائه من بين كافة المآخذ التي جمعها المرزباني للشعراء المحدثين. ولا يبدو سياق آخر يقاربه سوى سياق مآخذ أبي نواس. غير أن الذي ميز سياق أبي تمام ما أولاه فيه المرزباني من أهمية لرسالة ابن المعتز. الأمر الذي جعل من بقية المآخذ الأخرى على أبي تمام تبدو أقل جذباً، في ضوء ما اتسمت به الرسالة. سواء في تنوع الأمثلة فيها، وحشد الشواهد على الظاهرة الشعرية الواحدة، أو في الأسلوب الذي اتسم به ابن المعتز في عرضه لتلك المآخذ، خصوصاً تعليقاته عليها.

ويمكن النظر إلى ردود أفعال القراء المهتمين بالشعر المحدث بعامة، وشعر أبي تمام بخاصة، بصفة أن هذه الردود تجسد شريحتين ضمهما كتاب الموشح للمرزباني.

(1) من النماذج التي تجسد إحالات أبي نواس ما رواه يحيى بن حسان البصري، قال: «رأى أبو نواس غلاماً حسناً، فأذشني بديها: [المنسرح]

ومستطيل به الجمال على كل جميل عديم أشباه
لو كان للشمس حسن صورته لاستنكفت عن عبادة الله
فقلت: كفرت وملك! قال: إن الله يغفر الذنوب جميعاً، فقلت: إن الله لا يغفر أن يشرك به! قال: أنت لا تعرف الشرك» الموشح ص 355.

فمجموع المآخذ على أبي تمام يمثل شريحة كبرى، فيما المقدار الذي ورد من رسالة ابن المعتز في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه يمثل شريحة صغرى.

ومن خلال المآخذ على أبي تمام، نلاحظ في البدء، ولا سيما على شريحة ابن المعتز أن التركيز على إظهار جوانب الإساءة ومظاهر الإحسان لم يكن متناسقاً - وقد يعود ذلك لاقتصار المرزباني على جانب المساوئ (المآخذ) - غير أن نمط المعالجة للشواهد الشعرية في رسالة ابن المعتز الذي لم يكن غنياً بوقفاته التحليلية المتروية أو المطولة اتجه أكثر إلى حشد الشواهد وتعدادها، مع الفصل بين عدد غير قليل منها بعبارات سريعة مقتضبة، كما يظهر ذلك في تركيزه على أمثلة الصورة والبديع، وأمثلة السرقات بخاصة⁽¹⁾.

وفي نهج ابن المعتز الذي تميز بالوقوف الخاص عند شعر أبي تمام ما يذكر بالنهج اللاحق للصولي. فقد اتفقا في جرأتهما على التعامل المباشر مع كثير من شعر أبي تمام، مما جعل منهما أنموذجاً لأكثر القراء تفاعلاً واستجابة للشعر المحدث بعامة، وشعر أبي تمام بخاصة. لكن ذلك الاتفاق لا يعني انسجام الباعث أو طريقة المعالجة لديهما. فمما ينبئ عن أن ابن المعتز لم يكن يتعامل في رسالته عن شعر أبي تمام على نحو بواعثه في التأريخ للشعر والشعراء المحدثين في طبقاته أن تعليقاته ظهرت بادية الانفعال والاستعجال؛ فلم يظهر من مجمل وقوفه أنه بصدد تسويغ مظاهر الشعر المحدث وقيمه.

فالممتنع لمآخذه وشواهد في رسالته يجده لم يعلق على عدد منها سوى بما يجلي مقدار انفعاله؛ كأن يقدم بقوله: «وقال وهو يغوص على المعاني، ولا يريد أن يعطل بيتاً من كلام مستغلق»، أو يختم عرض الأمثلة بما قاله بعض أصحاب الهزل وقد

(1) تعلق ستة عشر مثلاً مما يقارب واحداً وثلاثين من مجموع الأمثلة التي عدها ابن المعتز من مساوئ أبي تمام بمحور الصورة من استعارات وتشبيهات واستخدام بديع، في حين كانت بقية المساوئ - التي جاءت مقسمة على ابتدائه البشعة، واستعمال الغريب، والسرقات، وغير ذلك - مشتركة في سبعة عشر مثلاً على وجه التقريب. انظر القسم الذي أثبتته المرزباني من الرسالة في الموشح ص 377-393.

أنشده بعض الأبيات: «ما كان أحوجه إلى أن يعاقب في أخذه على هذا الشعر»⁽¹⁾، أو بعبارات، من مثل «وهذا الكلام الذي يستعاذ بالصمت من أمثاله»⁽²⁾. أضف إلى ذلك خروجه عن اللياقة إلى الإساءة لشخص أبي تمام بعبارات مقذعة، كـ«قبحه الله»⁽³⁾، أو «لعن الله من واصله من الأحباب على هذا وأمثاله»⁽⁴⁾. وبهذا الحس الانفعالي في القراءة لم يسهم ابن المعتز في تعريف تلك القيم إيجابياً، بل قدم بها أفضل أنماط الاستجابة السلبية. ولربما وهو الشاعر المحدث الأقرب عهداً من أبي تمام، والشخصية الاجتماعية المرموقة، قد كان له بهذه الرسالة⁽⁵⁾ على وجه التحديد مردود لا يضاهي، بما في ذلك آثار خصوم الشعر المحدث أنفسهم.

أما الصولي فلا بد من التنويه بنواياه المتضامنة والشعر المحدث التي قد تجلت في عدة مواقف، لعل أظهرها مقاصد، تصديه لجل علماء عصره، في سبيل مناصرة تجارب الشعراء المحدثين. أما أبرزها عملاً فتمثل في صنعه كثيراً من دواوينهم، وترتيبها على حروف المعجم، وتصديه لشعر أبي تمام على نحو مخصوص⁽⁶⁾.

(1) الموشح ص 384.

(2) الموشح ص 387.

(3) الموشح ص 391.

(4) الموشح ص 391.

(5) يلاحظ على ما أورده المرزباني من رسالة ابن المعتز أنه لم يورد فيها الجوانب المتعلقة بمواضع إحسان أبي تمام. ولا يُدرى عن شأن هذه المحاسن والمقدار الذي كانت عليه. جدير بالذكر أن الدكتور محمد الهدلق في دراسة له عن «موقف ابن المعتز من شعر أبي تمام» قد ناقش هذه المسألة، بعد أن قارن رأيه في الرسالة مع رأيه عنه في مؤلفاته الأخرى. ومن ثم توصل إلى إن تعرض ابن المعتز كثيراً للمساوئ في الرسالة. لأنه ألفها في أول حياته قبل أن تخف حدة موقفه من شعر أبي تمام؛ كما تظهر ذلك أوصافه لنماذجه التي استشهد بها من شعره في كتابيه (البديع، وطبقات الشعراء). انظر: مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، مج 12، ع 16، 1985 ص 51-78.

(6) انظر نهج الصولي في التعامل مع شعر أبي تمام كلا من: النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، ص 93-94، وشعر أبي تمام، بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، سعيد مصلح السريحي، النادي الأدبي الثقافي بجدة 1404 ص 86.

وعندما نعود إلى ابن المعتز من أجل محاولة تفهم نهجه وأسس تعامله مع شعر أبي تمام فينبغي لنا أن نستحضر قرب عهده من اللغويين وأخذه عنهم، ونمط تعاملهم مع الصورة تحديداً، في ضوء إشارة جابر عصفور إلى ذلك. فقد أشار إلى أنهم كانوا يؤثرون فيه التشبيهات الواضحة، دون الاستعارة «وذلك لأن الاستعارة ظلت بالنسبة إلى اللغويين عموماً مصدراً لسوء الفهم والارتباك، لما فيها من تغيير لافت في الدلالة، وإخلال بصفة الوضوح الفاقع التي يؤثرها اللغويون كل الإيثار»⁽¹⁾ - فعندما نستحضر ذلك يسهل أن يتخذ من موقف ابن المعتز مفتاحاً للكيفية التي تم التعامل بها مع ما يعد ظواهر جديدة في الشعر المحدث.

وإذا تذكرنا نبرة ابن المعتز في تلك الرسالة، والأمثلة المنتقاة بعناية التي يدور قسمها الأكبر على محوري الصور والسرقات، فإن في ذلك كله مؤشرات تعكس مقدار الضجر، والوقوع الذي أحدثته صور أبي تمام على فئة القراء التي ألقت لحقبة طويلة التلقي وفق القيم المستقاة من تجارب القدماء. فلم تجد هذه الفئة حلاً لتلك المعضلة سوى باختصارها في ظاهرتي الأخذ والقلب. وهذا الوصف كما ذهب إليه مصطفى ناصف⁽²⁾ فحواه: «أن كل تطور الشعر العربي يندرج في هاتين المقولتين»، مضيفاً أنه إذا كان مصطلح الأخذ واضحاً، فإن مصطلح القلب كان يسعى إلى وصف «تطور ضخم بعبارة مبهمة تفهمنا أن القلب مسألة تشبه العدول على الوجه المستقيم، أو نوع من الانحراف»⁽³⁾.

وعندما ننظر إلى نهج الصولي في تصديه لشعر أبي تمام الذي قصد به تقديم حل عملي لإشكال تلقي العلماء للشعر المحدث⁽⁴⁾ فإنه على الرغم مما بذله من جهد متميز

(1) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان 1992 ص 123.

(2) انظر: نظرية المعنى في النقد العربي القديم، مصطفى ناصف، ص 102-103.

(3) نظرية المعنى في النقد العربي القديم، مصطفى ناصف، ص 102-103.

(4) ذكر سابقاً أن الصولي كان بصدد تأليف عدد من الكتب في أخبار الشعراء، كأخبار: «الأحوص»، و«جميل»، و«كثير»، و«نصيب»، و«ابن هرمة»، الفهرست للنديم، ص 159-160.

في مساندة تجربة الشعر المحدث، وكشف الخلل في التعامل معه، وما توصل إليه من عدم تمكن العلماء من أبناء عصره، وكونهم غير مؤهلين على نحو مماثل تأهيل أسلافهم الذين تعاملوا مع أشعار القدماء، فباتوا غير قادرين على الخوض في غمار الشعر المحدث. فإنه على الرغم من ذلك كله لم يعمل على تنظير ظواهر الشعر المحدث واستخلاصها في قيم أو خصائص جديدة ملموسة، يشق بها نهجا للعلماء الذين انتقدهم. فقد كان منشغلاً بالدفاع ضد حجج خصوم الشعر المحدث. والبحث عن أخطاء مماثلة كان القدماء قد وقعوا فيها، مما يمكن أن يبيده على هيئة مأخذ عليهم، شأنهم شأن المحدثين. زد على ذلك أن تحليلاته لنماذج شعر أبي تمام أظهرت أنه لم يختلف فيها عن العلماء الذين انتقدهم، حتى إن محمد مندور ذهب إلى أن معالجة الصولي تلك دلت على فساد ذائقته⁽¹⁾.

وبذلك فإن مشاعر التعاطف، وأسلوب الدفاع اللذين أبداهما الصولي لم يكونا كافيين لتقديم الشعر المحدث كما ينبغي له. ولعل أسلوب الدفاع المستمر ذاته من أكثر الأمور التي أضعفت موقف المناصرين للشعر المحدث. الأمر الذي يمكن معه القول: إن أنصار المحدثين أنفسهم وفي مقدمتهم الصولي قد أسهموا في تكريس القيم السابقة قبل الخصوم، وتأخير استخلاص قيم الشعر لدى المحدثين. وذلك مما جعل التعامل مع الشعر المحدث يكاد يسير على وتيرة واحدة في الحقبة الزمنية التي عني بها المرزباني.

وبضم موقف الصولي إلى موقف ابن المعتز، نجد أن تلقيهما للشعر المحدث بعامة، وتصديهما لشعر أبي تمام بمخاطبة قد أسهم إلى حد كبير في تكريس نمط القراءة المشار إليه، وبقاء القيم الجديدة رديحاً طويلاً من الزمن في دائرة المساوئ أو المآخذ، حتى لدى نقاد القرن الرابع المتأخرين⁽²⁾.

(1) انظر نهج الصولي في التعامل مع شعر أبي تمام كلا من: النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، ص 93-94، وشعر أبي تمام، بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، سعيد مصلح السريحي، النادي الأدبي الثقافي بمكة، جدة 1404 ص 86.

(2) ذهب كل من: د. كمال أبو ديب، ود. محمد الهدلق، ود. محمد مريسي الحارثي، إلى أن الآمدي لم يكن

على أن في موقف ابن المعتز في رسالته - التي جاءت عقب فترة طويلة من ظهور الشعر المحدث، وفي هجومه شخصياً على أحد الشعراء الذين يعتبر ابن المعتز نفسه امتداداً لهم، مع ما له من مكانة اجتماعية - أثراً أبعد وأعمق يجلي ما كان يعمل في نفوس كثير من القراء المهتمين الذين ظلوا إلى ذلك الوقت غير مهئين ولو للإغضاء عن تجربة أبي تمام، التي أحدثت صدىً مفاجئاً في تلقيهم، خصوصاً أن سياق التلقي لطلائع الشعراء في الحقتين الإسلامية، والمحدثة كان ينبئ بنمط من التمشي والتقبل للشعراء المعاصرين، على اعتبار أنهم امتداد طبيعي لأسلافهم من الشعراء السابقين.

ثانياً: القيم الشعرية المثيرة للجدل لدى الشعراء المحدثين:

إن نمط استجابة القارئ المهتم السابقة، كما في أنموذجي ابن المعتز والصولي - اللذين يعدان متأخرين قياساً على الفترة التي بدأ يظهر فيها الشعر المحدث - تظهر أن عملية الجدل إنما كانت قائمة على الشد والجذب ما بين الطرفين. وأن الشعراء المنتجين ربما لاحظوا أن الاهتمام بالظواهر المتطرفة يحقق مزيداً من عناصر الاستثارة للقراء المهتمين. هؤلاء القراء الذين لن يكسب الشعراء المحدثون حظوة أو تمام رضى عن استعمالهم، ولو وافقت هوى قراء الشعر المهتمين، ما دامت استعمالاتهم في النهاية ستقاس على الشعراء القدامى. وفي ضوء هذه الملاحظة فإن باعث الاستثارة لدى الشعراء يأتي بصفته من أبرز مسوغات الميل إلى الاستعمالات التي يصفها القراء بالتطرف.

من هنا فقد يكون قسم كبير من الأمثلة التي أثارت عدداً من القراء هي في جانب كبير منها رد فعل يوازي، أو ربما رد فعل أقوى على فترة طويلة من غض النظر عن ظواهر الشعر المحدث في حد ذاتها. فالاستكثار من البديع يمكن تفسيره

يمثل ذائقة فردية، أو نهجاً خاصاً. وذلك في معرض مداخلاتهم على دراسة د. عبد الله الغدائي: المشكلة والاختلاف. ورأى أبو ديب تحديداً أنه يتضح من لغة الأمدي، ونقده، وإشاراته أنه كان يمثل تياراً ثقافياً كاملاً، وأنه رسخ التقليد وأسس العمل بالمعايير التقليدية. انظر: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، المجلد الآخر: ص 665، وما بعدها.

على أنه وسيلة لجذب مزيد من الانتباه ولفت أنظار المهتمين واستثارتهم للمزيد من ردود الأفعال، ولو كانت عكسية. ويقاس على ذلك استخدام الألفاظ الغريبة في الشعر المحدث فهي قد تكون لجذب الاهتمام من جهة لأنها «تشكو الغربة في كلام المحدثين، على حد وصف ابن المعتز⁽¹⁾، وللتدليل غير المباشر على التمكن اللغوي، وإمكان مجازاة القدماء في مضمارهم من جهة أخرى.

أما استعمالات أبي تمام فجاءت في خاتمة قرن من معايشة الشعر المحدث بصفة أنها ضرب من إعادة النظر المكثف لما كان قد رصده، واستوعبه من السمات الموضوعية والفنية التي شرع في استخدامها أسلافه من المحدثين منذ حين. وبما أن قراءة أبي تمام اتسمت برد فعلها القوي فنياً إزاء ما عجز المتلقون عن تلمسه بأنفسهم من ظواهر الشعر المحدث طيلة فترة تلقيه السابقة، كان من الطبيعي أن يحدث هذا الفعل الشعري القوي رداً، أو مجموعة من ردود أفعال القراء توازيه في القوة أو تزيد عليه، فجاءت الآراء والمآخذ التالية على ظهور أبي تمام دفاعاً مبطناً عن مواقف القراء، وما أوصاف الإفراط في المعايير، وسمّنا التركيز وتكثيف الشواهد عليها، سوى ضرب من الحجب الدامغة، كما تجلّت في أنموذج رسالة ابن المعتز؛ وعليه أصبح مجمل الطرح النقدي يدور على نسبة العجز إلى نتاج الشاعر، لا إلى نتاج القارئ المفسر.

إن الأمثلة التي تداولها القراء من تجارب الشعراء المحدثين، خصوصاً الأمثلة التي وصفوها بالإفراط عندما ينظر إليها في ضوء الطريقة التي كانت ترد بها لدى القراء، يلاحظ أنها لم تأل جهداً في الاستكثار من الأمثلة، وتكرار متشابهها؛ مما يجلي الإفراط ويظهره في أبعد صورته. فيتحقق وهذه الطريقة تأليب الخصومة، وإقناعها بحجج من الأمثلة المتواترة. كما يتحقق بديها معها مواراة غير مباشرة للقيم التي تمثلها النماذج الأخرى المعتدلة.

وحين نحاول جمع عينات مختصرة من مجموع الأمثلة التي تم حشدها في كل عنصر

(1) الموشح ص 382.

من العناصر التي دار عليها الجدل، ونقوم بإيراد العينة المختصرة متتابعة، سيظهر إلى أي مدى يبدو سردها مملاً ورتيباً من جهة، ومديناً لطرف الشعراء الذين أنتجوا هذه الأمثلة من جهة أخرى. ذلك على الرغم من أن كل عينة سيسبقها وصف للقيمة الفنية التي يمكن استخراجها من أمثلتها. والعينات على النحو التالي:

1- التوسع في استخدام المعاني وتلمس آفاق التعبير الممكنة وغير الممكنة (المبالغة أو الغلو): وهي قيمة يمكن تلمسها في إحالات أبي نواس التي أشير إلى إحداها في موضع سابق⁽¹⁾. كما يمكن أن تجسدها الأمثلة التالية لأبي تمام، وغيره. فمما قاله أبو تمام⁽²⁾: [البسيط]

ما كنت أحسب أن الدهر يمهلني حتى أرى أحدا يهجو لا أحد
وقوله⁽³⁾: [الوافر]

لقد وهب الإمام المال حتى لقد خفنا بأن يهب الخلافة
وقوله⁽⁴⁾: [الكامل]

ما زال يبرمهن حتى إنه ليقال ما خلق الإله سحلا
وقوله⁽⁵⁾: [الكامل]

(1) هي: ما رواه يحيى بن حسان البصري، قال: «رأى أبو نواس غلاما حسنا، فأذشني بديها: [المنسرح]
مستطيل به الجمال على كل جميل عديم أشباه
لو كان للشمس حسن صورته لاستنكفت عن عبادة الله
فقلت: كفرت وبلك! قال: إن الله يغفر الذنوب جميعا، فقلت: إن الله لا يغفر أن يشرك به! قال: أنت لا تعرف الشرك» الموشح ص355.

(2) الموشح ص400.

(3) الموشح ص384.

(4) الموشح ص391، والسحيل ثوب لا يُبرم غزله، أي يفتل طاقتين.

(5) الموشح ص387.

من شرد الإعدام عن أوطانه بالبذل حتى استطرف الإعدام
وقول آخر⁽¹⁾: [الوافر]

وجاء بلحمٍ لاشيءٍ سمينٍ فقرّبه على طبقَيّ كلام
وقول مسلم بن الوليد⁽²⁾: [الكامل]

أ فراس قل لي أين أنت من الوري لا أنت معلوم ولا مجهول
وقول عباس الخياط⁽³⁾: [الرجز]

لا شيء من ديناره أرجح

2- أفق الخيال الذي لا يقف عند أوجه الشبه المألوفة، خصوصاً ما ينهض في المقام الأول على مزج المعادلات الصورية المحسوسة بالمعنوية المجردة.

وهذه القيمة تجليها صور أبي تمام التي جسم فيها المعنويات، كأبياته التي صور فيها للدهر أخذاً⁽⁴⁾ ويضاف إليها أبيات أخرى منها قوله⁽⁵⁾: [الكامل]

كانوا رداء زمانهم فتصدّعوا فكأنما لبس الزمان الصوفاً⁽⁶⁾
وقوله⁽⁷⁾: [الكامل]

ولقد أراك فهل أراك بغبطة العيش غَضٌّ والزمان غلام

(1) الموشح ص 400.

(2) الموشح ص 400.

(3) الموشح ص 400.

(4) الموشح ص 384.

(5) الموشح ص 385.

(6) في الديوان: (كانوا برود). انظر ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط 5، دار المعارف بمصر 1951 (التاريخ من المقدمة) 2 / 380.

(7) الموشح ص 396.

وقوله⁽¹⁾: [البسيط]

خمسون ألفا كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب
وقوله⁽²⁾: [الخفيف]

شاب رأسي وما رأيت مشيب الر أس إلا من فضل شيب الفؤاد
وقوله⁽³⁾: [الطويل]

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوّذها بنغمة طالب
وقوله⁽⁴⁾: [الطويل]

عَلَوْا بجنوبٍ موجدات كأنها جنوب فيول ما لهن مضاجعُ
3- عنصر الاستثارة اللفظية:

وهي قيمة تشتمل على الاستثارات البديعية (التلاعب بالمحسنات البديعية). والاستثارات اللغوية (استخدام الغريب). ففي الاستثارات البديعية نجد بيتي أبي نواس اللذين رأوا فيهما إفراطاً في البديع، عندما جسم الصدود، والوصال، بالثعلب، والكلب في قوله⁽⁵⁾: [المنسرح]

لما بدا ثعلب الصدود لنا أرسلت كلب الوصال في طلبه
جاء به والجليل يعتله منقلباً رأسه على ذنبه
كما نجد هذه الاستعمالات البديعية لأبي تمام في الأبيات التالية:

(1) الموشح ص 396. والعدد: «تسعون» في الديوان، انظر ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي 1/ 69.

(2) الموشح ص 378.

(3) الموشح ص 377.

(4) الموشح ص 379. والفيول جمع فيل، الحيوان المعروف، وقال المرزباني: أراد أنهم لا يُغلبون ولا يصرعون، كما أن الفيلة لا تضطجع.

(5) الموشح ص 352-353.

قوله⁽¹⁾: [الطويل]

ليالينا بالرقمتين وأرضها سقى العهد منك العهد والعهد والعهد
وقوله⁽²⁾: [الطويل]

جحدت الهوى أن كنت مذ جعل الهوى محاسنه شمسي نظرت إلى الشمس
وقوله⁽³⁾: [الكامل]

ذهبت بمذهبه الساحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب
وقوله⁽⁴⁾: [الوافر]

خسنت عليه أخت بني خسين
أما الاستثارة اللغوية (استعمال الغريب) فتبدو في النماذج التالية لأبي تمام،
ومنها قوله⁽⁵⁾: [الكامل]

تقرو بأسفله ربولاً غضة وتقبل أعلاه كناساً فولفا
وقوله⁽⁶⁾: [الطويل]

تلتها بنا روج زواجل وانتحت بأجوازها أيدتجد وتمزح

(1) الموشح ص398. وقال المرزباني في التعليق: «أراد سقى أيأمانا التي عهدناك عليها عهد الوصال، وعهد اليمين التي حلفنا، والعهد الأخير هو المطر، وجمعه عهاد».

(2) الموشح ص391.

(3) الموشح ص379.

(4) الموشح ص380.

(5) الموشح ص381. وقال المرزباني في التعليق: «أراد ملتفاً، ويقال: الإنسان يقرو الأرض إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها، والربول جمع ربل، وهو نبات يصيبه برد الليل ونداه فينبت بـ [لا] المطر، والكناس مولج للوحش من البقر والظباء». وكل شيء يغطي شيئاً فهو فولف له.

(6) الموشح ص383. والأروح الذي في صدر قدمه انبساط. والقراقير جمع قرقور، وهو أطول السفن. والآذي: الموج. ولهاميم: غزيرة، أو كثيرة المشي.

فَظَلْتُ بِمَجْهُولِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهَا قَرَأْتُ فِي آذِي دَجَلَةٍ تَسْبُحُ
لَهَا مِيمٌ فِي الْخَرْقِ الْبَعِيدِ نِيَّاطُهُ وَرَاءَ الَّذِي قَالَ الْأَدْلَاءُ تُصْبِحُ
وقوله⁽¹⁾: [الكامل]

إِرْقَالُهَا يَعْضِدُهَا، وَوَسِيجُهَا سَعْدَانُهَا، وَذَمِيلُهَا تَنْوُمُهَا
إن النماذج المعروضة آنفاً لا تمثل كل ما ورد ذكره في المآخذ على الشعراء المحدثين. لكن العرض السابق يبين مدى تقصي القراء المهتمين لعشرات الأمثلة على تلك الشاكلة؛ مما يعطي انطباعاً عاماً عن نمط الاهتمام السائد لدى القراء. ووفقاً لهذا التقصي يظهر أن الاهتمام أخذ يتركز في البحث عن المزيد من الأمثلة التي يكتفي بالتعليق المقتضب عليها وإعادة تبويبها تبعاً للمحاور ذاتها. أما البحث في تلك الأمثلة - التي تبدو مكررة - عما يمكن أن يلوح بين بعضها من تباين، أو مسوغ لهذا الاستعمال أو ذاك، فلم يكن واضحاً على الرغم مما يبديه بعضها.

فاستنكار استعمال الغريب على المحدثين أمر وارد، خصوصاً على نحو ما طرحه قدامة بن جعفر في حديثه عن الحوشي⁽²⁾؛ إذ يظهر فيه وعي باختلاف أسلوب النظر إلى القيمة ونموها في وعي القارئ المهتم، لكن أبيات أبي تمام التي ضمَّنها الغريب، وهو يأتي على جزئية وصف الناقة أمر فيه مندوحة، لأنه لا توجد مفردات حضرية لينة توصف بها. أما مؤاخذته على افتراض أن المفردات القديمة ذاتها التي استخدمها القدامى لوصف الناقة قد تفاوتت رقة ووعورة؛ فذلك أمر قد خف لدى أبي تمام عندما مزج وصفه الناقة بواقع حياته الحضرية؛ فربط بينها ومشهد المراكب على نهر دجلة من جهة، وربط من جهة ثانية بين أضرب من سير الناقة وبين أنواع مما ترعاه من النباتات في طريقها؛ فكل ضرب سيرٍ قابله باسم نبات معين؛ على أن ذلك يخفف

(1) الموشح ص 378. وقال المرزباني في التعليق على البيت: «الإرقال ضرب من السير، وكذلك الوسيج. والذميل واليعضيد نبت وكذلك السعدان والتنوم، يعني أنه لا علف لها إلا السير».

(2) كلام قدامة نقله عنه المرزباني في الفرق وتسويغ قبول استعمال الحوشي من الشعراء القدامى وتكلفه لدى المحدثين؛ ينظر الموشح ص 436.

من التكلف لكنه لا يدفعه مطلقاً.

وفي الصدد ذاته نرجح أن أبا نواس - في بيتيه اللذين أضحيا مثلاً يضرب للإسراف في حب البديع، والتمادي فيه، عندما جعل الصدود ثعلباً، وأرسل كلب الوصال في طلبه - كان متهمكماً ساخراً. وليس هذا التفسير بالبعيد، في ضوء ما أثر عن شخصيته. وكذا بيت أبي تمام الذي بنى شطراً كاملاً فيه على مفردة واحدة هي (العهد)، قد يكون من باب إظهار المقدرة والبراعة في توظيف المثير اللغوي بشقيه. فأظهر الإمام بتعدد المعاني التي تحملها المفردة الواحدة من جهة، كما أظهر إمكانية توظيف الحيلة البديعية من جهة أخرى.

على أن المسوغات السابقة وغيرها ليست نفيّاً لوجود المبالغة في استعمالات المحدثين، ولا سيما في الأبيات التي يظهر التكلف واضحاً فيها. لكن ذلك لا ينفي أيضاً أن صفتي التكلف والإفراط؛ إنما يعكسان وجهة نظر تمثل القراء المهتمين بالشعر، أما عامة القراء الذين أسهموا في شيوع الشعر المحدث، وتوسيع دائرة تلقيه - ممن لم يهتم المرزباني بأخبار مواقفهم من مثل هذه الاستعمالات - فثمة قرائن أوردتها تشير إلى أن موقفهم من بعض تلك الاستعمالات ربما كان مختلفاً في ضوء استحسان شرائع منهم لما لم يستحسنه القراء المهتمون. وسنرى جانباً من ذلك الموقف في الجزئية التالية.

ثالثاً: السياقان الخاص والعام لتلقي الشعر المحدث:

يظهر من معطيات جدل التلقي السابقة أن القراء المهتمين كانوا يكرسون وجهة نظرهم استناداً إلى قيمة المقايضة على تلقيهم للقدمات. أما الطرف الآخر (الشعراء المنتجون) في العملية فقد قام - زيادة على كونه طرفاً أساسياً في العملية بنتائج الشعري، وآرائه في الشعر والشعراء - بدور مهم في استمرار عناصر الإثارة، على النحو الذي تبين في الجزئية السابقة.

غير أن عملية التلقي تلك بطرفيها تمثل السياق الخاص بتلقي الشعر المحدث. أما السياق العام فهو الذي يركز على عامة القراء من غير المهتمين. وبما أن كتاب

الموشح معني في المقام الأول بآراء العلماء، أو الآراء التي رووها عن غيرهم من المهتمين، كالخلفاء، ومن يدخل في جملتهم، فيما تأتي الآراء التي تمثل عامة الناس في مرتبة أدنى من الاهتمام، بناء على ذلك فإن الإشارات تبدو قليلة عن تلقي هذه الفئة الأخيرة، وتكاد تنحصر آراؤها المباشرة فيمن يشار إليهم بالأوصاف المبهمة، من نحو: رجل، أو امرأة، أو أعرابي وما إلى ذلك. ومع ذلك فمثل هذه الأخبار القليلة قياساً على عامة الأخبار، تدل على الإسهام المباشر لهذه الفئة. أما الإسهام الأهم لهذه الفئة فلم يكن في هيئة آراء مباشرة فردية، وإنما في أثرها على الذائقة الإجمالية. سواء أكان ذلك بظهور شرائح في أوساط عامة المتلقين تستجيب لتجارب أو أنماط شعرية مما لا يلقي له المهتمون بالاً، أم كان ذلك في سرعة استجاباتهم لمعاصريهم من الشعراء، وإسهامهم في شهرتهم وتوسيع دائرة تلقيهم.

فمن أمثلة ذلك أن قبول عامة القراء للشعراء دلت على مستوى التفاعل والتداول الذي حققته تجربة شاعر ما، بغض النظر عن المثار حوله من آراء القراء المهتمين، خصوصاً العلماء. ومثال ذلك المكانة التي حظي بها أبو العتاهية في الكوفة⁽¹⁾، فقد كان فتاها الذي غلب على الشعراء، كما كان ذلك لأبي نواس في الوقت ذاته في البصرة⁽²⁾. وقد حقق أبو العتاهية هذه المكانة على الرغم من مآخذ العلماء التي يعود جلها لاستسهاله الشعر إلى الحد الذي وصل فيه إلى سفاسف القول، على حد وصف المرزباني⁽³⁾، الذي لخص مجمل آراء قراء الشعر المهتمين. ومما يؤكد ذلك أن الرشيد كان يقدم أبا العتاهية، مع حداثة سنه، على العباس بن الأحنف، في وقت لم يكن العلماء فيه راضين عن ذلك التقديم⁽⁴⁾، وفي تقديم الرشيد لأبي العتاهية انعكاس للمكانة التي

(1) يظهر أن هذه المكانة كانت لولادته ونشأته في الكوفة، لأنه اشتهر عقب انتقاله منها؛ إذ تشير أخباره إلى أنه غادرها صبيّاً إلى بغداد. وسيرد تفصيل ذلك في المبحث الثاني من الفصل الرابع بهذا البحث.

(2) الموشح ص 325.

(3) الموشح ص 324.

(4) يجسد رأي العلماء هنا إسحاق الموصلي الذي اضطر لمسايرة الرشيد في رأيه، على الرغم من تفضيله شعر العباس. انظر: الموشح ص 328.

حققتها أبو العتاهية لدى عامة القراء، الذين جعلوه على رأس شعراء الكوفة، متساوياً في ذلك مع المكانة التي كانت لأبي نواس في البصرة.

ومن الأمثلة الأخرى - التي نجد فيها دلالة على تفاعل فئات من عامة القراء مع تجربة شاعر بعينه، أو موضوعات شعرية بعينها، في وقت لم يكن فيه القراء المهتمون راضين عن هذه التجربة، أو تلك الموضوعات الشعرية - تجربة (أبي الشمقمق). إذ يكفي الوقوف على ترجمة المربزباني لهذا الشاعر في معجمالشعراء⁽¹⁾ لتتعرّف أنه كان يجسد أنموذجاً للشاعر غير الجيد لدى القراء المهتمين، ومع ذلك فقد وصف شعره بأنه مما يتملح به الأشراف⁽²⁾. وقريب من ذلك وصف جزء من شعر أبي نواس بأنه من مردول القول، وأنه مما يستملحه الأحداث ويألفه المجان⁽³⁾. ونجد في الوصفين السابقين أن أهمية دور عامة القراء تجسدت في أنها نقلت وجهة نظر مغايرة لوجهة النظر المثلثي التي كرسها القراء المهتمون طيلة فترة تلقيهم للشعر المحدث، سواء أكان ذلك في التجارب المشهورة، أم في الموضوعات الملائمة لأذواق المهتمين. ومما زاد من أهمية هذا الدور أنه نقل المحاور التي بدت حواشي في تلقي المهتمين؛ الأمر الذي قد ينم عن اختلاف واسع بين معطيات سياقي التلقي الخاص والعام⁽⁴⁾.

أما الأثر الأهم الذي نشأ عن الأمثلة السابقة وغيرها، مما كان له دور بعيد المدى على مجمل عملية تلقي الشعر المحدث، فقد تجسد في واقع التداول الواسع الذي حكاه ابن المعتز في طبقاته، عندما ذكر أن ذلك الشعر هو الرائج في زمنه⁽⁵⁾. ويبدو الأثر

(1) المعجم ص 319.

(2) نورالقبس ص 144.

(3) الموشح ص 334.

(4) فيمكن أن نبني على استملاح (الأشراف) لشعر أبي الشمقمق أنه كان من أجل العوالم الاجتماعية المختلفة عن نمط حياة الأشراف التي لهج بها أبو الشمقمق في شعره. وأن استحسان الأحداث والمجان للمردول من شعر أبي نواس وغيره يدل على اتساع هذه الفئة لكثرة هذا الشعر، كما أن ذلك يدل على أن هذه الفئة من القراء، إنما هي الفئة التي لا تقيم الشعر بالمعيارية الأخلاقية.

(5) قال ابن المعتز: «والذي يستعمل في زماننا إنما هو أشعار المحدثين وأخبارهم»؛ طبقات الشعراء، ص 86.

النوعي للتداول الواسع الذي حظي به الشعر والشعراء المحدثون لدى عامة القراء في أنه أصبح عاملاً مؤثراً في تعامل العلماء مع المحدثين. فشرع بعضهم في تغيير شيء من مواقفه مع الشعر والشعراء المحدثين جراء عوامل تداوله المتزايدة في أوساط الناس، كما بدا من موقف الأخفش والمبرد وغيرهما⁽¹⁾.

وبهذا يظهر جانب من اختلاف نمطي التفاعل والاستجابة بين سياقي تلقي الشعر المحدث الخاص والعام. كما يظهر أن محاولات القراء المهتمين لم تكتسب صدى بعيداً سواء في أوساط الشعراء المنتجين، أم في أوساط عامة القراء. واللافت للنظر أن المصدر الذي يشير إلى تباين حجم التفاعل بين الشعراء المحدثين وعامة القراء من جهة، وبين الشعراء والقراء المهتمين من جهة أخرى هو ابن المعتز. فما ذكره في طبقاته من شيوع الشعر المحدث ورواجه في زمنه يشير إلى مقدار التفاعل الذي بلغه الشعر المحدث في أوساط عامة القراء، في الوقت الذي يعكس تعامله في رسالته عن أبي تمام نمط تفاعل القراء المهتمين⁽²⁾.

وبهذا نجد أن طرفي عملية التلقي هنا الشعراء المنتجين وعامة القراء سارا في علاقة تواصل أفضل من تلك التي عاشها الشعراء مع القراء المهتمين. وأن الشعراء اتجهوا إلى العامة الذين كان اهتمامهم يتسم بالتزايد والتوسع كلما تقدم الزمن، على النقيض تماماً من دائرة تلقيهم في أوساط المهتمين. يؤيد ذلك أن المتأخرين من القراء المهتمين لم يسيروا على الوتيرة ذاتها في تنامي وعيهم بالقيم كما كان أسلافهم. بل إنهم -

(1) انظر مواقف الأخفش وخلف الأحمر وغيرهما من العلماء الذين تراجعوا عن مواقف سابقة لهم من بشار، وأبي نواس، وقد ورد ذكرها سابقاً. وتأمل موقف المبرد الذي وصفه إحسان عباس بالخضوع لروح العصر. إذ ذكر في ذلك الصدد استشهاده بنماذج الشعر المحدث التي علل المبرد استثنائه بها في كتابه الكامل بأنه أشكل بالدهر، يضاف إلى ذلك كتابه الروضة الذي خصصه للمحدثين. انظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ص 78-79.

(2) ولعل الجمع بين ذلك يكمن فيما استنتجه محمد الهدلق من تطور آراء ابن المعتز وتغير موقفه من أبي تمام في أول حياته وفي آخرها. انظر: (موقف ابن المعتز من شعر أبي تمام) محمد الهدلق، مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، مج 21، ع 1، 1985، ص 51 - 78.

كما سيظهر في المحور التالي - كانوا أخلص إلى منحى التعيد والتنظيم لجهد أسلافهم من استظهار وفرة من القيم الجديدة التي تتلاءم والزمن المتأخر الذي منحهم فرصة تلق أطول لتجربة الشعر المحدث، وفرصة إضافة أفضل إلى منجز سابقهم في ضوء إطار التأليف المنهجي الذي كانت نظراتهم تنطلق منه.

المحور الثالث

تنامي الوعي بالقيم الجمالية لدى القراء المهتمين بالشعر

أ: سياق القارئ المفرد (أبو عمرو بن العلاء أنموذجاً):

جمع المرزباني عدداً كبيراً من الآراء المتفرقة التي تمثل سياق اهتمام أبي عمرو بن العلاء المباشر بالشعر والشعراء، إلى جانب جمعه عدداً آخر من الآراء في مسائل لغوية، وما إلى ذلك من الأحكام والأقوال الماثورة التي تمثل سياق النشاط الثقافي العام له⁽¹⁾. ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على أبي عمرو وحده؛ وإنما كان نهجاً اتبعه المرزباني مع أغلب العلماء الذين عني بالترجمة لهم، على ما بينهم من تفاوت في النشاط، ومقدار الاهتمام.

ويأتي الوقوف عند السياق الخاص بأبي عمرو بن العلاء، لأنه يمثل أنموذج المتلقي الأول المهتم في تاريخ الشعر؛ إذ لا نجد سياقاً لدى سابقه، أو معاصريه يضاهي سياقه في كثرة محتواه من الآراء المتعلقة بالشعر والشعراء، وفي بعد تأثيره على لاحقيه⁽²⁾. ومع أن أبا عمرو لم يكن بالعالم المتفرغ للشعر، أو العالم الذي نبعت مكانته أساساً من اهتمامه بالشعر⁽³⁾، كما هو الحال لدى من جاء بعده من العلماء، فإن

(1) انظر ترجمته في كل من نورالقبس ص 25-37، والمختار ص 176-199 ب.

(2) يستنتج مما ورد عن الشعبي أنه من أقرب العلماء لأبي عمرو علماً ودراية بالشعر، لكن ما ورد من أخباره عن الشعر والشعراء في ترجمته بنورالقبس ص 237-251، لا يقارن بسياق أبي عمرو. أما السابقون لأبي عمرو فمنهم: يحيى بن يعمر (83 هـ) وترجمته موجزة، ولا تشتمل سوى على خبر واحد له مع الفرزدق. انظر ترجمته في نورالقبس ص 21-22، ويقاس عليه معاصراً أبي عمرو (عنبسة بن معدان [الفيل]، وعبد الله بن أبي إسحاق). انظر ترجمتهما في نورالقبس ص 23-24.

(3) جاءت مكانة أبي عمرو بن العلاء من كونه أحد التابعيين، وأحد القراء السبعة، ونظير ترؤسه في علم القرآن، في ظل وجود علماء لهم مكانتهم العالية، على رأسهم الحسن البصري. نورالقبس ص 25.

آراءه المتعلقة بالشعر والشعراء كان لها الصدى البعيد في أجيال المتلقين من بعده. فظلت آراؤه متداولة حتى لدى النقاد المتأخرين. بل إن عدداً من آرائه قد انعكس حرفياً على من أتوا بعده مباشرة، ويلاحظ ذلك في كثير من الآراء المنسوبة للأصمعي؛ خصوصاً الآراء التي تعتمد على صيغ التفضيل، كأحسن ما قيل في الوصف، وأشعر بيت... وما إلى ذلك⁽¹⁾.

وتمثل هذه الآراء مرحلة أولى في سياق تلقي أبي عمرو، فهي تنم عن نظراته الجزئية في أبيات شعرية محددة. ويتضح أن قسماً كبيراً منها معتمد على قيمتي التلقي المشار إليهما ضمن قيم التلقي المستقاة من تجارب القدماء، وهما قيمتا: المقايسة، والموافقة والمخالفة للعناصر الطبيعية والإنسانية.

ويأتي بعد هذه المرحلة أخذه بقيمة المقايسة من منظور أشمل، وأبعد نظراً، عندما أخذ يقيس شعراء من الحقبة الإسلامية على من ماثلوهم في النهج من شعراء الجاهلية⁽²⁾. وفي ذلك محاولة مبكرة أخذ فيها بالنظر إلى أكثر من حقبة في آن واحد. وإذا ما صح الخبر المنسوب إلى أبي عمرو بن العلاء الذي ورد فيه استحسانه لأبيات بشار في أغراض مختلفة⁽³⁾، فإنه يكون بذلك قد أسس نهجاً تاريخياً شاملاً لضرورة

(1) انظر - على سبيل المثال - نور القبس ص 148 وما بعدها ففيها بعض آراء الأصمعي كقوله: «ولم يبتدئ أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتداء أوس بن حجر وأصدق ما قالته العرب وأحسن ما قيل في صفة امرأة» وغير ذلك، ثم قارنه بقول أبي عمرو بن العلاء في المصدر نفسه ص 29: «ما قالت العرب أبرع من قول أبي ذؤيب وما قالت أمدح من قول الشاعر ولم أسمع في وصف الماء أحسن من قول امرئ القيس».

(2) قال أبو عمرو: «اتفقوا على أن أشعر الشعراء امرؤ القيس والنابعة وزهير، وكان يشبه شعر ثلاثة من شعراء الإسلام بشعر ثلاثة من شعراء الجاهلية: الفرزدق بزهير، وجريراً بالأعشى، والأخطل بالنابعة. قيل: فهلا شبهوا جريراً بامرئ القيس؟ قال: هو بالأعشى أشبه. كانا بازيين يصيدان ما بين الكركي إلى العندليب. وشبه شعر زهير بالفرزدق لمتانتها واعتسارهما، والأخطل بالنابعة لقرب مأخذهما وسهولتهما...» نور القبس ص 26-27.

(3) سئل أبو عمرو عن أبدع الناس بيتاً، وأمدحهم، وأغزلهم، وكل الأبيات التي ذكرها لبشار. انظر: نور القبس ص 28.

النظر إلى الحقب الشعرية الثلاث، وعدم الاختصار على حقبة دون أخرى. ناهيك عما ينطوي عليه ذلك من اعتراف مبكر بالحقبة المحدثّة ممثلة في بشار بن برد، وسابق على اعتراف ابن قتيبة بهذه الحقبة بزمان طويل. ولن يكون هذا الاعتراف مثلاً نادراً في ضوء ما تقدم عرضه في السياق التاريخي لتقبل القراء المهتمين لطلائع شعراء الحقب. إذ تجاوز أبو عمرو مرحلة التردد في جمع المحدث (الإسلامي)، والاعتراف به، إلى توثيق معاصرتة لشعرائه (الفرزدق وجريروذي الرمة، وغيرهم).

وفي ضوء ما تقدم أيضاً - من تمثّل القراء لقيم الشعراء الإسلاميين، خصوصاً تبني المعيارية الغرضية التي استُمدّت من تكريس الإسلاميين لغرضي المدح والهجاء - تولدت مرحلة أخرى في سياق تلقي أبي عمرو عندما قسم الشعر إلى: «أقسام تؤول إلى أربعة أركان، فمنه افتخار، ومنه مديح، ومنه هجاء، ومنه نسيب...»⁽¹⁾. وفي المرحلة ذاتها نجده يضع حداً مزدوجاً في أساسيه: الزمني، والفني، لمرحلة الشعر القديم أو نهجه عندما قال: «افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة»⁽²⁾. وفي رأي ثالث نراه يخلد إلى الأساس التاريخي، دون اقتناع تام بمجده الذي أجبره على أن يفضل شاعراً متأخراً في زمنه، متقدماً في نهجه فقال عن الأخطل الذي كان يفضل كثيراً: «لو أدرك من الجاهلية يوماً واحداً ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً»⁽³⁾.

إن جمع المرزباني لهذه الآراء التي نجدتها مفرقة في عدد من المصادر، قد كان له قيمة الكشف عن ذلك التنامي الذي شهدته سياق المتلقي الواحد. ولولا سوق هذه الآراء في موضع واحد لكان من غير اليسير التنبه لمدلولاتها.

ب - سياق جماعات متعاقبة من المتلقين:

اعتمد المرزباني في مادة كتاب الموشح على مصدرين أساسيين: المصدر الأول الأخبار التي تتضمن آراء العلماء منذ أبي عمرو بن العلاء فالأصمعي وطبقته، فالمبرد،

(1) نورالقبس ص 27.

(2) نورالقبس ص 27.

(3) نورالقبس ص 27.

وصولاً إلى أبي بكر الصولي وغيره ممن أخذ المرزباني عنهم مباشرة. أما المصدر الثاني فيتكون من مقتبساته من كتابي عيار الشعر لابن طباطبا العلوي (322هـ) ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (327هـ). وينطوي المصدر الأول على شريحتين زمنيتين من القراء المهتمين، في حين يمثل المصدر الثاني شريحة ثالثة.

1 - الشريحتان الأولى والثانية:

تعد الحقبة التي يمثلها أبو عمرو بن العلاء، والتي قد تجلت بعض مظاهر تنامي الوعي فيها من خلال التتبع السابق لآراء أبي عمرو، أول الشرائح الزمنية عناية بالشعر، ولا سيما بعد ضم آراء كل من عبد الله بن أبي إسحاق، وعنبسة بن معدان وغيرهما⁽¹⁾ إلى جهد أبي عمرو بن العلاء.

أما أكثر الشرائح الزمنية نشاطاً عقب تلك فهي التي عاش فيها الأصمعي ومعاصروه أمثال: أبي زيد، وأبي عبيدة، وغيرهما، مع الأخذ في الاعتبار بعض من سبقوهم قليلاً، كالأخفش (الأكبر) وخلف الأحمر ويونس، أو الذين تلوهم، أو أخذوا عنهم كالبرد وثعلب. فهذه الحقبة الزمنية تعد أكثر الحقب إثراء لعملية تلقي الشعر، إن لم تكن الحقبة الأساسية في تاريخ تلقي الشعر. وإذا كان أبو عمرو قد جسد قطب التلقي في زمنه فإن الأصمعي، وأبا عبيدة، وأبا زيد الأنصاري، زيادة على الأخفش يعدون أقطاباً مهمة في هذه الحقبة. الأمر الذي يجعل من تتبع السياق الفردي لكل من هؤلاء من خلال ما جمعه المرزباني، محتاجاً إلى بحث خاص⁽²⁾. ولهذا فمن الأنسب هنا التوقف عند بعض الإيجابيات التي حققها أولئك العلماء على اعتبار أنها جهد مشترك كان له أثره على مجمل عملية التلقي وقيمتها.

وأول ما يبدو واضحاً في هذا الصدد ما قاموا به إجمالاً من دور في استظهار القيم

(1) كيجي بن يعمر، والشعبي، وقد مر سابقاً.

(2) انظر دلالة على ذلك طول بعض تراجم المرزباني كترجمة الأصمعي وغيره؛ وبحسبنا مجموع ترجمتي الأصمعي الذي بلغ في نور القبس والمختار (116) صفحة. مع التنبيه إلى أن الترجمتين لا تتماثلان إلا في ربع محتوييهما، وهو ما أكدته محقق نور القبس ص 28.

المستقاة في ضوء تجارب الشعراء القدماء، وتكريس العمل بها في عشرات الآراء المنسوبة لكل منهم. ومن ثم تصدير آرائهم تلك إلى العلماء الذين أخذوا عنهم. وفي موضع سابق من هذا البحث⁽¹⁾ بعض الأمثلة التي تشير إلى ذلك الأثر، في ضوء علاقات العلماء بأقرانهم وتلاميذهم.

ونجد في الموضع ذاته إشارة إلى عامل روح التنافس بين أفراد هذه المجموعة وما ألقى به من ظلال على الاهتمام بالشعر والشعراء؛ مما أدى إلى ثراء وجهات النظر التفصيلية حول الأبيات الشعرية التي كانت مثار نقاشهم.

ولعل الإيجابية الكبرى من باعث إظهار البراعة في العناية بالشعر لدى أولئك العلماء تتمثل في التوجهات المعنية بالشعر من مناحي شمولية أبعد في أثرها من تلك المقتصرة على النظرات الجزئية في أبيات محدودة. إذ أدى بهم ذلك إلى أن يشق كل منهم طريقة تميزه، وتحقق له الخصوصية التي يميز بها أقرانه، أو من يتقدم عليهم زمناً. فمن ذلك برز التوجه الخاص بدءاً من الأخفش (الأكبر) عندما اختط نهجاً جديداً في تفسير الشعر، لم يكن مألوفاً من قبل. فقد نقل المرباني ذلك التوجه في قوله عنه: «إن أبا الخطاب [الأخفش] أول من فسر الشعر تحت كل بيت منه، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها»⁽²⁾.

أما توجه الأصمعي فقد تميز على نحو خاص في تأويل ما يعجز عنه غيره من الشعر بمن فيهم العلماء ولذلك برع في تفسير (المعنى)، وبرع كذلك في أن تأويلاته غالباً ما ترتقي فوق التأويلات المباشرة، التي كان يتكئ فيها على أساس تمكنه من اللغة، ودرايته بالغريب، وكثرة مرويته في الشعر وغيره⁽³⁾.

(1) انظر في هذا البحث: الفصل الأول المعالم التاريخية: المبحث الثاني: المحور الثاني: العلاقات الاجتماعية: (علاقات العلماء).

(2) المختار ص (38 أ).

(3) انظر الفصل الأول المعالم التاريخية: المبحث الثاني: المحور الثاني: العلاقات الاجتماعية: (المكانة الاجتماعية والعلمية).

ويدشق أبو عبيدة معمر بن المثنى طريقاً خاصاً به تمثل في تنبهه للبعد المجازي في تأويل الشعر، عندما صنف كتابه المجاز، الذي توضح روايات سبب تأليفه أن المجاز الشعري كان الأساس الذي انطلق منه⁽¹⁾.

ولا يخفى ما في هذه التوجهات من مردود على قدر كبير من الأهمية، خصوصاً في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ تلقي الشعر. فكل توجه من تلك يسهم في تعميق تلقي الشعر. فطريقة التفسير لدى الأخفش كانت تنبع من تحقيق الفهم الجزئي للشعر أولاً، وهي وإن بدت قطعاً للطريق الذي سيشتميز به توجه الأصمعي بتقديم الخبايا اللغوية مباشرة إلى القارئ عقب كل بيت إلا أن ذلك لا يعد نكوصاً عن التأويل الكلي للقصيدة؛ بل إن طريقة الأخفش تعد المفتاح الأنسب لفهم القصيدة انطلاقاً من أن فهم الكل ينبغي على الفهم الصحيح للجزء، مع التنبيه إلى أن تقدم الأخفش الأكبر في السن قد جعل نهجه موضع زيادة، يفيد منه لاحقوه. أما البعد المجازي فقد كان له أهميته؛ غير أن انطلاق أبي عبيدة عبر إشكال المجاز في القرآن الكريم كان من أقوى الأسباب في الانشغال عن تنامي الاهتمام ببعد المجاز الشعري لصالح الخلاف حول وجود المجاز في القرآن بتلك الحقبة.

وعندما ننظر زيادة على ما سبق - إلى بعض الأمور المتعلقة بملاحظات هذه المجموعة من العلماء حول التلقي، أو تاريخ الشعر يتبين أثرها في السياق العام للتلقي، كما يتبين إلى ذلك تنامي الوعي لديها. فمن ذلك، التنبيه إلى اختلاف التلقي من عصر إلى آخر للقيمة الشعرية الواحدة، عندما تعرض أبو عبيدة في خبر مطول إلى ظاهرة النهي عن رواية شعر بشار بن برد في عصر المهدي، ولاحظ أن ما نُهي عنه من شعر بشار لا يختلف كثيراً عن أشعار العذريين، غير أنه سوغ ظهور ذلك المنع بما استجد من المفاهيم والمؤثرات التي أفرزت مثل هذا الموقف المتأخر من شعر بشار⁽²⁾. أما الملاحظات التي تبدو متعلقة بتاريخ الشعر فتمثلت في الأسئلة المثارة في تلك

(1) المختار ص 156 ب 157 أ.

(2) نور القبس ص 118.

الفترة. ومن ذلك التساؤل عن حقيقة وجود شعراء سابقين على امرئ القيس في ضوء ذكر ابن حذام⁽¹⁾. والتساؤل عمن أرخ لنفسه من الشعراء في شعره⁽²⁾. وفي هذا الصدد يظهر سياق آراء أبي عبيدة أنه أوفر علماء عصره إبداعاً للملاحظات المتعلقة بتاريخ الشعر⁽³⁾. ويوضح النظر في مجمل النشاط الذي أسهمت به هذه المجموعة في سياق تلقي الشعر أنها اضطلعت بالدور المتوخى منها في تلك الحقبة المهمة من تاريخ الشعر، قياساً إلى الدور الذي ستؤديه الشريحة التالية التي يمثلها ابن طباطبا، وقدامة بن جعفر.

2 - الشريحة الثالثة:

ميزة هذه الشريحة التي تعد المصدر الأساسي الثاني لكتاب الموشح أن ممثليها هم ممن مارسوا التأليف المختص بنقد الشعر. وإذا استثنينا ابن المعتز ورسائله نظراً لِقَصَر الرسالة مقارنة بالكتابين الآخرين، ولما قد تقدم ذكره في شأن موقف ابن المعتز فيها - فإن القارئ في الموشح تلفت نظره تلك المقتبسات المطولة من كتابي: عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ونقد الشعر لقدامية بن جعفر.

ويبدو التساؤل قائماً حول مسوغات الاعتماد الكبير على الكتابين تحديداً. فهل كان ذلك عائداً إلى أن المرزباني سعى إلى استخلاص مزيج من طرح المؤلفين على اعتبار أنهما أول من تصدى للتأليف المختص في نقد الشعر وتنظير أسسه الفنية؟ فيكون المؤلفان قد قدما بذلك وجهة نظر رآها المرزباني جديدة؟ أم أنه وجد في الكتابين مادة كثيفة من المآخذ على الشعراء القدامى والمحدثين؟

والراجح أن المرزباني لم يكن مهتماً باستخلاص مزيج محكم من الكتابين على النحو المشار إليه، كما أنه لا يمكن الذهاب مطلقاً إلى أنه كان يهتبل المآخذ، ومن ثم يلصقها كيفما اتفق؟ فقد كان يتنقل بين الكتابين ليكمل من أحدهما المآخذ التي

(1) نور القيس ص 121.

(2) توجه الأصمعي بهذا السؤال إلى الحاضرين لديه. نور القيس ص 127.

(3) انظر ترجمته في نور القيس ص 109-124.

لم يتعرض لها الآخر، أو ليسد نقصاً في المآخذ على مسائل لم تأت عليها، أو تفيها أراء العلماء السابقين⁽¹⁾، أو أنه وجد لدى المؤلفين مآخذ على بعض الشعراء الذين لم يجد بخصوصهم شيئاً مما رُوي عن العلماء، أو أنه وجد مآخذ جديدة، توجب عليه استلحاقها⁽²⁾.

ومن الواضح أن كثيراً من المصطلحات الجديدة التي صدرَ بهما المؤلفان أبوابهما كان لها دورها في جذب اهتمام المرزباني، خصوصاً قدامة بن جعفر. ولعل من الجدير ذكره - قبل الشروع في النظر إلى ما تنم عنه منقولات المرزباني من الكتابين من وجهات نظر في تلقي هذه الحقبة الزمنية التي يمثلها المؤلفان - احتمال ورود بعض الأبواب الأخرى من الكتابين في كتب المرزباني التي لم تصل إلينا. ولاسيما رسالته عن احتجاجات العلماء للمآخذ على الشعراء، وكتاب الشعر الذي وصف بأنه «جامع لفوائده ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وعيوبه ونعت أجناسه وضروره...» إلى آخر ما ذكر⁽³⁾. ولعل هذا الاحتمال يرجحه اقتصره على النقل من كتاب نقد الشعر لقدامة على القسم الأخير في الكتاب الخاص بعيوب الشعر، دون غيره.

وعندما ننظر في قيم التلقي التي تتمثل في هذه الحقبة الزمنية من أواخر القرن الثالث الهجري إلى الثلث الأول من القرن الرابع نجد أن أغلبها قيم التلقي المستقاة في ضوء تجارب القدماء، وإن ظهرت في هيئة مباحث جديدة.

فقيمة الموافقة والمخالفة للعناصر الطبيعية والإنسانية يندرج فيها كل من المباحث التالية لدى قدامة بن جعفر: (مخالفة العرف)⁽⁴⁾، و(نسبة الشيء إلى ما ليس منه)⁽⁵⁾،

(1) تبدو هذه المسائل في مقتبساته التي يختتم بها مآخذ كل حقبة من الحقب الثلاث في الموشح.

(2) كما أخذ عبد الرحمن القس التي استقاها جميعاً من قدامة، الموشح ص 287-289. وكلما أخذ على النابغة والأعشى وغيرهم من الشعراء القدامى الذين أضاف إلى مآخذهم ما أورده عنهم ابن طباطبا.

(3) انظر الملحق الثاني ثبت مؤلفات المرزباني بآخر هذا البحث.

(4) الموشح ص 294. نقد الشعر ص 215.

(5) الموشح ص 295. نقد الشعر ص 215.

و)التناقض على طريق الإيجاب والسلب⁽¹⁾، و)إيقاع الممتنع، وعندما نتخذ من مأخذ قدامة في المبحث الأخير مثلاً على الشواهد الشعرية في تلك المباحث يظهر على الرغم من جدة المصطلحات أن بناء المأخذ قائم على مخالفة المعنى الشعري للعنصرين المذكورين⁽²⁾.

وفي القيمة نفسها يقع مبحث - الأبيات التي قصر فيها أصحابها عن الغايات التي جروا إليها ولم يسدوا الخلل الواقع فيها معنى ولفظاً - لدى ابن طباطبا الذي يقدم في هذا الموضع مثلاً جيداً لبناء المأخذ الشعري على مدى ما وافقه الشاعر أو خالفه في تجسيد العنصر الإنساني، واضعاً الشاعر بين احتمالين لا ثالث لهما: فإما أن يحاكي الصفة الجسدية، وإما السمة الخلقية⁽³⁾.

(1) الموشح ص 288. نقد الشعر ص 211.

(2) الموشح ص 331. نقد الشعر ص 213. أورد المرزباني ما نصه: «وقال قدامة بن جعفر الفرق بين الممتنع والمتناقض أن التناقض لا يكون، ولا يمكن تصوره في الوهم، والممتنع لا يكون ويجوز أن يتصور في الوهم. ومما جاء في الشعر - وقد وضع الممتنع فيه فيما يجوز وقوعه - قول أبي نواس: [المديد]

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن
فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاعل لهذا الممدوح بقوله: (عش أبداً)، أو دعا له، وكلا الأمرين بما لا يجوز مستقبح، ولعل معترضاً أن يعترض هذا القول بأن يجعل هذا القول غلوا يلزمنا تجويز الغلو في الشعر واستجداته؛ فالفرق بين هذا الباب، وباب الغلو أن مخارج الغلو إنما هي على (يكاد)، وليس في قول أبي نواس: «عش أبداً» موضع يحسن فيه «يكاد»؛ لأنه لا يحسن على مذهب الدعاء أن يقال: «يا أمين الله تكاد تعيش أبداً».

(3) الموشح ص 55، وغيرها. عيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم، الرياض، 1405، ص 158-168. وفي هذا الموضع أورد المرزباني ما نصه: «قال أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي: من الأبيات التي قصر فيها أصحابها عن الغايات التي جروا إليها ولم يسدوا الخلل الواقع فيها معنى ولا لفظاً قول النابغة الذبياني: [البسيط]

ماضي الجنان أخي صبر إذا نزلت حرب يوائل فيها كل تنبال
التنبال: القصير. فإن كان أراد ذلك فكيف صار القصير أولى بطلب المؤئل من الطويل، وإن جعل التنبال الجبان فهو أعيب؛ لأن الجبان خائف وجَل، اشتدت الحرب أم سكنت».

وفيما يتعلق بالقيم الشعرية لدى الشعراء المحدثين، فيتجلى الموقف من التوسع في استخدام المعاني وتلمس آفاق التعبير الممكنة وغير الممكنة في (الأبيات التي أغرق فيها قائلوها في معانيها) لدى ابن طباطبا⁽¹⁾، ويتجلى لديه الموقف من أفق الخيال الذي لا يقف عند أوجه الشبه المألوفة، في (الإشارات البعيدة، والحكايات الغلقة، والإيماء المشكل)، إذ يقول ابن طباطبا في ذلك: «ينبغي للشاعر أن يستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة، ولا يبعد عنها، ومن الاستعارات ما يليق بالمعاني التي يأتي لها»⁽²⁾.

أما أهم المظاهر الجديدة التي تنبعت إليها هذه الشريحة في سياق التلقي، فهي ما يتعلق ببناء القصيدة، وعلاقة الوزن والقافية (الموسيقى) بالمعاني والألفاظ. إذ يظهر التنبه لأهمية إحكام بناء القصيدة لدى ابن طباطبا في قوله: «ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنظم له معانيها، ويتصل فيها كلامه»⁽³⁾. ويظهر الاهتمام بالعلاقة بين العنصر الموسيقي وارتباطه بعنصري اللفظ والمعنى من خلال تنبه قدامة للائتلاف المزدوج بين كل من الوزن والقافية مع كل من اللفظ والمعنى، وما نجم عن ذلك من استخراج عيوب خلاف عيوب الوزن والقافية المعروفة؛ فاستنبط عيوب: (الحشو، والتثليم، والتذنيب، والتغيير)⁽⁴⁾. كما استنبط (المقلوب، والمبتور) في عيوب ائتلاف المعنى والوزن⁽⁵⁾.

ويمكن النظر إلى ما وصفه ابن طباطبا ب (الأبيات التي زادت قريحة أصحابها على عقولهم)⁽⁶⁾ أنه تلمس لقيمة جديدة عندما التمس أفق تلق مفتوح لم يقيد به بحدود، أو يضع له شروطا محددة. بل اقتصر ذكره لهذه القيمة على الوصف السابق، ومن ثم شرع في سرد الأبيات التي رآها تقع ضمن الأفق المذكور. وذلك ما جاء على

(1) الموشح ص 308. عيار الشعر، ص 76-86.

(2) الموشح ص 314. عيار الشعر ص 200.

(3) الموشح ص 300. عيار الشعر ص 209.

(4) الموشح ص 296-298. نقد الشعر ص 218-220.

(5) الموشح ص 113-114. نقد الشعر ص 222.

(6) الموشح ص 76، 173، 188، 208. عيار الشعر ص 151-158.

النقيض من صنيعه في تحديد بعض الاستعمالات، كالمجاز، أو المعاني، التي أشرنا إليها آنفا.

ويظهر أن ما قدمته هذه الشريحة الزمنية من المتلقين ممثلة في ابن طباطبا وقدامة بن جعفر يقع في صنيع التنظيم والتقعيد المنهجي لما اجتهدت فيه الشريحتان السابقتان. فكان اصطلاح المسميات، وضم الشواهد المماثلة - لما سبق أن اكتشفه العلماء السابقون - أوضح، وأرجح بمراحل مما أضافته هذه الشريحة إلى صعيد التلقي وقيمه الناجمة عن المنظور الخاص بهذه الشريحة الزمنية.

المحور الرابع: تصنيف تجارب الشعراء بحسب تداولهم والتفاعل مع تجاربهم

أ- تباين حظوظ الشعراء من المآخذ وما يعكسه من مؤشرات التداول:

إن أهم خلاصة - كان من شأنها أن تمنح الخصوصية لعناية المرزباني بتاريخ الشعر بعامة والتأريخ لتلقيه بخاصة، ومن ثم تميز جهده - هي إعادة تصنيف الشعراء من منظور مختلف لا يعتمد على التعاقب الزمني، أو غيره من المعايير الأخرى، مثل كثرة الشعر وقلته. بل يعتمد على ما منحه المتلقون عبر مختلف العصور الزمنية من وجود فعلي للشعراء في جوهر تاريخ الشعر. فتداول القراء وتفاعلهم مع تجارب الشعراء في أزمانهم، أو في تراكم تلقيهم عبر مختلف العصور هو المحك الذي ينبئ عن حقيقة وجود الشاعر المستمرة في ذاكرة الأجيال المتعاقبة لدى فئات متنوعة من القراء وفي مختلف العصور الزمنية.

غير أن الذي حال دون تحقيق الميزة الآنفة يكمن في أن عمل المرزباني في التأريخ لتلقي الشعر لم يصل إلينا كاملاً، وإنما وصل إلينا جزء من هذا العمل في كتاب الموشح، من خلال تفاعل القراء في مآخذ العلماء على الشعراء. وثمة جزء متم لهذا التفاعل كان طي رسالته التي تعد مكملة لمنظور المآخذ، وهي الرسالة التي نوه إليها في كتاب الموشح عن احتجاجات العلماء لكثير من تلك المآخذ. والجزء الآخر الذي لا يقل أهمية عن سابقه تمثل في الأخبار الموسعة عن الشعراء في كتابي الموثق، والمستنير.

من هنا فإن النظر في تصنيف الشعراء بهذا المحور، وفي ضوء غياب الأجزاء المشار إليها، ليس الهدف المباشر منه التوصل إلى نتائج مؤكدة بمقدار ما أن ذلك مسعى يهدف أساساً إلى إبراز قيمة هذا الجزء الذي لم يصل إلينا تاماً من مشروع المرزباني. ولعل مما يخفف من غياب تلك الأجزاء توسع المرزباني في مفهوم المآخذ بالموشح الذي لم يقتصر فيه على سرد العيوب وتعدادها مباشرة، وإنما كان سيره بمثابة تتبع المحاور والقضايا الفنية، التي يستطرد إليها عقب ذكر المآخذ. فهذا التوسع يساعد كثيراً على مقارنة تصنيف الشعراء بحسب تداول القراء المهتمين وتفاعلهم مع تجاربهم.

ومن أول ما ينبغي الإشارة إليه في صدد تصنيف الشعراء التنبيه إلى الفرق بين ترتيب أسماء الشعراء في كتاب الموشح، وبين تصنيف الشعراء إلى فئات تداول بحسب معطيات المآخذ عليهم. ففي ترتيب الشعراء نجد أن المرزباني لم يرتب الشعراء خلاف ما كان مألوفاً وسائداً. فترتيبه للحقب الشعرية كان بحسب تعاقبها الزمني. بل يمكن القول: إنه نحى منحأدق في الترتيب المعتمد على الزمن، عندما رتب الشعراء في كل حقبة بحسب تتابع ظهورهم الزمني. وهذا المنحى يجسد الإطار الظاهري لترتيب الشعراء في كتاب الموشح. غير أن النظر في تفاوت أنصبة الشعراء من المآخذ على الشاعر، وتفاوتهم في المحاور التي أثّرت في سياق كل منهم يظهر أموراً أخرى، سنحاول الوقوف عليها في هذه الجزئية.

ومن أظهر هذه الأمور ما يوحى به الفرق بين الترتيب الظاهري المشار إليه في الموشح وترتيب ابن سلام من جهة، وخلاصة تصنيف الشعراء بحسب مجموع المآخذ من جهة أخرى. فالفارق الذي يعد طفيفاً بين امرئ القيس (أول الطبقة الأولى)، وأوس بن حجر (أول الطبقة الثانية) في ترتيب ابن سلام، قد دفعه إلى التنويه بأن حق أوس أن يُقدّم من الطبقة الثانية إلى الطبقة الأولى، لأنه «نظير الأربعة المتقدمين»⁽¹⁾. وبذلك يبدو أن ابن سلام لم يكن يرى فرقاً بين أوس وسابقيه من الطبقة الأولى.

أما ترتيب الشاعرين من خلال تعداد المآخذ على كل منهما لدى المرزباني؛ فيبدي فرقاً شاسعاً جداً بينهما. فقد عد المرزباني لامرئ القيس ما يقارب (عشرين) مأخذاً، في الوقت الذي عد فيه لأوس مأخذاً (واحداً). والفرق الواسع ذاته في تعداد المآخذ نجده بين شاعرين آخرين متقاربين في شهرتهما، كالأعشى، وطرفة بن العبد، فلأول أيضاً (عشرون) مأخذاً، مقابل مأخذين لطرفة.

وبهذا يتضح أن الفرق حصل هنا من خلال كثرة المحاور التي تطرق إليها القراء المهتمون بالشعر. فأثّاروا في شعر كل من امرئ القيس، والأعشى ما مجموعه (أربعون) محوراً تقريباً، مقابل إثارة (ثلاثة) محاور في شعر كل من أوس وطرفة مجتمعين.

(1) انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي 1/ 97.

وقد يعترض على هذا المنظور الإحصائي، خصوصاً أنه يفرق بين شعراء ألفنا النظر إليهم متساوين؛ على اعتبار أنه من غير المقبول أن ينحصر تفاعل القراء مع الشعارين عبر مختلف العصور في ثلاثة مآخذ. لكن ما ينبغي التنبيه إليه هو أن جمع المرزباني للمآخذ وتطرقه إلى ما يتعلق بها من محاور، والنتيجة التي تمخضت عنها، لا يخلو من بعض الاحتمالات. فمن المحتمل أنه لم يجمع كل ما صدر من مآخذ عن هذا الشاعر أو ذاك. ومن المحتمل أنه قد سها عن بعض المآخذ، أو أن مضان بعضها لم يكن مجوزته إبان جمعه. لكن ما لا يمكن الذهاب إليه هو أن يكون للمرزباني غرض في أن يزيد شاعراً، أو ينقص آخر، وبخاصة مع كل الجاهليين وكثير من الإسلاميين. فقد يميل لشاعر إسلامي بفعل ميله المذهبي، أو يحدث منه بعض الصدود عن آخر. ولربما يكون مظهر المناصرة لأحد الشعراء المحدثين - وهو الشائع في عصره - من المؤثرات الواردة في سياق تعرضه للشعراء المحدثين. غير أن كل هذه الاحتمالات - إن وجد بعض منها - تقع مع عدد محدود من الشعراء. إذ إن الملاحظ على المرزباني في الموشح تحديداً أنه حاول قدر الإمكان أن ينجي كل هذه المؤثرات في سبيل استقصاء كل ما يمكن جمعه من المآخذ والمحاور الفنية المرتبطة بها، وبالتالي فقد حاول أن يكون صدى أميناً لتداول القراء وتفاعلهم مع الشعراء فنتج عن ذلك المحصلات المتباينة بين الشعراء.

وحين ننظر إلى المسألة من زاوية شمولية نجد مصداق ذلك؛ فعندما ننظر في مجموع (المآخذ) على الشعراء الجاهليين كلهم فرادى وجماعة - على سبيل المثال - نجد أن ما نسبته الثلثان من مجموع المآخذ يتركز على خمسة شعراء فقط. في حين يقتسم بقية الشعراء الجاهليين الثلث الباقي. فلو أخذنا بمعيار الإجازة والإساءة هنا أيضاً على افتراض أن الإجازة تقلص عدد المآخذ على الشاعر المجيد؛ فإن ذلك معناه أن خمسة من أهم الشعراء الجاهليين يصبحون أكثر الشعراء إساءة، ووقوعاً في الخطأ؛ لأن ثلثي المآخذ تكاد تكون مقصورة على شعرهم، وذلك أمر غير مقبول⁽¹⁾.

(1) بلغ تعداد المآخذ على (الشعراء الجاهليين) بالموشح مئة ما بين مآخذ ومحور على وجه التقريب، منها ثلاثة وسبعون مأخذاً على كل من الشعراء (امرؤ القيس، الأعشى ميمون بن قيس، والناطقة الذبياني، وزهير

والأمر ذاته مع الشعراء الإسلاميين والمحدثين الذين لا يمكن إحصاء مئات المآخذ عليهم. ولكن يمكن النظر إلى مجموع الصفحات التي خصصت لعدد محدود من الشعراء في الحقبة ممن يعدون على أصابع اليد الواحدة، فهذه الصفحات المختصة بهذه القلة تصل إلى ضعف ما خصص لعشرات الشعراء الذين يقعون في الحقبة نفسها⁽¹⁾.

وهذا يعني أن تفاعل القراء قد تركز حول تجارب شعراء بأعيانها من كل حقبة، وهي التجارب التي كثر تداولها، واستقطبت الاهتمام حولها، وأن ذلك كان بفضل ما أثاره أصحاب تلك التجارب فيها. وعلى الرغم من أن البواعث التي تؤدي إلى كثرة تفاعل القراء حول بعض التجارب متعلق غالباً بالنواحي الإيجابية، إلا أن ذلك لم يجل دون ظهور حالة نادرة نجمت كثرة التفاعل معها عن منظورات غير إيجابية لدى المتلقين. فمن بين تجارب الشعراء الإسلاميين التي حظيت بأعلى معدلات تداول وردود أفعال لدى القراء تجربة الشاعر ذي الرمة.

غير أن كثيراً من المحاور التي أثارت حول تجربة ذي الرمة، وأسهمت في زيادة نصيبه من ردود الأفعال، أكثر من غيره، تتعلق بالمظاهر التي كان يعدها القراء حينذاك أموراً سلبية، كمعرفته بالكتابة، وإخلاله في بعض النماذج في غرض الوصف الذي تميز به، وعدم إجادته غرضي المديح والهجاء. وقريب من ذلك تجربة الشاعر أبي العتاهية التي اجتذبت عدداً من الآراء المثارة حولها؛ فكأنه بذلك يدنو من مصاف

بن أبي سلمى، والناطقة الجعدي) في حين بلغت المآخذ التي اقتسمها كل الشعراء الجاهليين - عدا الخمسة الأنفين - الذين ذكرهم المرباني سبعة وثلاثين مأخذاً. انظر: الموشح من ص 34 إلى 107.

(1) عدد الصفحات التي استغرقتها المآخذ على الشعراء الإسلاميين (الفرزدق، وجري، والأخطل، وكثير، وذو الرمة) بلغ تسعين صفحة. في حين استغرقت مأخذ اثنين وثلاثين شاعراً آخرين - فيهم الكمي، بن زيد، والراعي النميري، وعمر بن أبي ربيعة، وجميل، والأحوص، والقطامي، ونصيب وغيرهم - واحداً وخمسين صفحة. انظر: الموشح من ص 137 إلى 210 مأخذ الفرزدق وجري والأخطل، وكثير، فالمجموع (73) صفحة. وانظر ص 225 إلى 242 مأخذ ذي الرمة، ومجموع صفحاتها (17) صفحة، وبذلك يصبح مجموع الصفحات الكلي للشعراء الخمسة (90) صفحة.

شعراء الفئة الأعلى تداولاً، على الرغم من أن مقداراً كبيراً من الآراء في شعره متعلق بظاهرة إكثاره من الشعر، ورجوع ذلك إلى سهولة النظم لديه.

ومع أن في التجربتين السابقتين، خصوصاً تجربة أبي العتاهية، ما يخل بمعيارية كثرة التداول والتفاعل مع تجارب الشعراء، على اعتبار أن الإحصاء لا يفرق هنا بين مضامين التداول، ويساوي بين الشعراء في مجموع ردود الأفعال. مع ذلك فإن مثل هذه الحالة تظل حالة نادرة لا تنم عن المجمل السائد، وفي الوقت نفسه تبقى الأخبار فيها شواهد وثقت رد فعل القراء إزاء تجربة الشاعر في الحقبة التي ظهر فيها. فبعض الآراء قد أفصح عن مقدار الإشكال الذي لازم تلقي القراء للشاعر في عصره، وتناميه بسبب مخالفته لنهج معاصريه من الشعراء. وهو ما يتجلى تحديداً في تلقي ذي الرمة. ويتجلى في تجربة أبي العتاهية التي لفت فيها عنصراً الوضوح والسهولة - قياساً على شعر غيره من المحدثين - أنظار القراء إلى شعره.

وعندما ننظر إلى الشعراء الذين حظوا بمعدلات عالية من التفاعل والتداول لدى القراء نجد تفاعلاً وانجذاباً صوب بعض الشعراء أكثر من غيرهم في الفئة ذاتها. إذ نجد أن بعض ردود الفعل المبنية على المقايضة بين الشعراء تسعى إلى تضيق دائرة الاهتمام إلى أن يقتصر إطارها على شاعرين، ومن ثم يؤول ذلك إلى تفضيل أحدهما، ليكون قطب التلقي في النخبة التي تمثل الحقبة.

فمن بين الشعراء الجاهليين تركز الاهتمام على الشاعرين امرئ القيس والنابغة الذبياني، وزيادة على السياق الخاص بكل منهما؛ كثر استحضارهما في سياقات المآخذ الخاصة بغيرهما من الشعراء. لكن فحص المحاور في سياق كل منهما يظهر أن استحضار النابغة ليس بصفته الشعرية الخالصة، وإنما على اعتبار دوره النقدي أيضاً. بينما كان استحضار امرئ القيس على اعتبار أنه الأنموذج الشعري المحتذى، ناهيك عما أظهره الاهتمام المميز بشعر امرئ القيس في السياق الخاص بـمآخذه، أنه كان الأوفر في عدد محاوره، وتنوع مضامينها، مما ورد في سياق نظيره النابغة، على نحو

ما أشير إليه سابقاً في الحديث عن سياقات الشعراء⁽¹⁾.

أما الشعراء الإسلاميون الذين كثر تداول تجاربهم، فمن المؤلف أن التركيز درج على إبراز مثلث الفرزدق، وجريير، والأخطل. لكن واقع المآخذ يبدي أن التركيز ذاك كان في فترة تلقيهما المعاصر. أما التلقي التالي لذلك فيظهر انجذاب أنظار القراء إلى الفرزدق فجريير، ومحاولة التقليل من وجود الأخطل في ذلك المثلث. سواء أكان ذلك من خلال تكرار رأي بشار فيه، الذي أورده المرزباني ما يقارب خمس مرات في موضعين⁽²⁾ وفيه رأي بشار أن الأخطل ليس بكفء للفرزدق وجريير، وإنما أقحمته العصبية⁽³⁾. أم كان ذلك من خلال المحاور المطروقة في سياق مآخذ الأخطل، فقد ركزت الأخبار الواردة عنه على إثارة شعره للعصبية. في الوقت الذي كان سياق المآخذ والأخبار عن كل من الفرزدق وجريير تكرر فيهما الإشارة إلى تلازمهما، وقد بدا ذلك أكثر في سياق مآخذ جريير.

وبهذا يتبين من مجمل الآراء أن تركيز القراء كان أظهر على الفرزدق وجريير. لكن ذلك التركيز لم يقف عند حد استواء الشاعرين في أنظار المتلقين؛ فقد أظهرت أخبار المقايسة بينهما أن الفرزدق حظي بانجذاب القراء نحوه أكثر من جريير وذلك ما نلمسه من مجمل نقاش القراء حول محور النقائص وغيره⁽⁴⁾.

وهذه الخلاصة نجدها في المقارنة بين فئة التداول الأعلى في الحقبة المحدثه، إذ يجد

(1) المقصود هنا سياق تلقي الشاعر الذي ورد آنفاً في هذا الفصل.

(2) انظر: الموشح ص 160، وص 189.

(3) سياق المآخذ على الأخطل في الموشح من ص 182-193، واستغرقت أخبار إثارة شعره للعصبية من 182-188. وانظر عدداً من الأخبار التي ركزت على المقارنة بين الفرزدق وجريير، فهي تشير إلى منزلة الأخطل الذي شبه بالسكيت من الخيل، وهو الذي لا يبيح سابقاً أو مصلحاً، أي لا يكون أولاً، ولا ثانياً، بل آخر الخيل في حلبة السباق، الموشح ص 159.

(4) انظر: النقاش في الموشح 166-171، وفي أوله شهادة مروان بن أبي حفصة، وتأييد المرزباني المبنيان على رأي الأخفش (الأكبر) المطول حول النقائص في الموضع المشار إليه. وانظر: نقاشاً آخر حول مقلدات الشاعرين رواه ثعلب عن محمد بن سلام في الموشح ص 161.

القارئ في سياق المآخذ على الشعراء المحدثين أن هناك تقارباً في التركيز على كل من القطبين المتقاربين، بشار بن برد وأبي نواس، وأبي تمام والبحري.

وتظهر الآراء المثارة أن القراء لم يسعوا إلى المفاضلة بين بشار بن برد وأبي نواس، نظراً للخصوصية التي تميز بها كل منهما. فبشار قد اعترف له العلماء بمكانته، بصفته أستاذاً للشعراء المحدثين⁽¹⁾. ولذلك نجد أن هذه المكانة المتعارف عليها أُلقت بظلالها في اختصار السياق الخاص بالمآخذ عليه في حدود ست صفحات ركزت على أخباره مع العلماء الذين انتقدوه. بينما نجد هذا العدد يتضاعف أربع مرات لدى التطرق لمحاور شعر أبي نواس، مع الإشارة إلى أصداء الانتشار الواسع الذي حققه أبو نواس في عصره، وأن القراء المهتمين أنفسهم لم يتوقعوا له أن يحقق ذلك الانتشار⁽²⁾. الأمر الذي يدل على أن كلا من بشار وأبي نواس قد شكل قطب تلقى في حد ذاته. بينما تظهر الآراء المتداولة اختلافاً في سياق مآخذ أبي تمام والبحري، فيجد الناظر في سياق الأخير أن التطرق له تم من خلال افتتاح سياق مآخذه بوقوع البحري في خطأ ندرت الإشارة إلى وقوع غيره فيه، وأن نسخ ديوانه المختلفة أثبتت ذلك الخطأ⁽³⁾، ثم باستغراب أمر المقارنة بينه وأبي تمام، على اعتبار أن هذا الفعل يتم بين متكافئين⁽⁴⁾، وعلى اعتبار أن اعتراف البحري نفسه بفضل أبي تمام عليه، وتمنيه لو أنه وصل إلى

-
- (1) يبدو ذلك من وصف أحمد بن عبيد الله بن عمار له بذلك مباشرة في قوله: «بشار أستاذ المحدثين الذي عنه أخذوا، ومن بحره اغترفوا، وأثره اقتفوا» الموشح، ص 315. وفي مقارنة الأصمعي بينه وبين مروان بن أبي حفصة التي ذكر فيها عن بشار أنه: «سلك طريقاً لم يسلكه أحد، فانفرد به وأحسن فيه...» الموشح، ص 317.
- (2) انظر خبر محمد بن صالح عندما دخل بغداد وصار إلى مدينة السلام في عهد خلافة الأمين أو عند قتله وسأل عمن بها من الشعراء المحسنين، فأخبروه أن فتى من أهل البصرة قد غلب على الشعراء يعرف بأبي نواس. الموشح، ص 340-341. وانظر خبراً عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال فيه وقد ذُكر له أبو نواس: «ما ظننت أني أعيش إلى زمان أرى شعر أبي نواس ينفق فيه هذا النفاق، ولقد رأيته في طبقة هو أخسهم إذا حضروا، وإن له على ذلك للشيء بعد الشيء مما يحسن فيه». الموشح ص 330.
- (3) افتتحت المآخذ على البحري بنجر مطول عن وقوعه في كسر في الوزن، الموشح ص 406-407.
- (4) الموشح ص 407.

المستوى الذي يؤهله لمقارعة أبي تمام فيه ما يعزز ذلك بقوة⁽¹⁾. أما التقصي الخاص الذي اقتصر فيه المرزباني على سرقات البحري من أبي تمام دون غيره⁽²⁾، واستظهاره متابعة البحري لأبي تمام حتى في إساءاته⁽³⁾، ففيه دليل واضح على أن الذي أسهم كثيراً في رفع معدل تداول شعر البحري إنما نجم عن قياسه المستمر على أبي تمام وشعره.

ب - تصنيف الشعراء إلى فئات بحسب تداول مآخذ العلماء لتجاربههم:

تظهر حصيلة آراء القراء المهتمين (العلماء والنقاد وغيرهم) التي أثبتتها المرزباني في الموشح أن تجارب الشعراء بدت متفاوتة في مقدار التركيز الذي يحظى به الشاعر بين أقرانه الذين يشاطرونه في الحقبة.

فهناك فئة من الشعراء نالت نصيباً وافراً من الآراء، كما رأينا في الشعراء الذين مثلوا دائرة الاهتمام الرئيسية؛ فتسمنوا هرم الاهتمام في حقبتهم، في الوقت الذي يكاد ذكر بعض الشعراء يتم عارضا. ولا تكمن المفارقة فيما ناله الشعراء المشهورون من الاهتمام المستحق، وإنما تكمن في أقران لا يقلون عنهم في الشهرة جاءت حصيلتهم خلاف المتوقع. وفيما يلي استعراض لتصنيف الشعراء بحسب التفاعل مع تجاربهم.

1 - فئة التداول الأعلى:

يقع في هذه الفئة من شعراء الحقبة الجاهلية كل من: امرئ القيس، فالنابغة الذبياني، فالأعشى، فزهير بن أبي سلمى، فالنابغة الجعدي. وهؤلاء الشعراء جاء ترتيبهم بحسب معدل الآراء المثارة حول تجاربهم. فقد تراوحت الآراء في شعرهم ما بين عشرين رأياً

(1) اعتراف البحري، وأمنيته تلك وردا في الخبر المروي عن الصولي وفيه: «قال حدثني الحسين بن إسحاق، قال قلت للبحري: الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام. فقال: والله ما ينفعني هذا القول، ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوه ولكني والله تابع له، لائذ به، أخذ منه، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه». الموشح ص 408.

(2) الموشح ص 418-422.

(3) الموشح ص 421.

لكل من امرئ القيس والأعشى وتسعة آراء في شعر آخرهم النابغة الجعدي. ولا يعني المنظور التصنيفي هنا كثرة الآراء فيصلاً لحجم التفاعل حول تجربة الشاعر، ولذلك كان اختلاف حجم التفاعل بين تجربتي امرئ القيس والأعشى، مع استوائهما تقريباً في عدد الآراء المتداولة في شعرهما. بل إن امرأ القيس يتفرد بمستوى تفاعلي إلى الحد الذي يشكل فيه مستوى مستقلاً عن بقية الشعراء الذين يقعون معه في نفس الفئة، في تنوع مداخل الآراء، والقراء من مختلف الحقب الزمنية. ويبدو سياق النابغة الذبياني أفضل نسبياً من سياق الأعشى للاعتبارات السابقة. فعلى الرغم من توافر الأعشى على عدد أكبر من الآراء عن النابغة إلا أن كون نصفها من جهة مصدره متلق واحد هو ابن طباطبا، ومن جهة أخرى كون نصف آراء ابن طباطبا ذاتها مبنياً على محور فني واحد تنوعت الأمثلة فيه؛ فذلك كله جعل من سياق النابغة الذبياني أكثر تنوعاً، مع قلة عدد الآراء فيه⁽¹⁾. ويبدو أن ما جعل النابغة الجعدي يرتقي إلى مستوى تفاعل هذه الفئة هو العامل الزمني الذي كان لهدور كبير بصفة أنه عمر طويلاً وعاش فترة ليست بالقصيرة في الإسلام مع أنه لم يقل فيها شعراً، لكن بقاءه كان أمراً مساعداً على التذكير بشعره السابق في الحقبة الجاهلية.

أما شعراء الحقبة الإسلامية الذين يمثلون هذه الفئة، فليس غريباً أن نجد الفرزدق، فجيرياً على رأسها؛ لكن اللافت للنظر أن يتراجع مستوى التفاعل حول تجربة الأخطل، لا في قياسه على نظيره؛ وإنما في قياسه على تجربتي شاعرين أقل شأنًا منه، كـ (كثير) بن عبد الرحمن (كثير عزة)، وذي الرمة. فقد حظيا بمعدلي تفاعل أفضل مما حظيت به تجربة الأخطل. وذلك ما يجعل الرأي - الذي ذهب فيه بشار بن برد إلى أن الأخطل أقبح مع الفرزدق وجريرو وهو غير نظير لهما - حاضراً بقوة. ولا يتضح ذلك من فرق الحيز الذي استغرقته مآخذ كل من الشعراء الثلاثة (كثير وذي

(1) بلغ مجموع الآراء في سياق النابغة أربعة عشر رأياً، انظر: الموشح ص 49-56. وبلغ عشرين رأياً في سياق الأعشى، عشرة منها مصدره ابن طباطبا العلوي، وستة من آرائه كان محوراً (الآبيات الغثة الباردة المعاني، المتكلفة النسج، القلقة القوافي، المضادة للأشعار المختارة) انظر: الموشح ص 65-68.

الرمة والأخطل) فحسب⁽¹⁾؛ بل يزداد وضوحاً مع الوقوف عند المحاور التي اشتمل عليها سياق كل من الشعراء الثلاثة، زيادة على ما حظيت به تجربتا الفرزدق وجريير من محاور تنجّي الأخطل كثيراً عن إطار المقارنة بهما.

ويبدو محتوى سياقي الفرزدق وجريير غير محتاج إلى التدليل على مفارقة اهتمام القراء بشعرهما عن شعر الأخطل. لكن التريث عند ذلك من شأنه أن يعطي انطباعاً عن المقصود باختلاف مداخل القراء وتنوعها، واشتمالها على أبعاد قرائية عميقة تنم عن استبطان القراء لتجربة الشاعرين، وكذا التريث أمام بعض المحاور عن تجربتي كثير وذي الرمة، ومن ثم قياس ذلك كله بمواطن اهتمام القراء بتجربة الأخطل.

إن تأمل سياق الفرزدق - على سبيل المثال - يظهر أنه انطوى على أربعة محاور أساسية. وليس من قبيل المبالغة أن في كل محور منها ما يفوق في تنوعه، وقيمة ما يكشف عنه، مجموع ما احتواه سياق الآراء في شعر الأخطل.

ففي المحور الأول من شعر الفرزدق المتعلق بالمسائل النحوية واللغوية نجد خمس مسائل مختلفة في الشكل الذي تنضوي عليه كل واحدة منها⁽²⁾. ناهيك عما يجليه هذا المحور برمته من نمط العلاقة بين الفرزدق والعلماء وأبعاد هذه العلاقة. وفي محور الخصوصية والاشترك في الاستعمالات الشعرية (السركات) نجد ما يشير إلى

(1) جاءت مأخذ (كثير) في سبع عشرة صفحة بالموشح ص 194-210، وجاءت مأخذ ذي الرمة في ثمان عشرة صفحة ص 225-242، ومأخذ الأخطل في اثنتي عشرة صفحة ص 182-193.

(2) المسائل المشار إليها هي:

- 1- المأخذ اللغوي في قوله (مخهارير)، الموشح ص 137.
- 2- المأخذ النحوي في قوله (مسحتاً أو مجلف) الموشح ص 141.
- 3- المأخذ النحوي في قوله (أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه) الذي قيل عنه: إنه أتعب أهل النحو واللغة من بعده ص 144.
- 4- المأخذ النحوي في قوله: (الزحام) تأنيث المذكر. ص 145.
- 5- المأخذ النحوي في قوله (نواكس) حين جمع فاعل على فواعل، وقيل عن هذا الجمع: إنه مما استظرفه النحويون. ص 146.

استحضار نماذج من شعر ثمانية شعراء، ممن أنْهم الفرزدق بالسطو على شعرهم⁽¹⁾. أما محور المقايسة بينه وبين جرير فيفصح عن تطور المقايسة إلى نمط من القراءة المتعمقة لشعر النقائض، على النحو الذي كشف عنه سياق الآراء المتداولة في شعر جرير⁽²⁾. ولا تقل المحاور في سياق (كثير) غنى أو عمقاً عن تلك التي أثّرت في سياقي سابقه. إذ نجد المحور الأول يفصح عن قراءة قسم من مدائح (كثير) خارج دلالاتها المباشرة. وذلك عندما ربط القراء بين هذا المنحى لديه وميله المذهبي؛ فتوصلوا إلى أنه استطاع الإبقاء على التوازن بين مدحه للأمويين واحتفاظه بولائه للهاشميين. فجاء نعتهم لمدائح تلك بالرقى الشعرية؛ أي أن مدحه الظاهري ما كان إلا أهاجي مبطنة⁽³⁾. وفي محور آخر نجد إثارة لمسألة ارتباط الشاعر بمحوبة يشتهر اقتران اسمه بها، وانعكاس ذلك على شهرة الشاعر وذيوع شعره بسبب ذلك الارتباط⁽⁴⁾. وفي محور ثالث إثارة لعلاقة الشاعر براويته وموقفه منه عندما توقفوا عند علاقته بجميل (بثينة)، واعتراف (كثير) بمسؤوليته عن إخفاء قسم من شعر جميل⁽⁵⁾. وفي توقفهم عند مقارنة شعراء الحجاز تنبّه لاختلاف مستويات الشعراء الحجازيين في نهج الغزل الذي اشتهروا به⁽⁶⁾. إلى غير ذلك من المحاور الأخرى التي أثّرت في سياقه مما يشترك فيها مع غيره، كالخصوصية والاشترك، وتأثر فصاحة الشاعر القديم في ضوء

-
- (1) الشعراء هم: ذوالرمة، الموشح ص 148، والشمردل اليربوعي، وابن ميادة، والراعي النميري ص 150، وجميل بن معمر، والأعلم العبدى ص 151، والمخبل السعدي ص 153، والمتلمس ص 154.
- (2) الإشارة هنا إلى قراءة الأخفش للنقائض، والآراء التي بنيت عليها. انظر: الموشح ص 167 وما بعدها.
- (3) انظر: الموشح ص 194-196.
- (4) ذكر كثير أن لعزة فضلاً عليه نوه به في قوله: (سار بها شعري، وطار بها ذكري)، وقد روي هذا الخبر بعدة روايات. انظر: الموشح ص 203-205.
- (5) اعترف كثير بأنه أمت نخو من ألف قافية لجميل لا يعرفها غيره. انظر: الموشح ص 200.
- (6) انظر رأي ابن أبي عتيق الذي قارن غزل (كثير) بغزل عمر بن أبي ربيعة، وعبد الله بن قيس الرقيات، فضلاً الأخيرين عليه؛ لأنهما أعلم بمواضع الغزل بالنساء منه. الموشح ص 201-202.

تركه باديته وتردده على الحاضرة⁽¹⁾. فهذا المحور الأخير الذي كان مشتركاً مع ذي الرمة، قد زيد عليه في سياق الأخير إشكال معرفة الشاعر البدوي بالكتابة، وأثر ذلك على شعره، كإخفاقه وهو بدوي في وصف ناقته عندما لم يجد ما يشبه به عينها سوى أحد الأحرف⁽²⁾، وتكرار إخفاقه هذا في وصف الناقة بعدة مواضع من شعره⁽³⁾. ومن الأمور التي أثّرت في تجربة ذي الرمة تساؤلهم عن الشكل لديه، من خلال ازدواجية الشعر والرجز في تجربة الشاعر، وكيف أنه بدأ راجزاً ثم تخطى عن ذلك إلى الشعر⁽⁴⁾. وفي مقابل تلك المحاور وغيرها لدى الشعراء الأربعة نجد محدودية فيما تعكسه الآراء المتعلقة بشعر الأخطل. فأطول المحاور المثارة في سياق مآخذه انحصرت في مأخذ واحد هو أنه يخطئ المدح إلى الهجاء، أو العكس. وعقب ثماني صفحات استغرقتها نماذج ذلك المأخذ نجد إحدى الروايات تختصر تلك الصفحات في خبر واحد⁽⁵⁾. وأهم المحاور عقب ذلك مقارنته بالشاعرين جرير والفرزدق، وهو محور لا يعد خاصاً به وحده؛ بل سبق التطرق إليه من منظور أعمق، تجلّى في فحص النقائص، كما تبين آنفاً⁽⁶⁾. ويتبقى من المحاور خلاف ذلك محور يظهر أن الهدف منه كان الإشارة إلى تميز الأخطل في وصف الخمر، لكن مقايسته على الأعشى، وظهور تكرار معانيه

(1) انظر ذلك عن (كثير) في الموشح ص 198. وانظر ذلك عن ذي الرمة في الموشح ص 236.

(2) الموشح ص 232-233.

(3) الموشح ص 229، و230، و231، و239.

(4) «كان لذي الرمة رجز فلما خشي أن يعرّه عاد إلى القصيد» الموشح ص 229.

(5) الرواية هي: «يرى أن الأخطل كان في مجلس ذكر أهله الشعراء، فقال: أين تجعلوني منهم؟ قالوا: أين نجعلك وقد أخطأت في أربع لا يخطأ في مثلهن؟ قال: وما هن؟ قالوا: قلت في زفر وأنت تريد أن تضع منه، فرفعته حتى خوفت منه. فقال: صدقتم. وماذا؟ قالوا: وضغوت من الجحاف ضغوة أبقيت عارها على قومك إلى يوم القيامة. قال: صدقتم. وماذا؟ قالوا: أردت هجاء سويد بن منجوف، فمدحته. قال: صدقتم. وماذا؟ قالوا: أردت مدح سمالك بن خرشة فهجوته. قال: صدقتم.» الموشح ص 187.

(6) الإشارة هنا إلى رأي الأخطل في المقارنة بين محاور نقائص لدى كل من الفرزدق وجرير. وثمة إشارة في (مأخذ الأخطل) ومقايسته بجرير، تفضل شعراً الأخير لما رزق به شعره من سيرورة. الموشح ص 191.

تسلبه تلك الخصوصية⁽¹⁾. ولم يتبق بعد ذلك سوى خبرين: أحدهما خبر بشار الذي كان المرزباني قد ذكره في موضع سابق - بعدة روايات - من سياق مآخذ الفرزدق⁽²⁾، والآخر يحكي مأخذاً لعبد الملك بن مروان، أساء فيه الأخطل افتتاح مدحه له بقوله: (خَفَّ الْقَطِيطُ فراحوا منك أو بَكَّرُوا)⁽³⁾، ولعل هذا الخطأ هنا يضم إلى المحور الأول الذي ذُكر فيه أنه يخطئ المديح إلى الهجاء.

وبذلك يتضح من تباین اهتمامات القراء بتجارب الشعراء الإسلاميين في هذه الفئة أن المحاور المثارة حول تجربة الأخطل لم تكن في كثافتها، أو تنوع مداخلها، على المقدار ذاته الذي استقطبته تجارب الشعراء الأربعة. ومؤدى ذلك أن تجربة الأخطل تبدو أقرب - وفق مؤشرات المآخذ - إلى الفئة الثانية فئة التفاعل المتوسط، منها إلى الفئة الأعلى. ولعل جوانب أخرى لم تظهرها المآخذ قد احتفظت بأراء أخرى حول تجربة الأخطل مما تضمنته الأجزاء الأخرى الغائبة من تأريخ المرزباني لتلقي الشعر.

أما الشعراء المحدثون الذين يمثلون فئة التفاعل الأعلى فهم كل من أبي نواس، وأبي تمام، والبحري، وبشار بن برد. ويأتي الاهتمام بتجربتي أبي نواس وأبي تمام في مستوى متقارب، سواء أكان ذلك للحيز الكبير الذي استغرقته المآخذ على كل منهما⁽⁴⁾، أم كان ذلك لتنوع المحاور في سياقيهما. ويليهما في الأهمية سياق المآخذ على البحري. وقد بينت بعض المواطن السابقة في هذا المبحث جانباً من محاور الاهتمام بشعر المحدثين بعامة ومقدار الاهتمام الذي حظي به أبو تمام بخاصة، كما بينت مفارقة مداخل الاهتمام بشعر البحري وأن النظر إليه تركز في سياق مآخذه من خلال تبعيته لأبي تمام⁽⁵⁾.

(1) الموشح ص 189-191.

(2) الموشح ص 189 والموضع السابق: الموشح ص 160 (مآخذ الفرزدق).

(3) الموشح ص 193.

(4) استغرقت المآخذ على أبي نواس في الموشح من ص 329، إلى ص 355. أما مآخذ أبي تمام فكانت من ص 373، إلى ص 406. والبحري من 406 إلى ص 423.

(5) انظر: الفصل الثالث التأريخ لتلقي الشعر: المحور الثالث: سياق القارئ المفرد أبو عمرو بن العلاء أنموذجاً.

وعندما ننظر إلى حيز المآخذ على شعر بشار نجد أنه لا يعكس كثيراً من التفاصيل المتداولة عن شعره من خلال ما أثبتته المرزباني من مآخذ العلماء عليه⁽¹⁾، على النحو الذي نجده لدى الشعراء المحدثين الثلاثة. وكأن السياق يدل على اعتراف ضمني بمكانة بشار على وجه الإجمال. فبرز ذلك من خلال الوقوف عند الأخبار التي تظهر هيئته لدى العلماء تحديداً، عندما لم يكن يقيم اعتباراً كبيراً لآرائهم، وبعض مآخذهم على شعره، بل إنه لم يتوان عن إظهار ثقته المفرطة بتجربته وتفضيل شعره. كما أن السياق لم يعن بتفصيل الجوانب التي بات بشار بسبب منها متمتعاً بأستاذيته المطلقة على الجيل المحدث.

وإذا كان سياق بشار قد احتفظ له بما يدل على مكانته بين الشعراء المحدثين، فإن سياقات المآخذ على شعراء آخرين يعدون من المشهورين بدت وكأنها فواصل قصيرة تتخلل مثلث الاهتمامات المطولة بأبي نواس وأبي تمام والبحري. ويكفي النظر إلى الشعراء الذين ورد ذكرهم في مآخذ مستقلة، ما بين أبي نواس وأبي تمام⁽²⁾، لنجد أن محصلة الاهتمام التي حظي بها مجموعهم لا تصل إلى حيز الاهتمام الذي استغرقه سياق أحد الشعراء الثلاثة.

ولعل ذلك يعكس دوائر الاهتمام لدى متلقي الشعر في القرن الرابع التي كانت منصرفة في المقام الأول - قبل ظهور المتنبي - إلى الشعراء الأربعة المشار إليهم، وهو ما أدى إلى قلة المحاور والمآخذ لدى عدد كثير من الشعراء، الأمر الذي نتج عنه تأخرهم في التصنيف بحسب مجمل ما ورد عنهم من الآراء المتداولة إلى فئات تداول أقل مما كان متوقعاً. على نحو ما سيشار إليه عن الشعراء المحدثين الذين جاؤوا في الفئتين المتوسطة والأدنى.

(1) مآخذ بشار من ص 310-315 الموشح. وعندما تقارن بمآخذ أبي العتاهية من ص 320، إلى ص 328، يبدو حيز الأخير أكثر.

(2) من أسماء هؤلاء الشعراء المشهورين ممن وقعوا في الفئتين الوسطى والأدنى تداولاً (أبو العتاهية، مسلم بن الوليد، ابن الرومي).

2 - فئتا التداول المتوسط والأدنى:

يتضح مما سبق، خصوصاً الشعراء الذين بدوا من خلال الآراء حول تجاربهم أوآخر الشعراء في الفئة السابقة، أن هؤلاء لا يبتعدون كثيراً عمن يشكلون أوائل هذه الفئة التي كان مقدار التفاعل فيها متوسطاً. فالذين يمثلون الفئة المتوسطة من شعراء الحقبة الجاهلية، كالمهلهل بن ربيعة، وحسان بن ثابت لا تبدو الآراء الواردة في الموشح عن تجاربهم قليلة قياساً إلى ما ورد عن النابغة الجعدي آخر الجاهليين الذين حظوا بالتداول الأعلى⁽¹⁾. وكذا يبدو التقارب بين سياق الأخطل وكل من الكميت بن زيد، وعمر بن أبي ربيعة من شعراء الحقبة الإسلامية. بل إن التقارب يضحي تفوقاً في الحقبة المحدثّة عندما تكون المقارنة قائمة على تعداد المآخذ، أو عدد الصفحات فحسب. لأن ذلك من شأنه أن يقدم سياق أبي العتاهية على سياق بشار. لكن تتبع المحاور والنماذج التي تركزت عليها آراء القراء يقدم سياق بشار على سياق أبي العتاهية لأن الآراء المتداولة عن شعر الأخير تكاد تقتصر على ضعف كثير من شعره، من أجل سهولة جريان الشعر على لسانه، واستكثاره من الشعر، إلى الحد الذي جعل شعره قريباً من الكلام المألوف. ولذلك فكثرة الآراء⁽²⁾ التي احتواها سياق أبي

(1) فئة التداول الأعلى في العصر الجاهلي هم امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، الأعشى ميمون قيس، زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني وعدد المآخذ المتداولة عن كل منهم بالموشح تتراوح بين (20) صفحة إلى (تسع) صفحات. وما عداهم من الشعراء يقعون في فئتي التداول المتوسط والأدنى. وفئة التداول الأعلى بالشعراء الاسلاميين يمثلها كل من (الفرزدق، جرير، كثير، ذي الرمة، الأخطل) وعدد المآخذ المتداولة عنهم تتراوح ما بين (25) صفحة إلى (12) صفحة الموشح، وما عداهم من الشعراء يقعون في فئتي التداول المتوسط والأدنى. ومثلهم شعراء فئة التداول الأعلى من المحدثين المكونة من أبي تمام، وأبي نواس، والبحتري، وبشار بن أبي برد. فعدد المآخذ المتداولة عنهم تتراوح ما بين (25) صفحة إلى (12) صفحة الموشح، وما عداهم من الشعراء يقعون في فئتي التداول المتوسط والأدنى.

(2) انظر على سبيل المثال الشاهد التالي الذي افتتحت به المآخذ على أبي العتاهية وهو قوله (الموشح ص (320): [الهج]

ألا ياعتبهُ الساعهُ أموت الساعهُ الساعهُ

العتاهية لا تعد مخولاً لضم تجربته إلى مربع الاهتمام الشعري في الحقبة المحدثه. وكذا الشأن في أمر الموازنة بين بشار ومروان بن أبي حفصة، فالأخير ينطبق على استحضر تجربته ومقارنتها بتجربة بشار ما ذكر بخصوص النابغة الجعدي من أن لعامل الزمن والمعاصرة دورهما الواضح في ذلك.

وتظهر المفارقة واضحة عندما يقارن تداول الآراء عن أوائل الشعراء هنا ممن يمثلون الفئة المتوسطة في مختلف الحقب الثلاث وبين أقرانهم الذين كانوا في الفئة الأعلى، ولا سيما الذين تبوءوا قمة الهرم منها.

ومجمل القول: إن الشعراء الذين حظوا بمعدلات تداول متوسطة أحسن حالا من رفقتهم الذين حلوا في الفئة الأخيرة الأدنى. إذ يكفي أن ننظر في سياقات كل من الشعراء الإسلاميين المعروفين - أمثال: الراعي النميري⁽¹⁾، والقطامي⁽²⁾، وعبد الله بن قيس الرقيات⁽³⁾، والأحوص⁽⁴⁾ وغيرهم، كالنصيب، ومجنون بني عامر، وعدي بن الرقاع، والطرماح بن حكيم، ومحمد بن هرمة، والحسين بن مطير، وآخرين -

وأحد الشواهد على الظاهرة ذاتها، عقب الموضع السابق بست صفحات (الموشح ص 326): [الرجز]

عُتِبَ ما شَأْنِي وما شَأْنُكَ

تَرْفُقِي أَخْتِي بِسُلْطَانِكَ

وانظر عن الظاهرة ذاتها الحوار الذي دار بينه والشاعر منصور النمري في بداية المآخذ على أبي العتاهية عن الأمد الذي يستغرقه كل منهما في قول القصيدة، الموشح ص 321. وحواراً آخر بينه وبين محمد بن منذر، الموشح ص 322. وكذا فحوى الحوار الذي دار بين إسحاق بن إبراهيم الموصلي والرشيد عن الظاهرة نفسها في نهاية المآخذ على أبي العتاهية، الموشح ص 328. وتخلل الحديث عن تلك الظاهرة إلماحات قليلة: إلى مكانته الشعرية ص 325، وشاهداً وحيداً مما استُحسن من شعره، ص 326، أو مآخذ أخرى وقع فيها هي: مأخذ لغوي ص 325، والتضمين، واللحن في شعره ص 327.

(1) الموشح ص (210-211).

(2) الموشح ص (211-212).

(3) الموشح ص (243-244).

(4) الموشح ص (245-246).

يكفي أن ننظر إلى سياق كل من هؤلاء لنجد أوفرهم حظاً من الآراء لم يزد عن الرأيين والثلاثة، وكأننا بدا ذكر هؤلاء مجرد ردٍ للهوة الزمنية، حتى لا يبدو التساؤل قائماً عن الشعراء والآراء المتداولة في الفترة التي أعقبت، أو تخللت ظهور الشعراء الخمسة الذين استأثروا بالآراء حول تجاربهم.

أما من يُقاس على هؤلاء من شعراء الحقبة المحدثّة فجاء استعراض الآراء مختزلاً في سياقاتهم، وهم - كما سبق الوصف - يظهرون في الآراء اليسيرة عن شعرهم مجرد فواصل زمنية بين مثلث الاهتمام الشعري الذي اجتذبتّه تجارب أبي نواس وأبي تمام والبحتري، وبحسبنا الإشارة هنا إلى بعض الشعراء الذين أوردتهم المرزباني ما بين سياقي أبي نواس، وأبي تمام. فمن هؤلاء: مسلم بن الوليد⁽¹⁾، والعباس بن الأحنف⁽²⁾، وكلثوم بن عمرو العتابي⁽³⁾، وأشجع السلمي⁽⁴⁾، ومحمد بن منذر⁽⁵⁾... ودعبل الخزاعي⁽⁶⁾، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي⁽⁷⁾. وغيرهم ممن ورد ذكرهم سابقين على البحتري في الترتيب الزمني، أو لاحقين له.

وعلى الرغم من أن المرزباني قد أظهر حماساً لتجربة ابن الرومي في أكثر من موضع، خصوصاً في سياق مقارنته بالبحتري⁽⁸⁾ إلا أن اللافت في سياق المآخذ على ابن الرومي

(1) الموشح ص (356).

(2) الموشح ص (357-359).

(3) الموشح ص (360-361).

(4) الموشح ص (362).

(5) الموشح ص (363).

(6) الموشح ص (368).

(7) الموشح ص (369-370).

(8) من هذه المواضع استحسانه وتفضيله لأحد أبياته على ما استجيد لأبي العتاهية، الموشح ص 326، وأنه فضل أحد معانيه على أبي نواس ص 347، واستشهد بشعره ص 16، وص 364، وفضله بنفسه في سياق البحتري ص 414، وروى خبراً في تفضيله عليه ص 417. إلى جانب ما ذكر عن ترجمته في المعجم ص 145-146 التي جسدت ذروة نماذج المقاربة الفنية لتجربة الشاعر.

أنه جاء مختصراً أيضاً؛ فلم يحتو سوى على رأي واحد⁽¹⁾. كما يلفت النظر أيضاً أنه اتخذ من ابن الرومي حداً زمنياً للشعراء الذين عني بجمع المآخذ عليهم. فلم يعرض لابن المعتز بصفته أدنى الشعراء زماناً من ابن الرومي، وبصفته من آخر الشعراء المبرزين في القرن الثالث الهجري.

وفي هذا الحد الزمني ما يظهر أن المرزباني أخذ في حسابه النظر إلى تجارب الشعراء التي استقرت في تعامل القراء، وأنه لم يأخذ عند جمعه لمادة الموشح الشعراء المعاصرين والآراء المتداولة حول تجاربهم، وذلك بخلاف نهجه في الترجمة للشعراء بكتاب المعجم، الذي ترجم فيه لعدد من لقيهم بنفسه. وهذا التوجه يرجح ما ذهبنا إليه سابقاً من أنه حاول في الموشح أن يكون صدى أميناً للمتداول عن الشعراء. ولعل في الحد الزمني الذي اتخذه للموشح ما يجنبه الحديث عن تجارب شعراء ما زالت تتشكل، أو أن الآراء حول بعض التجارب لم يُنظر إليها بعد بصفته مآخذ مما أقره العلماء فتداولوه. ومما يرجح هذا التصور ما ذكره المرزباني عن ابن الرومي في كل من كتابيه الموشح والمعجم. فوصفه لتجربته في المعجم ينم عن مكانة الشاعر، كما ينم عما يمتلكه المرزباني من تصورات وآراء خاصة به. لكن مثل هذه الآراء لم تظهر في الموشح سوى على هيئة تعليقات موجزة، إما للترجيح، وإما لتصحيح المعلومة بحسب المتيقن لديه. وقلة تدخلات المرزباني وإيجازها أسهما كثيراً في وفرة مادة محايدة من الأخبار، جسدت جوانب غير قليلة من لحظات التلقي المتزامن مع الأعمال الشعرية. ولا يخفى ما في هذا المنحى من إضفاء مزيد من الحياد في المادة التي عني بتوثيقها، وجعلنا أمام أقرب الأوضاع لطبيعة التداول والتفاعل مع تجارب الشعراء، وكأنه ينقلنا إلى روح الحقبة الزمنية التي حدث فيها ذلك النشاط من حول الشعر والشعراء. وخلاصة القول في هذا المحور: إن الأهمية التي ينطوي عليها إعادة تصنيف الشعراء بحسب التفاعل مع تجاربهم في عصورهم والعصور اللاحقة - كما تبين آنفاً من خلال الإجراءات السابقة على جزء من مشروع المرزباني في التأريخ لتلقي الشعر

(1) الموشح ص 440-441.

والشعراء - من شأنه إضاءة جوانب أخرى ترفد التصورات المعروفة في تاريخ الشعر والشعراء.

على أن هذه الأهمية ستتضاعف إذا تم استكمال دراستها في ضوء المصادر الأخرى التي عنيت بآراء القراء وتفاعلهم، ولا سيما كتاب الأغاني، من خلال ما تقدم ذكره من جوانب الالتقاء بين أبي الفرج الأصفهاني، والمرزباني. لكن التوسع الذي عليه كتاب الأغاني، وغناه الفريد بردود أفعال القراء - حول معظم تجارب الشعراء الذين أرخ لهم الأصفهاني - محتاج إلى جهد لا تقوم به دراسة واحدة فحسب، بل هو محتاج إلى تضافر جهود عدد من الباحثين لإنجاز مشروع يؤرخ للشعر العربي من منظور تلقي قرائه وتفاعلهم المتزامن واللاحق عبر مختلف العصور والحقب الشعرية.

الفصل الرابع

تقويم مشروع المرزباني في التأريخ للشعر

المبحث الأول

جهود المرزباني في التأليف في ضوء الإطارين التاريخي والثقافي في القرن الرابع

المحور الأول: الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية في بغداد إبان حياة المرزباني: يُعد القرن الرابع الهجري من أكثر الحقب التاريخية التي يستعصي فيها تطبيق مفهوم الانعكاس، بوصفه تلازماً بين الاستقرار السياسي والازدهار المعرفي والحضاري. ففي الوقت الذي وثّق فيه النديم في الفهرست نماذج شتى مما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من نتاج في مختلف المعارف والفنون التي تدل على أوج تقدم تلك الحضارة، وما وصلت إليه من نضج ورفق في قرنها الرابع الهجري، في الوقت نفسه دونت كتب التاريخ الإسلامي عن الحقبة ذاتها ما يجعلها من أخرج المراحل السياسية التي شهدتها التاريخ الإسلامي، خصوصاً في ضعف سلطة الخلافة الإسلامية على أقاليمها بعامّة، وعلى عاصمتها بغداد بخاصة.

فعدد من أقاليم الخلافة الإسلامية قد استقل كل منها بنفسه؛ إذ سيطر البويهيون على خراسان قبل تمكنهم من إحكام القبضة على عاصمة الخلافة بغداد منذ العام (334هـ) إلى العام (448هـ). وكذا العبيديون (الفاطيّون) في شمال إفريقيا ما بين عاميّ (297 - 567هـ). والدولة الزيدية بسطت نفوذها على اليمن ما بين عاميّ (246 - 700هـ). وفي الشام قريباً من بغداد حكم الأمراء الحمدانيون ما بين عاميّ (317 - 399هـ). ناهيك عن غير ذلك من الفتن والحروب التي ظل يشعلها القرامطة منذ العام (276هـ) إلى العام (367هـ)، وشغب العساكر الديلم منهم والأتراك ما بين فينة وأخرى⁽¹⁾.

أما عاصمة الخلافة العباسية بغداد فقد كانت في هذه الحقبة وما بعدها مسرحاً للعديد من الأحداث السياسية والظروف الاقتصادية الصعبة. خصوصاً عقب الثلث

(1) انظر: تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، دار الفكر، دمشق 1402 (النزعات الاستقلالية عن الدولة العباسية) ص 131 - 164، وانظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز 1/1.

الأول من القرن الرابع الهجري، بعدما انقضت مدة خلافة الرازي بالله (329هـ). وعندما نفق أمام الوصف الذي ذكره ابن الأثير⁽¹⁾ عن الخليفة (الرازي بالله) وفيه ذكر أنه «ختم الخلفاء في أمور عدة [...] فكان آخر خليفة جالس المجلس، وواصل إليه الندماء، وآخر خليفة كانت له نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته [...] على ترتيب الخلفاء المتقدمين» - نجد أن ذلك التاريخ كان فاصلاً مهماً في تاريخ الخلافة الإسلامية بين وضعين مختلفين تماماً، وأن ذلك الاختلاف كان مؤثراً على معاصري الوضعين، ولا سيما العلماء والأدباء. ومن بين الذين عايشوا وضع الخلافة الثاني وعمرها فيه طويلاً أبو عبيد الله المرزباني الذي عاش أربعة وثمانين سنة في القرن الرابع الهجري.

وعندما نعود إلى وصف ابن الأثير لتوافر العطايا والنفقات والهبات وغير ذلك، مما كان على عهد الرازي نجد أن هذه الأمور مؤشرات، لا تدل على زيادة في دخل الخلافة فحسب، بل هي في المقام الأول معطيات تدل على أن الاستقرار السياسي كان متوافراً إلى حد مقبول يكفل معه الأمان الاقتصادي والاطمئنان الاجتماعي. غير أن هذا الوضع سرعان ما تبدل، فباتت مقوماته المهمة مفقودة بعد انقضاء الثلث الأول من هذا القرن. إذ كانت بداية حكم الخليفة المتقي لله (329 - 333هـ) الذي خلف الرازي بالله مباشرة نذيراً بالوضع الثاني الذي ستعيشه بغداد على وجه الخصوص طيلة القرن الرابع، إذا استثنينا فترات بسيطة محدودة منه.

ففي الأشهر الأولى من عصر المتقي لله، بعد ازدياد الغلاء، اضطر الناس إلى أكل الحشيش والنوى والميتة⁽²⁾. وكان الناس يدفنون الجماعة منهم في القبر الواحد، لا يُغسلون ولا يُكفّنون ولا يُصلّى عليهم. وفي السنة الثانية (330هـ) من حكم المتقي

(1) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط5، دار الكتاب العربي بيروت 1405، 6/ 277.

(2) صلة وتكملة وذيل تاريخ الأمم والملوك للطبري، لعريب، والهمداني، ولابن جرير نفسه. دار الفكر بيروت، لبنان 1407، 11/ 335. تجارب الأمم لمسكويه 2/ 8. الكامل 6/ 281.

ازدادت الأمور سوءاً عقب تسلط البريديين⁽¹⁾ على الأوضاع في بغداد، واقتحامهم دار الخلافة، وهروب الخليفة منها إلى الموصل، فأُضيف إلى الغلاء وشحّ الحبوب كثرة أعمال السلب والنهب⁽²⁾. وفي عام (332هـ) أخذ الناس من كثرة اللصوص وسطوتهم «يتحارسون بالبوقات»⁽³⁾. ولم يكن الحال مع الخليفة التالي المستكفي بالله (333 - 334هـ) أفضل؛ إذ يكفي ما ناله على أيدي البويهيين الذين جعلوه أكثر الخلفاء عرضة للمهانة، وانتهاكاً لحرمة الخلافة الإسلامية.

إذ يدرك القارئ في كتب التاريخ التي صورت طريقة معاملة البويهيين له⁽⁴⁾ أن تلك المعاملة مقدمة تنذر بالتحول التاريخي لسلطة الخليفة، وللسياسة العامة التي سينتهجها البويهيون بعدما يتسنى لهم إحكام القبضة على السلطة بشكل تام، منذ دخولهم إلى بغداد عام (334هـ)، حتى زوال سلطتهم عنها عام (448هـ).

وفي غمرة تلك الأحوال الاقتصادية، والأوضاع الاجتماعية التي كانت عليها بغداد وأهلها قبل التدخل البويهي، لم تكن أوصاف المؤرخين من قبيل المبالغة للأحوال التي أضحت عليها بغداد إبان وعقب ذلك التدخل. ولنا أن نتأمل أوضاع العامة قبل غيرهم من العلماء والأدباء في ذلك الوضع القريب من الاحتلال، بعدما أصبح من عادة الجنود النزول بدور الناس إلى مدة ليست يسيرة. وقد ذكر مسكويه الذي كان معاصراً لتلك الأحداث في تعليقه على عادة الجند هذه بأنه «لحق الناس من ذلك شدة

-
- (1) البريديون هم أتباع الوزير أبي عبد الله البريدي الذي ولي الوزارة للخليفة المتقي لله عام 330هـ.
(2) تجارب الأمم لمسكويه 2/ 25. والكامل لابن الأثير 6/ 288. وتاريخ الخلفاء للسيوطي، دار التعاون عباس أحمد الباز) مكة المكرمة (د.ت) ص 425.
(3) تجارب الأمم لمسكويه 2/ 55. والكامل لابن الأثير 6/ 399.
(4) جَذَب الخليفة بيديه، وجره بعمامته، ثم طرح جنديين من الديلم له على الأرض في حضور معز الدولة البويهي، ثم سوقه إلى دار معز الدولة. وهي معاملة نستنتج من طريقتها أنه لم يكن مقصوداً بها إنزال عقاب فردي بشخص الخليفة في حد ذاته؛ لضعفه، أو أنها رد فعل تجاه تصرفاته أياً كانت، وإنما كانت المعاملة مساساً بما يمثلته من سلطة روحية. انظر تجارب الأمم لمسكويه 2/ 86. والكامل لابن الأثير، 6/ 314-315، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص 428.

عظيمة وصار رسماً عليهم إلى اليوم»⁽¹⁾. ووصل الحال إلى أسوأ ما يمكن أن يتخيله المرء - بعد غلاء الخبز وانعدامه البتة - عن الموضع الذي يمكن لبعض الناس أن يفتشوا فيه عن الحبوب. وفي الأخبار الغربية التي ذكرها المؤرخون في حوادث العام ذاته ما يبين ذلك⁽²⁾. أضف إلى ذلك أن معز الدولة البويهى عقب ذلك كله لم ينظر بعين العطف لما آلت إليه الرعية، بل زادها نكالاً، حينما ضمن أرزاق الجند في مدة حددها لهم «فاضطر إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها»⁽³⁾. حتى إن مسكويه وقف في تاريخه عند أحداث هذه السنة وقفة خاصة لذكر «ما انتهى إليه هذا التدبير من سوء العاقبة وخراب البلاد وفساد العساكر وسوء النظام»⁽⁴⁾.

ولعل أفضل ما يعد من الحسنات طيلة العهد البويهى هي حقبة السنوات الخمس التي حكم فيها عضد الدولة البويهى (369 - 372هـ)؛ إذ استطاع في مدة حكمه القصيرة أن يعيد الحياة الثقافية والعلمية إلى سابق عهدها على أيام الخلفاء المتمكنين من السلطة⁽⁵⁾.

(1) تجارب الأمم لمسكويه 2/ 85. الكامل لابن الأثير 6/ 314.

(2) مما ذكره مسكويه في تجارب الأمم 2/ 95 (حوادث 334هـ) قوله: «أفرط الغلاء حتى عدم الناس الخبز البتة، وأكل الناس الموتى والحشيش، والميتة والحيف، وكانت الدابة إذا راثت اجتمع على الروث جماعة ففتشوه، ولقطوا ما يجدون فيه من شعير وأكلوه ولكثرة الموتى، وأنه لم يكن يلحق دفنهم كانت الكلاب تأكل لحومهم». وانظر الكامل لابن الأثير التفاصيل ذاتها 6/ 321. وقد ذكر كل من مسكويه وابن الأثير في الموضعين السابقين قصة امرأة قُتلت؛ لأنها وُجدت في ذلك الوقت وقد شوت صبيّاً فأكلته حياً.

(3) تجارب الأمم لمسكويه 2/ 96 وما بعدها.

(4) تجارب الأمم لمسكويه ص 2/ 98 و99.

(5) ميز نهج عضد الدولة الإصلاحى اهتمامه بكل الفئات المذهبية والدينية، وكذا كل الفئات العلمية. فمما قام به أنه شرع في عمارة بغداد، وعمر مساجدها، وأسواقها، وأدرّ الأموال على الأئمة والمؤذنين، والعلماء، والقراء، والغرباء، والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد، وأطلق مكوس الحجاج، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة، وأطلق الصّلات لأهل بيوتات الشرف والمجاورين بمكة والمدينة، وفعل ذلك بمشهد علي والحسين عليهما السلام، وسكن الناس من الفتن، وأجرى الجرايات على الفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين، والمفسرين، والنحاة، والشعراء، والنسابين، والأطباء، والحساب، والمهندسين، وأذن لوزيره

غير أن ما قام به عضد الدولة البويهى من إصلاحات وإعادة إعمار، وتشجيع للأدباء، وإجراء الجرايات عليهم، وغير ذلك. لم يكن يبدو سوى كفارة عما أتلّف سابقوه، ولاحقوه في بغداد. إذ عادت الفتن والاضطرابات إلى سابق عهدّها إلى زوال البويهيين⁽¹⁾.

-
- علي بن هارون - وكان نصرانياً - في عمارة البيع والأديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم. الكامل 7 / 100-101 (بتصرف). وانظر إصلاحات عضد الدولة بتوسع أكثر في تجارب الأمم 2 / 404-408.
- (1) انظر على سبيل المثال إلى هذه الأحداث والأوضاع عقب حكم عضد الدولة إلى وفاة المرزباني ومنها: - في عام 373هـ: «غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره من البلاد وعمدت الأقوات فمات كثير من الناس» الكامل، 7 / 122.
- عام 375هـ حدثت فتنة بين الديلم أنفسهم. الكامل، ص 125.
- عام 376هـ فتنة ببغداد بين الديلم، والأتراك، وفيها كان بالعراق غلاء شديد جلا لشدته أكثر أهله. الكامل، ص 130-131.
- 377هـ حرب بين بدر بن حسنويه، وعسكر شرف الدولة، وشغب الجند. الكامل، ص 132-133.
- 379هـ فتنة بين الأتراك والديلم استمر القتال فيها خمسة أيام. الكامل، ص 139.
- 381هـ قبض بهاء الدولة البويهى على الخليفة الطائع لله وخلعه وتولية القادر بالله، الكامل، ص 148.
- وصولاً إلى فتنة العيارين في بغداد والفتنة بين أهل باب الكرخ وأهل باب البصرة، في السنة التي تُوفي فيها المرزباني (384هـ)، الكامل، 7 / 197-198.

المحور الثاني: آثار التسلط البويهي على الحياة العامة والثقافية وانعكاساته بعامه
أولاً: محاولات التأثير على أصالة الثقافة العربية الإسلامية وبعث الهوية والثقافة
الفارسية:

برزت إلى جانب المتغيرات السياسية والمذهبية السابقة بواعث أخرى جراء
سيطرة القوى السياسية الوافدة على بغداد. فأتت إلى تنامي مستجدات ثقافية، وتعزيز
ظواهر أخرى سابقة، فكان أثر ذلك كله ظهور بوادر تغيير من شأنها التأثير على أصالة
الثقافة العربية الإسلامية. ومع أن جذور هذه المحاولات تعود إلى فترات سابقة
للحقبة البويهية إلا أن عدم مبالاة هذه السلطة بالشؤون العامة في سبيل احتفاظهم
بالسلطة من جهة، وعدم تحمسهم للثقافة العربية من جهة أخرى، قد أفسح المجال
لكل ما هو أجنبي ركيك محل العنصر الأصيل.

ومن المعروف أن السياق التاريخي لبعث الهوية الفارسية يعود إلى حركة الشعوبية
التي كانت تهدف إلى استعادة نمط الحياة الفارسية والاعتداد بكل ما يمت إليها
بصلة. وظهرت هذه الغاية جلية في محاولات إحياء اللغة والمظاهر الفارسية في الحقبة
البويهية. وفي تصرف معز الدولة البويهي في أول دخوله إلى بغداد حينما أصر على وجود
مترجم يترجم له كلام الوزير علي بن عيسى⁽¹⁾ إبانة عن حال أوائل الحكام البويهيين مع
اللغة العربية، أو موقفهم منها. سواء أكان البويهيون على معرفة سابقة باللغة العربية
فعمدوا إلى الاعتداد بلغتهم وهذا الرأي هو الراجح⁽²⁾، أم كان ذلك عن جهل حقيقي
باللغة العربية لبعث البويهيين عن الثقافة العربية⁽³⁾. ولذلك ليس غريباً أن يشيع
خلال الحقبة البويهية استعمال الكثير من المفردات والألفاظ الفارسية في شئون

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم منز 1/ 34.

(2) من المرجح معرفتهم باللغة العربية، قياساً على ما أورده الثعالبي من نماذج شعرية للمتأخرين من بني
بويه في يتيمة الدهر في أعيان أهل العصر، ص 2/ 257.

(3) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم منز 1/ 34.

الحياة العامة⁽¹⁾، ليس ذلك فحسب، بل سعى البويهيون - مع تكريس تقاليدهم وأعرافهم الفارسية، كإحياء أعياد النيروز والمهرجان - إلى استغلال المناسبات الشيعية السنوية وصبغها بمظاهر الأعياد الفارسية⁽²⁾.

وتمّ مظهر آخر من محاولات بعث الفارسية تمثل في تشجيع نشر الثقافة الفارسية. فقد نشط البويهيون حركة الترجمة إلى اللغة الفارسية، فتمت ترجمة عدد من المصنفات التي أُلفت في الأصل باللغة العربية إلى اللغة الفارسية⁽³⁾. كما شجعوا في المقابل التأليف مباشرة باللغة الفارسية⁽⁴⁾.

وشاعت مظاهر من الثقافة الأجنبية الركيكة في الحقبة البويهية من أبرزها المؤلفات التي تهدف إلى التسلية والترفيه، أو ما عُرف حينها بقصص السمر. إذ تنامت عشرات الكتب التي نمّ تداولها بكثرة عن ضعف الذوق العربي الأصيل في أوساط العامة. وقد رصد المؤرخ حمزة الأصفهاني (350هـ) سبعين كتاباً متداولاً في عصره من كتب السمر التي تتداولها الأيدي، وهي غالباً من القصص التي لا يعرف مؤلفوها الأصليون كقصص الفروسية، وال نوادر والحكايات⁽⁵⁾. ولم تقتصر كتب الأسمار هذه على قصص الفرس، وإنما غير ذلك من قصص الهند والروم. وذلك ما جعل صاحب الفهرست يصدر مقالته الثامنة بهذه الكتب ويجعلها الفن الأول منها⁽⁶⁾.

(1) الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، رشاد عباس معتوق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1418، ص 144.

(2) كإشعال النيران، على الأسواق، ومراكز الشرطة، وغيرها. الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، ص 144.

(3) كتاريخ الطبري، وتاريخ بخارى، وتاريخ قم، انظر: الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، رشاد عباس معتوق ص 144.

(4) منها كتب في الهندسة والفلاحة النبطية، انظر الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، رشاد عباس معتوق ص 144.

(5) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز 451/1.

(6) الفهرست ص 363. والعنوان المشار إليه هو (الفن الأول في أخبار المسامرين والمخرفين وأسماء

أضف إلى هذا ما صاحب المظاهر السابقة من فساد في اللغة وشيوع اللحن، مما دعا علماء اللغة إلى التأليف فيما استشرى من اللحن في الألسن، وما ليس في كلام العرب⁽¹⁾. وذلك في مجمله يشير إلى مبلغ البعد والتراخي عن الوجه الأصيل للثقافة العربية الإسلامية وبخاصة في أوساط العامة.

والمظهر الأخير مع ما سبقه مما سنرى انعكاسه على جهود المرزباني في التأليف بعامة؛ إذ له علاقة مباشرة بتوجيه عدد ليس باليسير من مجمل مؤلفاته، وهذه العلاقة ستتضح من خلال الحديث عن القيمة الإجمالية لجهود المرزباني في التأليف في ضوء المعطيات السابقة كلها، ومقارنتها بجهود معاصريه، في المحور الثالث من هذا المبحث.

ثانياً: انعكاسات التسلط البويهي على المرزباني بخاصة، ونهج تعامله مع مجريات الأحداث:

1- مقومات المرزباني الشخصية ودورها في النهوض بمشروعه:

المكانة الاجتماعية التي كان عليها المرزباني كانت في مقدمة العوامل التي جعلته ينعم بوضع مستقر نسبياً أفضل من غيره خلال تلك الأحداث التي شهدتها بغداد طيلة فترة حياته. بل إن المرزباني نفسه قد أسهم بفتح داره في وجه طلاب العلم شيوخاً وطلاباً في توفير جو داخلي مستقر إبان الفتن التي عمت بغداد.

ومن الأمور التي جعلته في مأمن من البطش البويهي - إلى جانب إظهاره الميل إلى مذهب السلطة الشيعي على نحو ما سيرد في الفقرة التالية - التقاؤه في الأصل مع الديالة البويهيين الذين قدموا من فارس. ناهيك عن شرفه وكرم أصله في ذلك العرق. فقد ذكر ابن خلكان في ترجمته للمرزباني أن المرزبان: «لا يُطلق عند العجم إلا على الرجل المقدم العظيم القدر، وتفسيره بالعربية حافظ الحد»⁽²⁾.

الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات).

(1) بلغ عدد من ألفوا في ذلك أربعة وعشرين؛ منهم الزبيدي. انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متر 420/1.

(2) وفيات الأعيان، لابن خلكان 4/365.

وإذا كانت هذه المكانة قديمة في أصولها؛ إذ تعود إلى أجداد المرزباني، فثمة مكانة أقرب آصرة، وأدنى زمناً لأنها مستمدة من أبيه عمران بن موسى المرزباني. فقد كان يشغل منصباً مقرباً في دار الخلافة. وذلك ما نوّه القفطي إليه في مفتتح ترجمته؛ إذ قال عن المرزباني إنه كان: «من بيت رياسة ونفاسة فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب»⁽¹⁾. ومعنى ذلك أن شاغل هذا المنصب بمثابة نائب والي خراسان لدى الخليفة، ولذلك فكل ما يصدر من رسائل من الوالي أو يرد إليه يمر بهذا النائب، وكذا المخصصات والموارد المالية للولاية⁽²⁾. وعلى الرغم من أهمية عمران التي تنبع من أهمية ولاية خراسان ذاتها إلا أن المصادر التاريخية - التي كانت معنية بتتبع أدق التفاصيل التاريخية بما في ذلك ما يكون بين الأفراد - لم تورد ذكر عمران سوى مرة واحدة، على نحو عابر⁽³⁾.

كما لم نعثر في المصادر التاريخية أيضاً على إشارة إلى تاريخ وفاة عمران، أو تاريخ تركه لمنصبه. والمرجح أن ذلك كان قبل الحقبة البويهية بزمان. ولم يشر المرزباني إلى والده عمران سوى مرة واحدة عندما أورد قصيدة لأحد من ترجم لهم في المعجم في مدحه، تدل على مكانة عمران المرزباني⁽⁴⁾. وفي ضوء ذلك نقدر أن طفولة المرزباني إلى

(1) الإنباه، للقفطي 3/ 180.

(2) انظر نظام الإدارة في: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم متز، 1/ 129-130 ضم دواوين الولايات كلها في ديوان واحد سُمي ديوان الدار، وله ثلاثة فروع: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد (العراق). ودواوين الولايات هذه تقوم مقام دواوين للدولة.

(3) ذكر الطبري في آخر كتابه المعروف ب تاريخ الطبري أوتاريخ الأمم والملوك للطبري (دار الفكر، بيروت 1407هـ/ 10/ 710، حوادث عام 301هـ): «أنه لما وقع الخلاف بين نصر بن محمد بن إسماعيل وعم أبيه إسحاق بن أحمد بعث كل واحد منهما إلى السلطان خاطباً على نفسه أنفذ إسحاق كتبه - فيما ذكر - إلى عمران المرزباني لإيصالها إلى السلطان ففعل ذلك».

(4) القصيدة لمحمد بن محمد الشنوفي، ولم يذكر معها تفصيلاً يفيدنا، المعجم ص 426، منها: [الطويل]

إلى المرزبانِيَّ الهمام أخِي الندى أليف السَّدى عمرانَ والعرفُ صاحبه
سليل ذرى العليا موسى فجوده كبحرٍ أتى العافينَ تجري مئاعبه

حدود عام (301هـ) - أي وعمره خمس سنوات بحسب التاريخ الذي ورد فيه ذكر والده - كانت في ظروف ميسرة. وكذا حاله المادي إلى آخر حياته، بحسب إشارات المترجمين الذين تطرقوا لما كان يعده في داره لأهل العلم الذين يبيتون في داره⁽¹⁾. فمن خلال تلك العدة التي يوفرها للمقدار الكبير من ضيوفه ممن يستقبلهم ويؤويهم يومياً نستنتج أنه كان في حالة من الغنى تمكنه من الاضطلاع بما يلزم تلك الاستضافة من نفقات. ومع أن المرزباني كان دائم الاهتمام بتقصي الأحوال المادية لمن يترجم لهم، وبتفصيل مصادر دخل كل منهم إلا أن أحداً ممن ترجموا له لم يهتم بهذا الجانب لديه؛ إذ لم نعر خلاف الإشارة السابقة سوى على خبر واحد ذكر فيه الذهبي أن عضد الدولة البويهى أعطاه في مرة ألف دينار⁽²⁾، ولا نرجح أن ذلك كان مصدر دخله الذي يعول عليه، وبخاصة أن هبة عضد الدولة له كانت تدرج ضمن أعماله الإصلاحية، وتشجيعه لكل العلماء والأدباء الذين كانوا في عصره. والذي نستطيع الخلوص إليه أن المرزباني كان محل تقدير، قبل الحكم البويهى، لما قدمناه عن مكانة أبيه؛ أما في أثناء الحكم البويهى، فإلى جانب ما تقدم عن عراقة أصله ووضع أبيه، فإن ذلك يعود إلى إظهاره الميل إلى التشيع، وإلى مكانته العلمية التي أخذت في التنامي منذ أيام شبابه.

من هنا فإن اجتماع العوامل السابقة كلها ساعدته على أن يعيش حياته في أمن واستقرار. وهذا النمط من الحياة في ظل تلك الظروف من أهم العوامل التي مكنته من إنجاز جهده التأليفى، وتنظيمه، إلى جانب حضور عدد من شيوخه إليه، وكذلك نهج الحياد في تعامله مع الأحداث السياسية والمذهبية على ما سنراه فيما يلي.

إلى قوله: وصلني بجيشٍ من نداءك مكرّ دسٍ مكارمك الغرّ الحسان موابكبه

- (1) سبقت الإشارة إلى ما كان يعده في بيته لأهل العلم الذين يستقبلهم؛ إذ كان لديه خمسون ما بين لحاف وفراش وغيره. انظر الملحق الأول ترجمة المرزباني بآخر هذا البحث. والمنظم 7/ 177، والإنباه 3/ 181.
- (2) ورد في تاريخ الإسلام للذهبي تحقيق عمر عبد السلام تدمري ص 87 (حوادث ووفيات 381-400هـ) «روى الجوهري عن المرزباني: أنه أعطاه مرة عضد الدولة ألف دينار وقال: إنه بلغني أنك تؤرخ، فإذا جاء اسمي فأجمل، فقلت: نعم أجمل، وبذكرك أتجمل»، والخبر السابق ورد في آخر ترجمة الذهبي له.

2- نهج الحياد السياسي والاعتزان في الميل المذهبي:

يُعد هذا النهج طوق النجاة الذي تمسك به المرزباني في خضم تلك الأحداث. فالأخبار الدالة على مشاركة المرزباني في الحياة بعامة نادرة، وأندر منها ما يفيد ذهابه أو تقربه من مجالس السلطة. فبضع الأخبار التي عثرنا عليها بخصوص ذلك ترجح انقطاعه عن حضور مجالس السلطة منذ الثلث الأول من القرن عندما حضر المناظرة الشهيرة في مجلس الوزير ابن الفرات بين متى بن يونس، والسيرافي⁽¹⁾. ثم نلني انقطاعاً كبيراً عقب ذلك يقارب الخمسين عاماً إلى أن تستجد الأخبار التي اقترن فيها ذكره بعضد الدولة⁽²⁾. وإذا علمنا أن أخباره مع هذا الأمير - المتميز في تعامله مع العلماء والأدباء - كانت تنص على مرور عضد الدولة وتوقفه أمام دار المرزباني لتفقد أحواله - فإن مجمل أخباره تدل على إثثار المرزباني ملازمة داره وصرف النظر عن إغراءات الحياة السياسية.

وفيما يتعلق بميل المرزباني المذهبي فقد ذكر عنه بعض المترجمين الاعتزال⁽³⁾،

(1) روى التوحيدي (403هـ) أن المرزباني ممن حضروا المناظرة الشهيرة بين السيرافي (368هـ) ومتى بن يونس (328هـ) لدى الوزير ابن الفرات (327هـ) وذلك في سنة (320هـ) مؤكداً حضوره في أول ذكره المناظرة وفي ختامها عندما تساءل الوزير الذي يروي له التوحيدي عن بعض الحاضرين ومنهم المرزباني أين هم من السيرافي؟ انظر: المقابسات لأبي حيان التوحيدي. تحقيق حسن السندوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ط2، 1413، ص 69، وص 87.

(2) أخباره مع عضد الدولة ثلاثة أخبار: خبر منها ذكر في أغلب كتب التراجم (تاريخ بغداد 3/ 135، المنتظم 7/ 177، الإنباه 3/ 181، البداية والنهاية 11/ 314)، وهو أن عضد الدولة كان لا يجتاز دار المرزباني، حتى يسلم عليه، ويسأله عن حاله. وخبر ثان عن سؤاله له مرة عن حاله فأجابه كيف حال من هو بين قارورتين. الإنباه 3/ 181، تاريخ بغداد 3/ 136. والخبر الثالث الذي أورده الذهبي في تاريخ الإسلام عن أعطية عضد الدولة له وذكرناه آنفاً.

(3) ذكر القفطي اعتزاله ولم يُشر إلى ميله للتشيع الإنباه 3/ 181، وذكر الحموي أنه من خيار المعتزلة معجم الأدباء 17/ 268. وذكر ابن العماد الحنبلي أنه: العلامة المعتزلي، شذرات الذهب 3/ 111. وكل هؤلاء لم يشيروا إلى ميله إلى التشيع.

وذكر بعضهم أنه فيه تشيع، أو أنه مائل إلى التشيع⁽¹⁾، والذي يظهر أنه كان معتدلاً في ميله إلى التشيع، ولذلك لم ينسب إلى التشيع مباشرة. وذلك ما ظهر لنا من مجمل كتاباته المتحقق أنها له.

ونستدل على اعتداله في الميل إلى التشيع من المواطن التي يرد فيها ذكر الصحابة، وبخاصة الخلفاء الأربعة الراشدين رضوان الله عليهم جميعاً، إذ لا يذكرهم إلا بأسمائهم، وألقابهم التي درج أهل السنة على وصفهم بها، مع الترضي على من يرد ذكره منهم⁽²⁾. ويدل على ذلك إعراضه عن نماذج الشعراء الروافض الذين ترجم لهم في المعجم، فقد كان يكتفي بالإشارة إلى معرفته بشعر المترجم له بأبيات تسبق أو تلي مواطن القبح في شعره⁽³⁾.

وإذا استأنسنا بأسلوب الأخبار في أخبار السيد الحميري - على احتمال أن هذا الكتاب من أكثر الكتب عرضة للخروج عن ذلك النهج - فإننا نجد أسلوبه درج على التأدب والسكوت في المواقف الحساسة وذلك ما يتفق مع نهجه في عامة كتاباته الموجودة. وأخبار الكتاب كلها على هذه الوتيرة في متنه. ونستشهد بمثال - على اعتبار أنه شريحة لكتابات المرزباني في ذلك الكتاب - وهو خبر من أطول الأخبار فيه، رواه الصولي مشتملاً على غير قصيدة أنشدها من شعر السيد. إذ كان الصولي يقطع إنشاده

(1) نقل الخطيب البغدادي عن محمد بن أبي الفوارس قوله عنه: فيه تشيع واعتزال، تاريخ بغداد 3/ 136 وذكر ابن الجوزي عنه: «كانت آفته ثلاث: الميل إلى التشيع، وإلى الاعتزال، وتحليط المسموع بالإجازة، وإلا فليس بداخل في الكذابين» المنتظم 7/ 177. وذكر ابن خلكان ميله إلى التشيع في المذهب، وفيات الأعيان 4/ 354.

(2) انظر على سبيل المثال مواضع ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه (المعجم ص 67، 84، 89، 112) أو عثمان بن عفان رضي الله عنه (المعجم ص 88، 89، 101) وغيرهما، تجده لا يذكره بغير هذا الاسم مع الترضي عليه وكذا بقية الصحابة والخلفاء رضوان الله عليهم، وللتثبت انظر أسماء الصحابة في فهرس أعلام المعجم، وتتبع مواطن ذكرهم.

(3) انظر: على سبيل المثال المعجم ص 418 فقد اكتفى بالأبيات الأولى التي يدور مضمونها في الحكمة مما أورده من قصيدة قال في تقديم صاحبها: إن قومه قتلوه لرفض بلغهم عنه بسب أبي بكر في القصيدة نفسها.

لشعر السيد غير مرة، ويتجاوز أبياتاً فيها أشياء لا يحب ذكرها، أو لأن السيد الحميري أتى فيها بما لا يرويه وغير ذلك⁽¹⁾. وقد وافقه المرزباني على ذلك فلم يستدرك عليه ما توقف عن إنشاده، أو يتمه.

وعندما نتتبع مظاهر ميل المرزباني للتشيع نجد أظهرها اتخاذ آل البيت محوراً لتعريف الشعراء، فيذكر المواليين، وناصري العداء لهم، وكذا المفرطين في التشيع من الروافض. وخلاف ذلك فلا يعدو الميل لديه ذكر الحوادث السياسية المتعلقة ببعض آل البيت، أو من كان مائلاً إليهم، دون الخروج إلى ما يجلب بأدب التعامل مع الصحابة، أو غيرهم. ودون الخروج إلى العبارات والألفاظ الخارجة عن الحشمة والتأدب. ولا نجده يذكر في كتاباته الممارسات، أو العبارات التي درج الشيعة على استعمالها⁽²⁾. أضف إلى ذلك أن المرزباني كان أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية⁽³⁾، وأنه ترجم لمعاوية بن أبي سفيان في كتاب المعجم، كما ترجم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما⁽⁴⁾.

وهذا النهج في الترجمة لمعاوية وجمع ديوان ابنه يزيد - في ضوء مواقف الشيعة منهما - مما يعزز مبدأ نهج الحياد الذي ينبغي على مؤرخ الشعر التحلي به.

والمأخذ الذي نراه في هذا الصدد فيما يتعلق بمنظور مؤرخ الشعر، هو إقلاله من التركيز على الجوانب الفنية في التراجم الموجزة للشعراء الذين عدهم من الناصبيين، كعلي بن الجهم، ومروان بن أبي حفصة. فقد مر بنا في المبحث الثالث من الفصل الثاني أنه في ترجمته لهذه الشريحة طغى الجانب التاريخي على الجانب الفني. وذلك مخالف لما اقتصرت به تراجمه الموجزة للشعراء المحدثين في كتاب المعجم، ولعله أوفى هذه الشريحة مستحقها من تعريف الجوانب الفنية عند شعرائها في تراجمه الموسعة لهم في كتاب المستنير.

(1) وذكر الصولي في موضع ثالث: «وفي هذه القصيدة عظام تركت» أخبار شعراء الشيعة أخبار السيد ص 157.

(2) كالألقاب الأئمة نحو الرضا والباقر، أو الالتزام بعبارة (عليه السلام) مع ورود كل علم ينتسب لآل البيت.

(3) ورد نص ابن خلكان في ذلك في موضع سابق، وفيه نوه بإعجابه بالديوان من خلال جمع المرزباني له، وأنه أول من جمعه وقد حفظه جميعه وهو يدخل في ثلاث كراريس وفيات الأعيان 4 / 354.

(4) انظر ترجمته لمعاوية نور القبس ص 313. وعلي بن أبي طالب نور القبس ص 130.

من هنا نرجح أن نهج الحياد السياسي، وإظهار الميل المذهبي، إلى جانب المكانة الاجتماعية والحالة المالية الجيدة عوامل ساعدت المرزباني على التفرغ لإنجاز مشروعه التأليفي في حقبة تلك، في وسط كان التشيع فيه هو الغالب والسائد؛ ويحظى بدعم السلطة البويهية، مع ما نهجه من الحياد السياسي ومرونة الموقف من السلطة في الجمع بين الاحتفاظ بودها والبعد عن استثارته من جهة، وبين العزوف عن مناصبها، والتقرب إليها بحضور مجالسها من جهة أخرى.

غير أن ما يجدر ذكره هو أن العوامل السابقة ذاتها أضحت مؤثرة على شيوع مؤلفاته لاحقاً، إلى جانب ما وُصف به من القول بالاعتزال. خصوصاً عقب عودة الوضع إلى طبيعته، وعودة أهل السنة إلى مكانتهم في القرنين الخامس والسادس، قبل أن تعاود مؤلفاته مكانتها في القرن السابع، أو يُحترق الحصار المفروض عليها، بحسب تعبير رودلف زلهام⁽¹⁾. وساعد على ذلك ميزة علماء القرن السابع ومن بعدهم، الذين أظهروا مقدرة على التعامل مع المؤلفات الموسوعية تأليفاً أو اختصاراً، وهي السمة التي تطبع أغلب مؤلفات المرزباني، وقللت الإقبال عليها مقارنة بما حظي به كتاب الأغاني من تداول وسعة انتشار.

(1) نور القبس ص33.

المحور الثالث: القيمة الإجمالية لجهود المرزباني في التأليف في ضوء المعطيات السابقة وجهود معاصريه

تظهر المفارقة بين الأهمية التي كانت عليها جهود المرزباني في التأليف عند القدامى وبين أهميته في الدراسات الحديثة بوصفه مؤرخاً. ففي الوقت الذي توقف فيه المترجمون القدامى عند جهده ونهجه المتميز في التأليف، بات يقتصر حضور المرزباني وذكره حديثاً على ارتباط اسمه بورود كتابيه الشهيرين: معجم الشعراء والموشح، حينما يُشار إلى ترجمة علم في المعجم، أو يُحال على خبر نقدي في الموشح⁽¹⁾.

ونظراً لهذا البون الشاسع فإن الوقفة أمام جهود المرزباني في التأليف، تصبح ضرورية، ولا سيما أنها لم تنل من الاهتمام ما يتساوى مع مقدار الجهد المتنوع الذي بذله المرزباني في سبيل خدمة الثقافة العربية بعامة. خصوصاً في وقت نشطت فيه محاولات فرض الهوية الفارسية على الثقافة العربية الإسلامية في الحقبة البويهية.

وعندما نسترجع اهتمامات معاصريه من أجل مقارنة جهده على ضوءها نجد اتجاهين بارزين قد وضحا على المشتغلين في ميدان التأليف في القرن الرابع؛ الاتجاه الأول: ويشمل مجالات التأليف بعامة، والثاني: يخص الاهتمامات التأليفية للمشتغلين في ميدان الأدب والشعر بخاصة.

ففي الاتجاه الأول بدا ملاحظاً تنامي الاهتمام بالعلوم العقلية الأجنبية الطبيعية، والأدبيات الدنيوية⁽²⁾ مقابل التركيز على العلوم التقليدية الشرعية واللغوية التي كانت تحتل المركز من الثقافة العربية الإسلامية.

(1) يبدو تكريس وجهة النظر هذه حتى في آخر مقالة ظهرت عنه وهي: «جهود المرزباني في تكوين رؤية نقدية شاملة من خلال كتابيه معجم الشعراء والموشح»، قيس كاظم الجنابي، الذخائر، بيروت، ع 1 س 1 شتاء 2000. ص 309-318. وعلى الرغم مما يوحى به عنوان المقالة إلا أنها أقرب للعرض المجمل لتبني المرزباني آراء غيره منها إلى بيان الشخصية النقدية للمرزباني، إذ لم تقف على مقاربات المرزباني الفنية لتجارب الشعراء في المعجم، كما لم يقف على التعليقات المهمة له في الموشح.

(2) نزعة الأنسنة في الفكر العربي، محمد أركون، ص 334.

وهذا التركيز هو ما جعل محمد أركون يراه استجابةً لحاجيات حضارة مادية متقدمة، واصفاً الحقبة الواقعة ما بين عامي (340-400هـ) بفترة إعادة توزيع المعرفة⁽¹⁾. وسنجد أن المرزباني قد تنبه لهذا التنامي في مناحي التأليف، فراح يخصص المقدار الأكبر من مؤلفاته في سبيل استعادة المركزية التي تحتلها العلوم التقليدية من الثقافة. أما الاتجاه الثاني الخاص بالمشتغلين بالأدب والشعر - وهو ما يهمنا أكثر لعلاقته المباشرة وانعكاسه على اشتغال المرزباني بالشعر والشعراء - فما يمكن قوله إجمالاً هو أن جل مؤلفي الأدب والشعر جذبتهم نزعة التأليف المختص في عصرهم؛ فتركزت جهودهم على المباحث الموضوعية المتعلقة بالصراع حول شاعرين أو ثلاثة، مبتعدين عن نهج المؤلفات الشمولية المتنوعة التي كانت تفي سابقاً بأغلب الجوانب المتعلقة بالشعر والشعراء.

ويتجلى ذلك عندما نستثني كتب أخبار الشعراء فرادى، وجمع دواوينهم، وكتب نقد الشعر بعامة التي ليست معنية بشاعر بعينه⁽²⁾ إلى جانب كتاب الأغاني، والتأليف في إعجاز القرآن، فعندما نستثني ذلك فإن مجمل ما ألف في الفترة التي عاش فيها المرزباني كان جهداً ينصبّ في المقام الأول على تجربتي أبي تمام والبحري في النصف الأول من القرن الرابع، وعلى تجربة أبي الطيب المتنبّي في النصف الثاني من القرن نفسه. فظل ظهور المؤلفات يتخذ المحاور ذاتها منذ ظهور رسالة ابن المعتز عن محاسن ومساوئ شعر أبي تمام، ثم دفاع الصولي عنه أمام تكاثر مؤلفات خصومه في مساوئه وسرقاته، أو الذين يفضلون البحري عليه إلى ظهور التوجهات ذاتها مع بروز المتنبّي. فظهرت رسائل ومؤلفات في مساوئه وسرقاته، كما تصادف أيضاً أن نصّب أحد العلماء نفسه للدفاع عنه⁽³⁾.

(1) يُقصد بالأدبيات الدنيوية كتب فن الطبخ، والصيد، والرياضة، والصيدلة والسموم وغيرها من الكتب التي تضمنتها مقالات الفهرست (ص 345 وما بعدها) من المقالة السابعة إلى العاشرة.

(2) مثل كتابي: عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، وغيرها من كتب الشعر.

(3) ابتداءً الجدل النقدي في القرن الرابع تأليفاً حول أبي تمام تقريباً برسالة ابن المعتز في محاسن ومساوئ شعره. ثم بظهور مدافع ضد تعصب خصوم أبي تمام عليه وهو الصولي الذي ألف أخبار أبي تمام بغرض

ولم يكن المرزباني بعيداً عن هذه التوجهات المختصة. فقد أبدى اهتماماً بالصراع حول تجربة أبي تمام والبحري، فألف كتاباً مستقلاً في أخبار أبي تمام⁽¹⁾، وتوقف في عدد من تعليقاته بالموشح عند المقارنة بين تجربة الشاعرين، مضيفاً إليهما مقارنته بين البحري وابن الرومي⁽²⁾. كما سائر معاصريه في اشتغالهم بقضايا النقد والبلاغة، من خلال كتابه الشعر - الذي أشار الجرجاني إلى فصلين منه⁽³⁾، ومن خلال كتاب الفصل في البيان والعربية⁽⁴⁾. فبهذه المشاركة لم يكن المرزباني خارج نطاق اهتمام الوسط الأدبي وقضاياها المتفاعلة، وفي الوقت نفسه لم يشغله ذلك عن نظراته الشاملة للثقافة، والشعر والشعراء، والنهوض بمشروعه التأليفي فيهما.

غير أن قيمة جهود المرزباني لا تكمن في مساهمة معاصريه من المشتغلين بالأدب، أو خصوصية تناوله للشعر والشعراء لديه فحسب. وإنما تظهر القيمة الكبرى لجهود المرزباني في إطارها الأعم من خلال ما تظهره النظرة الشمولية إلى مجمل مؤلفاته بوصف مؤلفات تاريخ الشعر فيها جزءاً من مشروع أكبر هو العناية بالثقافة العربية الإسلامية فيما يربو على الثلاثين مؤلفاً، عدا مؤلفاته الخاصة بالشعر والشعراء.

الدفاع عنه. وظهرت رسائل أولاً في الكشف عن مساوئ أبي تمام أو سرقاته عقب رسالة ابن المعتز، كرسالة القطريلي (319هـ) في أخطاء أبي تمام، (انظر: تاريخ النقد، إحسان عباس ص 136) وغيرها. واستمر هذا النهج طيلة القرن؛ إذ لم يغير ظهور المتنبي من التوجه العام لمؤلفات المشتغلين بالأدب والشعر. فقد ظهرت أيضاً رسائل مماثلة في مساوئ المتنبي وأخطائه، أو كشف سرقاته، كمؤلفات النامي (371 - 399هـ) والصاحب بن عباد (385هـ)، (انظر تاريخ النقد، إحسان عباس ص 136) وابن وكيع التنيسي (393هـ). وعلى غرار ظهور مدافع خاص عن الشاعر ضد خصومه (الصولي عن أبي تمام) ظهر ابن جني (392هـ) للدفاع عن المتنبي. أضاف إلى ذلك أن نهج المناصرة والخصومة قد أفرز نمطاً غير بعيد من التوجه ذاته ككتب: الوساطة والموازنة، فهي لم تخرج عن الاهتمام ذاته (التركيز الأساسي في محاور المفاضلة والموازنة على فئة محدودة من الشعراء)، وإن اختلفت في نهج التأليف.

- (1) انظر ثبت مصنفاته في الملحق الثاني بآخر هذا البحث.
- (2) سبق الحديث عن جوانب من هذه المقارنات في الفصل الثالث.
- (3) تقدمت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن مؤلفاته في الفصل الأول.
- (4) انظر ملحق ترجمة المرزباني ومؤلفاته بآخر هذا البحث.

ولذلك فتقويم جهد المرزباني ينبغي التنبه فيه إلى هذه السمة؛ لأهمية جهوده ومراميها فيها، وللعلاقات المتبادلة ما بين جهوده التأليفية في إطارها الخاص بالشعر والعام.

فمن تلك العلاقات ما قدمناه، على سبيل المثال، في مبحث الشعر والسياق التاريخي من الفصل الثاني بهذا البحث؛ إذ ظهر هناك مقدار تبادل الحضور بين المادة الشعرية والتاريخية، والإفادة التي عكسها كل جانب على الآخر.

ومن هنا تلك المؤلفات التي خدم المرزباني الشعر بها خارج الإطار الخاص بمشروع تأريخه. فقد أعاد تقديم المادة الشعرية في عدة مؤلفات، حاول من خلالها إحياء الثقافة العربية الأصيلة التي عمادها أحسن ما قيل من النظم والنثر في موضوعات متنوعة.

ويبدو الباعث لديه على هذه الفئة من المؤلفات ما تلمسه من بُعد وتراخ عن الثقافة الأصيلة، بعدما أخذت العلوم الأجنبية، والفلسفية، والطبيعية تتكاثر وتنافس العلوم التقليدية العربية والإسلامية في الظهور. إلى جانب المظاهر الثقافية الركيكة من قصص السمر التي أخذت تشيع بين أوساط العامة من القراء. ويؤكد ذلك تركيزه على النزعة التربوية التأديبية التي تبدو في كتاب تلقيح العلوم الذي اشتمل على مئة باب: أولها العلم، وثانيها الأدب. إلى جانب اهتمامه في جزء من كتاب الشعر بتأديب قائله.

وتجلت هذه النزعة أكثر في مجموعتين من المؤلفات التي توجه بها إلى شأني الإصلاح الاجتماعي، والوعظ الديني.

ففي الشأن الاجتماعي نجد له المؤلفات التالية: التسليم والزيارة، والعيادة، والتهاني، والتعازي، والهدايا، وأخبار الزوجات والأولاد، والمزخرف في الإخوان والأصحاب، والمديح في الولائم والدعوات والشراب. أما الوعظ الديني فله فيه من المؤلفات: المعلى في فضائل القرآن، والمشرف في حكم النبي...، والزهد وأخبار الزهاد، والمنير في التوبة والعمل الصالح، وأخبار المحتضرين، والدعاء، والمواعظ، والشباب والشيب، وحب الدنيا، والفرج بعد الشدة، والمتوج في العدل وحسن السيرة.

والفئة السابقة من المؤلفات مما تبدو الحاجة فيها إلى التمثل بالشعر والاستشهاد به

أكثر⁽¹⁾، وهي كما سبق ليست من صميم مؤلفاته المختصة بالشعر.

وإلى جانب النزعتين السابقتين ظهر اهتمامه بفئة أخرى من المؤلفات التي تتسم موضوعاتها بالطرافة والتشويق والتنوع والنادرة، كالمستطرف، والرياض، والرائق والأنوار والثمار، كما تتسم بغناها من الاستشهاد بالمادة الشعرية، وأحسن ما قيل من النثر. وهي الموضوعات التي قلنا عنها سابقاً بأن هدفها إعادة تقديم المادة الشعرية في وجوه متنوعة تعيد للثقافة الأصيلية مركزيتها.

وحينما ننظر إلى وصف محتويات بعض هذه المؤلفات يظهر مقدار ما أولاه فيها من اهتمام بالمادة الشعرية التي أعاد التمثيل بها وتطعيم هذه المؤلفات بها، إلى جانب أحسن ما قيل فيها من المنثور. فمما وصف به النديم كتاب الرياض قوله: «فيه أخبار المتيمن مصنفة أبواباً، وفيه ذكر الحب وما يتشعب منه، وذكر ابتدائه وانتهائه؛ وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاقات تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين، أكثر من ثلاثة ألف ورقة». وعن كتاب الأنوار والثمار قال: «فيه بعض ما قيل في الورد والنجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار، ثم ذكر الثمار وذكر النخل وجميع الفواكه، وما جاء فيها من مستحسن النظم والنثر». ومثل الكتب السابقة كتاب الأزمنة الذي قال النديم - عقب ذكره لمحتواه من الأبواب والفصول - إنه جاء في كل باب من أبوابه بما فيه من اللغة والأخبار والأشعار⁽²⁾.

ومن المرجح أن يكون كتابه الرائق في أخبار المغنين والمغنيات وضروب الغناء، ثرياً بنماذجه الشعرية المغناة.

والمؤلفات السابقة مع مؤلفاته في التاريخ العام تدل على مبلغ عنايته بالثقافة العربية الإسلامية إجمالاً، وتفصح في الوقت نفسه عما جعله للشعر من مكانة جوهريّة فيها.

(1) مما يجدر ذكره أن للمرزباني كتاباً في التمثيل بالأشعار ذكر ضمن ثبت مؤلفاته.

(2) انظر ملحق ترجمة المرزباني ومؤلفاته بما يخص المؤلفات الواردة سابقاً وكذا أوصاف النديم لها.

ونجد أن القدامى قد قدموا مدخلاً مهماً لتعرف قيمة جهود المرزباني في مجملها، وتلمس الإطارين العام والخاص لجهوده، حينما فاضلوا بينه وبين الجاحظ. فناهيك عن حسن الترتيب والتصنيف وتنوع محاور التأليف، وهو الجامع الظاهري بينهما، نجد جامعاً أعمق تمثل في تطور العمل بالمنظور التاريخي، إذ يُعَدُّ الجاحظ من أوائل الذين أفادوا من التاريخ لخدمة الموضوع الأدبي⁽¹⁾.

ولذلك إفادة المرزباني من التاريخ لم تقتصر على كونه من أظهر مصادر الأخبار وتفسير النماذج الشعرية لديه، أو كونه أحد محاوره التأليفية العامة بما خصصه له من مؤلفات، وإنما ظهرت إفادته منه باتخاذ التاريخ ذاته إطاراً ونهجاً للتأليف. فقد التزم بالمنظور التاريخي بوصفه شكل التنظيم الزمني لمحاور كتبه الداخلية، من خلال الترتيب وفق المدارس، ووفق الحقب الزمنية والسياسية. واتخذ منظوراً يرصد به عدداً من المظاهر في سياق الشأن الثقافي العام؛ بالتأريخ الخاص لبعض الظواهر والعلوم، كالغناء وعلم الكلام، والشعر والشعراء، وغير ذلك.

وبهذا يبدو جهد المرزباني واضحاً وجلياً، في إطاره العام، ونزعتة التاريخية إجمالاً ليس بمقارنته مع معاصريه، أو في اقتصار عنايته على الشعر فحسب، وإنما بمقارنته مع سائر المؤلفين ممن سبقه، أو لحقه، ممن عنوا بالثقافة العربية الإسلامية.

وسواء أصح الفرض الذي نرجح أنه السبب الأساسي الذي دفع المرزباني إلى توجيه جهوده وتنظيمها على النحو الذي تبين، أم لم يصح هذا الفرض، وأن باعته لم يكن ناجماً عن موقف مباشر من السلطة البويهية وتأثيرها في تلك الحقبة، وإنما كان اجتهاداً وغاية خاصتين بالمرزباني في الاهتمام بالشعر العربي وتأريخه، ومن ثم الثقافة العربية الإسلامية على النحو الذي تبين. فإن المحصلة في خاتمة المطاف هي تميز جهود المرزباني في التأليف بعامة، وأنه بمجمل مؤلفاته قد قدم عملاً خدم به التراث الثقافي والشعري، حقق فيه مفهوم المراجعة الشاملة لهما - وفق طاقته - من واقع تلقى وع باللمحات التاريخية المهمة في عمر تاريخ الشعر العربي والثقافة العربية الإسلامية.

(1) النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، ص 153.

ولعل من أهم الإشارات التي نختتم بها هذا المحور - مما تنبه له المحدثون لأهمية جهود المرزباني في التأليف - إشارةٌ أُوجِزَ فيها زكي مبارك مجمل جهود المرزباني وجوهر أهميتها بقوله: إن «مجموعة مؤلفات المرزباني تدور حول نقطة واحدة هي تنظيم الثقافة الأدبية»⁽¹⁾.

أما القيمة الخاصة بمؤلفاته في الشعر والشعراء، وما يمكن أن تضيفه إلى تصور مفهوم القدامى لتاريخ الشعر، فذلك ما سنتبينه في المبحث الثاني في ضوء مقولات المنهج التاريخي وما نعنيه بهذه المقولات.

(1) النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، (د.ت) ص 1/ 148.

المبحث الثاني

مشروع المرزباني في التأريخ للشعر في ضوء مقولات منهج تاريخ الأدب

ليس المقصود من تقويم مشروع المرزباني في تأريخ الشعر في ضوء مقولات المنهج التاريخي وصف طبيعته بما ترسمه أسس المنهج ومقولاته والالتزام بها وحدها. وإنما يأتي التقويم في مسعاه الأساسي بغرض وصف طبيعة الجهد فيه تبعاً لما تمليه خصوصياته في المقام الأول، وما يمكن استظهاره من نقاط قد تضيف إلى التصور العام لجهد القدامى المؤرخة للشعر.

ولذلك فالاعتماد في هذا المبحث على المنهج في مقولاته الأساسية، أو المستجدة لإصلاحه، كالتلقي وغيره، يأتي لبيان أهمية ما اشتمل عليه مشروع المرزباني من إضافات تحسب لصالح التصور القديم لمفهوم التأريخ للشعر. فالقارئ في التصور الحديث لمفهوم تأريخ الشعر عند القدامى يلمس قصوراً واضحة في بناء ذلك التصور من جهتين.

الأولى: أنه في أثناء تشكّله لم يسلم من التأثير بالمنهج الحديث من خلال تناقل أحكام عامة تزامنت مع بدء اهتمام المستشرقين بتاريخ الأدب العربي. وهي أحكام - ناهيك عن حاجتها في الأصل إلى التدقيق والتحقيق بين اختلاف طرائق القدامى في التأليف والعناية بالشعر والشعراء - أصبحت في أمس الحاجة إلى إعادة النظر فيها، لما استجد حول المنهج التاريخي نفسه⁽¹⁾.

والثانية: وضوح التركيز - في توقف معظم من تطرقوا لمفهوم تأريخ الشعر لدى القدامى - على تصور الأغاني بوصفه خلاصة تلتقي فيها الكتابات القديمة المؤرخة للشعر. على الرغم مما نراه في نهج تأليف الأغاني من انقطاع واضح في عدد من الممارسات التاريخية التي أرسى دعائمها مؤرخو الشعر في قرنه الثالث، بدءاً من

(1) سيرد الحديث عن ذلك مفصلاً في المحور الأول من هذا المبحث.

تلمس أهمية التحقيق لدى مؤرخ الشعر، وصولاً إلى نسق التأليف وخطته التي تبين وضوح النية المقصودة للتأريخ للشعر لدى المؤلف.

وقد أدى هذا الانقطاع إلى عدم التمكن من تقديم تفسير مقنع لدى معالجة مفهوم تأريخ الشعر في الأغاني؛ لتعثر محاولة الجمع بين تطور الكتابة المؤرخة للشاعر منفرداً وإمامها بتفاصيله فيه، وبين عدم وضوح خطة معينة تعزز مقاصد التأريخ للشعر والشعراء لدى الأصفهاني. ونظراً لغياب أنموذج مؤرخ للشعر في القرن ذاته مقارب في وضوح جهده، ونهجه للأصفهاني، مما يمكن الاستعانة به لتفسير نهج الأغاني، بات هذا الكتاب يشكل ظاهرة في تفرد محتواه وغناه عن كل ما سبقه من المؤلفات المعنية بالشعر والشعراء. وبات في الوقت نفسه مدخلاً سهلاً للطعن على مفهوم تأريخ الشعر لدى القدماء بعامة، بسبب التداخل الذي كانت عليه خطة تأليف الأغاني، وعدم وضوح غاية التأريخ للشعر بوصفها مقصد الأصفهاني في المقام الأول. ونظراً لاستعصاء النسق الأساسي الذي ينتظم فيه الكتاب، وهو الأصوات المئة المغناة التي اختيرت لهارون الرشيد، صُعبت محاولات إخضاع خطة تأليف الأغاني لتفسير يتلاءم مع بواعث التأريخ للشعر المقصود في حد ذاته⁽¹⁾.

وعلى الرغم مما بُذل في ذلك تبقى خطة تأليف الأغاني المتداخلة في موضوعاتها وعصورها، بوصفها العشوائي أو المفكك - على حد تعبير بعض الدارسين⁽²⁾ - هي

(1) لعل من أكثر المحاولات تعمقاً في تفسير نهج الأغاني - بما يتلاءم وغايات تاريخ الأدب - محاولة أحمد بوحسن التي قال فيها: «إن الأساس الذي بني عليه مفهوم تاريخ الأدب هنا هو الأساس الجمالي الغنائي. ولهذا ابتداءً بالمشهورين والأماكن المشهورة بذلك. ابتداءً بالأمويين والحجازيين، وبالقرشيين ثم الموالي، أي بأشعر الشعراء الذين وُضعت في أشعارهم ألحان جيدة تغنى بها العرب وطربوا لها. ولهذا لم يعمد إلى ترتيب المؤلفين حسب الأولوية الزمنية، أو النسق الشعري، أو حسب الطبقة كما عهدنا ذلك في بعض الكتب الأدبية كما أنه لم يربط الأدب بالسلطة السياسية في ترتيب المؤلفين وتأليف كتابه «مفهوم تاريخ الأدب بين التصور العربي القديم والتصور الأوربي الحديث» أحمد بوحسن. ص 35.

(2) كوصفي عبد الحليم النجار، ونالينو لمجل الكتب المعنية بالتاريخ الشعري القديم، بأنها ضرب من التفكك وسنقف عند كلا الوصفين في المحور الأول. وكوصف حميد لحداني لخطة الأغاني بأنها شبه

الفكرة السائدة التي تنعكس فيها أغلب جهود القدامى المؤرخة للشعر.

وهنا تبدو قيمة التنبيه لجهود المرزباني في مؤلفاته عن الشعر والشعراء لأنها من أظهر وأقرب الجهود نهجاً وزمناً. إذ يمكن أن يُفسّر في ضوءها تطور الممارسة التاريخية المشتغلة بالشعر في الأغاني إلى حد كبير. أضف إلى ذلك أن المقابلة بين جهدي المرزباني والأصفهاني تصب في مصلحة التصور العام لغاية القدامى من التأريخ للشعر، لأنها تبدي نية التأريخ للشعر وتلمس الحاجة إليه بوصفهما الغاية الأولى التي تلمسها غير مؤرخ للشعر في القرن الرابع، لا بوصفها عملاً حققه الأصفهاني بغير قصد، حينما قاده إلى ذلك توسعه في الكتابة عن الأغاني وأصحابها من مغنين ومؤلفين. بل إن الرغبة والنية في التأريخ للشعر هي الهدف الأول الذي وضعه المرزباني نصب عينيه في عنايته بالشعر والشعراء كما سنراه بنهاية هذا المبحث. وذلك ما سعى إليه الأصفهاني من قبل، غير أنه اتخذ من الأغاني إطار التأليف الذي ينتظم فيه عمله المؤرخ للشعر. وهو ما تنبه إليه لاحقاً، عندما ألف كتاب مجرد الأغاني ليعزله عن كتاب الأغاني⁽¹⁾.

من هنا بدت ضرورة الربط بين الأصفهاني والمرزباني في هذا المبحث، ف جاء تقسيمه إلى محورين: الأول نظري، والثاني تطبيقي. إذ سنقف في المحور الأول على بعض الانتقادات والنتائج التي توصلت إليها بعض المراجعات فيما يخص بحثنا عن تعزيز مفهوم الخصوصية التي تطبع مفهوم القدامى وممارستهم لتأريخ الشعر.

وتأتي الجزئية الثانية من المحور نفسه لتعرف ما أسهم به منهج تاريخ الأدب من تأثير على تشكيل التصور الحديث لمفهوم القدامى لتأريخ الشعر والوقوف على أهم دعاوى المنهج وما أخذه على ممارسات القدامى في تأريخ الشعر.

والمحور الثاني وهو الأساسي في هذا المبحث نقف فيه على أهم الممارسات التاريخية التي تجمل نهج التأريخ للشعر في محاولاته السابقة لدى مؤرخي الشعر في قرنه الثالث

عشوائية، مضيفاً: أنه كان يمكن للأصفهاني ترتيب القضايا والمحاو، وإخضاعها لنظام منطقي في تجميع الأفكار المندمجة في موضوع واحد. انظر: النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، حميد لحداني، ص 75.

(1) انظر مؤلفات أبي الفرج الأصفهاني في الفهرست ص 128، ومعجم الأدباء 13/ 99-100.

من خلال اندماجها في خمسة مظاهر تاريخية كبرى تجسد إطار التأريخ للشعر لدى مؤرخي القرن الرابع. إذ نتناول السمات المشتركة بين الأصفهاني والمرزباني أولاً، ثم نقف ثانياً على السمات التي برزت بخاصة في عمل المرزباني، وقُلَّ عمل الأصفهاني بها. على أن ذلك لا يعني الكف عن الاستعانة بالأصفهاني أو توضيح طبيعة الممارسات الأخرى لديه، كما أن ذلك لا يعني في الوقت نفسه خروجاً عن غاية المبحث الأساسية المتمثلة في قيمة ما يضيفه مشروع المرزباني لمفهوم تأريخ الشعر لدى القدامى بوصف مشروعه موضوع هذا البحث. لأن كلتا السمات المشتركة، والبارزة في عمل المرزباني، تمثل في خاتمة المطاف إطار الممارسات التاريخية التي يمكن إضافتها للمفهوم القديم لتأريخ الشعر.

المحور الأول: المنهج التاريخي وتصوره لممارسات القدامى في التأريخ للشعر

أولاً: المنهج التاريخي في ضوء الانتقادات الموجهة إليه ونتائج بعض المراجعات الأخيرة لدراساته التقليدية:

قد لا يفي بحث كامل للإحاطة باختلافات الدارسين حول منهج تاريخ الأدب؛ ذلك أن هذا المنهج كان في نشأته عرضة لتنازع الباحثين فيه. وما كاد لانسون - أحد أهم رواد المنهج - أن يلم شتات أسسه وصعوباته في بحث يكون منهاجاً لمرتابه حتى تكاثرت الأصوات المنادية بإنقاذ المنهج من الحالة التي أخذ يظهر بها مؤخراً.

ولا تبدو وعورة المنهج فيما أشار إليه لانسون من صعوباته فحسب⁽¹⁾، وإنما تمكن في مقدرة الباحث على الإحاطة بالطبيعة الشمولية له. وفي هذا الصدد يشير روبرت سيبلر⁽²⁾ إلى ذلك بقوله: «إذا أردنا التعرف على طبيعة التاريخ الأدبي فعلياً، في أقل تقدير، أن نبذل أصابع أقدامنا في هذا البحر من الخلافات».

(1) انظر هذه الصعوبات في منهج البحث في الأدب واللغة، لانسون وماييه، مطبوع مشترك مع النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، ص 399 وما بعدها.

(2) وظيفة تاريخ الأدب، روبرت سيبلر، ترجمة سليمان الواسطي. الثقافة الأجنبية، بغداد، ع 1، شتاء 1983، ص 40.

وإذا كنا قد توقفنا في مفتتح هذا البحث⁽¹⁾ عند بعض الأصوات التي دعت إلى إنقاذ منهج تاريخ الأدب من السمعة السيئة التي بدا عليها في الدراسات الأخيرة، فما يمكن أن يلحق بذلك هنا هو أن بعض الآراء قد وُجّهت إلى المنهج في أساسه ممثلاً في آراء لانسون نفسه من نقاد لهم أهميتهم، كرولان بارت، وجيرار جينيت⁽²⁾، وذلك يعني أن حالة عدم الرضا عن المنهج لم تبارحه منذ الاختلافات المتعلقة بنشأته وصولاً إلى محاولة لانسون تنظيره، إلى الحالة التقليدية التي آل إليها مؤخراً.

وعندما نتتبع أصل الاختلافات حول المنهج نجد أن جذورها تعود إلى ارتباطه بحقله المعرفي الأساسي المتمثل في علم التاريخ وفلسفته. فقد شهدت المعرفة التاريخية، أو فلسفة التاريخ تبايناً كبيراً في الأسس والإجراءات التي تبناها الباحثون في هذا الحقل المعرفي؛ مما انعكس بدوره على منهج تاريخ الأدب⁽³⁾. أضف إلى ذلك

(1) انظر الصفحة الأولى من التمهيد.

(2) «انتقد بارت بشدة تاريخ الأدب معتبراً أن العلاقة فيه بين التاريخ والأدب لا تمثل إلا جزيرتين متباعدتين، يتم بينهما أحياناً تبادل الإشارات، وتظهر بعض التواطؤات، ولكنها تبقى علاقة متباعدة جغرافياً، كما هي متباعدة تاريخياً. فكل منهما يتطور بشكل ذاتي. التاريخ في مجاله الخاص، والنقد في مجاله الخاص كذلك. فتاريخ الأدب ليس له من التاريخ إلا الاسم، فهو عبارة عن سلسلة من الدراسات المبحثية التي تتطرق للكاتب، وتدرسه لذاته، وليس التاريخ هنا إلا تعاقباً للشخصيات فقط. وبإيجاز فإن ذلك ليس بتاريخ إنه أخبار». النقد والتاريخ، عبد الله المساوي، ص 75 - 76. ورأى جينيت: أن التاريخ الأدبي كما اقترحه لانسون عيبه الوحيد والخطير أنه لم يتكون إلى الآن وفق الشروط التي اقترحها لانسون، وعدا بعض الاستثناءات، فالتاريخ الأدبي «تاريخ الأحداث الفردية، وسيرة المؤلفين وعائلاتهم وأصدقائهم ومعارفهم» النقد والتاريخ، عبد الله المساوي ص 91-92.

(3) انظر - للتوسع في اختلاف الباحثين في المنهج التاريخي، وتباين المنظورات الفلسفية والإجراءات التطبيقية فيه - كلاً من:

- في المعرفة التاريخية، أرنت كاسيرد، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1997 - اختلافات الباحثين التاريخيين في النظر إلى أهمية الأحداث باعتبارها مصدراً للمعلومة، أو النظر إلى الأفراد الفاعلين في التاريخ ص 108، وأهمية الوثائق والنصوص التاريخية في الاعتماد عليها في كتابة التاريخ ص 111، وأهمية الأحداث على اعتبار أنها مجرد وصف للتاريخ الخارجي للدولة مقابل النظم التي

أن القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد نشوء المنهج كانت تتجاذبه غير مدرسة فكرية. فالرومانسية مازالت ملقية بظلالها عليه، إلى جانب نشوء الفلسفة الوضعية وغير ذلك من المدارس التي توالى في الظهور.

وقد أخذ تاريخ الأدب حظه من كل مدرسة، فكان أهم ما تلقفه المنهج من الرومانسية نظرتها المغايرة للفكر الكلاسيكي في النظر إلى مسيرة الإنسان طبقاً لقوانين النشوء والارتقاء والتطور، والانتقال من المراحل البدائية إلى المراحل الأكثر تطوراً⁽¹⁾، ناهيك عن جملة من المبادئ الرومانسية، كالإعلاء من شأن الأساطير⁽²⁾ لدى البحث عن مكونات التاريخ الثقافي والفكري لدى الأمم، وأهمية العبقورية الفردية بوصفها منبع كل معرفة حقيقية⁽³⁾، وكذا تبني المنظورات السياسية والقومية

تمثل التاريخ الجوهري ص 113.

- التاريخ وكيف يفسرونه، من كنفوشيوس إلى توينبي، ألبان، ج، ربرجري، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972 - الفصل التاسع: اتجاهات المؤرخين ومعالجة فلسفة التاريخ (المعالجة التوليفية الشاملة، الكتابات التي تدور حول الموضوعات الوطنية والقومية، محاولات مسح الحركات والأفكار الخارجية والمشاعر والأفكار الجوانية في تاريخ الحضارة ص 214، ظهور علم للتاريخ يستخدم مناهج تماثل ما يستخدم في العلوم الطبيعية ص 219).

- عقم المنهج التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، كارل بوبر، ترجمة عبد الحميد صبرة، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1959 - دعاوي المذهب التاريخي المعارضة للمذهب الطبيعي ص 15-45، ودعاوي المذهب التاريخي المؤيدة للمذهب الطبيعي ص 49-71. وغير ذلك من الموضوعات في الدراسات المشار إليها أعلاه وفي غيرها.

(1) انظر: مناهج البحث في الأدب، صلاح فضل، سلسلة: القراءة للجميع 96، القاهرة 1996. ص 21. (الإطار الفكري للمنهج التاريخي من خلال ولادته في أحضان المدرسة الرومانسية التي جاءت لتعكس النظرة، ولترى مسيرة الإنسان طبقاً لقوانين النشوء والارتقاء والتطور).

(2) تبني ذلك الأخوان «جریم» في تاريخهما للأدب الألماني وانتقدتهما «شليجل» في ذلك. انظر: في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد، ص 18.

(3) من أشهر من نادى بذلك في تاريخ الأدب «تين» في مقدمة كتابه تاريخ الأدب الإنجليزي. انظر: في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد. ص 43.

في البحث عن التاريخ الثقافي والأدبي⁽¹⁾. أما أثر الفلسفة الوضعية التجريبية على المنهج فقد نجم عنها البحث في تاريخ الأدب من خلال مناهج العلوم الطبيعية⁽²⁾، وهذا الأثر هو الذي دفع لانسون إلى التحذير من عرضة الباحث بذلك إلى الإخفاق أياً كان قدره، منتقداً بكلامه «تين» و«برونتيير»⁽³⁾.

ومن الأمور المهمة التي ساعدت على كثرة الدراسات في تاريخ الأدب دون التمكن من الوفاء بمتطلباته أن منهج البحث في الأدب وفق ما طرحه لانسون يبدو في ظاهره سهلاً قياساً على طبيعة الاختصار والإجمال التي كان عليها طرحه التنظيري. فملخص المنهج الصغير نسبياً لم يكن يتماثل في حجم صفحاته مع معطياته المتطلبة من الأسس الكبرى، والصعوبات الجسيمة التي تكتنف طريق مرتاده، مما أشار إليه لانسون. ولمعرفة ما يمكن إجماله عن هذا المنهج الذي تنطبق عليه مقولة: (السهل الممتنع) يكفي النظر ملياً في واحدة من الصعوبات التي تطرق إليها لانسون.

فمن المهام التي على الباحث الإتيان عليها وهو بصدد البحث عن التأثير الاجتماعي للأثر الأدبي الواحد أن يقوم بمراجعة فهرس الطبقات الأولى، والطبقات التالية، وفهارس المكتبات العامة، والخاصة، وقاعات مطالعة الكتب، وقوائم تركات الكتب... إلى آخر ما ذكره من لوازم هذه المهمة⁽⁴⁾.

والمهمة على ذلك كفيفة - إن أراد الباحث تحقيقها على شرط لانسون - أن ينتهي عمر الباحث قبل أن يتمكن من الوفاء بها، ناهيك عن آلاف الآثار الأدبية شعراً

(1) تاريخ الأدب الإنجليزي: الفصل الرابع الخاص بالنظرية السياسية الدستورية كأساس للكتابة التاريخية ص 46 وما بعدها.

(2) رأى عبد المجيد حنون أن اللقاء بين الأدب والتاريخ تم في أحضان الفلسفة الوضعية ابنة الفكر الألماني. انظر: اللانسونية، وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، ص 62.

(3) انتقد لانسون على تين وبرونتيير محاولتهما تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على الأدب ورأى أنهما قد أخفقا في ذلك. انظر منهج البحث في الأدب واللغة، لانسون وماييه، ص 406.

(4) ذكر لانسون هذه المهمة في التساؤل التاسع (أي نجاح لاق المؤلف؟). منهج البحث في الأدب واللغة، لانسون وماييه ص 411.

ونثراً مما يلزم الباحث تتبعه على الطريقة ذاتها. ولعل وعي لانسون بصعوبة تحقق ذلك للباحث الواحد جعله يستشعر الرهبة التي يوحى بها وصف المنهج ومقتضياته المتعددة والقاسية، فأشار إلى أن التاريخ الأدبي لفرنسا لا يمكن النهوض به دفعة واحدة؛ وإنما على كل باحث أن يحمل حجرة من ذلك التاريخ، ومن خلال تكاتف عشرات الباحثين قد يمكن تحقيق ذلك⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أوجه التنوع والاختلافات السابقة كلها وكذا الصعوبات فإن ذلك لم يحل دون تكريس نمط موحد من طرق البحث في دراسة تواريخ الآداب بعامه أساسه النهج الأوربي. فتواترت الدراسات التاريخية للآداب، وأنجزت عدداً لا يُحصى وفق النمط المشار إليه.

غير أنه أخذت تظهر في الآونة الأخيرة مراجعات تظهر خلاف النتائج التي قررتها التواريخ الأدبية، على الرغم من أنها ظلت لعقود زمنية طويلة المصادر الأساسية المتداولة بحثاً وتديساً عن مجمل الآداب العالمية بما في ذلك الأدب العربي. والجامع بين هذه المراجعات أن كل واحدة منها تدرس مجموعة من الدراسات المؤرخة للأدب. ونشير هنا إلى بعض المراجعات، كالتي انتهت إلى اختلاف الآداب الأوربية بعضها عن بعض؛ لأن المنهج الموحد لم ينجح في كشف الخصوصيات التي تميز في نطاق الهوية الأوربية ما بين آداب أممها الشرقية عن الغربية، أو التي رأت أن عدداً من تواريخ الآداب المجتمعة لم تنجح في سبر أغوار تاريخ الأدب في القطر أو الأمة الواحدة، إلا في دراسات نادرة.

ففي النمط الأول توصل ف.ف. كوزينوف⁽²⁾ إلى أن دارسي تاريخ الأدب الروسي انتهوا إلى تصور تقليدي عن تطور الأدب الروسي، فأنجزوا تصورهم عن الحقبة التي تمثل عصر النهضة في الأدب الروسي - وتمتد ما بين القرن الثامن عشر والثالث

(1) منهج البحث في الأدب واللغة لانسون وماييه. ص 420.

(2) النمطية والخصوصية، في كتابة تاريخ الأدب، فاديم ف كوزينوف الثقافة الأجنبية، بغداد، ع 1، شتاء

1983، ص 62-72.

الأول من القرن التاسع عشر - وفقاً لخصوصيات الأدب القومي الذي نشأ في أقطار أوروبا الغربية الرئيسية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. بينما جوهر القضية في عصر النهضة للأدب الروسي لا تتعلق بالخصوصية القومية قدر تعلقها بالطبيعة النهضة الخاصة بالمرحلة التي عاشها واجتازها الأدب الروسي. وخلص كوزينوف إلى القول⁽¹⁾: «فإننا إذ نقيس ملامح التيارات الأدبية بمقياس أوربي عام نعرض أنفسنا لخطر إبراز ما هو عام، وطمس معالم ما هو خاص... لأن الطبيعة التركيبية للمجتمع الروسي تميز، بحدة، الأدب الروسي من الآداب الأوربية الغربية المعاصرة له»⁽²⁾.

أما النمط الثاني الذي يقف عند مجموعة من الدراسات التاريخية لأدب القطر أو الأمة الواحدة فنجد مثاله دراسة «ديفيد كريج» نحو قوانين للتطور الأدبي⁽³⁾. وفيها رأى «أن الافتقار ما يزال موجوداً إلى نظرية تاريخية تفسر تطور الأدب في مراحل معينة»⁽⁴⁾. واستدل على ذلك بمراجعة عدة دراسات في الأدب الإنجليزي، لم يظهر له فيها جميعاً تتبعاً مجدياً لظاهرة التطور فيه سوى من خلال كتابين ذكر عنهما متحفظاً أنهما مفيدان في الكشف عن الأسباب التاريخية للتطور في الأدب⁽⁵⁾.

وفي النمط ذاته تندرج دراسة حسين الواد لأربع دراسات في تاريخ الأدب العربي مما ألفه المحدثون⁽⁶⁾، وذكر في ختام دراسته تلك أن: «الناظر فيها لا يجد سوى العناية بنشأة الأعلام، والنصوص، ونشأة الأغراض والمدارس، ونشأة الأدباء الذين

(1) النمطية والخصوصية، في كتابة تاريخ الأدب، ف.ف. كوزينوف، ص 69.

(2) النمطية والخصوصية، في كتابة تاريخ الأدب، ف.ف. كوزينوف، ص 70.

(3) نحو قوانين للتطور الأدبي، ديفيد كريج، ترجمة محمد عدنان حسين، الآداب الأجنبية، دمشق، ع 3، ص 5، شباط 1979 ص 5-39.

(4) نحو قوانين للتطور الأدبي، ديفيد كريج، ترجمة محمد عدنان حسين ص 19.

(5) نحو قوانين للتطور الأدبي، ديفيد كريج، ترجمة محمد عدنان حسين. والكتابان: إعادة تقويم ل ليفيز، والصراع الرومانتيكي ل رودوي.

(6) الدراسات الأربع أشير إليها في التمهيد.

واصلوها أو أضافوا إليها، وأحدثوا فيها على مر العصور الزمنية. بل إن تاريخ الأدب بهذا المفهوم كثيراً ما يُحوّل إلى تاريخ للأعلام يكتفي فيه مؤرخ الأدب بتسجيل مواليدهم ووفياتهم بعضاً على إثر بعض على خط الزمن، مثلما كان الأمر لدى زيدان والزيات⁽¹⁾.

والنتيجة التي تبدو عقب هذه المراجعات وكذا الانتقادات التي سبقت في وصف حالة المنهج تكاد تشير إلى تقارب المنهج بوصف طبيعته السابقة مع مفهوم الأخبار لدى القدامى الذي ضم مقداراً كبيراً من ممارساتهم في التأريخ للشعر، ولا سيما مع تطور وتوسع هذا المفهوم لدى مؤرخي القرن الرابع. خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار ما رافق اشتغال المحدثين من خلل مفهومي لدى محاولتهم التأريخ للأدب العربي القديم بالمنهج الحديث، بحسب النتائج التي خلص إليها حسين الواد⁽²⁾، وبحسب ما توجي به مقولة بارت وجينيت عن تاريخ الأدب إذ رآه الأول مجرد أخبار، ورآه الثاني سيرة ذاتية للمؤلفين⁽³⁾. ولا يعني ذلك مصادرة أو تبسيطاً لكل الجهود الحديثة المؤرخة للأدب؛ وإنما الإشارة إلى مقدار التقارب في نهج الممارسة بين القدامى والمحدثين.

وإذا كان الباحث في أدب أوروبا الشرقية يرى الخطر في قياس ملامح التيارات الأدبية بمقياس أوربي عام؛ لأنه يطمس الخصوصيات، على الرغم من التقارب النسبي بين الآداب الأوروبية الشرقية منها والغربية. فإن مع تعميم المقياس على الآداب التي تكون أكثر اختلافاً في خصوصياتها، كالآداب الشرقية الخالصة ومنها الأدب العربي، يكون فيها التعرض لطمس خصوصيات هذه الآداب أكثر. ناهيك عن بناء تصور

(1) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 286.

(2) انظر: في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، نتائج العمل بمنهج التقسيم إلى عصور من ص 204 إلى ص 236، ونتائج العمل بمنهج التقسيم إلى أغراض من ص 237 إلى ص 260.

(3) سبق إيراد هذين الرأيين بالتفصيل وملخصهما: انتقد بارت بشدة تاريخ الأدب معتبراً أن العلاقة فيه بين التاريخ والأدب لا تمثل إلا جزيرتين متباعدتين. النقد والتاريخ، عبد الله المساوي، ص 75 - 76. ورأى جينيت: أن التاريخ الأدبي كما اقترحه لانسون عيبه الوحيد والخطير أنه لم يتكون إلى الآن وفق الشروط التي اقترحها لانسون. النقد والتاريخ، عبد الله المساوي، ص 91-92.

مفهوم القدامى لتأريخ الأدب على دعاوى وأحكام عامة مستوحاة من أسس المنهج الحديث أكثر من نبوغها من خصوصيات كتب التراث نفسه والعلاقات المتبادلة ما بين المؤلفين القدامى وقرائهم المعاصرين.

ثانياً: دعاوى المنهج في مقولاته الأساسية على ممارسات القدامى:

يمكن أن نعد الوصف الذي ورد في مقدمة ترجمة تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان نمطاً من أكثر الأوصاف انحيازاً لوجهة نظر بعض المستشرقين في تصورهم لممارسات القدامى التي تندرج في التأريخ للأدب أو الشعر، كما أنه في الوقت نفسه مثال للأحكام التعميمية التي يعوزها التدقيق والتحصيل. أما وجهة نظر بعض المستشرقين فإن مقولة نالينو تجسد الحكم المبني منها في هذا الصدد على مفهوم الإسقاط المسبق. على أن كلا الوصفين يلتقيان في افتقارهما إلى الاستقراء العلمي، والمنهجية التي يُفترض أن تُبنى عليها مثل هذه الأحكام، إن أراد لها أصحابها أن تكون ذات منطق علمي مقبول، على غرار المراجعات التي توقفنا عند بعضها آنفاً. وفي الوصف المشار إليه أولاً ذهب عبد الحليم النجار في معرض تقديمه لترجمة كتاب بروكلمان إلى وصف جهود العرب السابقين في التأريخ للأدب العربي بأنها «جهود يغلب عليها طابع التناثر والتفكك، ولا تساعد القارئ على اكتشاف صورة متكاملة للأدب العربي كافة إلا بعد جهد شديد، وعمر مديد، ومن هنا فلا يجوز حسابها تأريخاً للأدب العربي إلا بسبيل من التخيل والمجاز»⁽¹⁾.

وأرجع نالينو في الوصف الثاني، قصور العرب القدامى في تاريخ الأدب إلى تأثر موقفهم ونظرتهم بمفهوم العرب عن التاريخ العام، وطبيعته التي لا تعدو وصفاً للتفاصيل من دون بحث عن الأسباب، أو ربط بين الحوادث، منتهياً إلى قوله: «ولذلك فهم لم يؤلفوا سوى كتب في التراجم مرتبة على حروف الهجاء، أو الطبقات، دون التعمق في البحث عن أصل كل جنس من الفنون الأدبية، وعن كيفية نموه، وانحطاطه،

(1) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، ج1، ص (م).

وعن تأثير الأدباء بعضهم في بعض، وأسباب تغير الذوق والميول⁽¹⁾.

وإذا أردنا استخلاص أهم دعاوى المنهج التاريخي على مفهوم القدامى لتأريخ الأدب والشعر فيمكن استخلاص أهم مرتكزاتها بالمزج بين مضمون المقولتين السابقتين، وإعادة المحتوى فيهما، بحسب التدرج من الأعم إلى الأخص، في النقاط التالية:

- 1- تأثر مفهوم القدامى في تأريخ الأدب بمفهومهم وممارستهم لعلم التاريخ العام.
 - 2- طبيعة التناثر والتفكك في مؤلفات الأدب العربي، وصعوبة اكتشاف صورة متكاملة للأدب العربي منها.
 - 3- اقتصار مؤلفات العرب القدامى في التأريخ للأدب على كتب التراجم المرتبة على حروف الهجاء، أو كتب الطبقات.
 - 4- عدم التعمق في البحث عن أصل كل جنس من الفنون الأدبية.
 - 5- عدم التعمق في البحث عن كيفية النمو والانحطاط في كل جنس، وعن كيفية تأثير الأدباء بعضهم على بعض، وأسباب تغير الذوق والميول.
- وعندما نتأمل في النقاط السابقة، كل منها على حدة، نجد أن الربط بين مفهوم العرب القدامى لتأريخ الأدب وعلم التاريخ العام فيه مقايضة واضحة على ترابطهما في المنهج الحديث. ومع أن هذا الربط ناجم عن إسقاط مفهوم الانعكاس، إلا أنه قد تبين لنا في موضع سابق أن الترابط بين التاريخ وتاريخ الأدب لم يكن إيجابياً في كل نواحيه. إذ نجم عنه اختلافات أدت إلى تباين طرق الباحثين، ذلك أولاً. أما ثانياً ففي الأخذ بالربط - من خلال مفهوم الانعكاس - محاولة لتعميم مفهوم العرب عن التاريخ في حقبة، وإسقاطه على أخرى، مع عدم مراعاة لما شهدته علم التاريخ في هذا القرن من تطور، شأنه شأن غيره من المعارف والعلوم.
- فقد تنوع الطرح التاريخي ليشمل في هذا القرن الاهتمام بتاريخ الأمم الأخرى،

(1) تاريخ الأدب العربي بين مدلوليه الخاص والعام، أحمد سيد محمد. ص 190.

وكان قبل ذلك مقتصرًا على التاريخ الإسلامي⁽¹⁾، وفي بعض مؤلفات المرزباني في التاريخ العام ما يدل على ذلك⁽²⁾. كما أن أسلوب المؤرخ فيه لم يعد سرداً يقتصر على تفاصيل الأحداث المتتابعة؛ وإنما أخذ مؤرخ هذا القرن يقف عند الأحداث، ليسوغ أثر بعضها على بعض. حتى إن ذكر الأسباب لدى مسكويه في تجارب الأمم بات من الأمور التي يلتزم بها ما بين فينة وأخرى في عناوينه⁽³⁾. مع ظهور وقفات تأمل عميقة صاحبها ضرب الأمثلة واستخلاص العبر من الأحداث السلبية والإيجابية⁽⁴⁾.

وعن دعوى التناثر والتفكك التي تتسم بها مؤلفات الأدب العربي القديم، فينبغي أن يُنظر في هذه الدعوى من خلال كون سمة التنوع وعدم إملال القارئ إحدى خصوصيات العلاقة بين المؤلف القديم وقارئه المعاصر، وهي مما أشار لانسون إلى ضرورة مراعاته في أثناء حديثه عن عيون المؤلفات ولماذا لم نعد نراها نحن عيوناً⁽⁵⁾. ونهج التفكك المشار إليه، يختلف مقدار الأخذ به من مؤلف إلى آخر. كما أنه ليس

(1) عدَّ محمد أركون تطرق مؤرخي القرن الرابع لتاريخ الأمم الأخرى، وكان قصراً على التاريخ الإسلامي لدى سابقهم، أحد مظاهر تقدم علم التاريخ. انظر: نزعة الأنسنة في الفكر العربي. محمد أركون، ص 336-337.

(2) كاهتمامه بالفرس في كتابه الأوائل، والتاريخ العربي السابق للعصر الإسلامي في كتاب أخبار ملوك كندة. (3) انظر على سبيل المثال ثلاثة مواضع في ست صفحات، في كل منها عنوان مبدوء بـ (ذكر السبب). تجارب الأمم، لمسكويه 2/ 45، 47، 51.

(4) انظر على سبيل المثال إلى وقفته عند الآثار الناجمة عن الممارسات البوذية لدى دخول بغداد؛ إذ افتتحها بقوله: «إن التدبير إذا بُني على أصول خارجة عن الصواب، وإن خفي في الابتداء، ظهر على طول الزمان. ومثل ذلك من ينحرف عن جادة الطريق انحرافاً يسيراً، ولا يظهر انحرافه في المبدأ، حتى إذا طال به السير بعد عن السمّت. وكلما ازداد إمعاناً في السير زاد بعده عن الجادة تجارب الأمم، لمسكويه 2/ 96-97. وكذا وقفته أمام إصلاحات عضد الدولة فقد سوغ تفصيله لها بقوله: «وإنما شرحناها لينظر فيها من يأتي بعدنا، ويقرأها الملوك، أو تُقرأ بين أيديهم فيعملون بمثل ذلك، ويسيروا بها، لينتشر ذكرهم بالجميل» تجارب الأمم، لمسكويه 2/ 409.

(5) ضرب لانسون مثلاً بما كان يعده الجمهور الفرنسي في يوم من الأيام عيون الملفات. منهج البحث في الأدب واللغة، لانسون وماييه، ص 399.

على مستوى واحد في كل الحقب. ففي مختلف الحقب تظهر مؤلفات متماسكة في موضوعاتها، أو مؤلفون يظهرون أطراً عامة تنتظم فيها أغلب مؤلفاتهم، كما هو الشأن مما وقفنا عليه لدى المرزباني، ولدى غيره ممن يساعد المنهج الحديث على اكتشاف الرؤى التي تعيد تنظيم اهتماماتهم المتباعدة ظاهرياً فتبدو أكثر ترابطاً⁽¹⁾.

أما دعوى الاختصار على مؤلفات الطبقات، وأخبار الشعراء في التأريخ للشعر والشعراء فلا ينبغي النظر إليها من خلال المهام المنوطة بالمعاجم والموسوعات الحديثة. فطبيعة الاهتمام والمحتويات متباينة جداً. والمقدار الكبير الذي أفادته مادة بحثنا هذا من كتاب المعجم، وأخبار العلماء تدل على ثراء مثل هذه الكتب وغناها بالممارسات التاريخية، مما يبرهن على اختلاف محتوياتها وغاياتها عن مثيلاتها الحديثة.

ويتضح من بقية الدعاوى أنها لم تراع خصوصية الأدب العربي الذي استأثر الشعر فيه بالنصيب الوافر من الاهتمام مقابل النثر، إلى جانب أنه لا يتسم بما يتسم به الشعر الأوربي من الأقسام الموضوعية المعروفة؛ إذ هو لا يحتاج بالمقدار ذاته إلى البحث عن الأجناس واختلافها نشوءاً وتطوراً وانحطاطاً، ناهيك عن أن هذا المبدأ التطوري مبدأ تاريخي عام أصبح يُسقط على معظم الظواهر العلمية والإنسانية مما لا يُعد معه ملمحاً خاصاً بتاريخ الأدب، ومع ذلك فإن النتائج المستقاة في هذا البحث في الفصل الخاص بعناية المرزباني بتاريخ تلقي الشعر فيها شواهد على مقدار ما يمكن إفادته من رصد المؤرخ القديم لمظاهر التطور في غير منحنى.

ولا يخفى ما في الدعاوى الأخرى من تجاهل لما بذله القدماء في غير مبحث من جهد يكشف عن مقادير التأثير والتأثير بين الشعراء، ولا سيما في مبحث كالسركات.

إن نقض الدعاوى على النحو السابق لا يعني أن لا أساس لها من الصحة؛ فقد تقدم قبل ذلك ما يشير إلى صحة مقدار منها مما يتجسد بخاصة في خطة تأليف الأغاني

(1) أشار أركون إلى قيمة التأويل الشمولي لمؤلفات القدامى، التي يساعد علم المعاني البنيوي، على اكتشاف الرؤى التي تنظمها كلسلك ويصل بينها على الرغم من التشتت الظاهري لها، متخذاً من مؤلفات مسكويه أنموذجاً. انظر: نزعة الأنسنة، محمد أركون. ص 62.

على سبيل المثال. لكن الغرض في المقام الأول من مجمل الردود على تلك الدعاوى بيان مقدار تأثير المنهج - بأسسه ومتطلباته الحديثة - على تشكيل فكرة المحدثين وتصورهم لمفهوم القدامى لتأريخ الشعر، وأن بناء الأحكام فيها لم يكن وفق الطرق المنهجية المتبعة، بل قام في الغالب منها على آراء عامة تساوي بين كل كتب التراث الأدبي دون مراعاة الفروق ما بين مؤلف وآخر، أو حقبة وأخرى.

وسنرى في المحور التالي أن فروقاً في تناول والأخذ بالسلمات التاريخية بدت واضحة ما بين المؤلفين المتعاصرين اللذين يضمهما شرط تاريخي واحد، ومحاور تأليف متقاربة، كما هو الحال في كتابات الأصفهاني والمرزباني عن الشعر والشعراء. فهي وإن كانت في مجملها تشكل إطاراً يحتوي نهج التأريخ للشعر في القرن الرابع، إلا أن الفرق الأساسي واضح بين المؤلفين في نهج التأليف وفي مقدار الأخذ بالسلمات التاريخية التي يقوم عليها عمل كل منهما. فثمة سمات مشتركة بينهما، وأخرى لم تبرز لدى الأصفهاني بمقدار وضوحها في عمل المرزباني، على نحو ما سيرد في الصفحات التالية.

المحور الثاني: قيمة ما يضيفه مشروع المرزباني إلى تصور مفهوم القدامى لتأريخ الشعر
أولاً: السمات التاريخية المشتركة بين الأصفهاني والمرزباني وقيمة ما تضيفه إلى
تصور مفهوم القدامى لتأريخ الشعر:

بدأت الممارسات التاريخية المشتركة بين مؤرخي الشعر في القرن الثالث في الحرص
على التوثيق، واستحضار السياق التاريخي للنص والشاعر، وتفسير النص الشعري،
والإخبار عن الشاعر في ضوء المعلومة التاريخية، إلى جانب التعريف بالشاعر وطبقته.
وقد استمر مؤرخا القرن الرابع في الاشتغال ضمن النطاق ذاته إجمالاً.

وكما تفاوت الأخذ بالممارسات السابقة ما بين مؤرخ وآخر من مؤرخي القرن الثالث
- فكانت عناية ابن سلام الجمحي بالتحقيب والتوثيق أظهر، ومفهوم النظرة الشمولية
للحقب الشعرية أظهر لدى ابن قتيبة بخاصة، ثم من خلال ابن المعتز الذي كرس العناية
بالشعراء المحدثين - كان التفاوت ظاهراً أيضاً لدى مؤرخي الشعر في القرن الرابع.

ويمكن جمع معظم الممارسات التاريخية السابقة، لدى مؤرخي الشعر في القرن
الثالث، والأشكال التي أضحت عليها في كتابات الأصفهاني والمرزباني في خمسة
أنماط إجمالية هي: التوثيق، والنهج السيري، والتحقيب، والتلقي، والإطار المنهجي.

وتعد العناية بالتوثيق وتطور ترجمة الشاعر إلى النهج السيري من الممارسات
المشتركة بين مؤرخي القرن الرابع التي تقارب الأخذ بها لدى كل منهما. فيما تعد
بقية الممارسات مما برز على نحو خاص لدى المرزباني. ومن السمات التاريخية المشتركة:

أ - التوثيق:

يتبوأ التوثيق أهمية كبرى في المنهج التاريخي. فالوثائق التاريخية التي تشمل
الأخبار والنصوص بمختلف دلالاتها هي المادة الأساسية التي تُبنى عليها التصورات
التاريخية. بينما يُعد التعامل مع هذه الوثائق من المهام الرئيسية التي يوليها دارس
التاريخ مقداراً كبيراً من جهده. وقد تباينت مواقف دارسي التاريخ في التعامل مع
الوثائق القديمة ما بين الوثوق الكلي بها، وبين ضرورة توخي الحذر من الثقة المفرطة

بها. ويمثل رأي «كولانج» - أحد أكثر الدارسين التاريخيين انحيازاً لأهمية الوثائق - الموقفين معاً، عندما ذكر أولاً: أنه «لا يمكن الوثوق بالنصوص على الدوام»⁽¹⁾، ومن ثم استدرك بقوله: «ولكن التاريخ لا يمكن أن يكتب إلا بالاعتماد عليها، ومن الواجب ألا تحل الآراء الشخصية محل هذه النصوص»⁽²⁾. وهذا التوجه في التمسك بالتوثيق ذي النهج العلمي المتشدد - وهو ما انتُقد بسببه «كولانج»⁽³⁾ - يذكّر بصرامة نظام الطبقات الذي كان إطاراً للتطبيق العملي لدعوة ابن سلام إلى أهمية النظر في الروايات، وفحص الشعر قبل قبوله.

غير أن نهج ابن سلام في شرط طبقاته الذي لم يلتزم به لاحقه، لم يكن مظهر التوثيق الوحيد الذي تحلى عنه لاحقه. فتوثيق الأخبار، بإثبات سلاسل ناقلها، أو ما يُعرف بالإسناد، مظهر تخلت عنه كثير من كتب الأدب في ذلك الوقت⁽⁴⁾، مع ما لهذا المظهر من أهمية كبيرة علمية، وروحية⁽⁵⁾.

ويمثل الإسناد أول مظاهر التوثيق التي اهتم بها مؤرخا القرن الرابع، وأعادها لها أهميتها في كتب الأدب مجدداً. فباتت سلاسل إسناد الأخبار المظهر التقليدي الذي يبتدئ به الخبر لدى كل منهما. ولعل في سعة المادة الإخبارية التي نقلها كل منهما، ما أبدى الحاجة لديهما إلى إثبات نقولهما ومروياتهما، مما يكسبهما مزيداً من الثقة في مواد مؤلفاتهما الموسوعية.

(1) في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد. ص 111.

(2) في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد. ص 111.

(3) كان كولانج تجربياً ووضعياً مقتنعاً بمذهبه في وجوب النظر فقط إلى الوقائع والوثائق وحذر «من التعميمات المبهمة، والتركيبات السابقة لأوانها. وقال إن التاريخ ليس علماً عقلياً، بل هو علم وقائع. إنه علم مشاهدة يمكن أن يقارن بالكيمياء». في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد. ص 113. وعلى العكس من كولانج يرى بوركار أن المعرفة التجريبية الخالصة لا يمكن أبداً أن تكفي لتحقيق مثل هذه النظرة للتاريخ، وأنه في النهاية ينبغي أن يحل التأمل والحدس مكان التجريد العلمي. في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد، ص 67.

(4) انظر مؤلفات ابن قتيبة، والجاحظ وغيرهما تجدها تركت ذكر الرواة والأسانيد لدى ذكر كل خبر.

(5) المقصود بالبعد الروحي ما يمثله الإسناد من أهمية في التثبت من صحة الأحاديث النبوية الشريفة.

فمع كل خبر يوردانه⁽¹⁾ تصدير له بسلسلة رواته التي تبلغ في أحيان كثيرة عدة سلاسل، إذا كان الخبر قد وصل إليهما من عدة طرق. وفي أحد الأخبار بكتاب الموشح نجد المرزباني يعدد ما مقداره خمسة وعشرون ناقلاً في ست سلاسل من أجل خبر واحد، كخبر أرطاة بن سهية مع عبد الملك بن مروان⁽²⁾. وبمحاولة البحث عن مردود التمسك بظاهرة الإسناد على ذلك النحو في ميدان الأدب نجد أنه لا يمثل احتفاظاً بظاهرة باتت شكلية؛ إذ إن عدة كتب أدبية قد تخلت عنها منذ قرن، بل إن له علاقة بموقف المؤرخين وغايتيهما من التأريخ للشعر في تلك الحقبة بالذات، وله مراميها الأخرى. إذ يجسد التمسك بالشخصية الإسلامية من خلال تقليدها العلمي المتوارث في إثبات مصداقية المعلومة وتحميل ناقلها مسؤوليتهم تجاه ما سترتب عليها من أحكام ذلك.

وتدلنا الأسانيد - كما هي لدى المؤرخين - على الحالات التي تم بها تلقي الأخبار عن العلماء؛ إذ تفرق مصطلحات الرواية لديهما بين حالات التلقي المنفرد، أو مع الجماعة، أو التلقي كتابة، أو الأخذ قراءة، كما أن الأسانيد لديهما من خلال مصطلحات الأخذ والتلقي⁽³⁾ تقوم مقام استخدام الحواشي في إيضاح الإحالات والنقول وإثبات مصادرها⁽⁴⁾.

(1) يستثنى من ذلك كتاب معجم الشعراء لخاصية الإيجاز في التعريف بالشعراء. أما كتاب المقتبس فعلى الرغم من ضخامته إلا أن الأسانيد كانت موجودة فيه، يدل على ذلك بقاؤها في المختار منه. وإشارة اليعموري في مقدمة نور القبس ص2 إلى حذفه الأسانيد. كما أنها موجودة في كتاب أشعار النساء. وبدأ في تواصل أسانيد الذين نقلوا عن المرزباني ووصلهم إلى أسانيده شواهد على أنه عمل بذلك في معظم كتبه. بعض النقول التي وردت من كتب: الموثق، والمستنير، والشعر.

(2) الموشح ص305.

(3) انظر للتوسع في هذه المصطلحات والفروق بينها (كيفية سماع الحديث وتحمله وضبطه) في الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ بن كثير، تأليف أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 1414هـ، ص 103-126.

(4) سبقت الإشارة إلى ذلك في موضع سابق، وانظر في الموشح إلى أي موضع يرد فيه «أحمد بن عبد العزيز الجوهري» تجده لا يقول حدثني، وإنما «كتب إلي»، وانظر إلى مواضع ذكر كل من «ابن المعتز، ابن طباطبا، العروضي، قدامة بن جعفر» لا تجد سلاسل إسناد وإنما: «قال فلان» فقط؛ مما يعني أخذه عن كتبهم مباشرة.

وقد بدت قيمة الأسانيد الآنفة على نحو خاص لدى التحقق من نسبة مادة المختار إلى المرزباني من جهة، ومن جهة أخرى عندما ساعدت على تعرف مقدار خروج صاحب المختار عن مادة المرزباني⁽¹⁾.

ومن مظاهر التوثيق الأخرى التي عمل بها المؤرخان جملة أشكال يرتبط بعضها ببعض، تؤول في مؤداها الإجمالي إلى مقارنة منحنى التحقيق الذي يسلكه المحققون المحدثون لدى مقابلة عدة نسخ من الكتاب الواحد. فكثرة الأخبار في المحور الإخباري الواحد إما عن نص شعري، وإما عن أحد الجوانب في حياة الشاعر قد دفع بالمؤرخين إلى المقابلة بين الروايات المتعددة، في ضروب شملت ما يلي:

1- إثبات تواتر الخبر ذي المضمون الواحد بذكر أسانيده المتعددة، دون تغيير في متن الخبر ومحتواه بين مختلف رواياته، كخبر أرطاة السابق، أو خبر حكم بشار بن برد على الأخطل، الذي ينتقد فيه جعله ثالثاً مع الفرزدق وجري⁽²⁾. وقد يقل عدد الروايات والنقلة بحسب المتوافر، لكن الغالب أن يذكر المؤرخ كل ما مجوزته من روايات، في الجزئية التي يكون بصدها، ويقتصر دوره على المقابلة بين هذه الروايات من دون تدخل مباشر منه.

2- تعدد الروايات لمضمون خبر واحد، مع تميز كل رواية بإضافة جزئية لا ترد في رواية أخرى. وأغلب الأمثلة التي تمثل هذا النمط سنراها في محاور أخبار أبي العتاهية التي سنقف عندها في الممارسة التأريخية المشتركة الثانية. وهذا النمط مع سابقه يندرج في المقابلة بين الروايات المتعددة، التي يلتزم فيها المؤرخ موقف الحياد، فلا يبدي تدخلاً منه.

3- الترجيح بين الأخبار والروايات، وهو يزيد عن نمط المقابلة السابق بتدخل المؤرخ

(1) انظر ما ورد سابقاً في هذا البحث: التحقيق في نسبة مادة كتاب المختار إلى المرزباني.

(2) رأي بشار الذي استنكر فيه جعل الأخطل ثالثاً مع جري والفرزدق «وانما تعصبت له ربيعة، فقالت مضر ألحقوا لنا شاعراً، فألحقوه وليس هناك»، الموشح ص 160، وورد الخبر في موضع على أربع روايات في (أخبار الفرزدق) ورواية خامسة موضعها (أخبار الأخطل).

للإدلاء برأيه مستعينا بوجهة نظر غيره، أو معلقا بوجهة نظره الخاصة؛ لأغراض منها:
أ - ترجيح إحدى الروايات التي يراها المؤرخ أصح من غيرها، أو التصحيح لبيان الغلط، ودفع التوهم الذي يراه في أحد الأخبار، أو إحدى الروايات، وكثيراً ما يرد ذلك في تواريخ الولادة والوفاة⁽¹⁾.

ب - إبداء الشك في أحد الأخبار⁽²⁾، أو التقليل والطنن في الشاهد المعول عليه⁽³⁾.

ج - الاعتراف الصريح بعدم الوثوق في المعلومة، أو ذكرها على سبيل الظن⁽⁴⁾.

(1) مثال الترجيح برأيه غيره ترجيح الصولي بين الروايات الخمس المختلفة في تاريخي ولادة أبي عمرو بن العلاء ووفاته. إذ ذكر عقب رواية أبي زيد الأنصاري المتفقة مع رواية أبي عبيدة قوله: «فهذا المعول عليه في سنه ووفاته؛ لأنه اجتمع عليه أبو عبيدة، وأبو زيد، مع روايات عضدت ذلك» المختار 178 ب. ومثله ما ذكره المرزباني في نسبة محمد بن داود شعرا عمرو بن حُني التغلبي، فعقب المرزباني على ذلك بأن أبا عبيدة وغيره يروونه لجابر بن حني التغلبي، المعجم ص 13.

مثال ترجيح المؤرخ برأيه ما ذكره المرزباني في نسبة شعر ذكر عنه محمد بن داود أنه لعمرو بن الحارث فقال: «وهي أبيات تروى لأخيه معدي كرب بن الحارث وهو الصحيح» المعجم ص 13. ومثاله عند الأصفهاني ما ذكره عن نسبة شعر قال عنه: «الشعر لغريض اليهودي وهو السموأل بن عادباء، وقيل: إنه لابنه سعية بن غريض، وقيل: إنه لزيد بن عمرو بن نفيل، وقيل: إنه لورقة بن نوفل، وقيل: إنه لزهير بن جناب، وقيل: إنه لعامر بن المجنون الجرمي الذي يقال له: مدرج الريح. والصحيح أنه لغريض أو لابنه». الأغاني 3/ 109.

(2) مثال ذلك إشارة المرزباني إلى غلط حماد بن زيد فيما ذكره عن الخليل بن أحمد، وتقليل العروض من شأنه. المختار 68 أ، وإشارته في الموشح إلى الغلط في ذكر الفرزدق بخبر يفيد دخوله على خليفة قبل سليمان بن عبد الملك. الموشح ص 220.

(3) مثال ذلك ما ذكره المرزباني عن علي بن عبد الله الخارج بالشام مع أخيه المعروف بصاحب الخال؛ إذ قال: «وينتسبان للطالبيين، ويشك في نسبهما وتروى لهما أشعار أنا أشك في صحتها» المعجم ص 153. ومثاله تشكيكه في الشاهد الذي ذكر في مسألة الفرق بين الوعد والوعيد بناء على أن قائله مجهول غير معروف. انظر المختار ص 182 ب.

(4) الاعتراف الصريح مثاله اعتراف المرزباني باختلاط نسبي شاعرين عليه ذكرهما معا في المعجم ص 118-119. والإشارة على سبيل الظن مثالها قول الأصفهاني عن هلال بن الأسعر: «شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية وأظنه قد أدرك الدولة العباسية» الأغاني 3/ 51.

ومن الواضح أن الأنماط السابقة تسعى كلها إلى تحقيق الأخبار والنصوص التي يتكون منها متن التاريخ الشعري، ولذلك وصف سيد قطب تلك المظاهر بأنها مما يقع في صميم المنهج التاريخي⁽¹⁾.

غير أن المأخذ الذي يبدو مفارقاً لمجهود التوثيق السابق هو سكوت المؤرخين، وكفهما عن التعليق، أو إبداء وجهة النظر - بما يشبه الإقرار حول بعض الروايات والقصص الطويلة التي تبدو غريبة، ومخالفة للمنطق، في تخل مثير للتساؤل عن عدم ممارسة نقد هذه النصوص والتسليم بها لمجرد ثبوت تداولها من ناقل إلى آخر⁽²⁾. ولعل ما يشفع للمؤرخين، ما سبق ذكره من محاولة جذب الانتباه، والسعي إلى اكتساب مفهوم النادرة في جانب من أخبارهما. خصوصاً في ضوء المظاهر الثقافية الجديدة التي أخذت في التفشي بأوساط العامة، لصرف القراء منهم إلى الكتب الركيكة. إلى جانب أن التراخي والبعد الزمني عن بعض الشخصيات يعكس ما بلغته تصورات العامة ومخيلاتها عن بعض الشخصيات الفذة التي تحولت على مر الزمن إلى قدرات خارقة للعادة.

وعلى الرغم من كثرة الأخبار والروايات التي ينطبق عليها المأخذ السابق، فإن قيمة هذه الممارسة التأريخية كشفت مبلغ عناية المؤرخين، وما بذلاه من جهد في سبيل استقصاء الروايات المختلفة التي تشكل مادة ضخمة وغير يسيرة في الإحاطة بها، مع المحافظة على سلاسل ناقلاتها، وفي ذلك كله دلالة على وعيهما بأهمية ممارسة التوثيق وبعدها الجوهرية في التثبت من المادة لديهما، بغض النظر عن البعد الفلسفي، الذي يمكن أن يفسر الاهتمام بظاهرة الأخبار وأشكال توثيقها، والرجوع إليها في تلك

(1) النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، ص 153.

(2) من هذه الأخبار ما ورد على سبيل المثال في أخبار الخليل بن أحمد لدى المرزباني. وسنقف عندها في الممارسة التالية (النهج السيري). والخبر المطول الذي ورد في ترجمة الأعمش عن أخوين يتحول رأس أحدهما إلى رأس خنزير، وقصة زواج امرأة في الجاهلية والخبران أشير إليهما في مبحث الشعر والسياق التاريخي. ولدى الأصفهاني نجد مثال ذلك في أول الروايات التي ذكرها عن سبب تسمية الدلال، لكنه بين أن هذه الرواية ليست مما يرويه كل الرواة، وأورد الروايات الأخرى. الأغاني 4/ 273-274.

الحقبة بخاصة⁽¹⁾. على أن أهمية التوثيق الكبرى تنبع من كونه الأساس الذي تترتب عليه بقية الممارسات التاريخية الأخرى، كما تقدم ذلك في أول الحديث عن أهمية فحص الوثائق في المنهج التاريخي.

ب - النهج السيري:

يقدم هذا النهج الخلاصة العملية لما وصلت إليه ممارسة مؤرخ الشعر القديم في القرن الرابع، من خلال أنموذج الترجمة الموسعة الغنية بتفاصيلها عن الشاعر. وعندما نتتبع نهج مؤرخ القرن الرابع وخط سيره في كتابته المفصلة عن الشاعر، التي سنميزها عن نمط تراجم سابقه من خلال وصفها بـ **النهج السيري**، نجد يسير فيها على النحو التالي⁽²⁾:

تتجه عناية المؤرخ في جانب منها إلى تفصيل الوضع الاجتماعي للشاعر. فيحدد

(1) انظر عن الأبعاد الفلسفية والفكرية للتمسك بالخبر لدى البيانين، وبخاصة لدى بعض الفرق المذهبية: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية لنظم المعرفة العربية، محمد عابد الجابري، الجزء الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، 1996 ص 116-117.

ونزعة الأنسنة، محمد أركون. ص 261-262: ظاهرة الاستشهاد والتكرار الطاغيتين على كتب الأدب. على أن لأركون رأياً خاصاً في مسألة تخلي مسكويه والمقدسي عن الأسانيد تحديداً؛ إذ رأى ذلك ضرباً من نقد الوثائق التاريخية لأن الإسناد، بحسب رأيه، كان يعني «الاستسلام لهيبة القدماء، والتصديق، دون مناقشة. لمجرد أن الخبر المنقول معزو لشخصية إسلامية كبيرة». نزعة الأنسنة، محمد أركون ص 336. ومن الواضح أن هذا الرأي فيه نظر، لما قدمناه من أهمية علمية وروحية تكتسبها الأسانيد. ولأن التخلي عن الأسانيد في بعض كتب التاريخ، كما هو لدى مسكويه والمقدسي، يأتي من باب التخفف؛ إذ إن الأخبار في كتب التاريخ بخاصة لا يضاهي مقدار كثرتها في تلك الكتب بما في غيرها.

(2) عن هذا النهج لدى الأصفهاني انظر وصف حميد لحدادي - النقد التاريخي في الأدب، رؤية جديدة، ص 74. لأنموذج عبد الله بن قيس بن الرقيات من خلال تتبع الكتابة عنه في الأغاني. ومما أشار إليه: (نسب الشاعر من جهة أبويه، سبب لقبه، كونه شاعر قريش في الإسلام، بداية اهتمامه بالمدح، نزعته الزبيرية ومشاكله مع الأمويين بسببها وتعرض بعض المغنيات للخطر بسببها، عيوب شعره، علاقته بسعيد بن المسيب) [مجموعة أخبار عن شعره وعلاقاته ببعض الشعراء وموازنات بينه وبينهم].

نسبه كاشفاً عن أصله، فإن كان عربياً بين حال قبيلته ومكانتها، وإن كان من أصل غير عربي وكان مولى بين مرجع ولائه. ثم يقف عند كنيته ولقبه، وسبب تكنيه أو اتصافه بلقبه، إن كان له سبب. ومن ثم يشرع في تحديد سمّت الشاعر وطباعه. منتقلاً إلى وضعه الاقتصادي كاشفاً عن مهنته، أو حرفته، أو غير ذلك من مصادر دخله، وأوجه إنفاقه. ثم يتوقف عند مذهب الشاعر ومعتقداته الديني، وعلاقته بالسلطة السياسية إن وجدت.

وتتجه عناية المؤرخ في جانب آخر إلى الأخبار المتعلقة بشعره. فيجمل الأخبار التي تصف مذهب الشعري، وما قاله العلماء والشعراء في شعره، وما تخلل ذلك من مواقف بينه وبين بعضهم، ثم يسرد جملة أخبار تتعلق بموضوعات شعره، وأغراضه التي طرقها، ومعانيه التي سبق إليها، والتي أخذها من غيره، أو أخذها غيره منه، وصولاً إلى أخبار الشاعر بآخر حياته، فأخبار وفاته⁽¹⁾.

وتظهر الخلاصة النظرية السابقة أن اهتمام مؤرخ القرن الرابع قد أخذ - لدى إمامه بالتفاصيل المعنية بحياة الشاعر وشعره - الأوضاع الاجتماعية، والمذهبية، وغيرها بحسبانه. وسنرى ما يعزز هذه الخلاصة في أثناء التتبع التطبيقي لأنموذج أخبار أبي العتاهية لدى المؤرخين.

وأصبحت هذه الجوانب التي أتى عليها مؤرخ القرن الرابع تلقائياً - بسبب تحول أنموذج الترجمة للشاعر لديه إلى النهج السيري - من الجوانب المهمة التي تتجه إليها

(1) هذا النهج لدى المرزباني مستخلص من مجمل أخباره عن: ليل الأخيلى في أشعار النساء، وأخبار العتبي، والسجستاني في نور القبس والمختار، وأخبار رؤية بن العجاج في المصدرين الآنفين، إلى جانب المآخذ عليه في كتاب الموشح، وما نقله عنه صاحب بغية الطلب في تاريخ حلب من أخبار عن المرزباني، وأخبار أبي العتاهية من المآخذ عليه في الموشح، والمنقول من أخباره في بغية الطلب. وأخبار السيد الحميري من أخبار شعراء الشيعة وأخبار السيد الحميري. مع الإفادة من نهج ترجمته للعلماء والأدباء وغيرهم، وقد سبق الحديث عن أوجه التقارب بين نهج ترجمة المرزباني لكل من العلماء والشعراء. وكل المواطن المنصوص عليها مما سبقت الإحالات عليها في مواطن متفرقة من هذا البحث، ويرد بعضها لاحقاً. كما سنرى التقاء نهج المؤرخين في أنموذج أخبار أبي العتاهية.

أنظار الدارس المحدث.

وإذا تنبهنا لسياق مطالبة المؤرخ الحديث بالاهتمام بهذه الجوانب، عندما وردت في ختام مراجعة حسين الواد لبعض كتب التاريخ الأدبي لدى العرب المحدثين - فإن موضع هذه المطالبة يدل على قيمة وجودها التلقائي لدى المؤرخين القدامى؛ لأنه كان يشير إلى بعض تلك الجوانب، وهو بصدد تلمس الآفاق الجديدة التي أخذ مؤرخو الآداب يعنون بها في دراسة الظاهرة الأدبية. وكان «الواد» قد انتهى إلى أن الحاجة مازالت قائمة إلى العناية بالأوضاع الاقتصادية المختلفة للمؤلفين⁽¹⁾، مؤكداً على ذلك في موضع آخر بقوله: «ومما يبدو مؤرخ الآداب في حاجة إلى الوقوف عليه، وهو يتناول الأعلام الذين أنتجوا أدباً مسألة منازلهم الاجتماعية، ومذاهبهم العقائدية، وعلاقاتها بالنصوص التي أنتجوها»⁽²⁾.

وإذا كانت القيمة السابقة تمثل المردود المأمول من الدارس الحديث فإن هذه القيمة قد كان لها وجه قديم من المفيد الوقوف أمامه، من خلال أنموذج أخبار الشاعر مفرداً. وذلك لبيان ما ينطوي عليه أنموذج أخبار الشاعر الموسع والثري بتفاصيله، ولمعرفة المقصود بتحول الترجمة إلى النهج السيري في الكتابة عن الشاعر، مما وصفنا أهميته بالخلاصة العملية لما وصلت إليه ممارسة مؤرخ الشعر القديم في القرن الرابع. وتبدو أهمية العناية بالأنموذج الفردي بوصفها الأساس الذي تنبني عليه مادة التاريخ الشعري في ضوء مقولة للمنهج الحديث وردت بصدد توضيح الفرق بين مهمة المؤرخ العام ومؤرخ الأدب. فقد ذكر لانسون أنه فيما تتجه نظرة المؤرخ العام إلى الاهتمام بالوقائع العامة وعدم العناية بالأفراد، إلا في الحدود التي يمثل فيها هؤلاء الأفراد جماعات، أو يغيرون اتجاهات - «نقف نحن عند الأفراد أولاً؛ لأن الإحساس، والانفعال والذوق والجمال أشياء فردية»⁽³⁾.

(1) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد. ص 319.

(2) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد ص 320.

(3) منهج البحث في اللغة والأدب، لانسون وماييه. ص 399.

وبالبحث عن أكثر نماذج أخبار الشعراء وفرة، مما تبقى من كتابات المرزباني الموسعة، لم نجد أفضل من أنموذج أخبار أبي العتاهية، يمكن مقارنته بأنموذج أبي الفرج الأصفهاني. وعلى الرغم من أن أقرب النماذج الأخرى وهي أخبار كل من: ليل الأخيلية، والسيد الحميري، والعتبي، وردت في مؤلفات مباشرة للمرزباني تقريباً، بعكس مقدار كبير مما نعتمد عليه من مادة أنموذج أبي العتاهية. غير أن الأول وردت الترجمة فيه مبتورة من أولها ولم يتبق سوى نصفها الأخير. وفي كل من الثاني والثالث سبب جوهرى يرجح أنموذج أبي العتاهية⁽¹⁾. وينبغي أن نشير إلى أن معظم أخبار أبي العتاهية للمرزباني هي مما نقله صاحب بغية الطلب في ترجمته لأبي العتاهية في مواطن متفرقة، ومختلطة بأخبار الشاعر التي استقاها من مصادر أخرى. إلى جانب أخباره في الموشح⁽²⁾. على أن مادة المرزباني في مجمل المتبقي منها لا تمثل سوى مقدار قليل من الأصل الذي كانت عليه⁽³⁾. وقد نقل صاحب بغية الطلب في ترجمته عن المرزباني من خلال كتابه المستنير ما يزيد عن عشرين خبراً من أخباره⁽⁴⁾، وقبل كل خبر منها كان

(1) سبق القول - في الفصل الأول فيما يتعلق بالأنموذج الثاني أخبار السيد الحميري - أن كتاب أخبار شعراء الشيعة، أخبار السيد الحميري لا نعه مصدراً مباشراً للمرزباني، وإنما بوصف مادته من مرويات المرزباني. وعلى افتراض صحة أنه جزء من مادة المرزباني، فإن تناوله للسيد في هذا الكتاب - الذي كان في الأصل جزءاً من أحد الفصول في كتابه المفيد - كان مخصوصاً بغرض موضوعي هو الشعراء الذين أنفذوا شعرهم في غرض واحد، لا بوصفه أنموذج أخبار موسعة لأن مجال هذا التناول يكون في كتابه المستنير. أما الأنموذج الثالث: العتبي فلا أنه لم يكن شاعراً مشتهراً بالشعر، بل لأنه كان عالماً أكثر منه شاعراً، ولذلك كان ترجيح أنموذج أخبار أبي العتاهية.

(2) أخباره في الموشح جاءت في حدود ثماني صفحات، من ص 320 إلى ص 328.

(3) سبق التحقيق في مقدار ترجمتي: رؤبة بن العجاج، وأبي العتاهية في مبحث (الشعر والسياق التاريخي).
(4) ثمة جزئية مهمة في الخبر الذي نقله صاحب بغية الطلب عن المرزباني من كتاب المعجم. فإلى جانب ما ورد في الخبر عن اسم أبي العتاهية، وتاريخ مولده ووفاته، وأسماء الخلفاء الذين كانت له أخبار معهم، فقد قال في وصف تجربته: «مذهبه في سهولة الطبع، وقرب المأخذ، والبعد عن التكلف متعال غير مدافع. حتى لو أن قائلًا قال: إنه أطبع الناس أجمعين لما خولف في قوله. وهو مفتن في سائر أجناس الشعر، وأنفذ قوله في آخر عمره فيما لم يشركه أحد ممن تقدمه من الشعراء، ولا من تأخر عنه، من القول في الزهد والمواظ

يذكر: أنه قرأه من أخباره في الكتاب المذكور، باستثناء نقل واحد حوى مجموعة أخبار قصيرة متنوعة عن الشاعر، نص على قراءتها في كتاب **معجم الشعراء** للمرزباني⁽¹⁾. فابتدأ بنقل خبرين من المستنير، ثم نقل الجزء المذكور من **معجم الشعراء**، ومن ثم عاد للنقل عن المستنير.

وعندما نجري مقارنة بين المحاور الإخبارية عن الشاعر لدى المؤرخين نجد تميز المرزباني بأخبار للشاعر ونماذج من شعره عن محبوبته عتبة⁽²⁾. وتميز الأصفهاني بأخبار بخل أبي العتاهية⁽³⁾. وخلاف ذلك، فبقية المحاور مشتركة بين المؤرخين، على الرغم من التفاوت في المقدار الكلي للأخبار، لصالح الأصفهاني.

وتشير الأخبار المتعلقة بحياة أبي العتاهية لدى المؤرخين إلى ثلاث مراحل أساسية: الأولى وكانت في الكوفة وفيها تطرّق لاسمه، وكنيته، وسبب تكتنيه، وأصله، ومواليه وتاريخ مولده ووفاته، وموضع قبره، وأوصافه الجسدية، وحرفته في صباه⁽⁴⁾.

والعبر والأمثال»، بغية الطلب 4 / 1757.

(1) درج صاحب بغية الطلب على ذكر قراءته في المستنير في أول كل خبر ينقله، ثم إذا كان النقل مستمراً عن مستنير المرزباني يكتفي بالقول في الأخبار اللاحقة: (وقال المرزباني) وقد تستمر هذه الإشارة في أربعة أخبار متوالية.

(2) انظر بغية الطلب نقلاً عن المرزباني 4 / 1762-1765. أما الأصفهاني فقد وعد بالإتيان على أخبار الشاعر مع عتبة لطولها، في موضع قال أنه سيرد، ثم نسي العودة إليه، وهي غير موجودة في الأجزاء الأخرى. كما أن الحموي نص على نسيان الأصفهاني لأخبار عتبة تحديداً، وأن مثل هذا قد حصل مع أبي نواس، إذ قال ذكر أخبار أبي نواس مع جنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت ولم يتقدم شيء منها. انظر: معجم الأدباء 13 / 98-99.

(3) انظر أخبار بخله: الأغاني 4 / 17-20.

(4) نقل صاحب بغية الطلب أخباراً من مستنير المرزباني عن اسمه وكنيته ومواليه، وعن السبب في لقبه، وأخبار أسلافه بدءاً بمجده كيسان في زمن أبي بكر الصديق، ودخول خالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى الكوفة، 4 / 1753-1754 وهذا يؤكد ما قلناه سابقاً في الكتابة الموسعة من أنه يبدأ الترجمة من أسلاف المترجم إليه. وأغلب هذه المعلومات كلها مجمعة في خبر ثالث نقله صاحب بغية الطلب عن كتاب المعجم، وجاء فيه: «قرأت في كتاب معجم الشعراء تأليف أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني قال:

والمرحلة الثانية هي التي انتقل فيها من الكوفة إلى بغداد، وكانت بدايته فيها من سوقها، إلى أن تعرف من أوصل شعره إلى الخليفة المهدي فانفتحت مرحلة جديدة من حياته⁽¹⁾. وفي هذه المرحلة كانت علاقته بعتبة التي شغف بحبها، وشاع فيها شعره الغزلي⁽²⁾ وتواصلت علاقته بالخلفاء، ولا سيما مع الرشيد الذي توطدت علاقته به، ويبراهيم الموصل الذي كان يتغنى بشعره⁽³⁾. إلى جانب علاقته بالوسط الأدبي من العلماء والشعراء⁽⁴⁾. ووصلت في أواخر هذه المرحلة مقدراته المالية السنوية إلى نحو خمسين ألف درهم، عدا الجوائز والهبات الأخرى⁽⁵⁾.

أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، مولى عباد بن رفاعة العنزي الكوفي. وكان كيسان جده من أهل عين التمر. وأبو العتاهية لقب، وكنيته أبو إسحاق، ولقب بذلك لاضطراب كان فيه. ويقال هو مولى لعطاء بن محجن العنزي أحد بني نصر بن سعد بن حبان. ويقال اسم أبي العتاهية إبراهيم بن إسحاق، والأول أصح. وكان جراراً يبيع الخزف بالكوفة. وأمّه أم زيد بنت زياد البخاري، مولى لبني زهرة. وولد في سنة ثلاثين ومئة، ومات ببغداد في سنة عشر ومائتين، وقيل في سنة إحدى عشرة، وقيل قبل ذلك وبعده، والأول أصح. وقبره في الجانب الغربي من مدينة السلام قبالة قنطرة الزياتين. وكان أبيض اللون، أسود الشعر قصيفاً طريفاً له وفرة جعدة وهيئة حسنة، خضب في آخر عمره بالخناء. وأخباره مع المهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون، مشهورة. وكان ذا منزلة عند الخلفاء والوزراء وعلية أهل الدولة» بغية الطلب 4/ 1756-1757. وانظر مقداراً منها، مع غيرها في الأغاني 4/ 3-6.

(1) انظر الخبر عن المرزباني في بغية الطلب، إذ نصحته أمه بالتوجه إلى بغداد، وفيها كان يبيع الفلوس على تخت، إلى أن مدح سعيد بن منصور، فقال له لو قلت شعراً في أمير المؤمنين المهدي أوصلته إليه، ففعل، فكوفئ بعشرة آلاف درهم، ثم مدح الخليفة مرة أخرى ووهبه مكافأة أخرى إلى أن وصله منه نحو مئة ألف درهم. بغية الطلب 4/ 1759.

(2) تدل القصة الثانية التي نقلها صاحب بغية الطلب، ويتحدث فيها أبو العتاهية عن نفسه وفتيان قدما معه من الكوفة على أنه هام بعتبة أول قدومه إلى بغداد، وأنها من جوارى أحد الخلفاء. 4/ 1763.

(3) انظر خبر غناء إبراهيم الموصل لشعره في بغية الطلب 4/ 1769 و1771. والأغاني 4/ 31-33.

(4) من أخباره مع الشعراء أخباره مع كل من: منصور النمرى، الموشح ص 321، وابن مناذر، الموشح 322، والأغاني 4/ 92. وسلم الخاسر، الأغاني 4/ 77. وأبي نواس، الأغاني 4/ 17. وغيرهم.

(5) «قال المرزباني: قال لي محمد بن أبي العتاهية: لم يزل أبي يقول الشعر في عتبة إلى أن خرج الرشيد في

وابتدأت المرحلة الثالثة من حياته، عقب عودة الرشيد في إحدى السنوات من الحج، ليجد أبا العتاهية قد تنسك⁽¹⁾. وفي هذه المرحلة أخبار عن حبسه⁽²⁾، وكثرة أشعاره في الزهد والمواعظ والعبر⁽³⁾، ثم أخبار اتهمائه بالزندقة⁽⁴⁾، وامتهانه الحجامه⁽⁵⁾، إلى أخبار وفاته⁽⁶⁾.

أما الشطر المتعلق بشعره، فأبرز ما جاء فيه كثرة شعره في غرضي الغزل، والزهد، إلى جانب مدائح للخلفاء. وأهم السمات الفنية التي اتسم بها شعره، سهولة طبعه، وعفوية جريان الشعر على لسانه، وتميزه من بين سابقيه ولاحقه بغرض الزهد الذي أنفذ شعره فيه بآخر حياته⁽⁷⁾.

إن العرض السابق يجلي القيمة التاريخية المستقاة من النهج السيري في بعدها

خلافته إلى الرقة، وكان أبو العتاهية ينادم الرشيد ولا يفارقه في سفر، ولا حضر إلا في وقت الحج إذا كان بالعراق. وكان الرشيد يجري عليه خمسين ألف درهم سوى المعاون والجوائز. فلما قدم الرشيد الرقة، أظهر أبو العتاهية التزهّد، وتصفو، وترك حضور المنادمة والقول في الغزل، فأمر الرشيد بحبسه، فحبس « بغية الطلب 4 / 1772، والخبر في الأغاني 4 / 65.

(1) ورد في الخبر السابق وفي غيره.

(2) ذكر أيضاً حبس الرشيد له في غير موضع، كالخبر الذي طلب فيه الرشيد شاعراً يكتب أبياتاً ينشدها الملاحون. بغية الطلب 4 / 1784. وانظر رواية أخرى في سبب حبس الرشيد له: الأغاني 4 / 31-32.

(3) نقل ذلك صاحب بغية الطلب عن معجم المرزباني وقد تقدم. كما أن الخبر المشار إليه ينتهي بأن لا يكتب أبو العتاهية شعراً غزلياً ينشده الملاحون؛ بل أصر على قول شعر في الزهد يحزن الرشيد، ولما سمع الرشيد الملاحين ينشدون الشعر بكى. وانظر نموذجين من شعره في الزهد أحدهما قصيدته المشهورة «ذات الأمثال»: الأغاني 4 / 37-39.

(4) أخبار اتهمائه بالزندقة في بغية الطلب 4 / 1760-1761، والأغاني 4 / 53، 36، 9.

(5) خبر امتهانه الحجامه في بغية الطلب 4 / 1757. والأغاني 4 / 110، 9.

(6) سبق ذكر روايات تاريخ مولده ووفاته عن المرزباني، وأخبار وفاته في الأغاني 4 / 12-14.

(7) أغلب أخباره عن تجربته الشعرية تجدها في الموشح، وفي النقل الذي ذكر صاحب بغية الطلب أنه من كتاب المعجم وقد أوردنا جزءاً من الخبر سابقاً. وفي خبرين في بغية الطلب عن المرزباني في رأي أبي تمام فيه ورأي عالين في شعره، بغية الطلب 4 / 1781، 1783.

الوثائقي. وهو البعد الأول الذي يتمكن معه الدارس من إعادة تمثيل حياة الشاعر، وأبرز المظاهر الفنية في تجربته، مما كان محط أنظار قرائه وإعجابهم.

وثمة بعد آخر تأويلي يحاول الربط ما بين حياة الشاعر وشعره من خلال الجوانب البارزة فيهما ويرد معظم الأخبار إليها. فيفسر الحالة الاجتماعية في جانبها الاقتصادي بما يتلاءم وتلك الجوانب، كما يتطرق للجانب المذهبي لدى الشاعر من نفس المنظور. بل إن بعض الأخبار تحاول أن تقدم تأويلات بعيدة، كإعادة تمثيل مرحلة من حياة الشاعر وفق الجانب البارز لديه، أو الإغراق في ذكر تفاصيل دقيقة لاستيعاب الظاهرة الفنية اللافتة. وكأن الزيادات التي حملتها بعض الروايات بمثابة اجتهادات متأخرة، ومحاولات دائبة لإعادة تمثيل حياة الشاعر وشعره في وجهات نظر قد تتضارب في تصوير الجزئية الواحدة.

ويبدو ما ذكرناه في البعد السابق من رد معظم الأخبار إلى الجوانب البارزة من حياة الشاعر وشعره، عندما ننظر في أخبار أبي العتاهية من خلال باعثن بارزين كان لهما دورهما في توجيه أنظار المهتمين بأخبار الشاعر، دل المرزباني عليهما في وصفه الموجز لتجربته الفنية، حينما أشار إلى أنه أطبع الناس، وأنه أنفذ شعره بآخر عمره فيما لم يشاركه فيه أحد من القول في الزهد والمواعظ والعبر. ولذلك فإن كثيراً من الأخبار والآراء عن الشاعر يسهل ردها إلى أحد الباعثن. كالأخبار العديدة التي أوردها الأصفهاني، مما تشير إلى سهولة جريان الشعر على لسانه⁽¹⁾، ومثلها الأخبار التي

(1) من ذلك:

- أنه لما سئل كيف يقول الشعر أجاب «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت» الأغاني 4 / 15، وأنه أكبر من العروض.

- وأن له أوزاناً لا تدخل في العروض.

- قوله: «أكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم. قال: فبينما نحن كذلك؛ إذ قال رجل لآخر عليه مسح [كساء من شعر]:

يا صاحب المسح تبيع المسح

فقال لنا أبو العتاهية هذا من ذلك قد قال شعراً وهو لا يعلم، ثم قال الرجل:

وردت عنه في الموشح، مما رأيناه في موضع سابق ينتمي إلى قيمة تلقى جمالية واحدة، أو يشير إلى مأخذ واحد هو أن سهولة قول الشعر لديه أفضت به إلى استسهال الشعر ووقوعه فيما يشبه الكلام المعتاد⁽¹⁾.

أما ظاهرة تفرد في شعر الزهد فتكاد تؤول المتبقي من أخباره. ويأتي ربط الظاهرة بالزندقة بوصفها من أكثر محاولات التأويل تعمقا وبحثاً في أسبابها. ففي أخباره لدى الأصفهاني تصدير بما ذكره عنه قوم من أهل عصره إذ: «كان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة، ممن لا يؤمن بالبعث، ويحتجون بأن شعره، إنما هو في ذكر الموت والفناء، دون ذكر النشور والمعاد»⁽²⁾. وتأويل ذلك في رواية المرزباني من خلال ثقافة الشاعر الأجنبية، إذ نقل عنه صاحب بغية الطلب خبراً ورد في أوله: «كان يسلك في الأدب مسلك عبد الله بن المقفع، ولم يكن يقدم على علوم الأوائل من الهند، وأهل فارس علماً، ولا يزيد على حكمتهم شيئاً»⁽³⁾. وثمة تأويلات أدنى متعلقة بالظاهرة، ترى تفسير حبس الرشيد له من أجل العودة إلى نهجه الشعري الغزلي عقب تنسكه، وكل الأخبار المتعلقة بحبس الرشيد له تجمع على أنه لم ينجح في ثني الشاعر عن موقفه. ويندرج في ذلك الأخبار التي تحاول رسم حياة الشاعر تماشياً مع الظاهرة، فليس غريباً أن يمتنن الشاعر في أول حياته بيع الجرار، وأن تتغير حاله عقب اتصاله بالخلفاء، لكن تأثير الظاهرة بدا في اختياره - بمحض اختياره

تعمال إن كنت تريد الربح

فقال أبو العتاهية وقد أجاز المصراع بمصراع آخر، الأغاني: 41/4.

- خبر سابق له مع الرشيد وإنشاد الملاحين. إذ أوعز للرشيد في الخبر ذاته بأن لا أحد يقدر على ذلك مثل أبي العتاهية. وغير ذلك مما هو على شاكلة هذه الأخبار.

(1) معظم الأخبار عنه في الموشح ومنها مناظراته مع الشاعرين منصور النمري، وابن مناذر تدور حول استسهاله قول الشعر، وأنه لا يستغرق الوقت الذي سيستغرقه غيره من الشعراء. وقد سبقت الإشارة إلى ما صاحب تلقى تجربته، وأدى إلى كثرة آراء القراء في شعره مقارنة بغيره في مبحث سابق.

(2) الأغاني 4/4.

(3) بغية الطلب 4/1759.

- مهنة الحجابة بآخر عمره ليزل نفسه عقب عزها⁽¹⁾، وليستتر عقب طلبه بتهمة الزندقة⁽²⁾. وأنه كان في صباه من أهل الفتك والمزح والفتوة والشرب⁽³⁾.

وبهذا يتضح ما للنهج السيري من دور، لا يكمن فحسب في توثيق ما تم تناقله من أخبار الشاعر في جوانبها المتنوعة، وإنما ظهرت إلى جانب ذلك محاولات للربط ما بين حياة الشاعر وشعره، من خلال انعكاس معطياته الخاصة الاجتماعية، والمذهبية وغيرها على وجهات النظر التي حملتها بعض الأخبار.

ولذلك كانت الثمرة المهمة في هذا النهج فيما يخص الشاعر منفرداً أن توافر بسبب خاصية الكتابة الموسعة عدد من المعطيات التي طالب الدارسون المحدثون بها مؤرخي الأدب والشعر، من ضرورة التنبيه للمؤثرات الاجتماعية، والمذهبية والسياسية، وانعكاسها على شعر الشاعر، كما أشرنا إليه في أول الحديث عن هذه السمة.

أما المردود الشمولي لهذه السمة التأريخية فيتمثل فيما يمكن الخروج به من تلمس الأوضاع الاجتماعية، للأدباء والشعراء بعامه، من تباين ظروف الأدباء فقراً وغنى، وكذا اختلاف منازلهم ومكاناتهم، ومذاهبهم وانعكاس ذلك على بعض نتائجهم، أو مواقفهم. وقد تبينت لنا قيمة هذه الجوانب، ولا سيما في الشواهد التي سيقت من كتابات المرزباني إبان الحديث الذي تقدم في مبحث الأبعاد السيرية⁽⁴⁾.

وقد تبين أن تلمس تلك الأبعاد أثمر فوائد على غاية من الأهمية كانت بفعل الانفتاح الذي شهدته طريقة الترجمة، وبدا كيف أن ذلك النهج قد أفضت عنايته بالأنساب والأصول القبلية إلى اتخاذ العرق منظوراً لتفسير مقدار من اكتساب الموهبة الشعرية، أو محاولة تفسير حركة الشعر ووجوده من خلال المنظور القبلي في الجاهلية

(1) سبقت الإحالة على مواضع هذه الأخبار لدى كل من المرزباني والأصفهاني.

(2) سبقت الإحالة على مواضع هذه الأخبار لدى كل من المرزباني والأصفهاني.

(3) بغية الطلب 4/ 1759.

(4) انظر حديثنا عن (قيم الدين باعتبارها بيئة مؤثرة)، و(الأوضاع والعلاقات الاجتماعية) الأحوال المالية والاقتصادية، وعلاقات الوسط الأدبي.

والإسلام. ثم تداخل معطيات البيئة والدين في التأثير على الفصاحة والشعرية، وتحول الأثر الديني من الانبهار الذي أحدثه تلقي الشعراء للقرآن الكريم في أول الأمر، إلى نمط من النوازع المذهبية، التي تداخلت، بعض الشيء، مع نتاج الشعراء والنقاد وعلاقاتهم، وغير ذلك من الأبعاد، كالأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية التي التفت إليها مؤرخو القرن الرابع.

وإذا كنا في بداية الحديث عن هذه السمة قد استعنا بسياق الآفاق التي نبه حسين الواد إلى أهميتها فنشير في ختام الحديث عن هذه الممارسة إلى تلمس الباحث نفسه في محور موضوعي آخر لجانب من قيمة النهج السيري، عندما أشار إلى ذلك من خلال ما وصفه بفطنة القدامى إلى أهمية النظام التربوي. وهو مصطلح لخص به ما قام به مؤرخو الأدب القدامى من الترجمة، أو أفراد مجالات في تراجمهم للشيخ الذين أخذوا عنهم، عنوا فيها بمن أخذوا، ونوع المعارف التي أخذوها. ورأى أن في ذلك محاولة لأن يصلوا بين الأدباء وبين إنتاجهم⁽¹⁾. وهذا التلمس وإن تركز على جانب من النهج السيري متمثلاً في (تراجم الشيخ) ففي ما قدمناه من شواهد على التقصي لذلك لدى الشعراء جميعاً وفرداً ما يكشف عن أهمية النهج السيري فيما لو نُظر إليه بوصفه الإجمالي المكتسب من بُعدي: أخبار الشاعر مفرداً، ومجموع أخبار الشعراء. ويكشف عن أن هذه الممارسة من أهم المكتسبات التي ينبغي أخذها في الحسبان في سبيل تصحيح المفهوم الحديث عن تصور القدامى لتأريخ الشعر.

ثانياً: السمات التي برزت لدى المرزباني بخاصة وقيمة ما تضيفه لتصور مفهوم تأريخ الشعر لدى القدامى (التحقيب، العناية بالتلقي، الإطار المنهجي)
أ- التحقيب:

في المبحث الخاص بهذا الأساس التأريخي تنويه بأهمية التحقيب في المنهج التاريخي بعامه، وأنه اتخذ إطاراً لتنظيم الرؤية التاريخية للعلوم الأدبية، والعلمية. وبدت قيمته في التأريخ للأدب والشعر بخاصة في أنه يكشف عن منظومة الرؤى الجزئية التي

(1) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد، ص 304.

يشتمل عليها المنظور الكلي لتأريخ الأدب أو الشعر. إذ يشكل التحقيب بأسسه المختلفة العمود الذي يستقيم عليه مجمل العمل لدى المؤرخ الذي يتبنى ذلك الأساس.

وأهم ما أفاده تبني المرزباني للتحقيب ما نجم عنه من تكريس الأخذ بتقسيم الشعر إلى مدارسه الفنية الأساسية⁽¹⁾، وهي الحقب الفنية الكبرى الجاهلية، والإسلامية، والمحدثة. ومع أن تبني المرزباني لهذا التحقيب ذي الأساسين الفني والزمني بدا أكثر أوجه التحقيب سيرورة لديه، إلا أن الأخذ بذلك الوجه والإصرار على اتخاذه إطاراً تاريخياً في أكثر من كتاب من كتبه من جهة⁽²⁾، إلى جانب أنه قد عززه بأشكال أخرى من التحقيب، وأسس تصنيف الشعراء هو ما جعل من الأخذ بممارسة التحقيب إجمالاً تبدو أكثر تفعيلاً في كتاباته واشتغاله عن الأصفهاني، الذي بدا أخذه بالتحقيب يكاد يكون مقتصرأ على الوجه السياسي، والفني أحياناً في إشارات قليلة ومتباعدة⁽³⁾.

ونستطيع أن نخلص من مجمل أوصاف التحقيب وتصنيف الشعراء زمنياً وفنياً إلى أن الحقب التي أخذ بها المرزباني ست حقب تقريباً: ثنتان منها تقع في الجاهلية. هي الجاهلية القديمة والجاهلية المتأخرة. وثالثة هي التي يقع فيها الشعراء المخضرمون، ثم الرابعة وهي الحقب الإسلامية. والحقتان الأخيرتان هما المحدثه، والمحدثه المتأخرة.

(1) سبقت الإشارة إلى تنويه شكري فيصل بتنبه المرزباني إلى هذا التقسيم، وأنه من أوائل من أخذوا بتقسيم الشعر إلى مدارسه الفنية المعروفة.

(2) أخذ المرزباني بهذا التقسيم في كتاب الموشح فقسم الشعراء إلى: جاهليين، وإسلاميين، ومحدثين. وأخذ به في كتابيه المفصلين عن أخبار الشعراء (الموثق والمستنير) إذ جعل الأول للشعراء الجاهليين والمخضرمين، كما جعل الإسلاميين فيه محوراً على رأسه الفرزدق وجريرومن في طبقتهم إلى آخر الشعراء القدامى، كما وصف النديم ذلك في الفهرست ص 146. أما المستنير فخصصه للشعراء المحدثين. وعلى هذا التقسيم درج في وصف كثير من الشعراء في كتاب المعجم.

(3) على سبيل المثال في المجلدات الخمسة الأولى تعرض الأصفهاني لأخبار (خمسة وثلاثين) شاعراً، اقتصرت أوصاف التحقيب الفني والسياسي لديه في تلك المجلدات على ست إشارات تحدد ستة شعراء تقريباً.

وإذا استعنا باعتراف الأصفهاني بالحقبة السياسية الأموية⁽¹⁾ التي دمجها المرزباني في الحقبة الإسلامية فإن تقسيم الحقب سياسياً لدى المؤرخين يصبح على النحو التالي: الحقبة الجاهلية، والإسلامية، والأموية، والعباسية الأولى، والعباسية المتأخرة. وهو تقسيم كما هو ملاحظ لم يزد عليه المحدثون كثيراً - وفق دمج منظور التحقيب السياسي لدى المؤرخين معاً - إذ هي التقسيمات نفسها المتبعة.

وعلى الرغم من تطابق أوصاف الحقب والعصور سياسياً في كل من التحقيب السياسي القديم والحديث، إلا أن عدة أوجه اختلاف بينها. وأظهر أوجه الاختلاف هو أن القدامى، ولا سيما المرزباني اتخذوا التحقيب السياسي بوصفه أحد المحددات التي تساعد على بيان عصر الشاعر بدقة⁽²⁾، من دون أن يتخذوه أساساً لتناول الشعراء في مؤلفاتهم. وذلك خلافاً للمنهج الغالب لدى المؤرخين المحدثين الذي اتخذوا منهج تقسيم العصور سياسياً أساساً لتأريخهم. أما المرزباني فقد غلب لديه - كما تقدم - التحقيب الفني الزماني إلى الحقب الثلاث الكبرى، والثلاث الصغرى المتفرعة منها. التي قسم الشعراء عليها بناء على تقسيم الموشح، وإشاراته في المعجم، إلى تقسيمات

(1) أظهر الأصفهاني اهتماماً بالتحقيب لكنه لم ينوع أسسه، أو يعتد بأحد أوجهه شكلاً يقسم عليه محتويات كتابه، مع أن تقسيم الشعراء سياسياً كان من وسائل تحديد الشعراء لديه؛ إذ وصف أكثر من شاعر بأنه من شعراء الدولة الأموية، أو العباسية، أو أنه من مخضرمي الدولتين. وفي أول كتابه ما يدل على ذلك فقد أورد ما ذكر عن معبد أنه «غنى في أول دولة بني أمية، وأدرك دولة بني العباس»، وعلق نائفاً إدراكه الدولة العباسية. الأغاني 1/ 47، وقال عن ابن ميادة «مخضرم من شعراء الدولتين»، الأغاني 2/ 228. وقال عن الحكم بن عبدل من شعراء الدولة الأموية، الأغاني 2/ 360. وعن هلال بن الأسعر «شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية وأظنه قد أدرك الدولة العباسية» الأغاني 3/ 51. ولم يكن قصده بهذا التقسيم سوى التحقيب السياسي، وليس الدلالة على ارتباط الشاعر بخلفاء الدولة، وذلك ما نفهمه من قوله عن عكاشة بن عبد الصمد العمي: «شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية، ليس ممن شعره في أيدي الناس، ولا ممن خدم الخلفاء»، الأغاني 3/ 253. وفي هذا أبلغ رد على من ذهب إلى أن أبا الفرج الأصفهاني لم يحفل بالتقسيم السياسي. صحيح أنه لم يقسم كتابه ولم يشأ كما نص في مقدمته على ذلك إلا أنه أخذ بحسبانه المحدد السياسي.

(2) كأوصاف المرزباني التي تحقب الشعراء بحسب أسماء الخلفاء.

الشعراء إلى قديم ومخضرم ومحدث، ووصف النديم لتقسيم كتابي الموثق والمستنير، الذي جعل من كل منهما خاصاً بحقبة فنية.

وعندما ننظر إلى الخلل الناجم عن أخذ التحقيق السياسي أساساً للدراسة نجد متجسداً فيما اضطر إليه الدارس المحدث من الفصل بين الشعراء الذين تلازم ذكرهم في أغلب كتب التراث الأدبي القديم، كأبي تمام والبحتري. إذ نجد كلا منهما قد وقع في عصر، بل في كتاب مستقل عن الآخر، كما هو الحال لدى شوقي ضيف. بينما لا نجد المؤرخ القديم قد وقع في مثل هذا الخلل. لأنه أفاد من الأساس السياسي في التحديد لا في التناول. بل إن اعتماد الوصف بالخصومة أظهر مرونة أوصاف المؤرخ القديم التي تراعي ما تقتضيه العصور من مراحل انتقال وتداخل. ولذلك جاء استخدامه لهذا الوصف بين المراحل التي يظهر بينها الاختلاف الفني واضحاً، كما هو الشأن ما بين الجاهلية والإسلام على اعتبار أن الشعراء في العصر الأموي ينتمون لشعراء الإسلام من جهة، وعلى اعتبار اختلاف الشعراء أنفسهم عن المحدثين من جهة أخرى.

وإذا كان التنوع في أسس التقسيم المنظور بها إلى الشعراء بوصفه تنوعاً يحسب للدارسين المحدثين من خلال تضافر ذلك في عدة دراسات لغير دارس. فإن ما يعد ميزة للتصور القديم أن المؤلف الواحد، ولا سيما المرزباني، قد أفاد من غير أساس في وقت واحد، وبما أخذ أقل، بما يجعل نهج المؤرخ القديم في الأسس المتنوعة لديه خصوصية تنبع مما يلائم خصائص شعره.

ومجمل القول عن خصوصية التحقيق القديم، أنه لم يغفل تراكم أعداد الشعراء إلى الثلث الأول من القرن الرابع، فتلمس الحاجة إلى تقسيم التاريخ الشعري إلى حقب كبرى وصغرى، خلافاً لما حاول بعض الدارسين المحدثين نفي الحاجة إليه، ودفعه عن التصور القديم لتأريخ الشعر⁽¹⁾. كما أنه تلمس الحاجة إلى تحديد الشعراء بحسب الحقب السياسية التي وجدوا بها بما يحدد أزمانهم بدقة، دون الوقوع في المآخذ

(1) انظر ما ذهب إليه الربداوي من نفي الحاجة إلى التقسيم المفصل في التمهيد.

التي بدت في تقسيم المستشرقين، ومن تابعهم من الدارسين العرب الذين انطلقوا في دراساتهم من خلال تقسيم تاريخ الأدب العربي بحسب التاريخ السياسي. والمنظور السياسي هو ما حاول بعض الدارسين المحدثين التقليل من أهمية أخذ القدامى به، وذلك تحاشياً لالتقاء منظورهم مع المنظور الغربي للتاريخ الأدبي المعتمد على التقسيم السياسي⁽¹⁾، مع أنه قد تبين الفرق في ذلك.

ب - العناية بالتلقي:

تنبع أهمية هذا الجزء من مجهود المرزباني في أنه من أكثر الجهود التي بذلت في التراث الأدبي عناية برصد مظاهر التنامي والتطور التي حدثت إبان تفاعل القراء وتلقيهم للشعر في مختلف العصور الزمنية.

ويدل كتاب الموشح الذي تجسدت فيه تلك العناية على مبلغ ما وصلت إليه عناية مؤرخ الشعر القديم في تنويع اهتماماته ومداخله في التأريخ للشعر والشعراء.

وإذا كان الموشح لم يوجه عنايته إلى الجمهور بعامة؛ لأنه عني أساساً بآراء القراء المهتمين بالشعر، فإنه مع ذلك لم يخل من الالتفات إلى آراء العامة، مما نوه بأمثلة وجوده في موضع سابق من هذا البحث⁽²⁾. وبذلك يُعد كتاب الموشح سبقاً في بابه، قلَّ أن تكرر مثيل له في مقدار عنايته بآراء الجمهور حول الشعر.

وبالنظر إلى هذا الكتاب، مع كتابي: الشعر، والمقتبس نجد من السياقات ما يقدم الرد البين على منتقدي القدامى، بأنهم لم يولوا مظاهر التطور والنمو وما يقابلها من ضمور عناية خاصة تبين هذه المظاهر.

وقد تبين في الفصل الخاص بالتلقي أوجه عناية المرزباني بتأريخ تلقي الشعر، من

(1) ذهب أحمد بوحسن إلى تحاشي الإشارة إلى أخذ أبي الفرج الأصفهاني بالتحقيب السياسي، وأنه اعتمد معيارية التداول الجمالي مداخلًا بين الأزمنة والعصور، دون أن يربطها بما يشير إلى العصور السياسية. وذلك خلاف ما تبين في أكثر موضع من هذا البحث.

(2) أشير إلى دور العامة في تلقي الشعر المحدث في فصل العناية بالتلقي (السياقين الخاص والعام لتلقي الشعر المحدث). ونوه في ذلك الموضوع بورود نماذج قليلة في الموشح من آراء عامة الجمهور.

تهيئة مادة في غير سياق من الآراء المتعلقة بالشعر. فاهتم بسياقات تلقي الشعراء أفراداً، وحقّباً، إلى جانب اهتمامه بسياقات النقاد في كتاب المقتبس. وكان ثمرة ذلك الجمع المتميز للمادة، أن سهّل النظر بناء على ذلك في القيم الجمالية التي انبنت عليها ذوائق المتلقين المهتمين بالشعر قديمه ومحدثه في مختلف العصور، التي عني بها المرزباني.

وكشّف سياق تلقي الناقد عن تطور نظراته الخاصة، من تلك التي اشترك فيها مع غيره. ومن ثم تبين الدور الذي اضطلعت به كل شريحة متعاصرة من القراء المهتمين، من ابتداء قيم تلقيها الخاصة، أو تنمية قيم التلقي السابقة لها، أو توقفها عند دور محدود مكثفية بجهود سابقتها.

وتصف مقولة المنهج الحديث ونظرية التلقي بخاصة النتائج التي من الممكن أن يظفر بها الدارس في عمل المرزباني في كتاب الموشح. وهذه المقولة هي التي يرى فيها «ياوس» أن: «الأدب والفن لا يصبح لهما تاريخ له خاصية السياق، إلا عندما يتحقق تعاقب الأعمال، لا من خلال الذات المنتجة فحسب؛ بل من خلال الذات المستهلكة كذلك، أي من خلال التفاعل بين المؤلف والجمهور»⁽¹⁾.

وفي عمل المرزباني في كتاب الموشح ما يمكّن من تحقيق تلك الخاصية؛ لأنه قد كان جمعاً ورصداً للعديد من آراء العلماء حول تجارب الشعراء ممن يمثلون الذات المستهلكة لتلك التجارب في الحقب الزمنية المتتابعة، مما يشكل في مجمله سياق تفاعل تاريخي مع منتجي الشعر خلال ثلاثة قرون زمنية.

وعندما نراجع تلك الآراء نجد أن طائفة كبيرة منها تمثل الأحكام الأولى التي تمت بين العلماء وغيرهم من المتلقين المهتمين بالشعر إبان سماع شعر معاصريهم من الشعراء للوهلة الأولى، كما تبين شواهد ذلك في موضع سابق من هذا البحث⁽²⁾. ولكي نتبين أهمية رصد هذه الطائفة الأولى من الأحكام التي كان المرزباني يصدر بها غالباً سياق المآخذ على الشاعر منفرداً، ننظر إليها في ضوء تنمة مقولة النظرية

(1) نظرية التلقي، روبرت هولب، ص 152.

(2) انظر الفصل الأول من هذا البحث: (علاقات الوسط الأدبي، علاقات العلماء بالشعراء).

الحديثة السابقة. إذ يضيف «ياوس» ما يجلي القيمة التاريخية لتلك الآراء بقوله: «إن أول استقبال من القارئ لعمل ما يشتمل على اختيار لقيمتها الجمالية مقارنةً بالأعمال التي قرئت من قبل، والدلالة التاريخية الواضحة لهذا هي أن فهم القارئ الأول سيؤخذ به، وسيُتَمَّى في سلسلة من عمليات التلقي من جيل إلى جيل»⁽¹⁾.

وبالعودة إلى الفصل السابق الخاص بالتلقي نجد معنى فهم القارئ الأول واختيار قيمة العمل الجديد في ضوء المقايضة بالأعمال التي قرئت من قبل واضحاً في استمرار مقايضة المتأخر على المتقدم، ومؤاخذته - غالباً - من خلال مطالبته باقتفاء أثر سابقه المتقدم. إذ إن مجمل العيوب التي أخذت على الشاعر، إنما تكمن في مظاهر خروجه عن (الشعراء القدامى) أي (الأعمال التي قرئت من قبل) بحسب مصطلح ياوس.

أما مسألة الأخذ بالرأي الأول وتنميته في سلسلة من عمليات التلقي من جيل إلى جيل فقد بدا ذلك، على سبيل، المثال في أثر أبي عمرو بن العلاء ومعاصريه، الذي كان واضحاً على الشريحة التالية: شريحة الأصمعي ومعاصريه. وكذلك في أثر الأصمعي ومعاصريه، الذين كانوا أكثر ابتداءً لقيم التلقي، وأكثر تأثيراً على لاحقهم. ومن ثم استمرت سلاسل التأثير هذه في تناميها المتزايد، إلى الحد الذي أصبح فيه توالد القيم وكثرتها - بسبب فعالية شريحة الأصمعي ومعاصريه، وكثرة تفاعلهم مع الشعر القديم زمناً ومداخل اهتمام متنوعة بحسب تنوع اهتمامات أفراد الشريحة ذاتها لغة، ونحواً وغير ذلك - يشكل عبئاً من موروث قيم التلقي على الشريحة التالية شريحة ابن طباطبا العلوي، وقدامة بن جعفر؛ فقل مقدار ابتداعها لقيم تلقيها الخاصة، وهي الشريحة التي أتيح لها زمن أطول من التلقي، مقابل تفرغها لتقعيد القيم السابقة، وتنظيرها، والقياس عليها في مؤلفات منهجية. وإن لم يكن ذلك يعني توقفاً في تنامي سلاسل التلقي ورفده ببعض المظاهر لدى هذه الشريحة.

وإلى جانب ذلك ظهر أيضاً أن بعضاً من قيم التلقي الجمالية المستقاة من تجارب القدماء ظلت غالبية وسارية المفعول إلى زمن متأخر، حتى عقب ظهور الشعر المحدث بقرن من الزمان.

(1) نظرية التلقي، روبرت هولب، ص 152.

وإذا كان ثمة تقدير أو بيان لقيمة ما يجليه هذا الجانب من جهد المرزباني في التاريخ للشعر، تختتم به هذه الجزئية، فهو أهمية التنبه لمسألة الجمهور، بحسب ما تلمسه حسين الواد من خلو العربية من الآثار التي اتجه فيها أصحابها إلى العناية بمسألة الجمهور في قوله: «يبدو الجمهور من أشد المواضع افتقاراً إلى البحث في درس الأدب أو تاريخه على حد السواء. ذلك أنه ليس لنا في العربية، على ما نعلم، من أثر واحد اتجه فيه صاحبه إلى العناية بهذا الموضوع. رغم أن الجمهور يبدو حاضراً في الأدب حضوراً متعدد الوجوه»⁽¹⁾.

ومع أن المهام التي على الدارس القيام بها شائكة لرصد تعداد القراء، وإحصائهم في كل عصر، من أجل الوقوف على كثرة القراء وقلتهم بالنسبة للجمهور من الناس كلهم، وغير ذلك من المهام التي ذكرها «الواد» مما تذكر صعوبة الوفاء به، بما ذكره لانسون في تتبع التأثير الاجتماعي للأثر الأدبي الواحد⁽²⁾. مع ذلك فإن التنبه في حد ذاته لأهمية تلقي الشعر وتأريخه من هذا المنظور يُعد من أهم ما يمكن إضافته لتصحيح التصور الحديث عن مفهوم القدامى لتأريخ الشعر، في ضوء أهمية المؤشرات التي ذكرنا طرفاً منها آنفاً، وكنا قد وقفنا مفصلاً على معطيات عدد منها في الفصل الخاص بالعناية بتأريخ تلقي الشعر⁽³⁾.

(1) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، حسين الواد. ص 321.

(2) سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن المنهج التاريخي في هذا الفصل.

(3) ولا سيما في أثر قراء الشعر المهتمين وغيرهم من الأدباء والخلفاء والعامة، خصوصاً في إمكان إعادة النظر في ترتيب الشعراء بحسب تداول القراء لتجاربههم. وقد رأينا عدداً من المتغيرات في ذلك الصدد، من خلال ارتفاع شعراء أقل شهرة إلى مستوى أعلى من التداول، وانخفاض بعض المشهورين إلى مستوى أقل. وأشرنا في ختام ذلك إلى أهمية محتوى الأغاني من ردود أفعال القراء حيال تجارب الشعراء، وصعوبة استخراج هذه القيم منه، لما يحتاج إليه ذلك من جهد لا يستطيع أن ينهض به دارس وحده. وذلك لأن أبا الفرج الأصفهاني لم يجلّ سياقات التلقي بوضوح ويبرزها في إطار مستقل، كما فعل المرزباني في كتاب الموشح، مما جعل المهمة أصعب في كتاب الأغاني.

ج- الإطار المنهجي:

تجملت إفادة الأصفهاني والمرزباني من الجهود التي سبقتها في العناية بأخبار الشعر والشعراء، ودلت على ذلك الممارسات التاريخية الأربع السابقة، خصوصاً المشتركة. ويستدل على ذلك أيضاً بمقدار المادة التي جمعها كل منهما، سواء أكان ذلك في الحصيلة الإجمالية التي خرجت عليها مؤلفاتهما، أو كان ذلك في مقادير التراجم بمؤلفاتهم تلك. ولم يقف الاشتراك بين المؤرخين عند هذا الحد، فإلى جانب تأثرهما بالظروف ذاتها التي شهدها القرن الرابع، خصوصاً في النصف الأول منه، نجدهما يشتركان في أغلب المحاور التأليفية بعامة. فإذا كان الأصفهاني قد عني بأخبار الشعراء، والمغنين، والتاريخ العام، وغير ذلك في الأغاني - فإن هذه المحاور هي التي عني بها المرزباني في مؤلفاته. غير أن الذي يلفت نظر القارئ في كتابات المؤرخين المتعاصرين اختلافهما أشد الاختلاف في طريقة التأليف، أو بمعنى أدق في خطة التأليف التي ينتظم فيها عمل كل منهما. حتى إن القارئ ليكاد يجزم بأن المرزباني بذل جهده لنقض خطة الأغاني وإعادة بنائها على تصور منهجي مضاد في العناية بالشعر والشعراء⁽¹⁾.

ففي الوقت الذي جمع الأصفهاني المحاور المتباعدة موضوعاً، متعمداً السير دون شكل تأليف منتظم، وفق ما يقتضيه تناول الشعر الشعراء، أو حتى المغنين مفضلاً، باختياره عن قصد، أن يتنقل من حديث عن أخبار شاعر، إلى معركة، إلى مغن أو مغنية، إلى ملك، إلى مغن من فئة المجان، مستمراً على الوتيرة ذاتها في كتاب واحد، يجمع بين الشعراء، والمغنين وغيرهم من الفئات المتباينة⁽²⁾، مفرقاً بين المتعاصرين زمنياً

(1) ثمة احتمال ليس مؤكداً يشير إلى تزامن تأليف الأغاني ومؤلفات المرزباني في الشعر بخاصة، وهذا الاحتمال مبني على ما يوحى به تشكك ياقوت الحموي في تاريخ وفاة الأصفهاني، واحتمال تأخرها عن التاريخ المعمول به (356هـ). فقد ذكر الحموي أنه وجد من كتابته ما يفهم حياته إلى عام (362هـ). (انظر معجم الأدباء 13/ 96-97). والتاريخ الذي أشار إليه الحموي قريب من تاريخ نسخ الموشح في عام 366هـ. وإذا علمنا أن المرزباني قد ذكر في مقدمة الموشح ما يفيد فراغه من أغلب كتبه التي ألفها في الشعر والشعراء بخاصة فإن ذلك يبدي التقارب الزمني المشار إليه.

(2) انظر الترتيب المشار إليه في المجلد الرابع من الأغاني، إذ فيه ترجمة أبي العتاهية، فالمغنية فريدة، فأمية بن

- في الوقت نفسه نجد المرزباني على النهج الأبعد من ذاك. فليست كل فئة من تلك الفئات مستقلة لديه بكتاب؛ وإنما تجد ما هو أكثر تفصيلاً وتخصيصاً في التناول.

فعلى سبيل المثال تجد تناول العلماء في مؤلف المقتبس المختص بهم يكشف عن تاريخ المدارس النحوية واللغوية (مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد) فبدأ بنشأة البصرة وأول من نزلها وأول علمائها في محور، ومن بعدها الكوفة والعلماء بها في محور، فبغداد في محور ثالث، مع مقدمات تاريخية عن نشأة تلك الحواضر، وترتيب لأوائل العلوم والعلماء فيها⁽¹⁾.

وأما الشعراء فقد تبين في غير موضع من هذا البحث مبلغ عنايته بهم في محاوره التأليفية المتنوعة التي خصصها لهم.

ولعل أكثر الأمور إثارة في التقاء المؤرخين وافتراقهما في آن واحد أن تجد الأول يهتم بشعر الإمام والمماليك في كتاب مستقل عن الأغاني⁽²⁾، فيرد الثاني على هذا التناول بالتفاتة إلى أشعار النساء، من الحرائر العربيات مراتب بحسب قبائلهن، ولعل ذلك يعزز سعي المرزباني إلى التكامل الموضوعي مع الأصفهاني في العناية بالشعر والشعراء. وعندما نرجع إلى تأويل طريقة المؤلفين وما نهجه كل منهما في الكتابة عن الشعر والشعراء نجد أنهما كانا على وعي بالطريق الخاص الذي سلكاه، وأن كلاهما كان يقصد تمام القصد طريقة التأليف التي اختارها، وذلك ما توضحه الجزئية التالية.

أبي الصلت، فحسان بن ثابت، فمعركة بدر، فأحد ملوك اليمن (ذي جدن)، وصولاً إلى الدلال.
(1) يدل على ذلك تبويب وترتيب التراجم في نور القبس؛ إذ يبدأ الكتاب بالحث على تعلم العلم وتقويم اللسان وابتداء أمر النحو وأول من تكلم فيه. ثم تراجم علماء البصرة، ثم ابتداء أمر الكوفة ونزول المسلمين فيها، ثم تراجم علمائها وقراءها، ثم ابتداء أمر مدينة السلام فأخبار العلماء والنحاة من أهل بغداد. انظر فهرس محتويات نور القبس. وانظر وصف المحقق لما يبدأ به كل جزء من أجزاء مخطوط نور القبس في مقدمته.

(2) الفهرست للنديم ص 128. وذكر ياقوت الحموي أنهما كتابان: كتاب الإمام الشواعر، وكتاب المماليك الشعراء. انظر: معجم الأدباء 13/ 99.

تفسير المؤرخين لخطيهما في التأليف:

يحد القارئ في مقدمتي أبي الفرج الأصفهاني للأغاني، وأبي عبيد الله المرزباني للموشح - بيانين واضحين يشير فيهما كل مؤلف إلى اختياره المقصود، ووعيه بطريقة تأليفه، بما في ذلك طريقة الأصفهاني المتداخلة التي لا ترتب الشعراء، أو المغنين على أي من الطرق المألوفة السابقة في الكتابة عنهم. واللافت للنظر أن أبا الفرج الأصفهاني قد تلمس بنفسه ما قد يبديه القارئ من اعتراض منطقي عليه فقال: «ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء أو طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم، أو على ما عُني به من شعر الشاعر»⁽¹⁾. ثم شرع يسوغ ما منعه وبعثه على تلك الطريقة فقال: «لما جعلنا ابتداءه الثلاثة الأصوات المختارة، وكان شعراؤها من المتأخرين، وأولهم أبو قطيفة وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول، ثم عمر بن أبي ربيعة، ثم نُصِيب. فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يكن ترتيب الشعراء فيه، ألحق آخره بأوله، وجعل على ما حضر ذكره، وكذلك سائر المئة الصوت المختارة؛ فإنها على غير ترتيب الطبقات»⁽²⁾. وعقب ذلك خلص إلى تأويل طريقته تلك بالفائدة التي رأى فيها إبعاداً للملل عن القارئ، أو على حد تعبيره، «ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره، ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدثة، ومليك إلى سوقة، وجد إلى هزل. أنشط لقراءته، وأشهى لتصفح فنونه»⁽³⁾.

بينما نجد المرزباني على النقيض تماماً من هذا التوجه غير المنطقي الذي تنبني طريقة العرض فيه، بحسب وصف الأصفهاني، على ما حضر ذكره. وهي الطريقة التي تنتمي إلى طرق السابقين، أكثر من انتمائها إلى نهج التأليف ذي النزعة المختصة التي كانت سائدة في قرنهما الرابع.

ولئن قصد المرزباني بمقدمة الموشح التي وصفناها بالبيان شرحاً مخصوصاً بغرض

(1) الأغاني 1/ 14.

(2) الأغاني 1/ 14.

(3) الأغاني 1/ 15.

كتاب واحد بين يديه، إلا أن محترزاته التي أتى عليها جعلت من تلك المقدمة بياناً غير مباشر، وإلحاحاً إلى نهج تأليفه بعامة عن الشعر والشعراء.

ويبدو خطاب المرزباني في مقدمة الموشح إلى قارئه مغايراً لخطاب سابقه. فقد أظهر له الحرص على أن لا يفهم من تكرار الموضوعات لديه أن ذلك من قبيل التداخل العفوي - مهما بدا المسوغ الموضوعي لتكرار الموضوع منطقياً، حرصاً منه على أن لا ينصرف التداخل الموضوعي إلى ضرب من التناقض في الكتاب الواحد. فأشار إلى المانع من ذلك في قوله: «أنه لا يجوز أن نبني قولاً على شيء بعينه ثم نعقب بنقضه في تضاعيفه»⁽¹⁾. وخشية حدوث ذلك التداخل الذي يراه المرزباني تناقضاً لم يلحق بموضوع مآخذ العلماء على الشعراء، وهو غرض تأليف كتابه الموشح موضوع احتجاجات العلماء للشعراء، الذي نعهده رديفاً ولصيقاتاً به، مفضلاً تناوله في رسالة مستقلة به، وقد تبين في فصل العناية بتاريخ تلقي الشعر مقدار الأهمية التي كانت عليه تلك الرسالة التي لم تصل إلينا.

وهذا الحرص من المرزباني يكشف أهمية المدخل النظري لديه عند شرحه لخطة الكتاب الذي يكون بصده؛ إذ بدا وعيه بمفاهيمه الموضوعية واضحاً ومتماسكاً في مقدمة الموشح.

وبما أن هذه المقدمة هي المدخل النظري الوحيد إلى بيان رؤيته لموضوعات كتبه وأغراضه منها؛ إذ لا توجد معززات نظرية أخرى - لأن مقدمة الموشح هي التي وصلت إلينا من بين مقدمات كتبه - فإن الأهمية التي تنطوي عليها تلك المقدمة باتت مضاعفة؛ لكونها المصدر الأول الذي يكشف عن وعي المرزباني النظري بنهج تأليفه.

وسنرى نضج ذلك الوعي من خلال شرحه لواحد من المفاهيم الموضوعية لديه. إذ يقود ذلك إلى تلمس أهمية مبدأ التنظيم لديه بعامة، وأهمية هذا المركز الأساسي في منهج التأليف عنده؛ وأن خطاطته التأليفية لم تخل من وعي نظري ملمّ بأبعادها.

(1) الموشح ص 16.

والمفهوم الموضوعي المشار إليه هو: مفهوم العيوب الذي وضح تطرقه له في أكثر من أربعة مؤلفات، إلى جانب كتاب الموشح الذي كان بصدد التقديم له. فيبين ما يريد بمفهوم العيوب والغاية المختلفة من تكراره، وتناوله في غير مؤلف من مؤلفاته.

فذكر في البدء أن محور كتاب الموشح هو: «عيوب الشعراء - التي نبه عليها أهل العلم، وأوضحوا الغلط فيها: من اللحن، والسناد، والإيطاء وغير ذلك: من سائر ما عيب على الشعراء قديمهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة»⁽¹⁾.

ويبين أن العيوب في كتابه المفيد سوى العيوب التي ذكرها في الموشح، فالكتابان وإن التقيا في مسمى عيوب الشعراء، إلا أن عيوب الشعراء في المفيد هي: عيوبهم في أنفسهم، وأجسامهم، وأخلاقهم وطبائعهم، وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معانيهم»⁽²⁾.

والعيوب في كتابه الشعر غير ذلك، فهو وإن أتى فيه على العيوب أيضاً، كعيب السرقات، إلا أن شرحه وتمثيله لما يعنيه بالعيوب، من خلال ما ذكره عن (تقصير السارق عن مدى المسروق) - قد بين أن عيب السرقات، وباقي العيوب في هذا الكتاب، يأتي تناولها في كتاب الشعر، بوصفها من جملة قضايا الشعر، شأنها شأن فضائله، ونعوته وغير ذلك مما يختلف به هذا الكتاب عن سائر كتبه في الشعر والشعراء⁽³⁾.

ثم تأتي إفادته من العيوب جميعاً في تناولاتها السابقة في محاور كتبه في أخبار الشعراء التي شرح فيها أحوالهم، واستقصى أخبارهم، على اعتبار أن ورود العيوب فيها يجيء في السياق الخاص بكل شاعر منفرداً في أخباره، مع غير ذلك من المعلومات الأخرى عن الشاعر.

وإذا كان حديث المرزباني النظري عن نهج تأليفه قد بدا واضحاً من خلال ما سبق فإن النظر في أسس اختياره لموضوعات كتبه، وتوزيع أبوابها يكشف عن أهم

(1) الموشح ص 15.

(2) الموشح ص 15.

(3) الموشح ص 15.

الأسس التي أسهمت في إبقاء باعث التأريخ للشعر والشعراء ملازماً إياه ومستمرّاً إلى وفاته. ومن ثمّ تفسير أسباب كثرة وتنوع مداخله إلى العناية بالشعر والشعراء، وفق منطلق ميز نهجه عن غيره؛ مما يعزز ما سبق تلمسه في طرحه النظري عن غايات التأليف لديه في مقدمة الموشح.

ومن أظهر الأسس المشار إليها أساسان يساعد على استظهارهما النظر في كتابيه: أشعار النساء، والمفيد في الشعراء المقلين والمغمورين والمجهولين.

فكتاب أشعار النساء، اختص بجمع أشعار النساء بمن فيهن المجهولات مشتملاً على تراجم مفصلة وموسعة لأخبار المشهورات، كليلى الأخيلية. وإذا تنبهن للخاصية المعجمية التي رتب بها التراجم وخلو كتاب معجم الشعراء من تراجم النساء فإن ذلك يعني اهتمام المرزباني بالتأريخ شبه المكتمل لشعر المرأة العربية في أشعار النساء، بوصف التأريخ لها يقابل تأريخه للشعراء الرجال. والمأخذ الوحيد على هذا التوجه هو أنه أهمل جانباً من تاريخ أشعار النساء، فيما لو كان محتوى الكتاب على غرار الجزء اليسير الذي وصل منه، غير معني بشعر الإماء أو النساء ذوات الأصول غير العربية. وفي كتاب المفيد المعني أساساً بالشعراء المقلين والمغمورين ما يشير إلى العناية بهذه الفئة، على اعتبار أنها تقابل الشعراء المشهورين، إلى جانب ثراء الكتاب بمحتوياته عن الشعراء إجمالاً، مما وُصف في موضع سابق⁽¹⁾ بأنه يشكل عدداً من المسارد المتنوعة عن الشعراء.

من هنا فإن الأساس الأول من الأساسين المشار إليهما آنفاً يتمثل في مبدأ التقابل أو المقابلة بين الموضوعات. وهذا الملح مهم من جهتين: الأولى: أنه ساعد المرزباني على تنويع اهتماماته، وتوجيه نظراته إلى الجوانب المختلفة التي يمكن التأريخ لها. إذ من خلال مقابلة الموضوع بضده تستمر الموضوعات لديه بعضها يوحى بالآخر. ولذلك تناوَل الشعراء مقابل الشاعرات، والمشهورين مقابل المغمورين، والقدامى مقابل المحدثين، وصولاً إلى غاية ما أمكن أن يتناوله بهذا الأساس، عندما يجتمع كل أولئك في الناس، ومن ثم يقابلهم بأشعار تنسب إلى الجن. ثم مقابلة المحاور

(1) انظر ختام الفصل الأول.

السابقة جميعها، على اعتبار أنها المادة الأساسية في تاريخ الشعر، بالمادة المرادفة لها، من خلال ما تكون حول الشعر والشعراء على مر العصور من الجدل والقضايا، وأثر للقراء الفاعلين المهتمين بالشعر.

والجهة الثانية: أن مبدأ التقابل يعزز مفهوم التناول والتأليف وفق أسلوب الخطة التي يفرضها منطق الموضوعات تبعاً لاختلاف أهميتها ما بين الأساسي فيها والفرعي. وهو مفهوم تأليف يضيق الخناق على الاحتمالات المتروكة للعشوائية، أو الاستحضار العفوي للمحاور التأليفية. مما يظل معه وجود هذه الاحتمالات في المواطن التي لا تؤثر على المبنى الأساسي لمحاور المشروع؛ بل يقتصر وجودها على المضامين الجزئية الداخلية، كنسيان أحد الأعلام، أو نسيان جانب من أخبار العلم المترجم له، أو إغفال قضية ما، وما إلى ذلك، مما لا يؤثر على صلب عنايته بتاريخ شعر.

وإلى جانب أساس التقابل يظهر الأساس الثاني وهو الترادف الذي يفسر تطرق المرزباني لمجموعة من مؤلفاته ومحاورها الموضوعية المتفرعة فيها. فقد عني بالتأريخ لعدة فئات، كالشعراء في كتب الشعر إجمالاً، والعلماء في كتابه المقتبس، والمتكلمين في المرشد، والمغنين والمغنيات في الوائق، والمتممين والعشاق في كتاب الرياض، والحمقى والمغفلين في المستطرف.

وهذا الأساس وإن بدا في محاور تأليفية كبرى، كالمحاور السابقة إلا أنه تجسد في أبعاد أخص لدى تفسير تناول الشعراء من خلاله. فهو يأخذ بالتدرج نحو الاختصاص بدءاً بالشعراء جميعاً، إلى الشاعرات، إلى شعراء الخوارج والشيعة وغيرهم، إلى أشعار الخلفاء، وأشعار العلماء. وصولاً إلى الشعراء العميان، فالبرصان، إلى آخر ما استقصاه من أجناس الشعراء وفئاتهم.

ويتضح ما للتأريخ للشعر وفق المنحيين السابقين من مجال يمنح المؤرخ رؤية تتسم بالشمولية من جهة، وبالتناول المستقل بالموضوع من جهة أخرى، إلى جانب الغاية المهمة المتمثلة في الطريقة الاستقصائية المنهجية. لأن الموضوع وفق الأساسين يأتي بوصفه حلقة من سلسلة متلازمة، كل موضوع فيها يستحضر الآخر. مع تذكر أن نهج التأليف هذا وخطاطته المنظمة لدى المرزباني لهما روافد تغذيها من خلال

نزعة التأليف المختص في ذلك العصر، ومن خلال تراكم أعداد الشعراء والمهتمين بالشعر والحصيلة التي يتوافر عليها التاريخ الشعري، ومتغيرات العصر الباعثة التي نُوه بها في المبحث الأول من هذا الفصل.

وختاماً فإن أهم ميزة إجمالية تكمن في عناية المرزباني بالشعر والشعراء هي أن التأويل الشمولي لمؤلفاته في هذا الصدد - وإن تعددت مظاهر قراءتها، وأشكال تفسيرها: ما بين التحقيق تارة، وتنوع المسارد المعنية بالشعراء تارة أخرى، وما تخلل ذلك من عناية بالأبعاد السيرية وجوانب التلقي وغيره - فإن أوجه التفسير هذه جميعاً تفضي إلى قيمة إجمالية واحدة هي أن مقصود المرزباني في جهوده المتنوعة مما أتى عليها هذا البحث، وغيرها مما هو طي كتبه التي لم تصل إلينا، كان يهدف بها إلى التاريخ للشعر في حد ذاته، بمعنى أن غاية التأريخ للشعر لديه لم تكن مشوبة بما يذيب معالمها في مقاصد تأليفية عامة، أو أن الغاية التأريخية للشعر كانت لديه عملاً ثانوياً يحتاج إلى جهد في تبيان معالمة ومحاوره، أو في تفسير عمله ليتلاءم مع بواعث التأريخ الشعري المقصود. بل هي الغاية الواضحة التي وضعها نصب عينيه إبان شروعه في التأليف عن الشعر والشعراء.

وإذا كانت مقولة زكي مبارك التي خُتم بها المبحث السابق، قد اختصرت جهود المرزباني في التأليف بعامة وقيمتها في وصف موجز - فإن ما ذكره محمد مندور عن توقيت الحاجة إلى ظهور التاريخ الأدبي، يكتسب في ضوئه مشروع المرزباني قيمته من جهتي خصوصيتيه الزمنية والمنهجية، فالسياق الذي تحدث فيه مندور - وإن لم يكن بحسبانه قيمة مؤلفات المرزباني تحديداً كما حددها مبارك مباشرة، وإن لم يكن فيه أيضاً معنياً بإعطاء أنموذج مؤلف بعينه، أو مؤلفات محددة يتجسد فيها ما عناه بإمكان ظهور التأليف في تاريخ الأدب على نحو أفضل في منهجيته في العصور المتأخرة، كالعصر العباسي⁽¹⁾ - ذلك السياق يشير بشكل أو بآخر إلى الخصوصية الزمنية

(1) سبق أن أوردنا رأي مندور في سياق الدراسات الحديثة التي تناولت تصور مفهوم التأريخ للشعر عند القدامى في التمهيد.

لظهور تأريخ المرزباني للشعر، من موقعها الزمني المتأخر (من الثلث الأول إلى العقد التاسع من القرن الرابع الهجري) مما استوعب حدوث التراخي المشار إليه عن عصور إنتاج الشعر الأولى، وبالتالي حدوث التراكم الإنتاجي المتوقع الذي يحتاج في جمعه وتوثيقه إلى عناية تحيط بأبعاد توسعه، وتعدد متطلباته، وكل ذلك يستلزم منهجية وتصوراً يتكفل بهما المشروع المتصدي لذلك، فكان مشروع المرزباني مما توافرت فيه تلك المعطيات بمقدار كبير ليختم من موقعه الزمني المتأخر، وشرطيه التاريخي والثقافي، وبميزاته المنهجية، سلسلة من الجهود السابقة من تصور القدامى ومفهومهم لتأريخ الشعر إلى الربع الأخير من القرن الرابع الهجري.

الملاحق

الملحق الأول

ترجمة المرزباني

هو: «محمد بن عمران بن موسى بن سعيد، أبو عبيد الله الكاتب المعروف بالمرزباني. حدث عن أبي القاسم البغوي، وأبي حامد محمد بن هارون الحضرمي، وأحمد بن سليمان الطوسي، وأبي بكر بن دريد، وأبي عبد الله نفطويه، وأبي بكر بن الأنباري، ومن في طبقتهم وبعدهم. حدثنا عنه القاضي أبو عبد الله الصيمري، وأبو القاسم التنوخي، وعلي بن أيوب القمي، والحسن بن علي الجوهري، ومحمد بن المظفر الدقاق، وغيرهم. وكان صاحب أخبار ورواية للأدب، وصنف كتباً كثيرة في أخبار الشعراء المتقدمين والمحدثين على طبقاتهم، وكتب في الغزل والنوادر، وغير ذلك. وكان حسن الترتيب لما يجمعه غير أن أكثر كتبه لم تكن سماعاً له، وكان يرويها إجازة، ويقول في الإجازة: أخبرنا، ولا يبينها. قال لي علي ابن أيوب القمي: يقال: إن أبا عبيد الله أحسن تصنيفاً من الجاحظ. وحدثني ابن أيوب. قال: دخلت يوماً على أبي علي الفارسي النحوي فقال: من أين أقبلت؟ قلت من عند أبي عبيد الله المرزباني. فقال: أبو عبيد الله من محاسن الدنيا. قال لي علي بن أيوب: كان عضد الدولة يجتاز على بابه، فيقف ببابه حتى يخرج إليه أبو عبيد الله فيسلم عليه ويسأله عن حاله. قال ابن أيوب: وسمعت أبا عبيد الله يقول: سودت عشرة آلاف ورقة، فصح لي منها مبيضا ثلاثة آلاف ورقة. حدثني القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري قال: سمعت أبا عبيد الله المرزباني يقول: كان في داري خمسون، مابين لحاف ودُواج معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندي. قال الصيمري: وأكثر أهل الأدب الذين روى عنهم سمع منهم في داره. حدثني أبو القاسم الأزهري قال: كان أبو عبيد الله يضع محبرته بين يديه وقنينته فيها نبيذ، فلا يزال يكتب ويشرب، قال وسأله مرة عضد الدولة عن حاله، فقال: كيف حال من هو بين قارورتين؟ يعني المحبرة وقدح النبيذ. وقال الأزهري: كان أبو عبيد الله معتزلياً، وصنف كتاباً جمع فيه أخبار المعتزلة، ولم أسمع منه شيئاً لكن أخذت لي إجازته بجميع حديثه، وما كان ثقة. وحدثني الأزهري أيضاً. قال: كان أبو عبيد الله بن الكاتب يذكر

أبا عبيد الله المرزباني ذكراً قبيحاً ويقول: أشرفت منه على أمر عرفت به أنه كذاب، قلت: ليس حال أبي عبيد الله عندنا الكذب وأكثر ما عيب به المذهب، وروايته عن إجازات الشيوخ له من غير تبين الإجازة فالله أعلم. وقد ذكره محمد بن أبي الفوراس فقال: كان يقول بالإجازات، وكان فيه اعتزال وتشيع. أخبرنا أحمد بن محمد العتيقي وهلال بن المحسن، قالوا: سنة أربع وثمانين وثلاثمئة فيها توفي أبو عبيد الله المرزباني. قال هلال: ليلة الجمعة وقال العتيقي: في يوم الجمعة من شوال. قال هلال: وكان مولده سنة ست وتسعين ومائتين. وقال العتيقي: وكان مذهبه التشيع والاعتزال، وكان ثقة في الحديث. حدثني التنوخي، قال: مات المرزباني في ليلة الجمعة لليلتين خلتا من شوال سنة أربع وثمانين وثلاثمئة، وصلى عليه أبو بكر الخوارزمي الفقيه؛ وحضرت الصلاة عليه؛ ودفن في داره بشارع عمرو الرومي في الجانب الشرقي»⁽¹⁾.

(1) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي 3/ 135-136.

الملحق الثاني

ثبت مصنفات المرزباني

قال النديم في الفهرست: «له من الكتب:

1- الكتاب المونق في أخبار الشعراء المشهورين من الجاهليين وبدأ بامرئ القيس وطبقته واستقصى أخبارهم والمخضرمين ومن تبعهم من الإسلاميين على طبقاتهم؛ وجعل جريراً والفرزدق وطبقتهما في صدر الإسلاميين وأورد محاسن أخبارهم إلى أول الدولة العباسية - ثبتها الله وأيدها وأدامها ومدها - وذكر ابن هرمة والحسين بن مطير ومن يستشهد بشعره منهم. وعدد ورقه أكثر من خمسة آلاف ورقة.

2- الكتاب المستنير فيه أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من الشعراء المحدثين ومختار أشعارهم على أسنانهم وأزمانهم. أولهم بشار بن برد وآخرهم أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله رضي الله عنهما، وعدد ورقه ستة آلاف ورقة، وهو بخط المرزباني في ستين مجلداً سليماً.

3- الكتاب المفيد فيه عدة فصول: الفصل الأول منها مشتمل على أخبار الملقيين من شعراء الجاهلية والإسلام. وأخبار من غلبت عليه كنيته منهم أو شهر بكنية أبيه أو عرف بأمه أو نسب إلى جده أو عزي إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال ودخل في جملتها. والفصل الثاني يذكر فيه ما روى من نعوت الشعراء وعيوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان، والعور والعميان والعشو والبرصان وسائر ما يؤثر في الجسد، من شعر الرأس إلى القدمين عضواً عضواً. وفي الفصل الثالث مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى؛ ومن جرى مجراهم. والفصل الأخير يذكر فيه من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبراً وفي الإسلام تديناً ومن ترك المديح ترفعاً والهجاء تكبراً والغزل تعففاً. ومن أنفد شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميري والعباس بن الأحنف ومن جرى مجراهما. وهو أكثر من خمسة آلاف ورقة.

4- كتاب المعجم يذكر فيه الشعراء على حروف المعجم. وبدأ بمن أول اسمه ألف ثم بمن أول اسمه باء إلى آخر الحروف وهو يحيط بنحو من خمسة ألف اسم. وفيه من شعر كل واحد منهم أبياتاً يسيرة من مشهور شعره ويزيد على ألف ورقة.

5- كتاب الموشح وصف فيه ما أنكره العلماء على بعض الشعراء في أشعارهم من الكسر واللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإحالة والاضطرار في القول وهلهلة النسيج. وغير ذلك من عيوب الشعر. وهو أكثر من ثلاثمئة ورقة.

6- كتاب الشعر له وهو جامع لفوائده ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وأوزانه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومنشديه. والبيان عن منحوله ومسروقه؛ إلى غير ذلك من أنواعه ومعانيه وضروبه، وهو أكثر من ألفي ورقة.

7- كتاب أشعار النساء، أكثر من خمسمئة ورقة.

8- كتاب أشعار الخلفاء، أكثر من مئتي ورقة.

9- الكتاب المقتبس فيه أخبار النحويين البصريين وذكر أول من تكلم في النحو ومن ألفه وأخبار القراء والرواة من أهل البصرة والكوفة ومن نزل منهم بمدينة السلام، نحو ثلاثة آلاف ورقة.

10- الكتاب المرشد فيه أخبار المتكلمين وأهل العدل والتوحيد وشيء من مجالساتهم ونظرهم، في نحو من ألف ورقة.

11- كتاب أشعار تنسب إلى الجن، نحو مئة ورقة.

12- كتاب الرياض فيه أخبار المتيمين مصنفة أبواباً وفيه ذكر الحب وما يتشعب منه وذكر ابتدائه وانتهائه؛ وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاقات تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين، أكثر من ثلاثة آلاف ورقة.

13- كتاب الرائق وهو أخبار المغنين، أكثر من ألف وستمئة ورقة [كتاب الواثق] فيه وصف أحوال الغناء ونعوته وضروبه وطرقه وأخبار المغنين والمغنيات الأحرار والإماء والعبيد.

- 14- كتاب المغازي، نحو ثلاثمئة ورقة.
- 15- كتاب الأزمنة فيه أحوال الفصول الأربعة الصيف والشتاء والاعتدالين ووصف الحر والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواد[ء] والاستسقاء وغير ذلك؛ مما يدخل في جملتها من أوصاف الربيع والخريف. ثم يذكر طرفاً من أمر الفلك والبروج والشمس والقمر ومنازله ونعوت العرب له وأسجاعها ويذكر النجوم السيارة والثابتة وأحوال الليل والنهار وأيام العرب والعجم والشهور والسنين والأعوام والدهر وما جاء في كل باب من أبواب هذا الكتاب من اللغة والأخبار والأشعار مشروحاً، نحو ألفي ورقة.
- 16- كتاب الأنوار والثمار فيه بعض ما قيل في الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار ثم ذكر الثمار وذكر النخل وجميع الفواكه وما جاء فيها من مستحسن النظم والنثر. وهو نحو من خمسمئة ورقة.
- 17- كتاب أخبار البرامكة فيه ابتداء أمرهم مشروحاً إلى انقضاء دولتهم وانتهاء شأنهم، نحو من خمسمئة ورقة.
- 18- الكتاب المفضل [المفضل] في البيان والعربية والكتابة، نحو سبعمئة ورقة.
- 19- كتاب التهاني، نحو من خمسمئة ورقة.
- 20- كتاب التسليم والزيارة، نحو أربعمئة ورقة.
- 21- كتاب العيادة، نحو أربعمئة ورقة.
- 22- كتاب التعازي، نحو ثلاثمئة ورقة.
- 23- كتاب المراثي، نحو خمسمئة ورقة.
- 24- الكتاب المعلى في فضائل القرآن، مئتا ورقة.
- 25- كتاب تلقيح العقول أكثر من مئة باب، أولها باب في العقل و[ثم] باب الأدب و[ثم] باب العلم وما جانس ذلك وقاربه، أكثر من ثلاثة آلاف ورقة.
- 26- الكتاب المشرف في حكم النبي ﷺ وآدابه ومواعظ الصحابة رضوان الله

- عليهم وغيرهم والوصايا وحكم العرب والعجم، ألف وخمسمئة ورقة.
- 27- أخبار من تمثل بالأشعار، أكثر من مئة ورقة.
- 28- كتاب الشباب والشيب، نحو ثلاثمئة ورقة.
- 29- الكتاب المتوج في العدل وحسن السيرة، أكثر من مئة ورقة.
- 30- الكتاب المديح في الولائم والدعوات والشراب نحو، خمسمئة ورقة.
- 31- كتاب الفرج، قريب من مئة ورقة.
- 32- كتاب الهدايا، نحو من ثلاثمئة ورقة، كتاب الهدايا نسخة أخرى بخطه.
- 33- الكتاب المزخرف في الإخوان والأصحاب، أكثر من ثلاثمئة ورقة.
- 34- أخبار أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة، مئة ورقة.
- 35- كتاب الدعاء، نحو مائتي ورقة.
- 36- كتاب الأوائل فيه أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد وشيء من مجالسهم ونظرهم، نحو مئة وخمسين ورقة.
- 37- كتاب المستطرف في الحمقى والنوادر، أكثر من ثلاثمئة ورقة.
- 38- أخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، نحو مئتي ورقة.
- 39- كتاب الزهد وأخبار الزهاد، بخطه، أكثر من مئتي ورقة.
- 40- كتاب ذم الدنيا، أكثر من مئة ورقة.
- 41- الكتاب المنير في التوبة، والعمل الصالح، والتقوى والورع وما جانس ذلك، أكثر من ثلاثمئة ورقة.
- 42- كتاب الحجاب، مئة ورقة.
- 43- كتاب المواعظ وذكر الموت، أكثر من خمسمئة ورقة.
- 44- كتاب أخبار المحتضرين، نحو مئة ورقة.
- 45- كتاب شعر حاتم الطائي، نحو مئتي ورقة.

46- كتاب أبي حنيفة النعمان بن ثابت وأصحابه، نحو خمسمئة ورقة.

47- كتاب أخبار عبد الصمد بن المعذل، نحو مائتي ورقة.

48- كتاب أخبار شعبة بن الحجاج، نحو مئة ورقة.

49- أخبار أبي عبد الله محمد بن حمزة العلوي، نحو مئة ورقة.

50- كتاب نسخ العهود إلى القضاة، نحو مئتي ورقة.

51- كتاب أخبار ملوك كندة، نحو مئتي ورقة.

52- أخبار أبي تمام مفرد، نحو مئة ورقة.

وله في السواد كتب كثيرة بدأ بعملها؛ منها أعيان الشعر في المديح والهجاء والفخر، والجلود وأخبار الأجواد، والأوصاف والتشبيهات. وقد وقف من أصوله التي بخطه نيّفاً وعشرين ألف ورقة⁽¹⁾.

(1) الفهرست للنديم ص 146-149. مع ملاحظة زيادة أرقام المؤلفات على نص صاحب الفهرست.

الورقة الأخيرة (219ب)؛ وفيها: (آخر الجزء الأول من أخبار النحويين للمرزباني يتلوه في الجزء الثاني)

الورقة (94أ): وفي نهايتها يظهر واضحاً (من طبقات النحويين للزبيدي)، وهو موضع الخروج الأول:

[illegible]

٩
 كساده فاحذر من عيشه حنا والدمع فاحذر
 وايقظ من الزمعه سواد وكم الشيب على السواد
 واشتد من الدمع والدمع فاحذر من عيشه حنا والدمع فاحذر
 فالدمع الذي في فمك فاحذر من عيشه حنا والدمع فاحذر
 احذر من الاول من احب ان يحذر
 لا تزني في الخير الثاني احب ان
 اربح بالخير من عيشه حنا والدمع فاحذر
 فالدمع الذي في فمك فاحذر من عيشه حنا والدمع فاحذر
 برعيه الدمع من عيشه حنا والدمع فاحذر
 وعلى الله عايناه بالخير والدمع

وبعدها الورقة (95ب) وفي آخر سطر منها تعليق المرزباني (قال الشيخ أبو عبيد الله وروى الناشي هذا الحديث)، وهو دليل العودة إلى النقل عن المرزباني:

[illegible][illegible]

الملحق الرابع

أوصاف التحقيب والتصنيف للشعراء في كتاب معجم الشعراء للمرزباني
أولاً: التحقيب الفني والزمني:

أ - الجاهليون القدماء:

الشاعر	الوصف	الصفحة
مالك بن جناب بن هبل (الأصم الكلي)	جاهلي قديم	٢٥٨
عمرو بن حلزة اليشكري	جاهلي قديم	٨
عمرو بن عامر بن زيد مناة (ابن الإطنابة)	جاهلي قديم	٨
عمرو بن حممة بن رافع الدوسي	جاهلي قديم	١٧
عمرو بن عبد الجن التنوخي	جاهلي قديم	١٨
عمرو بن عمرو بن عدس (أبو ثرج)	جاهلي قديم	١٨
عمرو بن مالك بن ضبيعة (الأعلم)	جاهلي قديم	٢٠
عمرو بن ربيعة بن كعب (المستوغر بن ربيعة)	جاهلي قديم	٢٣
عمرو ذو الكلب الهذلي	جاهلي قديم	٢٧
عمرو بن مالك بن زيد	جاهلي قديم	٣٩

ب - الجاهليون:

الشاعر	الوصف	الصفحة
عمرو بن سعد بن مالك (المرقش الأكبر)	جاهلي	٤
عمرو بن حرملة بن سعد بن مالك (المرقش الأصغر)	جاهلي	٤
عمرو بن قطن بن المنذر (جهنم البكري)	جاهلي	٧
عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك	جاهلي	٣
عمرو بن حني التغلبي	جاهلي	١٣
سعمرو بن الحارث بن همام	جاهلي	١٥
عمرو بن قيس بن جذيمة (أربد)	جاهلي	١٨
عمرو بن حارثة الأسدي (أشعر الرقبان)	جاهلي	١٩
عمرو بن عبد بن سفيان بن سعد (طرفة بن العبد)	جاهلي	٥

الورقة (٩٥) التي تنتهي فيها ترجمة (الخليل) وتبدأ فيها ترجمة الأصمعي بإسناد أبي بكر الجرجاني

ج - المخضرمون:

الصفحة	الوصف	الشاعر
٢٢	مخضرم	عمرو بن شأس بن عبيد
٢٤	مخضرم	عمرو بن أحمر
٢١	مخضرم	عمرو بن الأهتم المنقري
١٦-١٥	مخضرم	عمرو بن معدي كرب
٦٥	مخضرم	عمرو بن أبي الجبر بن شرحبيل الكندي
٦٥	مخضرم	عمرو بن مالك الجهني
١٨٨	مخضرم	فرعان بن الأعراف (أبو المنازل السعدي)
٢٣٠	مخضرم	كعب بن زهير بن أبي سلمى
٢٣٨	مخضرم	الكميت بن معروف بن الكميت الأسدي
٢٥٣	مخضرم	ليث بن جثامة

د - الإسلاميون:

الصفحة	الوصف	الشاعر
٢١٠	إسلامي	قطن بن ربيعة اليربوعي
٢٠٩	إسلامي	الققعقاع بن توبة العقيلي
٢٣٣	إسلامي	كعب بن جعيل
٢٥١	إسلامي	الكروس بن زيد
٢٥٠	إسلامي	كرز بن الحارث الكناني
٢٧٤	إسلامي	مرداس بن حزام الأسدي
٢٨٤	إسلامي	مسعود بن سارية الحكمي
٢٨٤	إسلامي	مسعود بن المختلس الشيباني
٣٠١	إسلامي	المسيب بن حباشة بن حبيش
٣٠٤	إسلامي	المعدل البكري

هـ- المحدثون:

الصفحة	الوصف	الشاعر
٩٤	«محدث»	عثمان بن عمرو الوائلي
١٠٧	«محدث»	عتاب بن ورقاء
١١٩	«محدث رشيدي»	عاصم بن عمر اللخمي المديني
١٢٩	«محدث رشيدي»	عياش بن حنيفة الخثعمي
١٥٩	«محدث بصري فصيح»	أبو عيسى الخشبي (عطاء بن عبس)
٢٠٩	«أعرابي محدث»	الققعقاع بن غالب النمري
١٧٦	«محدث بغدادي»	فراس الشامي
١٩٣	«محدث»	فهد بن بلال بن جرير بن الخطفي
١٩٤	محدث	الفرج بن سعد الطائي
٢٩٩	محدث ... مدني	المؤمل بن طلوت (الرازي)

و- المحدثون المتأخرون

الصفحة	الوصف	الشاعر
١٢٠	محدث متأخر	عاصم بن محمد الكاتب
١٦١	محدث متأخر	عطاف بن القاسم الخياط
١٩٤	محدث متأخر	فرسان العمى
٢٩٠	محدث متأخر	موسى بن عبد الله البختكان

* احتوت الشريحة السابقة على أربعة أسماء وهو عدد قليل لأن المرباني يميل بعد وصف الشاعر بالمحدث إلى تحديد حقبة من خلال العنصر السياسي وبخاصة من خلال نسبتهم إلى أسماء الخلفاء مباشرة.

ثانياً: (التحقيب السياسي)

أ - الشعراء المحددون بالدولة العباسية

الصفحة	الوصف	الشاعر
١٣٥	كان في صدر الدولة العباسية	علي بن أديم الكوفي البزاز
٢١١	لحق الدولة العباسية	القحيف العقلي
٢٦٧	كان في أول الدولة العباسية	مالك بن أحمد بن سوار الطائي
٣٢٩	كان في صدر الدولة العباسية	منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالي
٣٤٢	أسن حتى لحق الدولة العباسية	محمد بن عبد الله بن مسلم (ابن المولى المدني)
٣٥١	أدرك الدولة العباسية	محمد بن عبد الله (ابن رهيمة)
٣٥١	أدرك أول الدولة العباسية	محمد بن عبد الله (أبو بكر العزري)
٣٥٢	أدرك الدولة العباسية	محمد بن عبيد بن عوف الأزدي

ب - الشعراء المحقوبون من خلال أسماء الخلفاء العباسيين

الصفحة	الوصف	الشاعر
٤٥٥	منصوري [١٣٦-١٥٨هـ]	مسور بن عبد الملك اليربوعي
٤٥٦	منصوري	محرر بن جعفر مولى أبي هريرة
٣٠	رشيدي [١٧٠-١٩٣هـ]	عمرو بن عبد الملك الوراق
١١٩	رشيدي	عاصم بن عمرو اللخمي المدني
١٨٠	رشيدي	الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشي
٢١٥	رشيدي	القاسم بن عبد السلام
٢٩٩	رشيدي	المؤمل بن طالوت (الرازي)
٣٣٣	رشيدي	مدرك بن واصل بن حنظلة
٤٨٩	رشيدي	يحيى بن محمد بن مروان الأنصاري
٤٨٩	رشيدي	يحيى بن الزبير بن عمرو بن الزبير بن العوام
٤٩٧	رشيدي	يعقوب بن إحسان المخزومي
٩٨	مأموني [١٩٨-٢١٨هـ]	عيسى بن زينب المراكبي
٣٥٤	مأموني	محمد بن أمية بن أبي أمية
٣٥٨	مأموني	محمد البجلي الكوفي
٣٥٩	مأموني	محمد بن الحارث التميمي
٣٦١	مأموني	محمد بن يحيى بن علي الكاتب
٣٦٧	معتصي [٢١٨-٢٢٧هـ]	محمد بن الحسن بن شعيب الكاتب
٣٦٧	معتصي	محمد بن مخلد بن قيراط الكاتب
٣٧١	معتصي	محمد بن علي بن رزين الواسطي
٣٧٣	معتصي	محمد بن إسماعيل المدني
١٨٤	متوكلي [٢٣٢-٢٣٧هـ]	الفضل بن محمد بن الفضل
٢٩٠	متوكلي	موسى بن محمد السلمي
٣٢٨	متوكلي	مصعب بن الحسن البصري الوراق
٣٧٧	متوكلي	محمد بن عبد الرحمن (أبو عبد الرحمن العطوي)
٣٨٤	متوكلي	محمد بن خالد بن يزيد الشيباني (القائد)
٣٨٦	متوكلي	محمد بن أحمد (أبو عمارة المكي شمروخ)
٣٨٧	متوكلي	محمد بن القسم (ماني الموسوس)
٣٨٧	متوكلي	محمد بن يحيى الأسدي
٣٨٨	متوكلي	محمد بن هارون بن مخلد (كبة الكاتب)
٣٩٥	متوكلي	محمد بن إسحاق الطرسوسي
١٧٣	معتمدي [٢٥٦-٢٧٩هـ]	عزیز بن الفضل (أبو الأشعث الشيباني)
٤٢٨	مقتدري [٢٩٥-٣٢٠هـ]	محمد بن وزير الغساني

يُلاحظ أن هذه الشريحة لم يُضم إليها الشعراء الذين لم ينسبوا إلى الخلفاء مباشرة ، ممن أُشير إلى

معاصرتهم للخلفاء من خلال أوصاف أخرى، كقول المرزباني عن بعضهم ورد على الرشيد، أو مدحه، وقد ذكرت أمثلة منهم في عرض البحث تمثلت في الفئة الثانية من الشعراء المتوكليين (ص71 هامش رقم 4). كما لم يضم إلى الجدول السابق الشعراء الذين كان يشير المرزباني إلى معاصرتهم غير خليفة.

ثالثاً: تصنيف الشعراء بحسب المذاهب

أ - شعراء الشيعة:

الصفحة	الوصف	الشاعر
٢٣٨	مذهبه في التشيع معروف	الكميت بن زيد
٢٣٩	«كان يتشيع»	كثير بن كثير بن المطلب
٢٤٢	«كان يتشيع ويظهر الميل لآل الرسول»	كثير بن عبد الرحمن (كثير عزة)
٣٢١	«كان شيعياً»	مروان بن محمد السروجي
٣٩٥	«كان يتشيع»	أحمد بن الدقيقي (أبو نعامه)
٤٠٣	«كان يتشيع»	أبو منصور الباخريزي
٤٠٥	«يتشيع»	محمد بن علي الجواليقي
٤٠٨	«يتشيع»	محمد بن عيس البطائن
٤١٨	كان يظهر القول بالإمامية	محمد بن حبيب الضبي
٤٢٣	كان يتشيع	محمد بن علي القنبري
٤٦٦	كان هاشمي الرأي في أيام بني أمية	همام بن غالب بن صعصعة (الفرزدق)

ب - العادلون عن آل البيت والطاعنون عليهم:

الصفحة	الوصف	الشعر
٥١	«بالغ في شتم علي»	عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق)
١٤٠	«انحرافه عن آل البيت»	علي بن الجهم
٢٣٣	«يذم أمير المؤمنين علي»	كعب بن جعيل
٣١٧	«مذهبه في العدول عن آل البيت مشهور»	مروان بن أبي حفصة
٣٢١	«طعنه على آل علي»	مروان بن أبي الجنوب
٣٢٥	كان ناصباً	معن بن أبي عاصبة
٣٧٥	يرمى بالنصب	محمد بن عمرو (الجماز)
٤٠٩	تقرّب بالنصب	محمد بن غالب الأصبهاني
٤٩٢	غمزه على الطالبين	محمود بن مروان بن أبي الجنوب

ج - شعراء الخوارج

الصفحة	الوصف	الشاعر
٤٨	أحد رؤوس الخوارج وشعرائهم وفرسانهم	عمرو القنا بن عميرة العنبري
٤٨	أحد شعراء الخوارج	عمرو بن الحسن الإباضي الكوفي
٥٤	من الشراة	عمرو بن ذكينة الربيعي الخارجي
٩٥	أحد شعراء الخوارج	عيسى بن عاتك الخطي
١٠٨	من شراة الجزيرة	عتبان بن أصيلة الشيباني
١٥٨	أحد شعراء الخوارج	عطية بن سمرة الليثي
٤٤٨	أحد الخوارج	منير بن منحر بن يعمر الراسبي
٤٤٩	أحد الخوارج	منفعة بن مالك الضبي
٢٣٤	الخارجي	كعب بن عميرة الخارجي*
٤٤٩	الخارجي	المنهال الشيباني الخارجي

*الخارجي نسبة إلى المذهب وليس إلى بني خارجة كما وضع المرزباني ذلك ص ٣٤٣.

د - المتهمون في دينهم:

الصفحة	الوصف	الشاعر
١٠٤	يتهم في دينه	العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان
٣٢٩	يتهم في دينه	منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالي
٣٤٥	يتهم في دينه	محمد بن خالد بن الوليد بن عقبة
٢٩٠	كان مذهبه مذهب الحشوية	موسى بن عبيد الله بن يحيى خاقان
٣٢٤	كان يتهم في دينه	معن بن زائدة
٤٢٤	ينتحل في الإجمار مذهب حسين التجار	محمد بن عمران الحلبي
٤٥٥	يتهم بالزندقة	مطيع بن إياس
٤٨٦	رمي بالزندقة	يحيى بن زياد بن عبد الله
١٣٦	طلبه الرشيد مع الزنادقة	علي بن الخليل الكوفي

الملحق الخامس

أيام العرب في الجاهلية

أيام ذكرها المرزباني ولم ترد لدى صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه (328هـ)، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، 1359، التاريخ من مقدمة الطبعة الأولى، ولم يُشر إليها في كتاب أيام العرب في الجاهلية (مرجع سابق):

اليوم	الأطراف المتصارعة فيه	الصفحة في المعجم
العذاب	بنو عبد مناة بن أد بن طابخة مع عجل وحنيفة	٣٧
المقاد	ذهل بن شيبان مع بني تغلب	٣٨
النشاش	بنو نمير [الطرف الآخر غير محدد]	٤١
الرشاء	بنو نمير [الطرف الآخر غير محدد]	١٧٦
العرقوب	قوم كعب بن الحارث الغطيفي مع بني عامر بن صعصعة	٢٣٢
النخيل	[التحديد غير واضح]	٣٠٦
الصياح	عامر وسلول [الطرف الآخر غير محدد]	٣٨
الصبيب	كنانة ومضر مع حمير	١٩١

أيام ذكرها المرزباني وأوردها صاحب العقد الفريد ولم يشر إليها مؤلفو كتاب «أيام العرب في الجاهلية»

قصة	لقيس بن ثعلبة	المعجم ١٢٥ وفي العقد الفريد ٦٦/٦
العضالي	بنو الحارث بن همام مع بني يربوع	المعجم ١٦٣ وفي العقد الفريد ٤٥/٦

أيام ذكرها المرزباني وردت في العقد الفريد ، وأوردها مؤلفو كتاب أيام العرب في الجاهلية:

الصفحة في أيام العرب في الجاهلية	الصفحة في كتاب العقد الفريد	الصفحة في كتاب المعجم	اليوم
٢٧٨	٢٢/٦	٣٧	يوم الرقم
١٧٠	٣٨/٦	٧١/٣٨	الوقيط
٦	٩٦/٦	٤٢	ذي قار
١٢٤	٦٧/٦	١٢٢	الكلاب
٣٤٩	٨/٦	١٢٦	شعب جبلة
١٣٢	٧٦/٦	٣٠٦	فيف الريح
٣٣٧-٣٢٢	٨٩-٨٧/٦	١٢٤	حرب الفجار
١٤٢	٥٩/٦	٤	حرب بكر وتغلب [البسوس]
٣٤٤	٦/٦	٣٩-٣٨ (كتاب أشعار النساء)	رحرحان

الملحق السادس

جداول تصنيف الشعراء إلى فئات بحسب تداولهم في مآخذ العلماء بالموثق

(أ)

فئة التداول الأدنى في الحقبة الجاهلية		فئة التداول المتوسط في الحقبة الجاهلية		فئة التداول الأعلى في الحقبة الجاهلية	
المسوغ	الشعراء	المسوغ	الشعراء	المسوغ	الشعراء
عدد المآخذ من (٢) إلى (١)	طرفة بن العبد الشماع بن ضرار أبودؤاد الإيادي أوس بن حجر المتلمس المسيب بن علس أمية بن أبي الصلت عمرو بن قميئة النمر بن تولب عمرو بن أحرر	عدد المآخذ من (٦) إلى (٣)	١- المهلهل بن ربيعة (٦) مآخذ. ٢- حسان بن ثابت (٥) مآخذ. ٣- لبيد بن ربيعة (٤) مآخذ. ٤- بشر بن أبي خازم (٣) مآخذ.	عدد المآخذ* من (٢٠) إلى (٩)	١- امرؤ القيس ٢- النابغة الذبياني ٣- الأعشى (ميمون قيس) ٤- زهير بن أبي سلمى ٥- النابغة الجعدى (يلاحظ هنا تقديم النابغة الذبياني على الأعشى وتأخر الأعشى عن امرئ القيس على الرغم من أنه يتساوى في عدد المآخذ مع امرئ القيس ويزيد على النابغة ؛ وذلك بناء على ما تقدم في البحث)
جماعة ذكروا في مآخذ مشترك	الزبرقان بن بدر عمرو بن الأهثم عبدة بن الطبيب المخبل السعدي الخنساء السليك بن السليكة شعراء آخرون ...				

* تم استبعاد المآخذ المتكررة في سياق الشاعر الواحد في فئتي التداول الأعلى والمتوسط.

(ب)

فئة التداول الأدنى في الحقبة الإسلامية		فئة التداول المتوسط في الحقبة الإسلامية		فئة التداول الأعلى في الحقبة الإسلامية	
المسوغ	الشعراء	المسوغ	الشعراء	المسوغ	الشعراء
عدد صفحات المأخذ صفحتان	الراعي النميري القطامي ابن قيس الرقيات الأحوص الطرماح بن حكيم نصيب مجنون بني عامر	عدد صفحات المأخذ من (٧) صفحات إلى (٣) صفحات ويلاحظ التلازم في تناول العجاج مع ابنه رؤية	١-عمر بن أبي ربيعة ٢-الكميت بن زيد ٣-جميل بن معمر ٤-العجاج	عدد صفحات* المأخذ من (٢٥) صفحة ، إلى (١٢) صفحة	١-الفرزدق ٢-جرير ٣-كثير ٤-ذو الرمة ٥-الأخطل
عدد صفحات المأخذ صفحة واحدة	قيس بن ذريح عدي بن الرقاع أعشى همدان أبو دهبل الجمحي عروة بن أذينة الأغلب العجلي أبو نخيلة السعدي آخرون				
ذكروا جماعة في تناول مشترك	الشعراء المتناولون جماعة هنا تكرر ذكرهم سابقا				

*ملاحظة : قدرت الصفحات التي تكررت فيها المأخذ وتم استثناءؤها من العدد في فئتي التداول الأعلى والمتوسط

ج

فئة التداول الأدنى في الحقبة المحدثه		فئة التداول المتوسط في الحقبة المحدثه		فئة التداول الأعلى في الحقبة المحدثه	
المسوغ	الشعراء	المسوغ	الشعراء	المسوغ	الشعراء
عدد صفحات الماخذ صفحتان	كلثوم العتابي إسحاق الموصلي مروان بن أبي الجنوب علي بن الجهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر محمد بن منذر أشجع السلمي المؤمل المحاربي العماني الراجز بكر النطاح الفضل الرقاشي محمد بن يسير الحميري محمد بن وهيب الحميري دعبل الخزاعي يزيد بن محمد المهلي أحمد بن المعذل عدد من الشعراء وصولا إلى: ابن الرومي	عدد صفحات الماخذ من (٨) صفحات إلى (٤) صفحات؛ ونظراً أيضاً إلى مجموع المحاور المذكورة عن تجربة الشاعر في مواطن متفرقة من كتاب الموشح	١- أبو العتاهية (ثمان صفحات) ٢- مروان بن أبي حفصة (أربع صفحات) ٣- العباس بن الأحنف (ثلاث صفحات) وله أربعة محاور أخرى ص ٢٥٩، ٣٦٠، ٣٤٧، ٣٢٨ ٤- مسلم بن الوليد (صفحة واحدة)، بها محور واحد وله أربعة محاور أخرى مفرقة ص ٣٢٥، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٢	عدد صفحات الماخذ من (٢٥) إلى (١٢) يستثنى بشار من تعداد الصفحات لما تقدم ذكره في البحث.	١- أبو تمام ٢- أبو نواس ٣- البحتري بشار بن برد* يستثنى بشار من التصنيف لما تقدم ذكره في البحث.
ذكروا جماعة في تناول مشارك	الشعراء المتناولون جماعة هنا تكرر ذكرهم سابقاً				

* ملاحظة: قدرت الصفحات التي تكررت فيها المأخذ، وتم استثناءها من العدد في فئتي التداول الأعلى والمتوسط.

المصادر والمراجع

1. مختار من كتاب النحويين للمرزباني، حسن بن علي بن معاوية، مخطوط رقم 2515 مكتبة شهيد علي باشا. مصورة ميكروفيلم من النسخة نفسها برقم (146ص)، مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، قسم المخطوطات.
2. أخبار أبي تمام، الصولي، تحقيق، محمود عساكر وآخرين، دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت).
3. أخبار شعراء الشيعة أخبار السيد الحميري، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تقديم وتلخيص وتعليق محمد هادي الأميني، ط2، شركة الكتبي، بيروت لبنان 1413هـ.
4. استقبال النص عند العرب، محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.
5. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة ودار المدني بمصر، وجدة، 1991م.
6. الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، بيروت لبنان 1992.
7. أشعار النساء، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق سامي مكي العاني، ومحمد هلال ناجي، دار الرسالة، بغداد 1396هـ.
8. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت 1398.
9. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الدار التونسية للنشر والتوزيع مصورة من ط6 دار الثقافة بيروت 1983.
10. الإكمال في رفع الارتياح عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب، لعلي بن هبة الله (ابن ماكولا) (دار المعارف العثمانية 1962-1967).
11. إنباه الرواة على أنباء النحاة، علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1374.
12. أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى، وآخرين، دار الجيل، بيروت 1408.

13. أيمن تحقيب النقد الأدبي، محمد الدغموي ص 41-53، بحث منشور ضمن: إشكالية التحقيب «مائدة مستديرة»، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بو حسن، كلية الآداب بالرباط 1996م.
14. البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الاعتصام، القاهرة بيروت 1392.
15. البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت 1966.
16. البديع لابن المعتز تحقيق اغناطيوس كراشتوفسكي، لندن 1935.
17. البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها» محمد العمري ص 55-66. بحث منشور ضمن: إشكالية التحقيب «مائدة مستديرة»، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بو حسن، كلية الآداب بالرباط 1996م.
18. البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها محمد العمري، دار إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان 1999.
19. بنية العقل العربي دراسة تحليلية لنظم المعرفة العربية. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 5، 1996.
20. تاريخ الأدب باعتباره تحدياً، هانز روبرت جاوس [ياوس]، ترجمة، محمد هناء متولي، الثقافة الأجنبية، بغداد، ع 1، شتاء 1983 ص 121-123.
21. تأريخ الأدب، تزفيتان تودوروف، ترجمة جواد الرامي، نوافذ، النادي الأدبي بمكة، جدة، شعبان، 1420 ع 10. ص 9-17.
22. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط 4، 1394.
23. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، تعريب، عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط 5، (د.ت.).
24. تاريخ الأدب العربي، للمدارس الثانوية والعليا، أحمد حسن الزيات، دار المعرفة بيروت 1413.
25. تاريخ الإسلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ط 2، بيروت 1413.

26. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.
27. تاريخ الخلفاء، السيوطي، دار التعاون (عباس أحمد الباز) مكة المكرمة (د.ت).
28. تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية بيروت 1407.
29. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد العزيز عتيق، ط 4، دار النهضة العربية، بيروت 1406.
30. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه إبراهيم، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة (د.ت).
31. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، الأردن، الإصدار الثالث، 1993.
32. تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، دار الفكر، دمشق 1402.
33. التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي، ألبن، ج، ربرجري، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972.
34. تجارب الأمم والملوك، مسكويه، مطبعة شركة التمدن الصناعية، مصر 1333،
35. تكثيف اللغة الشعرية قراءة في مبحث السرقات، سعيد مصلح السريحي، بحث منشور ضمن: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، المجلد الآخر، النادي الأدبي الثقافي بجدة، 1410 ص 749-768.
36. تكملة تاريخ الطبري، الهمداني. دار الفكر بيروت، لبنان 1407.
37. التلقي والسياقات الثقافية، بحث في تأويل الظاهرة الأدبية، عبد الله إبراهيم، كتاب الرياض، عدد [93]، مؤسسة الإمامة الصحفية، الرياض 1422.
38. الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، 2 تأصيل الأصول، أدونيس علي أحمد سعيد، ط 3، دار العودة بيروت 1982 ص 189-196.
39. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر 1384 (التاريخ من المقدمة).
40. جهود المرزباني في تكوين رؤية نقدية شاملة من خلال كتابيه معجم الشعراء والموشح، قيس كاضم الجنابي، الذخائر، بيروت، ع 1 س 1 شتاء 2000. ص 309-318.

41. الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي، رشاد عباس معتوق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1418.
42. الخصومة بين النحاة والشعراء أسبابها وصورها، محمد غالب وراق، إصدارات نادي جازان الأدبي، جازان 1419.
43. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1410.
44. ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف بمصر 1377 (التاريخ من المقدمة).
45. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط5، دار المعارف بمصر 1951 (التاريخ من المقدمة).
46. سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، محمود الحلبي، القاهرة 1969.
47. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، مكتبة القدسي 1350.
48. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيس البابي الحلبي) القاهرة 1385.
49. شعر أبي تمام، بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، سعيد مصلح السريحي، النادي الأدبي الثقافي بمكة، جدة 1404 ص86.
50. الشعر السياسي، أحمد الشايب، دار القلم، بيروت 1976 (التاريخ من المقدمة).
51. الشعر العربي القديم في ضوء نظرية التلقي والنظرية الشفوية، ذو الرمة نموذجاً، حسن البنا عز الدين، دار عين، القاهرة، 2001م.
52. الشعر والشعراء، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1958.
53. الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط2، 1401.
54. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان 1992.
55. ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج3، مكتبة النهضة المصرية ط10، 1936 (التاريخ من المقدمة).

56. طبقات الشعراء، عبد الله بن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط4، دار المعارف، القاهرة 1357 (التاريخ من المقدمة).
57. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1952.
58. طرق ونظريات كتابة تاريخ الأدب، محور (عدد من الباحثين)، الثقافة الأجنبية، بغداد، ع1، شتاء 1983، ص (123-38).
59. العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ط8، 1960 (التاريخ من المقدمة).
60. العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف مصر ط9، 1966 (التاريخ من المقدمة).
61. العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، دار المعارف مصر، ط2، 1973 (التاريخ من المقدمة).
62. العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر بيروت 359 (التاريخ من مقدمة الطبعة الأولى)
63. عقم المنهج التاريخي دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، كارل بوبر، ترجمة عبد الحميد صبرة، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1959.
64. عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، دارالعلوم، الرياض، 1405.
65. فحولة الشعراء ، أبو حاتم السجستاني، تحقيق ودراسة عبد القادر كمال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1411.
66. الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت لبنان 1397.
67. فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص، عبد الملك مرتاض، علامات، نادي جدة الأدبي، ج1، مج1، ذو القعدة 1411، ص70-91.
68. الفهرست، محمد بن اسحاق النديم، تحقيق رضا تجدد، دار المسيرة، بيروت لبنان ط3 1988.
69. في تاريخ الأدب العربي مفاهيم ومناهج، حسين الواد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1993.

70. في تحقيق تطور العلوم مراجعة لتحقيق باشلار لتطور الفكر العلمي، بناصر البعزاتي ص 11-27، بحث منشور ضمن: إشكالية التحقيق «مائدة مستديرة»، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بو حسن، كلية الآداب بالرباط 1996م.
71. في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1997.
72. قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر 1418.
73. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ط5، دار الكتاب العربي بيروت 1405.
74. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، ط3، طهران 1378.
75. كلمة أدب بمفهومها الخاص والعام، محمد سيد أحمد، الثقافة، الجزائر، ع18، س17، مارس إبريل 1987 ص 189-195.
76. اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث، عبد المجيد حنون، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996.
77. لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، تحقيق غنيم عباس غنيم، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة 1416.
78. ما اتفق لفظه واختلف معناه، أبو العميثل الأعراي، تحقيق محمود شاكر سعيد، نادي جازان الأدبي، 1412هـ.
79. ما ألف عن النساء، صلاح الدين المنجد، مكتبة المعارف، الطائف (د.ت.).
80. مبادئ النقد، محمود الربداوي، جامعة دمشق، مطبعة الإنشاء، دمشق (1401 - 1402).
81. المحبر، محمد بن حبيب، (تحقيق إيلزه شتير، دار الآفاق الجديدة بيروت).
82. المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، إدريس بللمليح، كلية الآداب بالرباط، 1995.
83. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عبد الله بن أسعد اليافعي، دار الكتاب القاهرة، ط2/1413.
84. المشكلة والاختلاف، عبد الله محمد الغدائي، بحث منشور ضمن: قراءة جديدة

- تراثنا النقدي، المجلد الآخر، النادي الأدبي بمكة، جدة 1410.
85. المرزباني والموشح، منير سلطان، الهئية المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية 1978.
86. مشكلة السرقات في النقد العربي دراسة تحليلية مقارنة، محمد مصطفى هدارة، المكتب الإسلامي بيروت، 1401.
87. المعارف، ابن قتيبة، (ط6، تحقيق ثروت عكاشة، الهئية المصرية للكتاب 1992).
88. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، مطبعة دار المأمون، مصر (د.ت).
89. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مطبعة الترقى بدمشق، دمشق 1380.
90. معجم الشعراء، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي)، القاهرة 1379هـ.
91. مفهوم تاريخ الأدب بين التصور العربي القديم والتصور الأوربي الحديث، أحمد بو حسن ص 29-43، بحث منشور ضمن: انتقال النظريات والمفاهيم، تنسيق محمد مفتاح، وأحمد بوحسن، كلية الآداب بالرباط، [سلسلة] ندوات ومناظرات: (76) (1999).
92. المقابسات، أبو حيان التوحيد، تحقيق حسن السندوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ط 1413/2.
93. مقترح تحقيب جديد للثقافة المغربية، محمد مفتاح ص 67-76. بحث منشور ضمن: إشكالية التحقيب «مائدة مستديرة»، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بو حسن، كلية الآداب بالرباط 1996م.
94. مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، دار الكتب العلمية بيروت 1398.
95. مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي عرض ونقد واقتراح، شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط 6، 1406.
96. مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، سلسلة القراءة للجميع 96، القاهرة 1996.
97. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، حيدر أباد 1358.
98. المنصف في نقد الشعر، وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، للحسن بن علي بن وكيع التنيسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، 1402.

99. من الضائع من معجم الشعراء، إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان 1404هـ
100. منهج البحث في الأدب واللغة، لانسون وماييه، مطبوع ضمن كتاب: النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور.
101. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة 1385 (التاريخ من المقدمة) طبعة مصورة من طبعة دار نهضة مصر.
102. موقف ابن المعتز من شعر أبي تمام، محمد الهدلق، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج 12، ع 1، 1985. ص 51-78.
103. النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت. (د.ت).
104. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، مصورة عن طبعة دار الكتب.
105. نحوقوانين للتطور الأدبي، ديفيد كريج، ترجمة محمد عدنان حسين، الآداب الأجنبية، دمشق، ع 3، س 5، شباط 1979. ص 5-29.
106. نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الساق، بيروت 1997.
107. نشوار المحاضرة، وأخبار المذاكرة، المحسن التنوخي، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر بيروت 1971-1973.
108. نظرية التلقي، روبرت هولب، ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي بجدة، جدة 1415.
109. نظرية التلقي، فرانك شوير فيجن، ترجمة، محمد خير البقاعي، الآداب الأجنبية، دمشق، ع 88، س 22، ص 245-272.
110. نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط 2، 1401.
111. النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت. ط 5، 1403.
112. النقد التاريخي في الأدب رؤية جديدة، حميد لحداني، المجلس الأعلى للثقافة،

1999.

113. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ط3، 1398، [التاريخ من المقدمة].

114. نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي، عبد العزيز جسوس، مراکش، المغرب 1995.

115. النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت.).

116. النقد في القرن الأول الهجري، حمود بن محمد الصميلي، إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) الرياض 1418.

117. النقد والتاريخ دراسة في نشأة تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد الرحمن المساوي، دار وليلي، مراکش 1996. ويحتوي على: ملخص مقالة رولان بارت (تاريخ أم أدب) ص (75-88). وملخص مداخلة جيرار جينيت (الشعرية والتاريخ) ص (88-104).

118. النمطية والخصوصية، في كتابة تاريخ الأدب، فاديم فاليريانوفيتش كوزينوف، الثقافة الأجنبية، بغداد، ع1، شتاء 1983. ص 62-72.

119. نور القبس المختصر من كتاب المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تأليف أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليعموري، تحقيق رودلف زلهائم، فرانس شتاينر، بفيسبادن 1384.

120. هدية العارفين، إسماعيل البغدادي، ط3، طهران 1387.

121. الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق س. ديدرينغ، دار النشر: فرانز شتاينر، بشتوتغارت ط2، 1412.

122. وقفة مع نظرية التاريخ الأدبي، مارشال براون، ترجمة رباب ناصيف، الآداب الأجنبية، دمشق، ع74، س19، ربيع 1993، ص 157-173.

123. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، (د.ت.).

124. يتيمة الدهر في أعيان أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت 1403.

فهرس الموضوعات

الإهداء	
فهرس الموضوعات	
مقدمة	
تاريخ القدامى للشعر في الدراسات الحديثة	
التأريخ للشعر في القرن الثالث	
عند ابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز	
التأريخ للشعر في كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي	
التأريخ للشعر في كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة	
التأريخ للشعر في كتاب (طبقات الشعراء) لعبد الله بن المعتز	
الفصل الأول: المرزباني ومؤلفاته في التأريخ للشعر	
المحور الأول: المرزباني وقيمة مؤلفاته في كتابات المترجمين ومؤلفاتهم	
التعريف بالمرزباني ومؤلفاته	
المحور الثاني: تحقيق فيما وصل إلينا من كتاباته عن الشعر والشعراء وتوثيق للمؤلفات التي لم	
تصل إلينا بعد	
أولاً: مقدار ما حقق من مؤلفات المرزباني المعنية بالشعر والشعراء	
ثانياً: مؤلفات المرزباني من طريقي الاختصار أو الاختيار	
أ: (المختصرات القديمة): كتاب المقتبس في أخبار	
النحاة والقراء والعلماء	
ب: المختصرات التي وصلت إلينا في العصر الحديث أخبار شعراء الشيعة. أخبار السيد الحميري	
لأبي عبيد الله المرزباني	
ثالثاً: توثيق بقية مؤلفات المرزباني المختصة بالشعر والشعراء مما لم يصل إلينا	
المحور الثالث تصور مبدئي لمؤلفات المرزباني في الشعر والشعراء بوصفها مشروع تأريخ شعري	
الفصل الثاني المعالم التاريخية في كتابات المرزباني عن الشعر والشعراء	
المبحث الأول التحقيق أشكاله وأأسسه	
التحقيق مفهومه وممارسته	
الطبقات بوصفها محاولات التحقيق الأولى لدى القدماء	
التحقيق في القرن الرابع الهجري في كتابات المرزباني	

أشكال التحقيق وأأسسه عند المرزباني	
التحقيق الزمني والفني	
التحقيق السياسي والتصنيف المذهبي	
المبحث الثاني الأبعاد السيرية	
المحور الأول العرق والبيئة والدين	
المحور الثاني الأوضاع والعلاقات الاجتماعية	
الأحوال المالية والاقتصادية	
المكانة الاجتماعية والعلمية	
علاقات الوسط الأدبي	
علاقات العلماء	
علاقات العلماء بالشعراء	
المبحث الثالث الشعر والسياق التاريخي	
توطئة	
المحور الأول العلاقة بين النماذج الشعرية والسياق التاريخي	
المحور الثاني تعريف الشعراء المشهورين الموجز، النمط التاريخي والمقاربة الفنية	
أ. النمط التاريخي	
ب. نمط المقاربة الفنية	
المحور الثالث الكتابة الإخبارية الموسعة عن الشعراء، ملامحها ونهجها التاريخي	
الفصل الثالث التأريخ لتلقي الشعر	
المبحث الأول: التلقي وجمالياته	
أولاً: نظرية التلقي، المفهوم ومجال التطبيق	
ثانياً: أوجه عناية المرزباني بتلقي الشعر	
المبحث الثاني: التأريخ للشعر في كتابات المرزباني من منظور جماليات التلقي	
المحور الأول: قيم التلقي الجمالية المستقاة من تجارب الشعراء القدامى	
المحور الثاني: مظاهر التلقي وقيمه المستقاة من الجدل حول تجارب الشعراء المحدثين	
المحور الثالث: تنامي الوعي بالقيم الجمالية لدى القراء المهتمين بالشعر	
المحور الرابع: تصنيف تجارب الشعراء بحسب تداولهم والتفاعل مع تجاربهم	
الفصل الرابع: تقويم مشروع المرزباني في التأريخ للشعر	
المبحث الأول: جهود المرزباني في التأليف في ضوء الإطارين التاريخي والثقافي في القرن الرابع	
المحور الأول: الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية في بغداد إبان حياة المرزباني	

- المحور الثاني: آثار التسلط البويهى على الحياة العامة والثقافية وانعكاساته.....
- المحور الثالث: جهود المرزباني في التأليف في ضوء المعطيات السابقة وجهود معاصريه
- المبحث الثاني: مشروع المرزباني في التأريخ للشعر في ضوء مقولات منهج تاريخ الأدب..
- المحور الأول: المنهج التاريخي وتصوره لممارسات القدامى في التأريخ للشعر.....
- المحور الثاني: قيمة ما يضيفه مشروع المرزباني إلى تصور مفهوم القدامى لتأريخ الشعر.....
- أولاً: السمات التاريخية المشتركة بين الأصفهاني والمرزباني وقيمة ما تضيفه إلى تصور تأريخ الشعر.....
- أ. التوثيق.....
- ب. النهج السيري.....
- ثانياً: السمات التي برزت لدى المرزباني بخاصة وقيمة ما تضيفه لتصور مفهوم تأريخ الشعر لدى القدامى
- أ. التحقيق
- ب. العناية بالتلقي
- ج. الإطار المنهجي.....
- الملاحق.....

